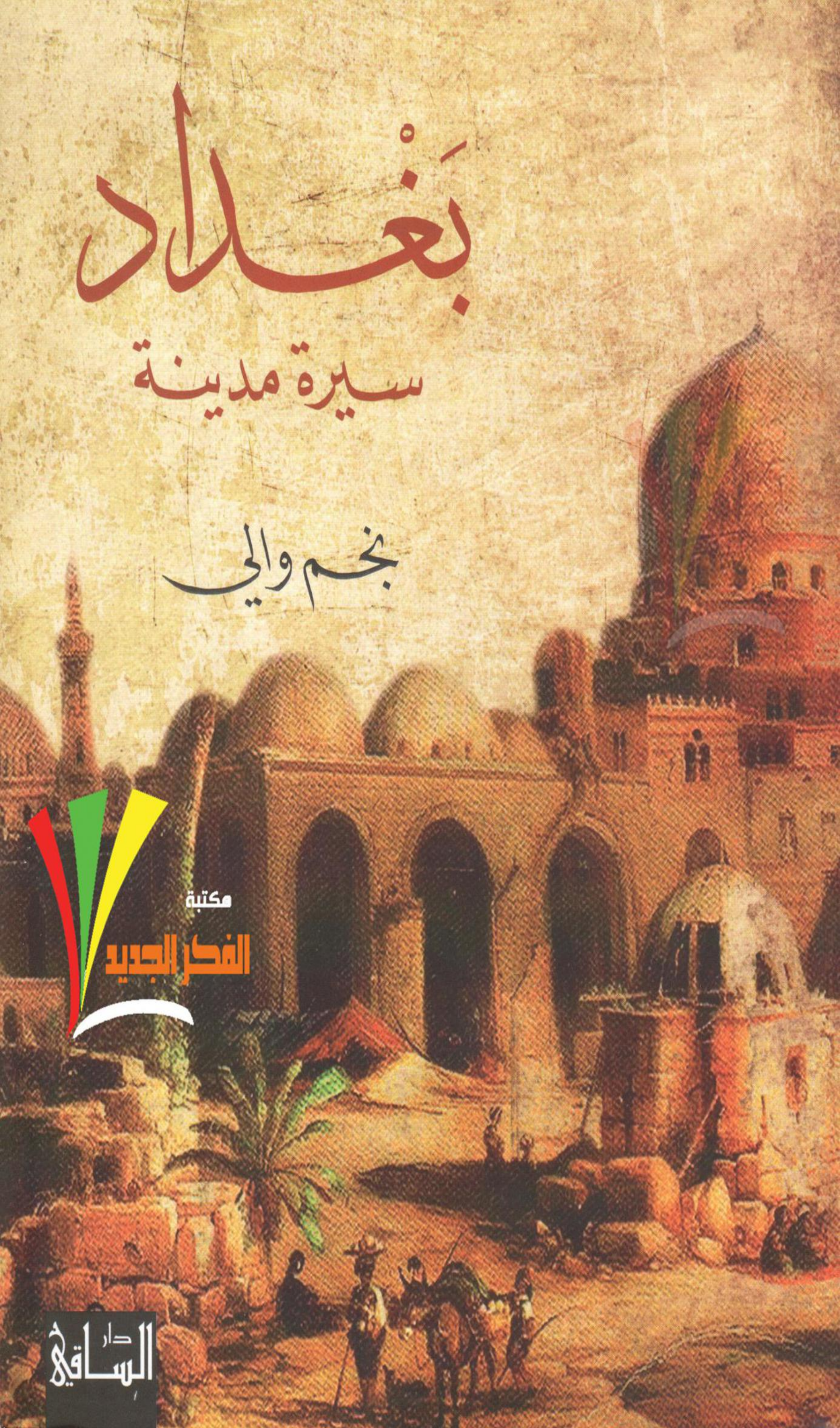
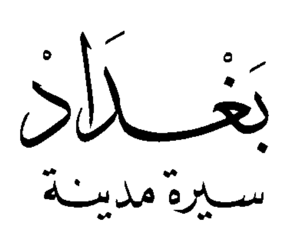

بَغْداد
سيرة مدينة
نجم والي
مكتبة
الفكر الجديد
دار
الساقي


بَغْدَادْ
سيرة مدينة

صدر للمؤلف

- **الحرب في حي الطرب** (رواية)، طبعة أولى، دار صحارى، دمشق - بودابست، ١٩٩٣؛ طبعة ثانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان - بيروت، ٢٠١٣.
- **ليلة ماري الأخيرة** (قصص)، شرقيات القاهرة، ١٩٩٥.
- **مكان اسمه كُمَيْت** (رواية)، شرقيات القاهرة، ١٩٩٧.
- **فالس مع ماتيلدا** (قصص)، دار المدى، دمشق، ١٩٩٩.
- **تل اللحم** (رواية)، دار الساقي، بيروت - لندن، ٢٠٠١.
- **صورة يوسف** (رواية)، طبعة أولى، دار المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، ٢٠٠٥؛ طبعة ثانية، ميريت، القاهرة، ٢٠٠٨.
- **ملائكة الجنوب** (رواية)، طبعة أولى، دار كليم، دبي، ٢٠٠٩؛ طبعة ثانية، دار المدى، بغداد، ٢٠١٠.
- **بغداد... مالبورو، رواية من أجل برادلي مانينغ** (رواية)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان - بيروت، ٢٠١٢.

خطوط العناوين: حمدي طبارة
تصميم الغلاف: سومر كوكبي



نجم والي

بَغْدَادْ

سيرة مدينة





المحتويات

إلى الشاعر كمال سبتي،

صديقي الذي رحل إلى عالمٍ آخر بحثاً عن مدينته المقدسة... بغداد.


مكتبة
الفكر الجديد
https://www.facebook.com/1New.Library/

"متى سألت بغداد عني وأهلها فإني عن أهل العواصم سآل"

أبو العلاء المعري في القرن الحادي عشر

"أسماء المدن التي لم أزرها كلها تطنّ حول أذني مثل البعوض، كابول، حرّات، خوروسان، أصفهان، شيراز. على عكس بغداد التي لا يمكن مساواتها بذلك أبداً. بغداد فيها نغمة ألمانية".

جون دوس باسوس في القرن العشرين


مكتبة
الفكر الجديد
https://www.facebook.com/1New.Library/

١

نجم الآخر

ها أنذا أسير إلى جانب أبي، يمسك بيدي، أو ينحني علي حين أكلمه هامساً، وبحرية من له جناحان صغيران رحت أتجول معه في شوارع بغداد وأسواقها. في تلكم الأيام بالذات، الأيام التي يودعنا فيها أبي، كنت ألحُّ على أمي، وعلى غير عادتي، أن تحملني إلى الفراش مبكراً. وفي ليالي الشتاء الطويلة أعاين سقف الغرفة ثم أبدأ الحديث مع أبي، أطلب منه أن نظلَّ ندور وندور، ساعدتني في ذلك هندسة البيت المبني على هيئة جامالون، على طريقة البناء الإنكليزي المعروف. الزوايا والتعرجات وقد اختفت في الأعمدة التي استند عليها السقف كانت تغريني على مواصلة التحديق بها، والدوران حولها بعينين صغيرتين، كنت أمشي في خرائط أتوهمها، أتفحصها، وأجبر نفسي على المضي في تضاريسها، مثل من يريد أن يكتشف سراً. أما في ليالي الصيف، ولأننا ننام في باحة البيت الواسعة، حيث تأخذ السماء مكان السقف، فكنت أطيل النظر في النجوم التي لا تحصى وهي تلمع في السماء والتي كانت مثل شاشة عرض تتلألأ بتخيلاتي. بهذا الشكل رسمت صورة خريطتي الخاصة عن بغداد: خارطة صغيرة تسع حدود قدرة صغير مثلي على التجوال. لا أتذكر كم كانت تطول رحلتي المتخيلة تلك لأنني غالباً ما كنت أستسلم سريعاً للنوم، تتعب عيناي وهي تدور شتاءً، على طول السقف وعرضه، يميناً ويساراً، أو صيفاً وهي تتنقل عالياً من نجمة إلى أخرى.

في الصباح، وقبل تقلب الشمس على الأرض، تسألني أمي، التي لم تتردد أحياناً عن

حملي على النوم، كلما رأتني أغوص في تهويماتي: "وكيف كانت رحلتك ليلة أمس؟" قبل أن تضيف بنبرة تصاحبها حسرة تخرج منها وهي تحدق في البعيد: "سيأتي اليوم الذي ترى فيه بغداد بعينيك".

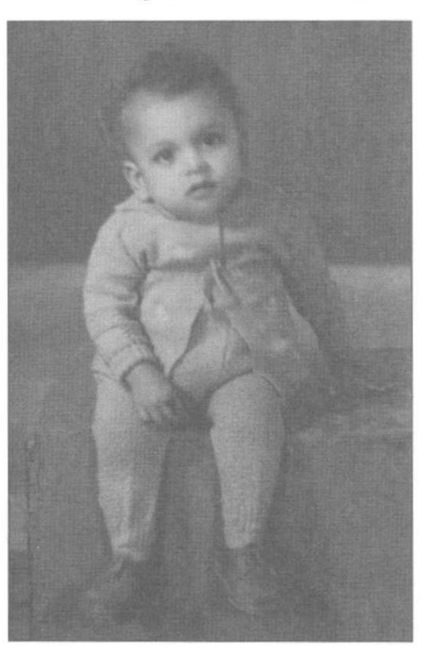
لا أعرف كم يمنح الخيال قوة لتخيل المدينة التي لم تكن قدماي قد وطأتها حتى ذلك الحين، لكي تبدو حقيقية، لأن كل ما أعرفه عن تلك الليالي، التي أصبحت بعيدة عني بعد بغداد عني وأنا في برلين الآن، هو أنني كنت ساعتئذٍ مثل مهندس معماري يبني طرقاً هوائية في الفضاء، وأن القصص التي كنت أسمعها ممن هم حولي عن بغداد لم تفعل غير تغذية رحلاتي بتخيلات جديدة. الآن أعرف، بعد أن أصبحت بغداد في العالم على كل لسان، أن كل القصص التي دارت عنها كانت خيالية لا غير، لا علاقة لها بمدينة واقعية اسمها بغداد، بل لها علاقة ببغداد التي تصبح واقعية فقط عند تخيّلي لها. ربما ظننت أن لا وجود لبغداد إلا في القصص تلك، لأن كل قصة روت جانباً من المدينة لم تعرفه القصة الأخرى. لماذا لم أفكر بذلك حين كان لي من العمر خمس أو ست سنوات؟ وطفل في مثل سني لا يعرف ماذا تعني الجغرافية، ماذا تعني المسافة أو الحدود، بل لا يعرف ماذا تعني هندسة معمار البيوت؟

لكن أليس ذلك هو ديدن البشر جميعاً، يشكّل خيالهم خرائط متخيلة، وعندما يواجههم المكان بواقعيته يقولون: ولكن مهلاً، هل هذا هو المكان الذي تخيلناه؟ بالتأكيد لم يكن هناك فارقٌ بيني وبين البالغين بالسن، الكبار، الذين شكّلوا لهم صورة بغدادهم. كيف لا ومدينة مثلها ارتبط اسمها باسم **ألف ليلة وليلة!** كل الغرباء الذين حلموا بدخولها، وليس أقلهم العسكر من ضباط وجنود، من بريطانيين وغيرهم من الذين دخلوها في بداية القرن العشرين، بالضبط في ١٧ حزيران/يونيو ١٩١٤، وأميركيين صحبة حلفاء من أمم أخرى في القرن الحادي والعشرين، القرن الذي يليه، بالضبط في ٩ نيسان/أبريل ٢٠٠٣، كل الذين دخلوها (لكي لا نتحدث عن أولئك الذين لم يحققوا حلمهم بالدخول، نابليون بونابرت مثلاً) ارتبطت صورة بغداد في أذهانهم بتلك الصور التي شكلتها حكايات شهرزاد المنسوجة في القرن الثامن للميلاد. وعندما دخلوها، مشوا في شوارعها، ظنوا أنهم يسيرون في تاريخ غابر، المدينة الواقعية حولهم، بناسها وبيوتها، بمواجهة المدينة المتخيلة التي ارتسمت صورتها على شاشات



مخيلتهم. كل الذين دخلوها ظلت بغداد غريبة عنهم، وكلما أقاموا فيها فترة طويلة كلما افترقوا عنها أكثر، كلما ناصبوها العداء.

اختلف الأمر معي طبعاً، فأنا أتحدث هنا عن طفل بين الخامسة والسادسة من عمره، وشكراً لأمه، فقد تعلّم القراءة والكتابة قبل أن يدخل المدرسة، طفل صغير عالمه مملكة من صور، ربما ظن في البداية أنه يصنع عالمه على هواه قبل أن يكبر ويكتشف العدّة التي ساعدته على صنع مملكة الصور تلك. أبي يقول لي إنني ومنذ أن كنت صغيراً أفكر بالذهاب إلى ألمانيا، إلى برلين بالذات. لا أدري صحة ما يقول، رغم أنني - شكراً له - عرفت لاحقاً عن السبب الذي دعاني أفكّر ببرلين، مفترضاً صحة ما قال. لا أدري، لكنني أتذكر بالضبط أن ألبوم الصور الذي ازدحمت صوره أمام عيني في ذلك الوقت تصدرته صورة واحدة وحسب: صورة بغداد. الصور الباقية، صورة البصرة مثلاً، مدينة أمي، أو المكان الذي قضيت أشهر طفولتي الأولى فيه، كانت تذهب وتجيء.

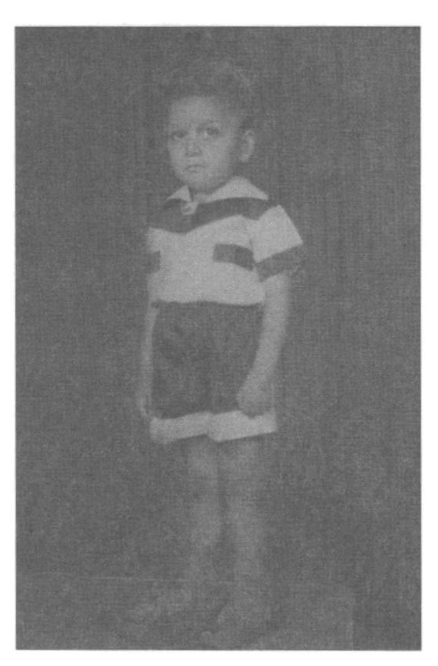


نجم والي وهو طفل، جالساً في استوديو مزعل في العمارة على صندوق شاي.
الصورة لا تزال معلقة في الاستوديو الذي تديره ابنته المصورة المشهورة سميرة مزعل.



بكلمة أخرى، الصور تلك كانت قابلة للتحقق، وبمتناول اليد، الحنين للبصرة كان يُتوّجُ بزيارة لها كل عطلة ربيعية وصيفية، رغم "إرهاب" حرّ البصرة وطعم مائها "المِج" المالح والبعيد عن كل ذوق. لكن بغداد، بغداد كانت على لسان أمي، على لسان جدتي وجدي، على لسان بيت الجيران، على لسان الأقارب والمعارف الذين لم يخلُ بيتنا من زيارة أحدهم.

ذات يوم، وبغداد هذه، أعني التي هي الأخرى لم تغب عن لسان أحد من هؤلاء جميعاً يوماً، وهم يسألون عن أبي الغائب عن البيت، بل هي على لسان أصدقاء أبي أيضاً، الذين كلما مروا أمام بيتنا ورأوني ألعب سألوني هل عاد أبي من بغداد منها أم لا؟ بغداد هذه بدت لي بعيدة المنال، ليس لي حسب إنما للجميع، كأنها كانت تقع على كوكب آخر، في بلاد أخرى، أو مثل المدن السرية في القصص التي قصّتها علينا جدتي ونحن صغار، المدن التي لا يملك مفاتيح دخولها إلا المغامرون وراكبو الأهوال، هؤلاء



نجم والي وهو طفل بملابس البحرية
يقف في استوديو مزعل في العمارة على صندوق شاي.



وحدهم يحصلون على مفاتيح الدخول للمدن هذه. كان أبي أحد هؤلاء. وحده في مدينة العمارة ملك مفتاح الدخول إلى بغداد. ووحدها الفكرة هذه جعلتني أشعر بالفخر. وعلى الرغم من اشتياقي الدائب له، ولهي وقلقي عليه، وخوفي بأن لا يأتي يوماً، بل وعلى الرغم من فرحي بقدومه وكيف أنه مع مجيئه تدخل الروح والبهجة البيت ويستحوذ الفرح والنشاط علينا جميعاً؛ طبخ الأكلات الخاصة التي يحبها، سماع الضحكات والقهقهات التي تغمرنا، خاصةً من أمي التي لم تغب الابتسامة عنها في حينه، أقول: رغم ذلك كله إلا أنني كثيراً ما تمنيت بعد يومين أو ثلاثة من عودته أن يسافر مجدداً إلى بغداد، لكي أخترع المدينة على هواي من جديد.



٢

باتجاه بغداد في سيارة شيفرولية

في بداية شبابه امتلك أبي سيارة "تورن" شيفرولية موديل ١٩٥١ بيضاء اللون على ما أتذكر، كانت الوحيدة المزودة بجهاز للتكييف، وذلك مهم في بلاد تتجاوز فيها درجات حرارة الصيف الخمسين مئوية. اشترى أبي السيارة من القنصلية الأميركية في بغداد، كان حبه لزيارة بغداد حمله على ترك عمله ميكانيكياً لتصليح السيارات. لقد سمع القصص الكثيرة عن بغداد، كان في داخله يفكر بالانتقال بنا للعيش هناك، في العاصمة بغداد. ومن لا يفكر بالعيش في العاصمة؟ كانت العمارة مدينة صغيرة، وهي بالنسبة لشاب مثله، يحب الموسيقى وشراء الأسطوانات، "مدينة خانقة، تقبض الروح" كما سمعته ذات مرة يقول لأمي، التي لم تكن أقل منه حماساً للانتقال إلى بغداد، رغم أنها في هذه الحالة ستكون بعيدة عن أهلها في البصرة، التي تبعد ١٨٢ كيلومتراً عن العمارة، على عكس بغداد التي تبعد ٣٦٥ كيلومتراً. لن يكون من السهل على أبيها، جدي فرج يوسف المفتش في شركة التمور العراقية في البصرة، زيارتها وقتما يشاء، في نهاية الأسبوع، الخميس ويوم الجمعة أو في المناسبات والأعياد. "العمارة شمرة عصا عن البصرة" سمعت جدي يقول.

لم يستسلم أبي أمام حلمه بالانتقال بنا إلى بغداد، خاصةً عندما بدأت الأخبار تزداد عن حفلات الغناء الحية التي يُقدمها مغنون ومغنيات عرب وعراقيون هناك. فكّر بأن الحلّ الأنجح هو أن يشتري سيارة ويعمل فيها لنقل الركاب المسافرين من العمارة إلى



بغداد وبالعكس. كان يقول: لا بدّ من شراء سيارة أجرة صغيرة أولاً. هل هناك أفضل من سيارة شيفرولية موديل ١٩٥١ آنذاك؟

بعد سنوات ثلاث من شراء سيارة الشيفروليه (اشتراها أبي في ربيع ١٩٥٨، قبل انقلاب العسكر على العائلة الملكية بثلاثة شهور) اكتشف أبي عبث ما يفعله؛ فما تجلبه له السيارة من دخل كان يصرفه مباشرةً، إما لشراء البنزين لها أو لدفع أجور الفندق والأكل عندما يضطر في بعض الأحيان للبقاء في بغداد على الأقل يومين، أحياناً بسبب عدم وجود مسافرين كافين؛ خاصةً وأن عدد السيارات ازداد بعد ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨، بعد بناء مدينة الثورة التي أغلب سكانها جاؤوا من أرياف العمارة، أو لبقائه في بغداد لحضور حفلة غنائية. كان أبي، كما أخبرني بعد سنوات، يقف بسيارته عند منطقة السدة بانتظار زبائنه، كانوا جميعهم من الفلاحين في الأصل، يودّون زيارة أقاربهم الذين تركوهم في قرى مدينة العمارة، يُجلس خمسة في حوض السيارة الخلفي وثلاثة في المقدمة، يأخذ عن كل نفر جلس في المقعد الخلفي ديناراً واحداً فيما يدفع له الذي جلس في الأمام أجرة دينار وربع، كان يحشر زبائنه حشراً، ولا يعترض أحد، ولكي يتجنب سيطرات شرطة المرور على الطريق السريع، والتي تمركزت في منطقتين، عند ناحية العزيزية وعند مدخل مدينة الكوت، ينحرف بسيارته قبل الوصول إلى العزيزية ويغامر بقيادة السيارة عبر طريق يقع شرق العزيزية يمر عبر "الجزيرة" (المقصود السهوب التي امتدت من هناك حتى الحدود الإيرانية، بالضبط قبل الوصول إلى ناحية بدرة وجصان الحدودية) لكي يلتف من هناك ويدخل الطريق السريع مجدداً، عند ناحية شيخ سعد باتجاه مدينة العمارة.

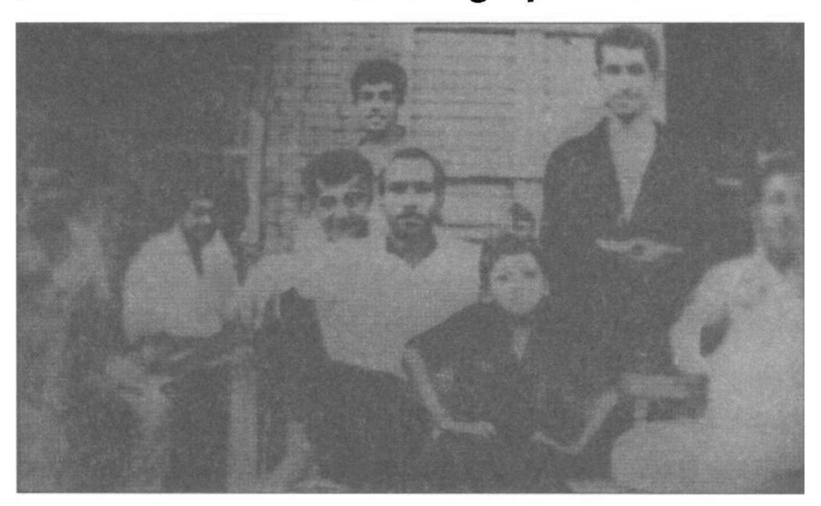
أبي يروي القصة اليوم وهو يضحك، لكنني أتخيله الآن كيف كان يجلس إلى مقود السيارة والقلق بادٍ على وجهه، وهو يقطع منطقة الجزيرة، كل تلك السهوب الجرداء التي امتدت إلى يساره حتى حدود إيران، وعليه ألاّ يخطئ الطريق ويواصل قيادة السيارة حتى الناحية الحدودية مع إيران، ناحية بدرة وجصان، عليه أن يأخذ طريقاً لا يستدل على ملامحها إلا نفر قليل مثله يتجنبون سيطرات المرور؛ لأنهم حشروا أكثر من خمسة مسافرين في سيارة الأجرة الصغيرة. أتخيل أيضاً المسافرين الثمانية – قال أبي: "سواق آخرون كانوا يأخذون معهم عشرة نفرات!" – ثم حشرهم مع بعض، يسألونه



عن مقهى أو استراحة على الطريق، فيطمئنهم قائلاً: "في منتصف الجزيرة، في منطقة 'چلات' هناك مقهى". اليوم يضحك أبي عندما يُسمّي ذلك مقهى، لأن صاحب المكان الذي يعيش في قرية قريبة بنى أمام جدول ماء صغير نمت عنده بعض الأعشاب 'قنفتين' (أريكتين) من الطين ووضع عليهما بساطاً للجلوس، أما موقد الشاي فكان على الأرض. في بعض الأحيان لم يكن الرجل هناك، فيضطرون إلى مواصلة الطريق. بعد ثلاث سنوات تقريباً اكتشف أبي أن لا جدوى من عمله، حتى إنه لم يعد يستطيع شراء الأسطوانات كما كان.

عام ١٩٦١، اشترى أبي سيارة بيك آب، أيضاً شيفروليه، موديل ١٩٦٠ خضراء اللون، شاركه فيها صديق له اسمه خليل بَسْنَة، سكنت عائلته في خرابة مجاورة لدكان صخي العطار في الزقاق المجاورة لبيتنا. هذه المرة عمل فيها لنقل المسافرين بين العمارة والبصرة، سنة واحدة، لكنه لم يتحمل فراق بغداد فباع حصته لشريكه خليل واشترى سيارة كبيرة للعمل مرة أخرى لنقل المسافرين من العمارة إلى بغداد وبالعكس. سيارة شيفرولية موديل ١٩٦٠، صفراء اللون هذه المرة.

كانت تلك الموديلات التي صُنع هيكلها من الخشب، "دگ النجف" كما أُطلق



نجم وهو صبي صغير يجلس مع أبيه في مقهى صبري عند محطة الباصات الذاهبة إلى بغداد.



عليها في حينه، أو "السيارة الستين" كما سميناها نحن في الشارع وفي البيت لاحقاً، وشكراً للسينما؛ رأيت السيارة ذاتها تنقل الركاب في بلدان أميركا اللاتينية أو في بلدان آسيا وأفريقيا. في ذلك الوقت كانت الطرق لا تزال غير معبدة بين المدن العراقية، كما هي الحال على طريق العمارة - بغداد، الذي يتحول في أيام الشتاء ومواسم هطول المطر بغزارة إلى برك مائية وأوحال. كانت قيادة سيارة كبيرة من هذا الطراز مغامرة خطرة، لا يمكن مقارنتها بقيادته لسيارة الأجرة الصغيرة. كان الطريق ترابياً، تنعدم فيه الرؤيا حين تهب الرياح الموسمية، أو "رياح السموم" كما أطلق عليها السكان، تنعدم الرؤية تماماً. أما في فصل الشتاء، فحتى تلك الأنهر المعروفة بجفافها بالصيف كانت تفيض. كانوا يسمون السيول التي تقطع الطريق بـ"المناشير"، وكانوا يطلقون على نهر "الچباب" لفظ "أبو السمچ"، لكثرة ما يلفظ على جانبي الطريق من سمك في مواسم الفيضان، النهر الذي يجفّ تماماً في الصيف.

٣٦٥ كيلومتراً هي مسافة طريق العمارة - بغداد. اليوم يُمكن أن تستغرق الرحلة بين الأربع والخمس ساعات، رغم نقاط التفتيش التي تكاثرت مثل الفطر والوضع الأمني الدائم الاضطراب في البلاد، لكن الرحلة هذه كانت تستغرق نصف يوم، وفي الأيام التي تتعطل فيها السيارة، أو في الأيام الممطرة، كان لا بدّ من المبيت في الطريق، هذا إذا نجحت السيارة بقطع الطريق الموحل، ولكي تفعل ذلك كانت تُزوّد إطاراتها في فصل الشتاء بسلاسل خاصة "زناجير" (زناجيل) . الطقس واللصوص كانا عدوَّيّ الرحلة. والنوم في العراء يعني التعرّض للخطر، لا يهم إذا كان الأمر في الصيف أو في الشتاء، السيارات التي تفاجأ بالسيول والأمطار تغطس في وحل الطريق، تظل عالقة، بانتظار قدوم سيارة أخرى تساعدها على الخروج من الوحل، أو بانتظار شروق الشمس لكي تجفّ الأوحال، وكلما تأخرت الرحلة زاد احتمال التعرض للمخاطر، خاصةً وأن لصوص القبائل التي سكنت الطريق يعرفون الساعة التي يهاجمون السيارات المتوقفة فيها.

كل ذلك عرفته قبل مصاحبتي أبي في رحلتي الأولى إلى بغداد. فبعد كل رحلة عودة يروي أبي الرحلة بشكل درامي، ليس الرحلة على الطريق السريع فقط بل وأثناء إقامته في بغداد. ولأن البشر يميلون إلى الدراما بشكل طبيعي، من الصعب عليّ اليوم



أن أقول إن القصص تلك التي رواها جرت له بالفعل أم أنها قصص متخيلة أراد عن طريق روايتها معرفة ردّ فعل أمي التي مرّ على زواجه منها عشر سنوات. أتذكّر أنه كان يروي القصص بالتقطير، على شكل دفعات، وغالباً ما تكون في فترة الفطور، عند شربه الشاي. رشفة من "إستكان" الشاي، فرصة قصيرة، ثم نتفة من القصة، وهكذا دواليك، لكنه مع كل نتفة من القصة، مع كل رشفة شاي، كنت أراه يسرق النظر لوجه أمي ليدرس ردّة الفعل التي ترتسم عليه. فعل ذلك في كل القصص التي كان يرويها بعد عودته. وإذا كانت قيادة السيارة على طريق بغداد – العمارة مغامرة بالفعل، فلم أفهم لماذا كل القصص التي دارت عن بحثه عن غرفة في فندق، أو عن مطعم، لم تخلُ أيضاً من مغامرة تصل إلى ذرى الدراما. حتى كيفية حصوله على البطاقات البريدية التي أصرّت أمي أن يرسلها إليها من بغداد لم تخلُ من دراما. أما كان عليه أن يدور ويدور من سوق إلى آخر أكثر من نصف يوم حتى يعثر على البطاقة البريدية اللائقة بأمي؟ أو أنه ما إن يصل بناية دائرة البريد حتى يجدها أغلقت بابها للتو؟ كل قصة جرت لأبي في بغداد هي مغامرة تقطع الأنفاس!

كانت أمي تصدّقه طبعاً، أو ربما لا، لكنها، على الأقل، كلما ذهب في رحلة جديدة طلبت مني أن أفكر به، أن أقوم بالدعاء له عند الله قبل النوم، بأن يعود سالماً من رحلته إلى بغداد. ثم تُذكّرني بالمعايدة التي سيرسلها، وبالهدايا التي سيجلبها لي من هناك. وبقدر ما كنت أفرح بالهدايا الموعودة لي والقادمة من بغداد وبالبطاقات البريدية "المعايدات" التي تنازلت عنها أمي لي والتي خصصت لها دفتراً خاصاً ألصقتها عليه، بقدر ما كنت أقلق عليه. لم أتصور يوماً حياتي بدونه. هو الذي كان لا يزال في حينه شاباً، في أواخر العشرينيات من عمره، وكان كلما طالت رحلته كلما شعرت بخوف شديد، ولكي أحميه، ربما، رحت أتخيلني أرافقه في رحلاته تلك، وكنت كلما وصلنا بغداد (في رحلتي المتخيلة طبعاً) أطلب منه أن نظل فيها يوماً أو إذا شاء يومين، لكي نرتاح قليلاً من عناء الطريق، ولا أتذكر أنه ردّ طلبي ذاك يوماً، إنما على العكس كان يتركني أقوده أنا وسط بغداد.

كانت تلك، في الحقيقة، أحلى لحظات التخيل بالنسبة لي. صحيح أن المدينة بدت لي في اللحظة الأولى غامضة، يتوجّب عليّ فك طلاسمها، لأنني لم أشأ التجوال كل





السفارة الأميركية في باب المعظم في الخمسينيات، وتظهر سيارة شيفروليه

مرة في المدينة ذاتها التي تجولت فيها قبل أيام، في رحلة سابقة لأبي، إلا أنها، وربما لهذا السبب بالذات، تستفزُني أكثر بالذهاب في تخيلي إلى أقصى مدّياته. التخيل سلاحي في مقاومة الغموض، بل في تغلبي حتى على الخوف. فلكي يعود أبي سالماً، لكي أكون بصحبته، كان لا بدّ لي من أن اختراع مدينة مثالية سالمة، له، مدينة لاحقاً عرفت أنْ من الممكن أن أطلق عليها اسم "المدينة الفاضلة" على خطى مدينة أفلاطون. لكنني في ذلك الوقت، وببراءة الطفل الصغير الذي كنت، أو بوقاحة الطفل الصغير الذي كنته (و لم لا؟)، كنت أسعى إلى بناء مدينة واسعة تسع للحرية التي سعى إليها أبي، لأحلامه؛ مدينة يعثر فيها على كل ما جعله يفرح، يشعر بأنه إنسان؛ مدينة تكتظ بالسينمات التي أحبها منذ طفولته؛ مدينة تكتظ بصالات الموسيقى وبمحلات بيع الأسطوانات. ألم

أونْد وأرى أبي يدوّر عتلة الغرامافون (الحاكي أو الفونغراف اليدوي) التي أمامه وهو يسمع أغاني سيد درويش وأم كلثوم وسليمة مراد وناظم الغزالي ومحمد عبد الوهاب التي انطلقت من الجهاز ذاك، "صندوق القوان" كما أطلقت عليه جدتي؟ مدينة تكتظ بالمقاهي والكازينوهات، لكي يستطيع أن يختار أحدها ويجلس فيها مع أمي؛ مدينة تكتظ بمحلات التصوير لكي يجلس هو وأمي كما جلسا في يوم زفافهما، هو ببدلة بيضاء وبشارب رفيع وتسريحة شعر على شكل تسريحة وشارب كلارك غيبيل (ريت بتلر)، وهي، أمي، تلبس بدلة كومينو مشجّرة ظهر منه كتفاها الحنطيان، ثوباً مفتوحاً عند الصدر حقيقةً، شفتاها محمرتان وعيناها مرسومتان بقلم الكحل الأسود، وتسريحة شعرها الأسود المجعد على خطى تسريحة فيفيان لي (سكارليت)، الاثنان على خطى الممثل والممثلة في فيلم "ذهب مع الريح"، كما الموضة الشائعة في تلك الأيام. مدينة تكتظ بالأطفال مثلي، يصعدون المراجيح، يدورون مع أهلهم في السوق، وعندما يكبرون يذهبون إلى المدرسة ويتعلمون دون جهد وعذاب. مدينة تكتظ بالمدارس والمكتبات، وذلك ما لم أنسه أبداً، لأنني إن لم أفعل ذلك أكون خنت أبي وسخرت من أمانيه. مدينة تكتظ بسيارات شيفرولية صغيرة، قديمة، مثل الشيفروليه البيضاء تلك، مودويل ١٩٥١، أول تلك الموديلات الملونة التي صنعتها شركة شيفروليه لتقول وداعاً لسنوات الأربعينيات المليئة بالكآبة والسيارات السوداء. وكم كان ظني خاطئاً في حينه، لأنني وأنا أفعل ذلك ظننت أنني كنت أرسم المدينة على هواي، دون أن أعرف أن العدة التي اعتمدت عليها في بنائي لمدينة بغداد، العاصمة التي أحب أبي العيش فيها، كانت: كل تلك "البطاقات البريدية" (المعايدات) بالأسود والأبيض؛ كل تلك الأفلام والمجلات التي جلبها أبي من بغداد لأصدقائه؛ كل تلك الأسطوانات التي سمعتها تنطلق من فوهة الغرامفون في باحة البيت، ورأيته يطرب معها وهو يدوّر العتلة بفرح ونشاط؛ كل تلك الحكايات التي سمعتها منه ومن الآخرين الذين حوله، من غير المهم ما حوته من دراما ومبالغات، ومن نشرات الأخبار في راديو الفيليبس الكبير الذي كان يتوسّط الغرفة، من جهاز تلفزيون غروندينغ الذي كنت شاهداً على شرائه إياه في الستينيات. وأخيراً، ولأن هناك دائماً مصدراً لا يكشف عن نفسه أمامنا بسهولة – مصدر غامض يلوح مثل مدينة تشير لنا في الأفق – من رحلتي الأولى مع أبي إلى بغداد، رحلتي التي

لم تلغِ حقيقة المدينة التي بنيتها من قبل، على العكس، حملتني على الذهاب في خيالي بعيداً ومواصلة بناء مدينتي المتخيلة، مدينتي الحلم، لكن الأكثر واقعيةً من بغداد التي رأيتها بعينَي وأنا طفل، كأنني وأنا أقول لنفسي ذلك، أو كأنني وأنا أفعل ذلك، اخترت الطريق الذي سأسعى للسير عليه، كأنني هيّأت نفسي لما سأفعل لاحقاً، عندما أصبح كاتباً، وأبني مدناً أخرى على خطى هندستي الخيالية في بناء مدينة بغداد: لكي تبني مدينة ما تحتاج إلى دعائم، بل إلى وقائع، واقعة على واقعة، بذلك يرتفع البنيان، تلك هي هندستي الخاصة بي، لا متخيل بدون واقعة يُبنى عليها، بالشكل هذا وحسب أعيد للمدينة الحياة. أي درس هذا وأي تمرين: كأن تخيل بغداد وبناءها على هواي كان البروفة الأولى، الحجر الأساس لما ستكون عليه مدني التي سأبنيها أينما حللت، وأنا أتنقّل مثل بحّار على الأرض، أقصد المدخل الأول للمعرفة: أن التخيل لا يعرف موتاً أو حدوداً، التخيل هو الوسيلة الأهم والأرقى للبقاء على قيد الحياة، إن لم يكن الأصح أن نقول: التخيل هو الحياة!

٣

المدينة الغريبة في المكان الغريب

على عكس المدن الثلاثة الأخرى، المعروفة في العراق، الموصل والبصرة وأربيل، التي لا تعادل بغداد في كبرها طبعاً، لم ترتبط مدينة بغداد، التي بناها الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور عام ٧٦٢، بتاريخ قديم له علاقة ببلاد وادي الرافدين، كما كانت التسمية القديمة لعراق اليوم، أو أرض السواد (التسمية اللاحقة) الذي نشأت عليها بغداد. كأنها أرادت أن تكون شاهدة على بزوغ حضارة خاصة بها لوحدها، لا تغرف من تاريخ قديم. كأنها بذلك أرادت تأسيس تاريخها الخاص بها، سيرتها المتميزة، الانطلاق من الصفر حقيقةً. ليس من المصادفة أن الصفر هذا بالذات، الصفر الذي يعود اختراعه إلى آلاف السنين، أصبح هو الآخر مثلها عابراً للأماكن والعصور، أولاً منذ أن جعله الخوارزمي عدداً مهماً في العمليات الحسابية، أيام كان في بغداد.

مدينة الموصل مثلاً، المدينة الثانية في العراق التي تبعد عن بغداد ٤٠٢ كم تقريباً، والتي كان اسمها التاريخي "نينوى"، هي مدينة ذات تاريخ عريق يرجع إلى الألف الخامس قبل الميلاد، ولأنها قرية زراعية سكنها إنسان وادي الرافدين القديم، قبل أن يسكن الآشوريون أجزاءً كبيرة منها ويتخذونها عاصمةً لهم للفترة من القرن الحادي عشر قبل الميلاد وحتى ٦١٢ قبل الميلاد، سنة سقوط نينوى "العظمى" على يد الكلدانيين الذين كانوا في أوج قوتهم. لا تزال الاكتشافات الأثرية ترينا حتى اليوم الحضارة التي تركها الآشوريون وراءهم، ويكفي ذكر مكتبة الملك الآشوري آشور بانيبال لمعرفة



التطور الحضاري الذي وصلت إليه نينوى آنذاك. لا ننسى أيضاً اعتناق الآشوريين، الذين كانوا وثنيين أصلاً، الديانة المسيحية عند انتشارها في تلك البقاع، حتى أن نينوى تحولت إلى بلاد الرهبان والدراسات اللاهوتية، بعد أن استقطبت الدارسين والباحثين من مناطق وادي الرافدين الأخرى ومن البلدان التي حولها. القديسان مار إسحاق النينوي ومار ميخائيل هما أشهر قديسين أنجبتهما المدينة، التي أفقرها احتلال الساسانيين لها الذي دام قروناً طويلة وجرّدها من هويتها الآشورية، والذي تسبّب أيضاً بهجرة السكان إلى الطرف الثاني من دجلة حيث وفّر لهم مكاناً أكثر تحصيناً لوقوعه على مرتفع محاط بالنهر، عُرفت أولاً بـ"عبوريا" (ربما مشتق من كلمة "عبور" أو الفعل "عبر"!) ثم بالموصل عند سيطرة العرب المسلمين الذين جاؤوها من شبه الجزيرة العربية في عهد الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب. العرب هم أول من لقّب نينوى بالموصل بصفتها محطة توصل بين الشام وخورستان (يعني "بلاد الشمس" بالكردية). الاسم الثاني الذي أطلقوه عليها أيضاً هو "الحدباء" لوجود منارة للمسجد الكبير فيها وهي منارة منحنية، لكن أيضاً لتحدّب مسار نهر دجلة فيها. كما سمّيت أيضاً بأم الربيعين لأن لا مدينة غيرها في العراق تتمتع بربيعين اثنين في السنة؛ فخريفها هو الربيع الثاني المعروف بعذوبة هوائه.

أما مدينة البصرة، التي تأتي بعد الموصل بكبرها وعدد سكانها، فقد كانت في الأصل منطقة ريفية سمّيت بالآرامية العراقية "بصرياثا" (أو "بصريافا") ومعناها "منطقة الصرايف/ با صريفي". و"الصريفة" تعني بيت الطين العراقي، وهي نموذج بنيان البيوت الذي ما زال سائداً في جنوب العراق، في مناطق الأهوار بدون استثناء، وفي الأحياء والمناطق الفقيرة من المدن. البصرة أصبحت مدينة عامرة، أولاً، بعد دخول جيوش العرب المسلمين إليها، الذين قدموا للسيطرة عليها من شبه الجزيرة العربية، في بداية توسّعهم أو في بداية ما أطلقت عليه كتب التاريخ الإسلامي "حروب الفتوحات الإسلامية". عتبة بن غزوان، أحد صحابة النبي محمد، هو الذي قاد حملة السيطرة على البصرة وهو الذي أمر بتأسيسها في عام ٦٣٥م (١٤ هجرية). البصرة بهذا الشكل هي أول مدينة تؤسَّس في عصر الحكم الإسلامي. البصرة، التي تقع على بعد ٥٤٩ كم من العاصمة بغداد، هي مدينة عالم اللغة والفقه المسلم والمتصوف الحسن البصري الذي

أسّس مدرسة خاصة بالنحو، المدرسة البصرية "الليبرالية" بمواجهة المدرسة الكوفية "المتزمتة" في النحو. البصرة التي فيها أكبر مقبرة للسنّة في العراق، فيها مرقد الحسن البصري ومفسّر الأحلام ابن سيرين، نمت في ذلك الوقت بسرعة، وكانت حتى بزوغ نجم بغداد مركزاً للعلم والاقتصاد، فيها مربد البصرة وهو السوق الذي تعرض فيه القصائد على فحول الشعراء واللغويين والعارفين بعروض وفنون الشعر حتى قيل: العراق عين الدنيا والبصرة عين العراق والمربد عين البصرة. لكنها، مثل كل الحواضر العالمية في الأزمنة تلك، تعرضت إلى هجمات عديدة على مرّ تاريخها، مثلما شهدت العديد من الثورات، بعض هذه الثورات سجّل تاريخاً استثنائياً، ليس في العراق وحسب بل وفي كل مناطق الخليج المجاورة: ثورة الزنج مثلاً، أو ثورة القرامطة، قبل أن يدخلها المغول في طريقهم إلى بغداد. ولما احتلّ السلطان التركي سليمان القانوني بغداد عام ١٨٣٤، أبقى البصرة تحت حكم العرب المسلمين الذين كانوا طردوا المغول، وكانت البصرة، حتى دخول القوات البريطانية إليها وطرد الأتراك منها عام ١٩١٤، هي إحدى الولايات الإدارية الثلاث التي يضمها العراق وهي: بغداد والموصل والبصرة. البصرة التي أُطلق عليها "ثغر العراق الباسم" فقدت الكثير من جمالها بعد كل ما عاشته في القرن العشرين من محن وحروب. ميناؤها أُهمل، ومياهها جفت. أما النخيل الذي اشتهرت به بساتينها التي لا تُحصى، بساتينها المحيطة بها على طول الحدود مع إيران، فما لم يحترق منه شاب وهدّه العطش والإهمال. ثمانية ملايين نخلة سقطت ضحية لحروب الديكتاتور صدام حسين.

أما مدينة أربيل، المدينة الرابعة في العراق في كبرها وكثافة سكانها والتي تأسست على يد السومريين الذين نزحوا إليها من جنوب العراق عام ٢٣٠٠ قبل الميلاد، فقد امتلكت هي الأخرى أهمية تاريخية على مرّ العصور. ففضلاً عن اسمها الذي يعود إلى الاسم الآشوري للمدينة (أربيلواو)، أي أربعة آلهة، وهي كناية عن المعابد الآشورية المهمة في أربيل، كانت المدينة في العهد الآشوري مركزاً رئيسيا لعبادة الإلهة عشتار، وكان الآشوريون العراقيين يقدّسون أربيل ويحجّ إليها ملوكهم قبل الأقدام على أي حملة عسكرية. في القرن الثالث بعد الميلاد أصبحت أربيل مسيحية وسمّيت "آرامي حدياب"، لتصبح من أهم مراكز المسيحية العراقية (النسطورية). ملوك وقادة



عسكريون كبار مروا بالمدينة، الإسكندر المقدوني مثلاً، أو الناصر صلاح الدين الأيوبي. كان العرب المسلمون دخلوها سنة ٦٥٣ م في خلافة عمر بن الخطاب، وأربيل التي هي اليوم العاصمة الإدارية والسياسية لإقليم كوردستان العراق لا يزال يقطن ضواحيها المسيحيون بطوائفهم المختلفة. مدينة عنكاوا الكلدانية، التي هي شاهد على الحضارة السريانية القديمة، والأديرة القديمة في المناطق المحيطة بها وقلعتها هي بقايا تُذكِّر بأربيل التاريخية.

لم تملك بغداد تاريخاً قديماً مثل المدن الثلاث هذه، التي يعود تاريخها إلى عصور غابرة. وكل ما نُسب إلي بغداد من تاريخ، قبل تأسيسها بأمر من الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور في عام ٧٦٢م، له علاقة بالخيال. قيل إنها بالأصل قرية فارسية حملت اسم "باغ داد". قيل أيضاً إنه اسم بابلي قديم قادم من الآلهة. وأظن أن التخيلات تلك لا تختلف عن تخيلات الطفل الذي كنته، فهي محاولات لا غير من قبل عشاق المدينة، غاروا عليها وأرادوا لها أن تكون أكثر أهميةً من مدن وادي الرافدين الأخرى، من الموصل والبصرة وأربيل، أو من نينوى وبصرياثا وأربليواو.

ثلاث مدن كبيرة كانت مواقعها معروفة، هي البصرة إلى الجنوب من بغداد، والاثنتان الأخريتان، الموصل وأربيل، إلى الشمال منها، لكن رغم ذلك فضّل ثاني خليفة عباسي؛ أبو جعفر المنصور، البحث عن مكان جديد، بل إنه لم يفكّر حتى بموقع آخر يبعد ستين كيلومتراً لا غير إلى الجنوب من بغداد لكنه يقع على نهر الفرات وليس على دجلة كما هو موقع بغداد، أقصد مدينة بابل التي هي بالإجماع أقدم من المدن الثلاث الأخرى، لا مدينة أقدم من بابل في وادي الرافدين باستثناء مدينتي أوروك (الوركاء) وأور السومريتين. لا أعرف الطريق الذي اتّخذته جيوش بني العباس عند زحفها على الدولة الأموية وإسقاطها، بالتأكيد لم يكن الموقع الذي قرر أبو جعفر المنصور بناء مدينته عليه، الموقع الوحيد المحتمل أن تنشأ عليه العاصمة الجديدة. أخوه الأصغر منه بست سنوات، الذي سبقه بتسلّم خلافة إمبراطورية بني العباس، والذي لم يسمَّ جزافاً بأبي العباس السفاح، لكثرة ما سفح من دماء وقتل، كما يعني لقبه في اللغة العربية، اختار مكاناً آخر ليتخذه عاصمةً له، مكاناً بعيداً عن بغداد، أطلق عليه اسم "الهاشمية"، هو الكائن عند الموقع الذي كانت عليه مدينة "فارة" سابقاً، المشتق من الاسم الروماني



القديم "فيرا" دليل على قدم البلده من الفترة الرومانية، التي يحدّها وادي نهر الأردن غرباً. أبو جعفر المنصور وبضربة واحدة قرر بناء عاصمة جديدة تبعد عن عاصمة أخيه السفاح قرابة ٨٠٠ كيلومتر. كم يبدو الأمر غريباً عند معاينته للوهلة الأولى! لكن نظرة متفحصة واحدة لما أراده وخطّط له الخليفة تبيّن أنه لم يأتِ عبثاً.

كتب التاريخ كلها تتفق على أمر واحد؛ هو أن بناء بغداد جاء من رغبة الخليفة أبي جعفر المنصور في بناء عاصمة جديدة لدولته بعيدة عن المدن التي كثر فيها الخروج على الخلافة كالكوفة والبصرة، مدينة تتمتع باعتدال المناخ وحسن الموقع، وهذا ما جعله - كما يقولون - يختار "بغداد" على شاطئ دجلة، ليضع بيده أول حجر لبنائها سنة ٧٦٢م. بعد أن جلب الخليفة عدداً من كبار المهندسين للإشراف على بنائها، ساعدتهم في ذلك أعداد كبيرة من أكثر البنّائين والصنّاع مهارةً، ليس من الغريب أن ينتهي بناء المدينة بزمن قياسي إذا عرفنا تقنيات تلك المرحلة من الزمن. فبعد أربع سنوات فقط من وضع أبي جعفر المنصور حجر الأساس لها، انتهى البناء منها لتصبح مدينةً جاهزةً لانتقال الخليفة وحاشيته ومعه دواوين الدولة إليها، ولتصبح منذ ذلك الحين عاصمةً للدولة العباسية. و لم يكتفِ المنصور بتأسيس المدينة على الضفة الغربية لدجلة (ما يُطلق عليه اليوم "الكرخ")، بل عمل على توسيعها بعد سنتين، أي عام ٧٦٨م، بإقامة مدينة أخرى على الجانب الشرقي سمّاها الرصافة، جعلها مقراً لابنه وولي عهده "المهدي" وشيّد لها سوراً وخندقاً ومسجداً وقصراً، ثم لم تلبث أن عمرت الرصافة واتّسعت وزاد إقبال الناس على سكناها، لتصبح بغداد منذ ذلك اليوم، بجزئيها، الكرخ مكان قصر الخلافة (اليوم القصر الجمهوري والمنطقة الخضراء) والرصافة مكان أغلب دوائر الدولة، ثم لتصبح في زمن حفيده هارون الرشيد، الذي عرفه العالم من قصص **ألف ليلة وليلة** ومن علاقته بالإمبراطور شارلمان (كارل الكبير) إمبراطور الإفرنجة والعالم الكاثوليكي، أكبر مدينة في العالم والعاصمة العالمية للثقافة والعلوم.

بغداد التي ارتبط تاريخها بتاريخ الخلافة العباسية إن لم يكن بتاريخ العالم العربي الإسلامي كله خلال القرون الخمسة من عام ٧٦٢ حتى ١٢٥٨م، عام سقوطها على يد المغول بقيادة هولاكو، وهو عام أفول نجمها أيضاً، بصفتها عاصمةً للعالم، كما كانت تسمّى في فترة حكم الخليفة هارون الرشيد وحكم ابنه المأمون، بغداد هذه كانت



فريدة أيضاً بطراز بنائها الذي كان على شكل دائري. كانت معظم المدن الإسلامية تبنى إما مستطيلة كالفسطاط أو مربّعة كالقاهرة أو بيضاوية كصنعاء، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن المدن هذه نشأت بجوار مرتفعات حالت دون استدارتها. بناء بغداد بهذا الشكل شكّل اتجاهاً جديداً في بناء المدن الإسلامية تسير على خطى بناء المدينة المدورة (بغداد) والذي هو ظاهرة جديدة في الفن المعماري الإسلامي، سيما في المدن الأخرى التي شيدها العباسيون مثل مدينة سامراء وما حوته من مساجد وقصور فخمة. إلى جانب هندسة العمارة وُجدت الزخرفة التي وصفت بأنها لغة الفن الإسلامي، التي تقوم على زخرفة المساجد والقصور والقباب بأشكال هندسية أو نباتية جميلة لكي يبعث منظرها في من يراها الراحة والهدوء والانشراح. وقد سُمّي هذا الفن الزخرفي الإسلامي في أوروبا باسم "أرابسك". وبحسب ما يروي المؤرخون، وحتى إذا كان في ذلك الكثير من المبالغة، لكنه أمرٌ دالٌّ أيضاً، هو أن المنصور "أنفق على مدينة السلام (بغداد) وجامعها وقصر الذهب بها والأسواق والفصلين والخنادق وقبابها وأبوابها أربعة آلاف ألف وثمانمائة وثلاثين درهماً ومبلغها من الفلوس مائة ألف ألف فلس وثلاثة وعشرون ألف فلس وذلك أن الأستاذ من البنائين كان يعمل يومه بقيراط فضة والروزكاي بحبتين إلى ثلاث حبات" **(تاريخ الطبري، ٤/ ٤٨١)**.

لكن ما يبدو صدفةً للوهلة الأولى، وما لم يتحدث عنه المؤرخون، هو أن رغبة المنصور ببناء بغداد في الموقع ذاك لم يأتِ مصادفة؛ فلا شك أن مناخها المعتدل والموقع الذي بنى المنصور عليه المدينة، وخاصةً قصره، فضلاً عن طرازها المدوّر مع دورة دجلة في ذلك المكان، شجّعه على اختيار ذلك الموقع. لكن السبب الرئيسي وراء قراره كان سبباً آخر – في رأيي – له علاقة بالعقدة التي صاحبت دولة بني العباس منذ تأسيسها؛ أعني عقدة أنهم ما كانوا قادرين لا على إسقاط الدولة الأموية والقضاء على الأمويين، ولا على بناء دولة قوية لاحقاً، خاصةً في تنظيم شؤون كل ما يتعلق بنظام الإدارة والجباية والجيش، دون مساعدة الفرس. أولاً عن طريق الجيوش التي قادها أبو مسلم الخراساني، والتي ضمّت أغلبها جنوداً من بلاد فارس، وهذه هي الجيوش التي هزمت الأمويين وجعلت أبا العباس السفاح أول خليفة عباسي يجلس على عرش الخلافة، ثم، ثانياً، عن طريق عائلة البرامكة الذين أداروا الدولة في زمن الخليفة هارون الرشيد والذين أصبح

تأثيرهم كبيراً لغاية أن ليس هناك مشروع في عهد هارون الرشيد أو تجارة أو معاملة في الدولة يتم إنجازها دون التوسط عند أحد من عائلة البرامكة.

أبو جعفر المنصور كان من الممكن أن يبقى في الهاشمية "فيرا" العاصمة التي اتّخذها أخوه أبو العباس السفاح عاصمةً، فهي تقع في منطقة مناخها معتدل تحيطها الجبال وإلى غربها وادي نهر الأردن الخصب، لكنه لم يشأ ذلك، لأنه احتاج إلى رمز جديد، رمز قوي وكبير لن يكون بعيداً عن إقليم خراسان الذي زحف العباسيون منه على الدولة الأموية، مكان يكون قريباً من أكبر صرح فارسي، صرح شاهد على حضارتهم وعلى إمبراطوريتهم القوية التي حكمت في وادي الرافدين على مدى قرون، قبل أبي مسلم الخراساني وتأثير أتباعه على العباسيين، حكم الساسانيون طويلاً وادي الرافدين، وطاق كسرى في مدينة المدائن، أو "سلمان باك" كما يطلق عليها الأهالي اليوم، عاصمة الساسانيين في زمن الإمبراطور خسرو، ما يزال طوقها الضخم (طاگ كسرى "طوق كسرى") لا يزال حتى اليوم شاخصاً. المدائن هذه، التي تقع جنوب شرق بغداد ولا تبعد عنها كثيراً (ربما ٢٠ إلى ٣٠ كم)، كانت بالتأكيد علامة تحدٍّ شاخصة أمام أبي جعفر المنصور، ربما رغب بتهديمها، لكنه لم يقدر، فلماذا لا يبني مدينة تفوقها



لوحة لبغداد في القرن التاسع عشر.



أبهةً وفخامةً ومعماراً؟ بل لماذا لا يؤسس مدينةً ستكون مركزاً حضارياً للعالم تتفوق حتى على المكانة التاريخية للمكانة التي تمتّعت بها الحضارة الساسانية؟ إنها لمفارقة أيضاً أن أقول إن وجود الرمز الفارسي هذا، المدائن، وطموح الخليفة أبي جعفر المنصور كانا وراء تأسيس مدينة بغداد، والأكثر وراء تأسيس حضارة جديدة ودولة قوية. ألم يتحقق ذلك بالفعل؟ ألم تكن بغداد رائدة في كل شيء حتى في بنائها؟ ألم يفهم الدرس ذلك أيضاً حفيد المنصور الخليفة هارون الرشيد، الذي ستبلغ بغداد في عهده قمة مجدها ومنتهى فخارها، ليس في العمارة فقط، إذ امتدت الأبنية على جانبي نهر دجلة، في الكرخ والرصافة، امتداداً عظيماً، حتى صارت المدينة كأنها مدن متلاصقة تبلغ الأربعين، بل في العلم أيضاً، فالرشيد فهم هو الآخر الدرس هذا: التنافس، وذلك ما جعله يتبادل العلوم والمعرفة مع الملك شارلمان (كارل الكبير) الذي كان ملكاً في أوروبا آنذاك مستفيداً من خبرته.

بغداد لم تولد بالصدفة إذن. ربما فكر أبو جعفر المنصور أن وجود خلافة جديدة يحتاج إلى نشوء مدينة جديدة أيضاً، دون أن يدري أنه بهذا الشكل أسّس تقليداً في العراق؛ بأن كل العائلات أو السلالات التي حكمت بغداد لاحقاً هي سلالات وعائلات غريبة عن المدينة، أقوام قادمة من ممالك وأمم أخرى وإمبراطوريات، أو قادمة من مدن أخرى على الأقل (حتى اليوم، الذين يجلسون في القصر الجمهوري والمنطقة الخضراء في بغداد لا علاقة لهم قريبة أو بعيدة بها)، الكل يريد صناعة مجده الخاص به عليها، كأن هذا هو قدر بغداد، لا خيار لها غير قبول الغرباء، والغرباء هؤلاء، وباستثناءات قليلة، كانوا سبّاقين بزرع الخراب فيها وإشاعة الدمار، عرب وأعاجم، مسلمون وبوذيون، مسيحيون وكفار، مغول وساسانيون، أتراك وسعوديون، بدو ولصوص، إنكليز وأميركان، قرويون وأصحاب عمائم. بغداد أحدث من الموصل والبصرة وأربيل، لكن حجم الخراب الذي عاشته يفوق كل ما تعرضت له ثلاث مدن وادي الرفدين على طول تاريخها الطويل. ألف وأربعمئة وخمسون سنة هو تاريخ بغداد، لكن لو وضعنا الخراب الذي تعرضت له على أيدي الغرباء في كفة ميزان، والخراب الذي تعرضت له المدن الثلاث الأخرى، لما عثرنا على كفة ميزان لإحداهن تقدر على حمل ما حملته بغداد من خراب!

لم أعرف ذلك عند جمعي للبطاقات البريدية التي واظب أبي على إرسالها لنا أنا وأمي من بغداد، لكنني الآن، وأنا أتطلع للصور المطبوعة هناك، أعرف أن كل الصور تلك هي توثيق للخراب، توثيق لمعا لم مدينة إن لم تكن مخربة في حينه، في سنوات الستينيات، فإنها ستُخرّب لاحقاً مع مرور الأيام. ليس من الغريب، إذن، ذلك الإحساس الذي استحوذ على عقل الطفل الصغير الذي كنته، والذي جعله يعتقد، وهو يجمع الصور ويتخيل بغداد ويبنيها مدينةً جديدةً يسير فيها مع أبيه، بأن الإحساس ذاك كان واقعياً لا علاقة له بتخيل أو اختراع، لأن بغداد هذه كفّت عن الوجود مع الحضارة التي بنتها. بغداد العباسية لها علاقة بزمن غابر، زمن ولّى وحسب، بغداد ماتت أصلاً في ١٠ شباط/ فبراير ١٢٥٨م، منذ دخول هولاكو إليها، أكثر من مليوني قتيل وأكثر من خراب ودمار، آلاف الكتب النفيسة في الطب والفلك والعلوم والآداب، كل ما حوته مكتبة بيت الحكمة، حرقها جيش هولاكو. قيل إن مياه دجلة تلوّنت بحبر اختلط بلون الدم. المساجد والقصور والمكتبات والمستشفيات نُهبت ودُمِّرت. الأبنية الكبيرة التي عملت لأجيال نُهبت وأُحرقت ثم سوّيت بالأرض، حتى إن هولاكو اضطر لنقل مخيّمه عكس الريح عن المدينة بسبب رائحة الموت والدمار الذي انبعث منها. تلك هي بغداد، خراب في خراب، ولكي تحيا وتعيش من جديد لا بدّ من بعث الروح فيها من جديد، ليس بالضرورة بالشكل الذي أراده لها مؤسسها أبو جعفر المنصور، بل بالشكل الذي أرادته هي لنفسها، أو بالشكل الذي ظننته أنا أنها اختارته. بغداد التي سئمت لعب الدور الذي أراده لها الكبار، هذه المرة تريد العيش فقط في عيون الأطفال. ماذا قال الشاعر السوري نزار قباني فيها: "عيناكِ يا بغداد منذ طفولتي، شمسان نائمتان في أهدابي". إنها تعيش فقط عند زيارة نجم الآخر لها، وإنني بهذا الشكل مثل المدينة ذاتها، المدينة المنقسمة إلى صوبين "شمسين" لا يمكن الفصل بينهما: الكرخ والرصافة. إنني أنا الآخر منقسم إلى شخصين: نجم الذي يعيش في بغداد، ونجم الذي يعيش بعيداً عنها. وبهذا الشكل فقط نوجد نحن الاثنان.



٤

البطاقات البريدية أو المعايدات

في كل البطاقات البريدية أو المعايدات التي احتفظت بها ورتّبتها بشكل منظّم حسب تاريخها في دفتر أنيق، اشترته لي أمي لهذا الغرض، رأيت مدينة لا علاقة لها بالمدينة التي كنت أعيش فيها: العمارة. ليس لأن بغداد عاصمة العراق وحسب، خاصةً وأن الحديث عن العاصمة هو على كل لسان، بل أكثر من ذلك لأنها ضمت إلى جانب البنايات والشوارع القديمة شوارعَ وبناياتٍ حديثةً أيضاً، أما الناس الذين رأيتهم في تلك الصور فقد بدوا لي قادمين من أزمنةٍ أخرى. لا أدري إذا جاء ذلك من القصص التي واظبت أمي على روايتها لي عن المدينة مع كل معايدة جديدة، أم له علاقة بقوة الصور التي تجعل كل من يراها، بغضّ النظر عن خلفيته الثقافية أو هويته والسنّ الذي هو فيه أو جنسه، يعرف أنها مدينة تشرّبت بالتاريخ الخاص بها، من كل السلالات التي حكمتها، من كل ما عاش عليها من حضارات، من عوائل وأمم وممالك. ففي حسّ الطفل الذي ملكته آنذاك لم أعرف أن جمال المدينة هذا الذي رأيته مطبوعاً على كل بطاقة بريدية أو معايدة، ولاحقاً على صور الأسود والأبيض وعلى تخطيطات ولوحات الرسامين، جاء في الحقيقة من غربتها عن محيطها. هي مثل كائن جميل يعشقه الجميع، يتنافس عليه عشاقه، عشاقها جاؤوها من كل مكان، بعضهم تقرّب منها بلطف، البعض الآخر بخشونة، ومن فشل في كسب حبها تلفظه، ولأنها تلفظه، يقرّر تدميرها شيئاً فشيئاً، وفي مرات استثنائية دفعةً واحدة. الطفل الذي كنته آنذاك، جامع المعايدات، لم يعرف



أن المرأة الجميلة تلك، بغداد، وُلدت غريبة هناك، أو ربما نعم، عرف تلك الحقيقة، وهذا ما جعله يتخيل المدينة، يمنحها صورة مع كل حكاية يسمعها من أمه ترويها على المدينة. صورة صورة، حكاية حكاية، بهذا التسلسل تشكّلت بغداد عندي.

٣٦٥ كيلومتراً تبعد بغداد عن العمارة، لكن مع كل قصة روتها أمي لي كانت المدينة تتقدم خطوةً لي، واليوم الذي أحصل فيه على البطاقة البريدية هو أسعد الأيام عندي، ليس لي أنا حسب، حتى أمي أراها تتغير، تضحك بأعلى صوتها، عند حديثها مع أحد من بيت الجيران، أو مع إحدى صديقاتها من النساء وهن يجلسن في ساحة البيت في الصيف أو في الصالون في الشتاء. كنت أغفر لها وهي تريهنّ المعايدة التي سلّمها لها للتوّ ساعي البريد، جارنا عطوان. انظرن، كم هي جميلة بغداد! تقول لهن أمي. لبرهة يتزاحمن عليها، يلوّحن بأيديهن، "أحلّفك بالعباس أبو فاضل، أريني الصورة"!

لا أعرف بالضبط المهن الأخرى التي مارسها أزواج صديقات أمي، ربما عرفت وظيفة زوج واحدة منهن أو اثنتين، أو ربما ثلاثة. ضاغي مثلاً، أم قاسم، زوجة الحاج مطشر، صديق أبي، المرأة قليلة الكلام، الرزينة، لكنها الأجمل بين صديقات أمي، وثانياً عذراء، جارتنا التي على عكس ضاغي، هي صاحبة لسان سليط، لم أسمعها يوماً دون أن تتحدث فيه عن زوجها أبي فلان، وعن قدراته الجنسية الخارقة، وكيف أنه وبعد أن ينتهي من شرب ربع عرقه لا يتركها تنام طوال الليل، "يغلّه غلّ" تقول، وتعني عضوه المنتصب طوال الليل كما تدّعي. وجدتي تعلّق قائلةً: "ما يعرف". الأولى، ضاغي، زوجها مثل أبي يملك سيارتي نقل على طريق بغداد العمارة. الثانية، أم فلان، زوجها ميكانيكي (فيترجي)، يملك سيارة دودج بيك آب، لا أزال أتذكّر أنها الوحيدة في الحي. باستثنائهن لم أعرف وظائف الأزواج الباقين، أو عرفت ونسيتها. لكن حتى ضاغي، التي يذهب زوجها إلى بغداد، كانت تطلب من أمي أن تريها المعايدات كلما جاءت إلى زيارتنا، وزياراتها نادرة. أمي تسلّمهن المعايدة، فخورة، رغم أن أبي لم يكتب على ظهرها غير عنوان بيتنا: "العمارة، محلة المحمودية، بيت عبد الرحيم المختار، ثم ليد بيت عبد الله والي"، وتحت العنوان جملة صغيرة: "تحياتي للعائلة فرداً فرداً"، رغم أن عطوان يقول كلّما سلم المعايدة لأمي: "لا حاجة لكتابة العنوان بالضبط، عليه أن يكتفي بكتابة العمارة فقط، وستصل البطاقة. في دائرة البريد وكلما أفرغوا أكياس

البريد، ورأيت البطاقات البريدية هذه، أقول لزملائي موزعي البريد من محلات أخرى: لا حاجة لتقليب الصفحة وقراءة العنوان، اتركوها، إنها حصتي، لا أحد يرسل صوراً حلوة مثل هذه الصور لبغداد غير عبد الله". النساء يعرفن ذلك أيضاً. كانت الصورة تبهرهن، ويبدأن بالحديث عنها، بصوتٍ عالٍ، وهن ينقلنها من يد إلى يد، أو عند بقائها في يد إحداهن، لتضعها وسط الحلقة التي جلسن عليها والأخريات يتطلعن في الصورة بفضول. هناك تعليقات. دائماً هناك حكايات. أرى أمي فرحة، فأغفر لها أنها عرضت البطاقة البريدية على صديقاتها قبل أن تعرضها عليّ، لكنني، رغم الحزن القليل، أو رغم أنانية الأطفال المعروفة التي يصرّون عليها دون أن يعرفوا عواقبها، لم أكن أركض إلى أمي وأخطف الصورة، أكتفي بمراقبة المشهد، أفرح أن الصورة هذه التي أدهشت صديقات أمي ستنتهي إلى دفتري الأنيق إلى جانب الصور الأخرى، وأن الحكايات التي تنسجها النساء لن تفقد، بجمالها وبدهشتها، القصة التي سترويها لي أمي لاحقاً، عندما نكون وحدنا مع البطاقة البريدية "المعايدة"، سواء عند جلوسنا في ساحة البيت أو في الصالون، مباشرةً بعد خروج النساء، أو لاحقاً، في الليل عندما نذهب للنوم، لأن أمي، وحتى ولادة أختي نوال، كانت تنوّمني إلى جانبها، في كل الليالي التي يكون فيها أبي في بغداد، حيث تمسك المعايدة بين يديها عالياً، ثم تبدأ برواية القصة، وهي تشير للصورة التي ارتسمت عليها. وبعد سنوات ستقول لي كيف أن الحماس كان يأخذها في رواية القصص، وهي تمسك بالمعايدة. تروي وتروي، كأنها تحاول تطبيق ما تعلمته في المدرسة في دروس الجغرافية أو التاريخ على الصور. وعندما تلتفت إليّ، لكي ترى الانطباع الذي يتركه ما تحكيه على وجهي، تكتشف أنني نمت، فتقبّلني، تضع المعايدة تحت الوسادة وتقول: إلى معايدة قادمة وقصة جديدة. ذلك كان ديدنها. قصص عديدة تلك التي روتها لي أمي، بعدد المعايدات، التي أتلف بعضها مع الزمن وضاع مع ضياع المعايدات، وبعضها بقي مع بقاء الذاكرة؛ مع بقاء بغداد، والأكثر رجحاناً مع بقاء أمي، لأنني في زياراتي الأخيرة لها جلست معها وذَكّرتها بالحكايات تلك، أو ذكّرتني هي بما نسيته منها. لولا إلحاحك، تقول لي، ربما ما تحمّست لرواية القصص تلك. أي خيال؟ تقول ضاحكةً وهي تتأفف. أية حقيقة؟ أجيبها!

أمي على حق طبعاً. ففي بعض الأحيان كان لا بدّ لها أن تروي، حتى لو كانت تشعر



بالتعب لسببٍ ما؛ عمل البيت، استقبال الصديقات، أي سبب، أو حملها اللاحق، ليس لأنها وجدت في بعض تلك البطاقات البريدية ما يلامس قلبها، كإشارة حب من طرف أبي وحسب، بل ربما وجدت فيها تعويضاً عن حلمها بالذهاب إلى بغداد. لم تتوقف أمي عن الحلم هذا يوماً أبداً. كانت تحلم دائماً بالعيش في العاصمة بغداد. لا أدري إذا كان ذلك له علاقة بأنها عاشت طفولتها في مدينة الكوت (واسط) القريبة أكثر من بغداد (١٦١ كيلومتراً). كان أبوها، في ذلك الحين، يعمل قصاباً، قبل أن ينتقل ويعمل حتى وفاته مفتشاً في شركة التمور العراقية في البصرة - المعقل. في ذلك الوقت، في الكوت التي سيصبح اسمها في زمن الديكتاتور مدينة واسط، وقد كان اسماً تاريخياً لإحدى المدن فيها، دخلت المدرسة وكانت تنجح دائماً بتفوق، وعندما أرادت أن تدخل معهد المعلمات في بغداد لكي تصبح معلمة، قرر جدي إعفاءها من الدراسة قائلاً: لا بنت عندي تذهب للدراسة وحدها في بغداد. هكذا، ولأنها لم تذهب إلى بغداد، كان عليها أن تتزوج أبي الذي كان عكسها، لم يكمل المدرسة الابتدائية لأن مدير المدرسة طرده من المدرسة بسبب صنعه فانوساً سحرياً، أطلق عليه اسم "سينما". كان يقف في تواليتات المدرسة ويدخل الطلاب لمعاينة أفلام النيجاتيف التي كان يحصل عليها من السيد تشارلز، المفتش الإنكليزي الذي كان يأتي أربع مرات في السنة، يعاين فيها العمل في مقبرة الإنكليز ويعطي "الحدقجية" مستحقاتهم، كان جدي رئيسهم. لكن ربما ليس هذا هو ما جلب نظر أمي لأبي، علاقته بالسينما والفنون عموماً، والتي لم تتوقف حتى اليوم، إذ كان أبي ابن عمتها (أخت أبيها)، وكانت وقعت في حبه كلما زارت بيت جدتي في العمارة. كان أبي من قليلين في المدينة يملكون في حينه جهاز غرامافون، فأي فتاة لا يميل قلبها إليه وتقع في حبه إذا سمعت موسيقى محمد عبد الوهاب وأغاني أم كلثوم؟ ليس ذلك وحسب، بل كلما سألت أمي أبي عن الأسطوانات التي رأتها للمرة الأولى عنده، قال لها إنه حملها من بغداد. بغداد، حلم أمي بالدراسة في مدرسة المعلمات، حلمها المؤود، جاءها هذه المرة على شكل أسطوانة، قبل أن يأتيها لاحقاً على شكل بطاقة بريدية.

كان الشاعر بدر شاكر السياب، ابن البصرة، قد جلس في مقهى في الكويت التي لا تبعد أكثر من ٣٠ كيلومتراً عن البصرة، وسمع أغنية عراقية في جهاز الغرامافون،



وساعة شدّه الحنين إليها كتب: "حين مررت بالمقهى... سمعتك يا عراق وكنت دورة أسطوانة". أمي كان بإمكانها أن تقول الأمر ذاته. أولاً، قبل زواجها: بالأمس جئتِ يا بغداد "وكنت دورة أسطوانة". ثانياً، بعد زواجها: بالأمس جئتِ يا بغداد علىَ شكل بطاقة بريدية "معايدة". ولأن جهاز الغرامافون اختفى من البيت، باعه أبي وحلّ محله الراديو الكبير فيليبس، لم يبقَ أمامها في النهاية غير بغدادها التي عثرت عليها في البطاقات البريدية "المعايدات".



٥

مدينة بين دولاب الملابس ومخدة النوم

بعض تلك البطاقات البريدية احتفظت بها أمي أياماً عديدة، صدفة أو عمداً، أخفتها عني و لم أعثر عليها. البطاقات تلك التي نستها تحت المخدة عثرت عليها بسهولة، لكن تلك التي وضعتها في حقيبتها اليدوية، أو في أماكن أخرى وظنّت أنها بعيدة عن متناولي، فكان يجب أن تمضي أيام حتى تكون في متناول يديّ، وغالباً صدفة. لكن ومع مرور الوقت عرفت تقريباً كل أماكنها "السرية": دولاب الملابس، الكومودينو الصغير جوار السرير، الجيب الجانبي لحقيبة السفر الكبيرة، تحت الفراش، بل وحتى خلف جهاز راديو فيليبس الكبير. طبعاً لم أسألها في ذلك الوقت عن سبب إخفاء البطاقة البريدية تلك بالذات، فعادةً وكلما روت لي قصة عن صورة البطاقة وضعتها تحت الوسادة، المكان الذي اعتدت العثور فيه على بطاقاتي البريدية في صباح اليوم الثاني، وما أن أستيقظ في الصباح حتى أمدّ يدي، أعرف أنها البطاقة التي كانت في حوزتنا ليلة أمس، والتي روت لي قصتها، تنتظرني هناك تحت المخدة، أستلّها فرحاً وألصقها في دفتري الأنيق، حتى قبل أن أذهب لتناول الفطور. باستثناء بعض البطاقات التي - ولدهشتي! - لم أعثر عليها في اليوم الثاني، وعندما كنت أسألها عن بطاقة الليلة الماضية، وأنا أحضنها، تضحك وتقول لي: "الليلة الماضية؟ معايدة؟ أكيد أنك حلمت"! لم يكن إلحاحي ينفع معها، فأستسلم، أصدّق ما قالته، ومع تكرار الأمر وعثوري على بعضها صدفة فكرت أن أمي تخفي البطاقات وتنكر وجودها لكي تلعب معي. ولأن اللعبة أعجبتني، لم

أخبرها يوماً عن عثوري على البطاقات التي أخفتها، كنت ألصقها في دفتري الأنيق دون أن أخبرها. هي الأخرى لم تسألني، وكأنها أيضاً وجدت متعةً في الأمر، لأنني لم أخفِ دفتري عليها أو على أحد. حتى لاحقاً، عندما أصبحت عندي أخت، رحت أريها الدفتر. بالتأكيد رأت أمي بطاقاتها البريدية ملصوقة هناك وسكتت، أو وجدت في الأمر متعة. طبعاً في ذلك الوقت، وفي سنيّ الصغيرة، لم أعرف لماذا اختارت أمي اللعب معي بهذه البطاقة وليس بغيرها؟

إحدى تلك البطاقات البريدية، كما أتذكر، حملت صورة قبر السِت زبيدة، أو السيدة زمرّد خاتون، التي كانت مدفونة هناك، والذي هو أحد القبور البارزة في مقبرة الشونيزية أو مقبرة باب الدير العتيقة في بغداد – الكرخ أو مقبرة الشيخ معروف كما هو اسمها السائد بين الناس (أحد المعالم الأثرية والتاريخية في بغداد، وتقع في أرض واسعة تحيط بمسجد المتصوف الشيخ معروف الكرخي). صحيح أن أمي تحمّست في رواية قصة الأميرة زبيدة، وكانت نبرة صوتها تحمل الكثير من الوجد والشجن، وهي تتحدث عن المرأة هذه، كأنها إحدى صديقاتها اللواتي جلسن معها قبل قليل في صالون البيت، لأن اليوم الذي روت لي فيه القصة كان أحد أيام الخريف، الباردة بعض الشيء، والذي لم يخلُ من مسحة كآبة طبعاً، كما هي الحال في كل مناطق العالم في الخريف، لكنني اكتشفت لاحقاً أنها لم تكن الوحيدة التي روت بشغف عن زبيدة أو السيدة زمرّد خاتون، وهي تعني زبيدة أخرى. أمي، وفي اليوم الخريفي ذلك، الذي ليس هناك أفضل من الروي والحكي لمقاومة كآبته، أعادت قصة مخترعة كانت موجودة أصلاً، رغم أنها بذلت كل ما في وسعها من الجهد لأن تبدو القصة هذه قصتها، على الأقل عن طريق الإضافات التي ألحقتها هي بها، وليست قصة قديمة ومكررة. لا أظن أن أمر أصلية القصة أو حقيقتها شغلها، بقدر ما شغلها الربط الذي كانت تعنيه، أولاً لعلاقته ببغداد، لكي تقول: "انظر أية نساء في بغداد، وأية مقابر!". ثانياً، لكي تثأر من عدم قدرتها على مواصلة تعليمها في دار المعلّمات في بغداد، ليس لكي تقيم هناك أثناء دراستها، أو لكي تعيش مع أبي بعد تخرجها في العاصمة، لأنها، كما عرفتُ، مالت لأبي مبكراً، وإذا كانت قد فكرت بزوج، فإنها لم تفكر برجل غيره. "لو كنت معلمة لكنا نعيش في بغداد" قالت لي مرات عديدة متحسرةً، خصوصاً في اللحظات

التي تتذكّر فيها صديقتين لها، أصبحتا معلمتين، تعيشان في بغداد. خسارتها حلمها، بغداد، عدم السماح لها بمواصلة دراستها، جعلها تبحث عن أمثلة نسائية قوية، لكي تسند رأيها، بأن النساء لسن للبقاء في البيت فقط. النساء لهن الحق بالعمل أيضاً، مثلهن مثل الرجل. وهذا ما جعل البطاقة البريدية أو قصة الأميرة زبيدة، أو السيدة خاتون، تظل ملتصقة في الذاكرة، أو هذا ما جعلني أحتفظ بها مع بطاقات أخرى.

منذ البداية، وقبل أن تروي أمي لي القصة، طلبت مني أنّ عليّ أن أحذر، لأنني عندما أكبر سأسمع الكثير من الادّعاءات التي تقلّل من شأن المرأة كإنسان، رغم أن إنجازات المرأة كجنس معروفة وملموسة، يشهد عليها التاريخ، يعرفها القاصي والداني في كل زمان ومكان، لكن الناس "تعرف وتحرف". آلاف النساء بقين في الظل رغم الخدمات التي قدّمنها للبشرية، ومن هؤلاء، قالت لي، الست زبيدة زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد، وهي إحدى بطلات التاريخ الإسلامي وصاحبة أول مشروع مائي كبير في التاريخ. هل تعرف لماذا سمّاها جدها الخليفة أبو جعفر المنصور زبيدة؟ سأقول لك، كونها كانت بيضاء وآية في الجمال، فاسمها هو تصغير للزبدة، أطلقه عليها جدها كنوع من التدليل الزائد لها كونها ناعمة كالزبد، هل تفهم؟ طبعاً أفهم، ولكن قبل أن أقارن بين جمالها وجمال الزبدة، حتى أنني أردت أن أقول لها: "إذن كانت الزبدة في القِدم بيضاء"، لأن الزبدة التي نأكلها في المساء عادةً ومع اللبن الرائب (الروبة)، التي اشترتها أمي من المعيديّات في الصباح، صفراء اللون، تقطع أمي لحظات تفكيري، تجلبني من الخيال الذي أنا فيه وتحكي لي كيف أن زبيدة، وبالرغم من جمالها ورقتها، إلا أنها كانت تتمتع بذكاء حاد، كما كانت تتحلى بالشجاعة وكان لها العديد من الإبداعات.

أمر غريب، مقارنة أمي. كأن الجمال والرقة مضادان للذكاء والشجاعة؟ أسألها، فتقول: "للعثور على الجواب عليك أن تسمع القصة: كان ياما كان، كان في قديم الزمان والأوان، امرأة آية من الجمال والعنفوان اسمها الأميرة زبيدة. وفي يوم من الأيام هذه التي تظل مشهودة في التاريخ خرجت مع زوجها خليفة المسلمين هارون الرشيد على رأس قافلة كبيرة إلى الحج من بغداد إلى مكة المكرمة، وبينما هم في الطريق لفت انتباهها أن الحجاج يحتاجون إلى الماء ولا يجدونه في رحلتهم الشاقة، ففكرت "لماذا لا أتحرك



لبناء مشروع يخدم الحجاج عن طريق عمل مجري نهري فيه عيون من الماء تمتد على طول الطريق من العراق إلى مكة المكرمة؟"، وعندما طرحت الفكرة على من حولها بدت لمن سمعها فكرةً أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع. لكنها وبعد أداء مناسك الحج اتّخذت قرارها. جمعت المهندسين والعمال والقياديين وأمرتهم ببناء العيون مهما بلغت تكلفتها قائلةً: "ولو كلّفنى هذا المشروع كل ضربة فأس بدينار... أنا مقدمة عليه"، والأكثر من ذلك أنها قامت هي بنفسها بعمل مسح شامل وتبيّن أنها في حاجة إلى ٢٠ عيناً من بغداد إلى مكة، فأمرت بحفر العيون، وأنفقت على هذا المشروع ما قُدِّر بمليون وسبعمائة ألف مثقال ذهب. الجميع هزّوا رؤوسهم وتساءلوا عن كيفية ربط العيون

قبر زمرّد خاتون في بغداد.

ببعضها البعض، فقاموا بعمل المجاري حتى يجري الماء من عين إلى أخرى، وكل عين كان لها مجرى من الماء على اليمين واليسار، وبذلك اتّصلت كل العيون بمجرى مائي من بغداد إلى مكة المكرمة. أما الخطوة التالية فكانت كيفية المحافظة على الماء ليبقى بارداً، فاقترح المهندسون أن يغلقوا هذا المجرى ويقوموا بعمل بعض الفتحات حتى يتسنّى للحجاج استخدام الماء في الوضوء والشرب أثناء طريق الحج الطويل. كما حاول القائمون على البناء تصميمه بحيث لا يتأثر بالسيول أو بالعوامل الجوية، عندما يأتي السيل لا يهدم هذا السد، وسمّيت على عين من تلك العيون بـ'عين زبيدة'".

"الطريف يا ولدي – أكملت أمي وهي تبتسم – أن السيدة زبيدة بعد انتهاء المشروع قامت بجمع المهندسين وكل خبراء العمران وكل العمال الذين أحضروا لها الدفاتر حتى يتحاسبوا فأخذت الدفاتر، كما تقول الرواية، وألقت بها في نهر دجلة في بغداد ورفعت يديها إلى السماء وقالت: "الحساب ليوم الحساب، لا نريد أن نتحاسب وإنما أريد أن أستشعر أن كل ما أنفقته لله، ومن عنده من الدراهم فهو صدقة له"".

"عين زبيدة، يا ولدي – قالت لي أمي كأنها كانت هناك، أو كأنها شربت من مائها، رغم أنها لم تذهب إلى الحج إلى مكة في ذلك الحين – هي من أهم الأماكن التاريخية الهامة في شبه الجزيرة العربية (اليوم: المملكة العربية السعودية)، والتي لا تزال آثارها قائمة منذ آلاف السنين حتى يومنا هذا، وخلّدت معها تاريخ هذه المرأة العظيمة التي كان هدفها سقاية الحجاج".

لبرهة صمتت، ربما فكرت بجملتها التالية طويلاً، قالت كأنها أرادت تلقيني خلاصة الدرس الذي عليّ تعلمه من القصة: "الملفت للنظر، يا ولدي، هو أن زوجها الخليفة هارون الرشيد لم يثبط من عزيمتها عندما طرحت الفكرة، ولم يكن أكبر معيق لها عندما رغبت في تحقيق حلمها، كما يحدث الآن مع بعض الزوجات البارزات في أي مجال، ولم يسخر منها أو يحاول هدم عزيمتها بالرغم من أنه في ذلك الوقت كان ضرباً من ضروب الخيال، ولم يقل لها كيف لأمرأة مثلك أن تقوم بمشروع ضخم مثل هذا!".

لكن ما لم تعرفه أمي حينها، أو عرفته ولم تروه، هو أن الست "زبيدة" هذه، التي روت قصتها والتي لا علاقة لها بزبيدة أو السيدة زمرّد خاتون التي كانت صورة مرقدها على البطاقة البريدية، كان عليها أن تدفع حياتها ثمناً للغباء والعمى الديني الذي طاف



شبحه (وما زال) في العراق وفي البلدان المحيطة به منذ ذلك الوقت، و لم ينفعها أنّ امرأةً مثلها قدّمت إنجازاً حضارياً عظيماً، هو أول مشروع مائي بهذه الضخامة في التاريخ، استحقّت عليه أن يقيموا لها تمثالاً في بغداد أو في مكة، لا أن يمحو ذكرها من الوجود. لكن لماذا الدهشة والتساؤل والخليفة نفسه، هارون الرشيد، زوجها، الذي دعمها في مشروعها المائي، زوجها الذي عُرف عنه أنه مشجّع العلوم والترجمة، المنفتح على العالم، الذي عُرف بعلاقاته الدبلوماسية مع إمبراطور الأفرنجة شارلمان الكبير، زوجها هذا وليس غيره، طلّقها ما إن عرف بأصلها الشيعي؟ طبعاً، الخليفة هارون الرشيد في النهاية، مثله مثل أي حاكم أو سلطان أو ملك أو قيصر في ذلك الوقت، راعى مصالحه في المقام الأول، وإذا كانت زيجة ما تضرّ بسمعته، مثله مثلما يفعل الأغنياء ونجوم البوب والرياضة والإعلان والميديا في زماننا، كان عليه على الأقل أن يكتفي بطلاقها دون أن يكون مضطرّاً للإعلان عن السبب الذي دعاه للطلاق.

محمد الأمين، الابن الأصغر لهارون الرشيد والذي أمه ليست غير السيدة زبيدة "الشيعية"، وأخوه عبد الله المأمون الذي صحيح أنه ابن امرأة كانت هي الأخرى شيعية، لأن نسبها يعود إلى عائلة البرامكة الفارسية، لكنها ماتت أثناء ولادتها له فتربّى على يد مربيات عباسيات – هذان، الأمين والمأمون، دخلا في صراع على السلطة بعد وفاة أبيهما هارون الرشيد، أدّى إلى هروب المأمون بعد خلعه من ولاية العهد إلى خراسان وطلب دعم الفرس في حربه على أخيه، وإلى حصار بغداد لمدة ١٢ شهراً، وضربها بالمجانيق (تعادل الصواريخ اليوم) حتى خُرّبت المدينة وهُدّمت أسوارها واحترقت أسواقها، ثم أخيراً إلى مقتل الأمين وإرسال رأسه إلى أخيه المأمون في خراسان. منذ ذلك الحين والفتنة بين المذهبين الكبيرين، السنّي والشيعي، على اشتدادها، لأن البعض أرجع تولّي محمد الأمين الخلافة أولاً، رغم أنه يصغر أخيه المأمون بثلاثة عشر عاماً، جاء بتحريض من الأميرة زبيدة، في رحلتهما تلك إلى مكة، عندما وقّع هارون الرشيد وثيقة ولاية العهد في مكة، و لم يستطع التراجع عنها حتى بعد طلاقه لزبيدة. عندما تولّى الأمين الخلافة بعث رسولاً سرق هذه الوثيقة التي أُطلق عليها اسم "الكتابين" ليحرقها بعد ذلك في بغداد. الفتنة التي حدثت بين الأخوين هي خلفية لفتنة كبيرة وقعت في بغداد في زمن الخليفة العباسي القائم بأمر الله (١٠٣١–١٠٧٥م) وقعت

عام ١٠٥٢م/ ٤٤٣هـ، بين السنّة والشيعة، وراح ضحيتها الآلاف، ومن ضمن ما راح وهُدِّم وخُرِّب، قبر السيدة زبيدة الذي أُحرق، وهذا ما جعل أمي تظن، مثلها مثل كل العراقيين الذين يزورون المرقد الذي ارتسمت صورته على البطاقة البريدية "المعايدة"، المرقدَ الجميلَ الذي تعلوه زقورة مخروطية بأنه مرقدها، مرقد الأميرة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد، وليس مرقد زبيدة أخرى اسمها حقيقةً السيدة زمرّد خاتون، وهي أم الناصر لدين الله العباسي الذي حكم في بغداد بين عامي ١١٨٠ و١٢٢٥م، أي قبل سقوط بغداد على يد المغول بثلاثة وثلاثين عاماً.

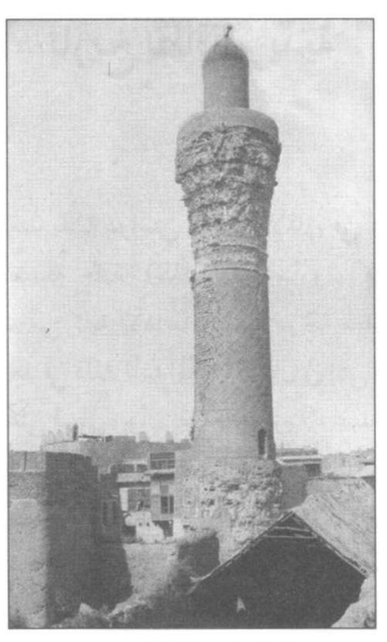


٦

تاريخ بطاقة بريدية

مرت سنوات طويلة، منذ بداية دراستي للأدب الألماني في كلية الآداب في جامعة بغداد، وقد تم ذلك بصدفة حقيقة (تلك القصة سأرويها في مكان آخر)، لأنني انتهيت إلى هذا القسم من كلية الآداب حسب درجة معدلي بعد نهاية الدراسة الإعدادية، لكن أبي وجد في ذلك تأييداً لكلامه. قال لي إنني ومذ كنت صغيراً كنت أردد دائماً اسم ألمانيا على لساني، وأن أصدقاءه وزملاء عمله أو الجيران، أو أقاربنا الذين كانوا يزوروننا، كثيراً ما تندّروا بسؤالي مازحين: "أين تريد الذهاب عندما تكبر؟" ثم يضحكون من إجابتي لهم: "إلى ألمانيا". أبي يقول أيضاً إن البعض أرجع ذلك إلى ميلي للشقراوات، رغم أنه أمر غير صحيح، لأننا لم نكن نملك تلفزيوناً حتى أرى فيه ألمانيات "شقراوات"! أعرف أن علاقتي اللاحقة بالأدب الألماني لها علاقة وقوعي صدفة على ترجمة ديوان **مراثي دوينو** للشاعر الألماني راينر ماريا ريلكه في مكتبة صغيرة في العمارة، المكتبة العصرية أو مكتبة عبد الرحيم الرحماني بالأحرى والتي ما زالت قائمة حتى اليوم، وبمسرح بيتر فايس منذ أن مثّلنا مسرحيته **أنشودة أنغولا** على مسرح النشاط المدرسي. لكن لا أنا ملكت تفسيراً "منطقياً" لادّعاء أبي ولا هو استطاع إقناعي بسبب إصراري على "ألمانيا"، والذي لا يعني بالضرورة دراسة الأدب الألماني في الجامعة طبعاً؛ فالاهتمام بالأدب وقراءته لا يعني بالضرورة دراسته، وإلا لكان عليّ دراسة كل الآداب الجميلة الأخرى التي سحرتني مبكراً:

الأدب الروسي، الأدب الفرنسي، الأدب الإنكليزي، ولاحقاً الأدب الإسباني الذي احتلّت صفوفه بعد سنتين فقط من تأسيسه، بعد عام ١٩٧٧، كل غرف الطابق الأول في كلية الآداب. دراستنا الجامعية تحددها حاجات ومسارات أخرى، مثل قرار بالزواج. ولأن الزواج التقليدي عندنا "قسمة ونصيب"، وفي حالات نادرة يتزوج المرء نتيجة حب، فإن اختيار الاختصاص الجامعي هو أمر لا علاقة له بالرغبات



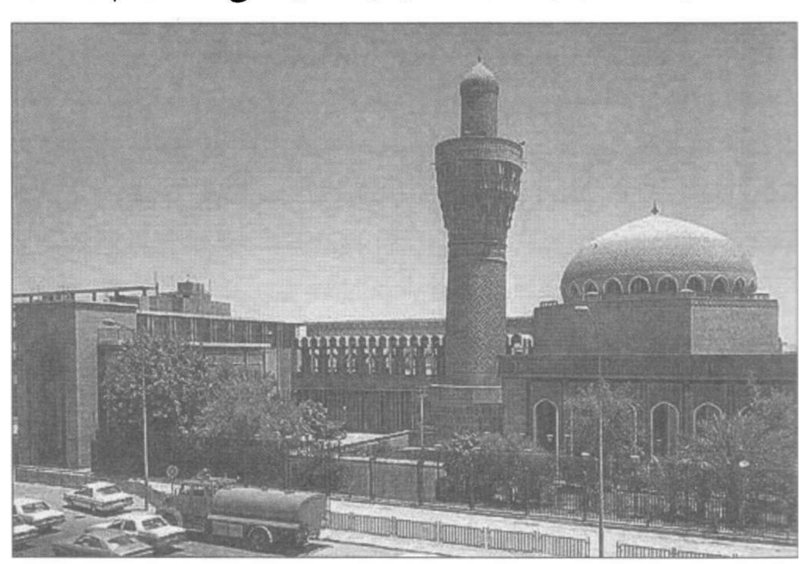
لوحة لبغداد في القرن التاسع عشر.

الخاصة. له علاقة بنظام القبول المركزي، بالمعدل الذي حصل عليه الطالب بعد الانتهاء من الدراسة الإعدادية، كما له علاقة بالنظام السياسي. لكن رغم ذلك، ربما كان أبي على حق من ناحية أخرى. مَيلي "الألماني" ودراستي الأدب الألماني لم يحدث مئة بالمئة صدفة، من يتذكر المثل: لا دخان بلا بارود؟ فلو عرف أبي أو أنا أن الأمر له علاقة أصلاً ببغداد، أو بإحدى تلك البطاقات البريدية التي كان أرسلها



لي ولأمي من هناك، لما استغرب هو أو استغربت أنا إصراري على ترديد كلمة ألمانيا على لساني في ذلك الحين.

لا أدري إذا كانت تلك هي البطاقة البريدية الأولى التي جاءتنا من بغداد لكنها، كما يبدو، كانت بطاقة بريدية عزيزة عليّ بصورة خاصة، لأنها واحدة من بطاقات قليلات نجت بنفسها من دمار الزمن لها. صحيح أنني حرصت في ذلك الوقت على لصق بعضها على ورق دفتر صغير احتفظت به لهذا الغرض، دفتر أنيق بالأحرى، اشترته لي أمي من محل شاكر الهاشمي "الراقي" في المدينة، لكن بعد سنوات، وعندما بدأ شغفي بالصور الرياضية ليصبح الهواية المحببة بالنسبة لي، كان على عشرات البطاقات البريدية أن تترك مكانها للصور هذه. لا أدري ما الذي حلّ بتلك البطاقات؟ أمي تقول إنها ظلت تحتفظ بها حتى سنوات لاحقة، وفقط عندما دخلت قوات الحرس الجمهوري مدينة العمارة بعد إنتفاضة ربيع ١٩٩١م، ضد الديكتاتور آنذاك وبعد هزيمته في حرب الكويت، في تلك الأيام التي راح فيها أفراد الحرس الجمهوري يدخلون إلى البيوت في جنوب البلاد ويفتشون عن الأسلحة وعن المنشورات، عن كل ما يمكن أن تقع عليه عيونهم أو يشكّون



جامع الخلفاء في التسعينيات.



به، أحرقت أمي حزمة كبيرة من الأوراق القديمة، كل الأرشيف الذي أرادت الاحتفاظ به لي، كما تقول، عشرات البطاقات البريدية القديمة كانت من ضمن تلك الأوراق. تقول أيضاً إنها بكت وهي ترى نيران تنّور الخبز الطيني تلتهم الأرشيف "الكنز" الذي أرادت إنقاذه لي لكنها لم تقدر. كانت تعرف أنني سأعود من منفاي ذات يوم. "وكما تعرف – قالت لي – أول ما يرجع الغايب، مثل الطير، يدور عن كل قشة بعشه القديم". عشي القديم احترق، وذلك ما جعلها تتألم وتبكي. لكنها، ولدهشتها، وبعد وفاة جدتي (من جهة أبي) فرجة، عثرت في صندوق صغير يعود لجدتي على بعض البطاقات البريدية القديمة، مربوطة مع بعض بشريط بنفسجي اللون، كأن أحداً اختارها بعناية من مجموعة بقية البطاقات وقرر أن يحتفظ بها دون غيرها. من المستحيل أن تكون جدتي فعلت ذلك، لماذا وهي لا تملك دافعاً أو سبباً يجعلها تختار البطاقات هذه دون غيرها؟ لا بدّ وأن أحداً آخر فعل ذلك، لكنها لا تتذكر مَن. هي نفسها لا تتذكر أنها فعلت ذلك، أما أبي فأكّد لها هو الآخر أنه لم يعرف حتى بوجود هذه البطاقات. "لا بدّ أن يكون نجم" قال لها. "لكن ذلك ليس مهماً" قالت لي، فهي لم تصدق أنها عثرت على البطاقات البريدية تلك، ففيها ذكرياتها الجميلة أيضاً. "حزمة صغيرة من ذكريات" قالت لي وهي تسلّمها لي في زيارتي الأولى بعد ٩ نيسان/ أبريل ٢٠٠٣، بعد ٢٣ عاماً من منفاي الطويل. اثنا عشرة بطاقة بريدية، كلها بالأسود والأبيض، تعرض بعضاً من معالم بغداد في سنوات مختلفة، بعضها صور تعود إلى بداية قرن مضى، صحيح أن لونها بهت، لكنها رُبطت بعناية بشريط خاص، الشريط ظل محافظاً على لونه البنفسجي، كل شيء معتنى به، كأن أحداً ربطها يوم أمس. لا أتذكر أنني فعلت ذلك، وإذا كنت بالفعل أنا الذي ربطها بهذا الشكل فهذا يعني أنني كنت منظماً على الطريقة الألمانية أو الإنكليزية منذ ذلك الوقت، حتى ترتيبي لها جاء على أساس تاريخها، هذا ما تأكّد لي عند فتحي للشريط.

ربما مرّت عليّ البطاقة البريدية التي تقدّمت بقية البطاقات "المعايدات"، عند تفحّصي لها، للوهلة الأولى، مرور الكرام، لأن ما حوته لم يلفت نظري أو نظر أحد الآن. لماذا لا؟ فهي بطاقة بريدية بالأسود والأبيض، اعتمدت على صورة لمنارة في بغداد، منارة عباسية قديمة، لم أعرف لحظتها إذا كانت المنارة لا تزال كما في الصورة في بغداد أم أنها هُدمت وأعيد بناؤها من جديد، كما فعلت السلطات بكثير من المعالم الأثرية الأخرى



في البلاد: إعادة بنائها من جديد ووضع اسم الديكتاتور على كل طابوقة أو حجر منها. وإذا حدث ذلك لشارع الموكب ولبوابة عشتار المفترضة في بابل (لأن الحقيقية موجودة في متحف بيرغامون في برلين)، فلماذا لم يحدث ذلك للمنارة القديمة هذه، رغم تهدم قاعدتها وطرفها العلوي، حتى بدت في وقفتها مثل نخلة باسقة وسط بيوت أحاطتها، بعضها مبني من الطابوق وبعضها الآخر، خاصةً الذي إلى يمينها، بُني من القصب، مسقوف مثل كوخ في الجنوب؟ وفقط في المرة الثانية، عندما تطلعت بخلفية الصورة، قرأت أنها منارة سوق الغزل (جامع الخلفاء)، وهي أقدم منارة بقيت في بغداد. لكن أيضاً ليس من بغداد الأولى، لأن المنارة الأولى لجامع الخلفاء الذي بناه العباسيون كانت دُمّرت، كما تقول كتب التاريخ، عند دخول جيش المغول بغداد. المنارة الظاهرة في الصورة بناها ابن هولاكو، اباقا، في القرن الثالث عشر الميلادي على حطام المنارة التي هدّمها شخص هو ليس غير أبيه! تلك هي فرادتها إذن. لأنها وإن أخذت من المنارات التقليدية بعضاً من صفاتها، إلا أنها اختلفت عنها بنحافتها، وهي فرادتها التي لم تلفت فحسب نظر المصور الذي التقط لها الصورة خلال زيارته للعراق عام ١٩١١ كما تقول البطاقة، بل لفتت نظري أنا أيضاً وجعلتني أحتفظ بها. ففي العمارة لم تكن هناك منارة شبيهة بها أبداً، كانت منارة غريبة بالنسبة لي، قادمة من كوكب بعيد، من بغداد، والأكثر دهشةً هو أنني اكتشفت، وأنا أبحث عن مصدر الصورة أو عن المصور الذي صورها، وللمفاجأة، بأنه مصور ألماني زار بغداد عام ١٩١١.

هل عرفت ذلك في حينه؟ هل ذلك ما جعل منارة الجامع تبدو لي غريبة بالفعل، أولاً لأنها لا تشبه المنارات الأخرى التي أعرفها في مدينتنا، وثانياً أنني من الجائز فكّرت أن لها علاقة بألمانيا؟ لا أدري. لكنني لا أشك أنها البطاقة البريدية بالتأكيد أو الصورة هذه ما جعلني أفكّر بألمانيا، وأنّ احتفاظي بها ومعها البطاقات البريدية الأخرى هو نوع من الرهان مع نفسي، بأنني لا بدّ وأن أعود إليها ذات يوم.

أمر غريب! إذن تبدو القرارات التي نتّخذها ونحن أطفال أقرب للتخيّل، لا منطق يربطها، لكن بعد سنين، عندما نكبر ونتأملها، نعرف أية حكمة اختفت وراءها، وكم كانت قريبة من التخيل أحياناً! ففي النهاية، سارت حياة الطفل الذي كنته بالفعل في هذا الاتجاه، سواء في علاقته بألمانيا أم في علاقته بالمنارة هذه بعد سنوات. علاقتي بألمانيا التي



بدأت ولي من العمر ستة عشر عاماً، بلقاء بالصدفة مع كتاب مترجم، **مراثي دوينو** لريلكه بترجمة فؤاد رفقة، الشاعر السوري اللبناني الجنسية الذي سألتقيه بعد قرابة أربعة عقود وأتعرّف عليه صدفة في محاضرة له في مبنى مكتب الخارجية الألمانية في برلين.

علاقتي بألمانيا التي تطورت أكثر مع دراستي الأدب الألماني – قسم اللغات الأوروبية – كلية الآداب في جامعة بغداد، وانتهت بعد الدراسة تلك بست سنوات إلى المانيا الاتحادية، إلى مدينة هامبورغ في البداية (لكن عن طريق برلين)، قبل استقراري اللاحق في برلين، أو قبل قراري اللاحق بالعيش بين بغداد وبرلين. دورة حياة هذه، ليس بما خصّ ألمانيا وبرلين وحسب، بل بما خصّ المنارة التي رأيتها بعين المصور الألماني على البطاقة البريدية تلك. ففي العام الثاني من دراستي الأدب الألماني في جامعة بغداد، وبعد طردي من العمل، أولاً من القسم الثقافي في إذاعة بغداد وثانياً من العمل في مجلة الإذاعة والتلفزيون، عرفت أنني لكي أصبح كاتباً حراً لا بدّ لي من الاعتماد على نفسي، العمل بحرية، أي عمل، باستثناء العمل في مؤسسة ثقافية رسمية تابعة للنظام الحاكم في العراق. وهي الصدفة التي حملت زميلاً لي كان يدرس الأدب الفرنسي في كلية



سوق الشورجة في الأربعينيات.



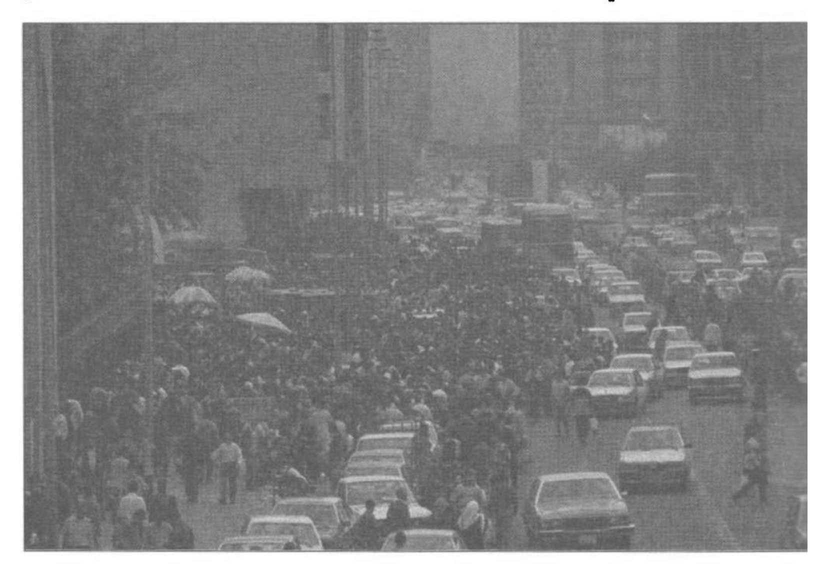
الآداب، عطا عيسى، الذي ذهب إلى المنفى قبلي بثلاث سنوات، والذي كان مفلساً مثلي، بحاجة إلى بعض المال، لأن عائلاتنا كانت لا تستطيع دفع مصاريف دراستنا الجامعية، خاصةً أنا، لأن عطا عاش مع أهله في مدينة الثورة في بغداد، لكن كان عليّ تكفّل حياتي في بغداد، أن يقترح عطا عليّ وعلى زميلين آخرين (أحدهما صديقي الرسام طالب حسن، درس الأدب العربي في كلية الآداب وقادته دروب الحياة قبلي إلى برلين) أن نعمل حراساً ليليين، وأنّ قريباً له يعمل في مكتب العمل هو الذي أخبره عن حاجة بعض الوزارات لحراس ليليين. علينا ألاّ نفوّت الفرصة أبداً. هكذا ذهبنا في يوم مشمس إلى مكتب العمل القريب من باب المعظم، لكن أية صدفة؟ قرار عبثي لطلبة جامعيين بوهيميين أو وجوديين، كما كنا في عرف الطلاب البعثيين والشيوعيين، سيجعل حصتي مدرسة مختلطة للبنات والبنين في محلة القشلة في سوق الشورجة، ولكي أصل إليها قادماً من غرفتي في الحيدرخانة كان لا بدّ لي من المرور ليس بغير منارة سوق الغزل، منارة جامع الخلفاء؟ لو كنت أؤمن بالغيب أو بالقدر لقلت إن اختياري لتلك الصورة كان مكتوباً عليّ، كان مكتوباً عليّ من قوى خفية، أن أكبر وأعمل في مكان قريب من المنارة هذه، ثم أذهب بعدها إلى ألمانيا، إلى بلاد المصور الذي أخذ الصورة تلك. لكنني لا أؤمن لا بقدر ولا بغيب. أعرف أن حياتي هي مجموعة من المصادفات، وأن لا شيء حقيقي فيها أكثر من الصدفة، لكنني أعرف أيضاً أن حياتنا تقترب من الأدب، من الخيال. صحيح أنني لم أعرف ذلك في حينه، أو لم أكن قد فكرت به كما أفعل الآن، لكن بالتأكيد أن الغموض الذي ارتسم أمامي وأنا أتطلّع في الصورة، لأنني لم أعرف علاقة بين المنارة ومصورها، بين بغداد وبرلين، أن الغموض هذا أثار الفضول عندي وجعل خيالي ينشط بالبحث عن قصة المنارة، التي بالتأكيد لها قصتها الخاصة، وأية قصة؟ ربما ذلك ما قالته لي الصورة، دون أن أدري في حينه أن لا حاجة لتخيل قصتها، لأنني بعد سنوات وسنوات سأعرف أن القصة التي جرت عليها منذ نشأتها تفوق كل خيال، ربما ذلك ما أوحته لي الصورة، وهذا ما جعلني أحتفظ بها كأنني أعرف أنني لا بدّ وأن أعود لها ذات يوم، وإن لم تكن ليست هي وحدها التي تقترب قصتها من الخيال، فقد شاركتها الصور الأخرى أيضاً ذات المصير، لكنها على الأقل كانت الأولى في الترتيب!



حسب ما تقول المصادر التاريخية، أن الجامع الذي حوى على المنارة بناه الخليفة العباسي علي المكتفي بالله (حفيد هارون الرشيد) في شرقي القصر الحسني، وكان يُعرف في حينه بجامع القصر، قبل أن يُطلق عليه اسم جامع الخليفة. حتى هذا الاسم كان عليه أن ينزاح في الفترة الأخيرة من عمر بغداد الأول، قبل سقوطها على يد المغول بزمن قصير، ويأخذ مكانه اسم جامع الخلفاء هذه المرة، الاسم الذي حمله قرابة ستة قرون قبل أن يستقر على اسمه الحالي، كما وقفت أمامه في يوم بارد لكن مشمس من شهر كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٤، جامع أو منارة سوق الغزل. ألا ترون معي، لا اسم ثابت في بغداد حتى ولو لمَعلَم واحد، لكي لا نتحدث عن الشوارع والمناطق والجسور. ولو كانت الشواهد التاريخية هذه ملكت روحاً أو لساناً لصرخت وقالت: اتركوني لحالي، لكي لا أضيع بنفسي مع ضياع السماء. لكن ذلك هو ديدن سلاطين وحكام بغداد، كل واحد منهم يظن أنْ لن يحدث له ما حدث لجلاد قبله، عندما سيعمل ورثته أو الجلادون الذي سيسيرون على خطاه على محو كل ذكرى له، خاصةً إذا كانوا هم من أطاحوا به، إن ليس عن طريق هدم كل الأبنية التي بناها فعن طريق تغيير أسمائها على الأقل.

الخليفة علي المكتفي بالله أراد، كما يبدو، عن طريق بناء الجامع هذا، ترك بصمته في التاريخ، فماذا يفعل خليفة ضعيف مثله كان ألعوبة بيد جيش المرتزقة الأتراك؟ أجداده استعمروا شعوباً وأسقطوا ممالك، بنوا مدناً وأمصاراً، شيّدوا السدود والقناطر، شجّعوا العلوم والفلسفة، وهو؟ الضعيف الذي لا قدرة له والذي اكتشف السُنّة والدين ولعاً له أو تعويضاً عن عدم قدرته، لماذا لا يبني جامعاً؟ بيت الحكمة الذي أسسه أجداده البعيدون، وكان أول جامعة في التاريخ، أحدثت نقلة نوعية في الترجمة تمهيداً للعصر الإسلامي الذهبي في بداية القرن التاسع الميلادي، تقريباً في ٨٤٠م، بيت الحكمة هذا لم يعد كما كان عليه. الاضطرابات التي عصفت بالإمبراطورية العباسية أثّرت على الدراسة فيها، لم يعد يأتيها طالبو المعرفة والعلوم من كل مكان. بغداد نفسها كفّت عن أن تكون عاصمة ثقافية للعالم، قرطبة وغرناطة أخذتا مكانها، ولكن خليفة ما يجب أن يترك شيئاً يخلّده، يستطيع، مثلاً، أن يبني جامعاً، لا أحد يعترض على ذلك، حتى الأتراك سيباركون ذلك، جامعاً يُشار له بالبنان، سيكون بمثابة الجامع الرسمي

للإمبراطورية العباسية التي فقدت هيبتها أصلاً منذ عقود، منذ أن كفّ الخلفاء عن الاهتمام بالعلوم والترجمة، على عكس ما فعل أجدادهم الأولون: أبو جعفر المنصور وهارون الرشيد والمأمون. الأول عُرف بعنايته بنشر العلوم المختلفة ورعايته العلماء، الأمر الذي جعله يؤسّس بيت الحكمة في قصر الخلافة ببغداد، ليكون مركزاً للترجمة إلى اللغة العربية. الثاني تطورت الجامعة في عهده إلى مدى بعيد، بعد أن أتت إليه دفعة كبيرة من الكتب بعد سيطرته على هرقلة وإقليم بيزنطة، والذي أوكل إلى يوحنا ماسويه مهمة ترجمة الكتب، ليضمّ بيت الحكمة بهذا الشكل، إلى جانب المترجمين، النسّاخين والخازنين الذين يتولون تخزين الكتب والمجلّدين وغيرهم من العاملين. الثالث بلغ نشاط بيت الحكمة ذروته في عهده، فقد خصّص له المال الكثير، وكان يشرف عليه مباشرةً، يختار من العلماء المتمكنين من اللغات، بعد أن استقدم من قبرص خزانة كتب الإغريق بكل ما حوته من كتب في الطب والهندسة والحساب والفلك والفسلفة. "صحيح أن بيت الحكمة ظل قائماً حتى اجتياح المغول لبغداد، إلا أنه أفل مع مرور الوقت ومع أفول نجم بغداد، حتى أصبح مجرد مكتبة تحتوي على ما يزيد على ٣٠٠,٠٠٠ كتاب في مختلف الأصناف، دمّرها المغول كلها". بعد وفاة المأمون أهمل



شارع الجمهورية عند مدخل سوق الشورجة.



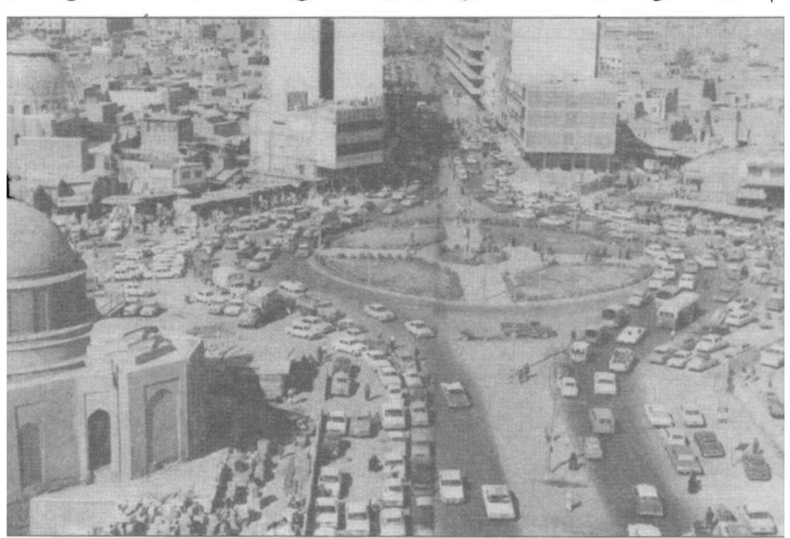
الخلفاء الذين جاؤوا من بعده العلم، وشغلوا أنفسهم بالصراع على السلطة والانغماس في الملذات، خاصةً بتعدد الزوجات ومجالس المجون، وأقصى ما قاموا به من إنجاز – لكي يبدوا مؤمنين – هو تشجيع أو دعم صاحب المدرسة الفقهية هذه أو تلك. أليس هذا ما قام به علي المكتفي بالله أيضاً؟ فبعد قضائه على ثورة القرامطة "الاشتراكية" في البصرة، وقتله قائدهم يحيى بن زكوريه القرمطي وغلامه الذي لُقّب بـ"المطوّق بالنور" وابن عمه عيسى بن مهوريه، بحجة ادّعائهم النبوة، وهو أمر لا علاقة له بالحقيقة، لكنه خدمه لكي يبدو أكثر حرصاً من غيره على الإسلام. ولكي يثبت أمام الناس إيمانه وحرصه على الإسلام، وأنه لم يسحق القرامطة بسبب مطالبتهم بالعدالة والحق، كان لا بدّ أن يبني صرحاً "إسلامياً" يشير إلى أثره. وهل هناك أفضل من الجامع؟ وليكن الجامع هذا، إلى جانب إقامة صلاة الجمعة فيه، مكاناً لكي "تُقرأ فيه عقود القضاة ويصلّى على جنائز الأعيان والعلماء" المقرّبين من الخليفة طبعاً، كما تُعقد فيه حلقات الفقهاء والمناظرين بكل ما له علاقة بالدين والسنّة! وإذا كان جده الأول أبو جعفر المنصور استغرق ٤ سنوات ببناء مدينة بغداد، لماذا لا يستغرق بناء جامعه أيضاً سنتين أكثر؟ ليس ذلك وحسب، بل لتكن منارته أعلى منارة في بغداد يمكن رؤية المدينة كلها عند الصعود على مئذنتها.

ست سنوات استغرق بناء الجامع، من ٩٠١ إلى ٩٠٧م، وسُمّي أولاً بجامع القصر، ثم جامع الخليفة، قبل أن ينتهي أخيراً إلى اسم جامع الخلفاء، لكن تهديمه أو تهديم منارته لم يستغرق غير يوم واحد، ربما ساعات على يد جيش المغول بقيادة هولاكو الذي أطبق مثل تسونامي أو طاعون على بغداد. لا أحد يذكر لماذا فكّر اباقا ابن هولاكو بإعادة بناء ما هدمه أبوه، أو إعادة بناء منارته كما ظهرت في الصورة، على الأقل وبالذات في عام ١٢٧٩م، عندما كان التتري عطا ملك الجويني والياً على بغداد؟ ولو لم يصف الرحالة المغاربي ابن بطوطة الجامع هذا في زيارته إلى بغداد عام ١٣٢٧ م، والذي أدهشته نقوش المنارة المحيطة بالسطح الدائري بأشكالها المعينية البسيطة، والتي بدت كما لو صُففت لتبرز من خلال الظلال المتباينة في الخط الآجري، لما ظنّ أحد أن المنارة المبنية من الآجر فقط ستصمد سنوات ودهور، قرابة سبعة قرون، قبل أن تتعرض إلى محاولات الهدم أو النسف، سواء عندما ستسقط بفعل الإهمال وعدم الصيانة، كما حصل لها في زمن الاحتلال العثماني، ليأمر ببنائها من جديد



الوالي العثماني سليمان الكبير ١٧٧٩-١٨٠٢م، الذي شيّد أيضاً إلى غربها جامعاً لا علاقة له بالجامع القديم، وليصبح اسمها منذ ذلك الحين "منارة سوق الغزل"، لأن الجامع قد قُطعت أرضه منذ عقود وأُنشئ عند حدوده الشرقية سوق للغزل، أو سوا بسبب تدخل السلطات، كما حصل هذه المرة في فترة الاحتلال البريطاني؛ الإنكليز أرادوا نسف المئذنة بحجة أنها تعرضت إلى التلف بسبب عوامل الطبيعة مما أثر على زخرفتها وأصبحت آيلة للسقوط. محاولة الإنكليز تلك فشلت بعد أن وقفت دائر الآثار العراقية ضدها والتي أخذت على عاتقها مهمة صيانتها. في عام ١٩٥٧ كان على المنارة أن تستفيق على حفارات تهدم الجامع الذي بناه سليمان الكبير والذي أمرت السلطات بهدمه لأجل فتح شارع الجمهورية الذي يمرّ بسوق الشورجة (من يجرؤ اليوم على تهديم جامع في العراق أو في مناطق الشرق الأخرى؟). في سنة ١٩٦٠ شُيدت مكان المئذنة القديمة مئذنة جديدة وأُعيد بناء الجامع على الطراز الذي بُني عليه أيام العباسيين، وقام بتصميم الجامع الجديد المهندس المعماري محمد مكية.

المفارقة هي أنني في زيارتي الأولى للجامع الجديد الذي بُني في أوائل الستينيات لم أتعرف على المنارة القديمة، ليس لأنها رُمِّمت حتى بدت كأنها جديدة، بل بسبب



شارع الجمهورية السوق العربي في الثمانينيات.



هو اسم المدينة فقط، زمنها المطاط، وليس هؤلاء الذين فرضوا عليها منطقهم أو نظراتهم الجمالية "الكريهة"، تجريدها من ثيابها القديمة وإلباسها ثياباً يختارونها لها جديدة، لا علاقة لها لا بطراز ولا بنوعية لباسها القديم. نفس الأمر حصل لأبنيتها، هُدّمت وأُزيلت ثم صُمّمت على أنقاضها أبينة جديدة لا علاقة لها لا بطراز المعمار القديم ولا بنوعية طابوقه أو أعمدة سقوفه. ومن يشك في ذلك عليه إلقاء نظرة إلى الصور القديمة ومقارنتها بما حدث للمنارة بصورة خاصة أو لجامع الخلفاء عموماً.

فبعد بناء سوق الغزل (بناه الوالي العثماني سلمان الكبير) ارتبط مصير المنارة بالسوق. ليس بالاسم فقط، إذ أُطلق عليها منارة سوق الغزل، بل في كل ما حصل للسوق، ليس لأن السوق المعروفة هذه في بغداد تقع لصق جامع الخلفاء في الشورجة، بل لأن السوق، التي كانت ولا تزال سوقاً عجيبة غريبة، أصبحت أكثر أهميةً من جامع الخلفاء؛ في البداية كانت سوقاً صغيرة حوت على محال صغيرة لبيع الحبوب الجافة والبقوليات والأعشاب ومحال أخرى لبيع الطيور الأليفة وبعض الطيور البرية النادرة كالصقور والطواويس بالإضافة إلى الكلاب النادرة وأسماك الزينة، لكنها مع الوقت توسعت مع توسع المدينة وتزايد السكان مع تزايد الطلب على الحيوانات النادرة وتبدل الأزمان. لم يعد أحد يكترث لجامع الخلفاء الذي، وعلى مرّ الزمن، أصابه التصدع والقدم. أتذكر أنني وقفت مذهولاً أمامها في يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٤، ليس لأنني تذكرت المئذنة الجميلة التي مررت بها أثناء عملي حارساً ليلياً في مدرسة ابتدائية في محلة القشلة القديمة القريبة، بل صعقني الحال التي انتهت إليها أضخم وأطول مآذن بغداد، وكان عليّ أن أغمض عيني قليلاً لأتذكر صورتها جيداً، أستعيد ما قرأته عنها، فهي الوحيدة التي يبلغ ارتفاعها ٣٢ متراً ومحيط قاعدتها ٢٠,٦٤ متراً وبدنها ١٦,٢٠ متراً، مقامة على قاعدة مرتفعة مضلعة قوامها ١٢ ضلعاً ويبلغ ارتفاعها ٨ أمتار، على عكس قواعد منائر جوامع سامراء والحدباء والنوري المربّعة الشكل، كما تتميز بوجود حوضين أحدهما مشيد فوق قاعدتها ومنه تبدأ السلالم المؤدية إلى الحوض الذي يتوّج البدن الأسطواني ويحيط ببدن آخر أصغر برأس أو قمة بصلية الشكل.

من الصعب على من يقف أمام الجامع ألاّ يرى بوضوح جمال المئذنة هذه أو لا يلفت نظره الريازة المعمارية الضخمة والزخرفة الآجرّية إلى جانب المقرنصات البديعة التي



تكون قاعدة صلدة لارتكاز حوضي المئذنة السفلي والعلوي. "لا بد وأن الريازة تلك هي التي جذبت المصور الألماني" قلت لنفسي وأنا مغمض العينين أقف أمامها في يوم بارد من يناير أو كانون الثاني. الريازة الموجودة فيها أشبه بالنقش العربي أو الأرابيسك، على نفس الطريقة الموجود فيها في ضريح زمرد خاتون والقصر العباسي والمستنصرية والمدرسة المرجانية في بغداد، أقصد هذه المقرنصات التي تنتشر على الحوضين، الحوض الأول يستند على أربعة صفوف تتنوع أشكالها ومستوى بروز رؤوس عقودها، فيما استند الحوض الثاني على ستة صفوف من العقود والحنايا المقرنصة والمتركّبة، تشبه مقرنصات الحوض الأول لكنها خالية من الحشوات الزخرفية والتاريخية. ومن يعرف المئذنة قديماً، سواء رآها بعينيه أم رآها على بطاقة بريدية لمصور ألماني، سيحزن بالتأكيد. عجيبة هي الذاكرة! دفعة واحدة استعدت كل شيء في وقفتي تلك، وشكراً للبطاقة البريدية في جيبي، فهذه الصورة القديمة هي التي جعلتني أتردد في فتح عينيّ، لأن واقع الحال يقول لي: لا شيء أمامك له علاقة بالمنارة القديمة كما وصفتها قبل قليل، واقع الحال لا علاقة له بالقيمة التراثية أو بالتاريخ، واقع الحال له علاقة بنفسه، وبما أصبحت المدينة عليه، كل فسحة فيها هي مكان صالح لرمي النفايات والأوساخ، المكان هذا ليس استثناءً، لم يشفع له لا تاريخه ولا هيبة المعمار، المكان وما حوله أصبح مليئاً بالنفايات وبقايا الباعة المتجولين، صورة حزينة بالأحرى، فحتى هذا لم يبقَ، لأن ما حلّ بعد حرب القتل على الهوية في بغداد له علاقة بالموت والدمار الذي أطبق على البلاد جميعاً، وبصورة خاصة على العاصمة بغداد.

صحيح أن سوق الغزل تعرض إلى العديد من الهجمات منذ الاحتلال الأميركي للعراق عام ٢٠٠٣م، وتجوّل المارينز في بغداد، إلا أنه ورغم سوء الأحوال الأمنية لم يتوقف عن العمل في أيام الجُمع كعادته. حتى أنا، ورغم التحذيرات التي سمعتها هي تثنيني عن الذهاب إلى هناك، زرت السوق وتجولت في بعض محلاته، عقد النصارى مثلاً القريبة من السوق العربي الحالي، كما زرت جامع الخلفاء. في حزيران/ يونيو ٢٠٠٦م، عاش السوق أول انفجار له، عندما انفجرت عبوتان ناسفتان وضعتا في كيسين أدتا إلى مقتل ٤ أشخاص. كان ذلك أول هجوم قام به إرهابيون، أعقبته خمس هجمات أخريات. في ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٦، قُتل ٣ أشخاص نتيجة سقوط قذائف



هاون على السوق. في ٢٦ يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٧، قُتل ١٥ شخصاً في انفجار قنبلة وُضعت في قفص للطيور. في ٢٣ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٧، قُتل ١٣ شخصاً في هجوم مسلح، ويوم الجمعة ١ فبراير/ شباط ٢٠٠٨، قُتل ٤٧ شخصاً وأُصيب ٨٠ آخرون نتيجة تفجير عبوات ناسفة. وأخيراً الحريق الذي طال السوق مع الحريق الهائل في سوق الشورجة الملاصق له في ٦ نوفمبر/ تشرين ثاني ٢٠١١، الذي استمر مدة أربعة أيام وأسفر عن سقوط ضحايا وإصابة العشرات بجروح متفاوتة، ناهيك طبعاً عن الأضرار التي تعرضت له محال السوق والبنايات القريبة منها، ومنها طبعاً: مئذنة جامع سوق الغزل، أصلاً مئذنة جامع الخلفاء!

منذ ذلك الحين، ولكي أعيد الحياة لمنارة سوق الغزل، أو منارة جامع الخلفاء، كان لا بدّ لي من اختراع قصتها مجدداً، هذه المرة ليس كما أشاء أو كما شاءه لها الآخرون، بل كما شاءت هي أن تكون!



٧

العسكر البريطانيون وكشافة بغداد

من البطاقات البريدية التي احتفظت بها، تلك البطاقة التي ظهر عليها خمسة عشر عسكرياً بريطانياً، يحملون بنادقهم معهم، بعضهم وضعها على كتفه، فيما استند بعضهم عليها، لكن كلهم وقفوا في وضع الاستعداد العسكري، على ضفة نهر دجلة في بغداد، ربما كانوا ينتظرون مركباً أو قارباً يحملهم إلى الضفة الأخرى من النهر، أو ربما وقفوا فقط هناك على أهبة الاستعداد لما سيحدث بعد قليل بعد الانتهاء من التصوير. على أية حال وقفوا عند نقطة لا بد وأنها كانت استراتيجية بالنسبة لهم. قائدهم الذي ظهر في الخلف وقف على مكان مرتفع يعاين المشهد أمامه، فيما وقف إلى يمينه مرافقه أو دليله. الصورة لا تحمل اسم المصور لكنها تحمل تاريخ ١٩٤١. احتفاظي بها بشكل مميز مع زميلاتها الأخريات يعني، بالإضافة إلى أهميتها بالنسبة لي، أنني حصلت عليها عام ١٩٦١ أو ١٩٦٢. وأول ما أعجبني في الصورة، فضلاً عن الهدوء "الشاعري" الذي سيطر على المشهد؛ الهدوء الذي ستطرده كل الحروب "الواقعية" اللاحقة، الزيّ النظيف الذي كان يلبسه الرجال الواقفون هناك. كأنهم لم يكونوا عسكريين بالنسبة لي، حتى البنادق التي صاحبتهم بدت في الصورة ثانوية، انزاحت خلف المشهد، فقط أشكالهم، وقفتهم النظامية، ملابسهم النظيفة، منظر النهر أمامهم، السماء، كل ذلك هو الذي احتل صدارة الصورة، حتى بدا لي بالفعل مشهداً استثنائياً، يثير الفضول، إن لم يثر الإعجاب. لم أعرف سبب السرعة التي ضرب فيها قلبي عندما رأيت ملابس



الكشافة عندما استدعانا معلّم الرياضة ليسألنا مَن يريد منا الانتساب إلى فريق الكشافة؟ ماذا يكون السبب إذن، إن لم يكن رؤيتي أو إعجابي بالزي الذي لبسه الجنود في الصورة هو الذي جعلني أرفع يدي في ذلك الصباح وأقول بحماس: "أنا، أستاذ، أنا، أريد أن أكون في الكشافة".

لم أربط بين ملابس أولئك الجنود والبنادق التي صاحبتهم وبين المهمة العسكرية التي كانوا عليها، لم أفهم. أو لم أعرف أن العام ذلك، عام ١٩٤١، كان عاماً دامياً في بغداد وأن الجنود هؤلاء هم جزء من الوحدات البريطانية التي قامت في ٢ أيار/ مايو ١٩٤١ بإنزال جوي، أولاً في الميناء العراقي البصرة، ثم بإنزال جوي آخر في قاعدة جوية في منطقة الحبانية غرب العراق، قبل أن تواصل زحفها باتجاه العاصمة بغداد وتدخلها في ٢ حزيران/ يونيو ١٩٤١، لسحق الانقلاب العسكري الذي قام به الكولونيل رشيد عالي الكيلاني في ١ أبريل/ نيسان ١٩٤١، بدعم عسكري من ألمانيا النازية، خاصةً وأن بعضاً من قواتها تمركزت آنذاك في سوريا المجاورة للعراق، المستعمرة السابقة لفرنسا والتي سقطت في يد ألمانيا الهتلرية أوتوماتيكياً مع سقوط باريس. أيضاً لم أعرف أن اليومين اللذين سبقا دخول القوات البريطانية لبغداد، أو عندما أصبحت القوات هذه



جنود بريطانيون يلقون نظرة على دجلة من جهة الرصافة في بغداد.



على أبواب المدينة ترددت في دخولها أولاً، وأن الفراغ الذي تركه هروب الحكومة الانقلابية وتأخر عودة الوصي عبد الإله (خال الملك فيصل الثاني) شجّعا الغوغاء على ارتكاب أعمال نهب وسطو وقتل استهدفت سكان العاصمة من اليهود في ١ حزيران/ يونيو ١٩٤١، خلال احتفالهم بعيد الشفوعوت اليهودي، تلك الأحداث التي أُطلق عليها "الفرهود" والتي انتهت بدخول القوات البريطانية في اليوم الثاني، لكن بعد أن راح ضحيتها حوالي ١٧٥ قتيلاً و١٠٠٠ جريح يهودي، كما تمّ تدمير حوالى ٩٠٠ منزلٍ تابعٍ لليهود، هذه الحادثة التي تركت أثراً عميقاً لدى اليهود العراقيين وساعدت على سرعة هجرة أكثر من ٨٠% منهم إلى إسرائيل عام ١٩٥١، بداية النهاية للوجود اليهودي في العراق الذي امتد لأكثر من ٢٦٠٠ سنة منذ السبي الذي تعرضوا له على يد الملك البابلي نبوخذ نصر. الحكومة الانقلابية لرشيد عالي الكيلاني، وقبلها الملك غازي الأول الذي توفى بحادث سيارة في بغداد ١٩٣٩، كانت معروفة بعلاقتها بألمانيا النازية، وهو أمر لعب دوراً كبيراً في التحريض ضد اليهود. سيارة المرسيدس كوبيه الفضية التي أهداها أدولف هتلر عام ١٩٣٦ للملك غازي، ثاني ملك على العراق، ما زالت موجودة في المتحف الخاص بالعائلة المالكة التي حكمت العراق من ١٩٢١ حتى عام ١٩٥٨ في بغداد.

تأجيج المشاعر ضد اليهود، كأنهم هم المسؤولون عن دخول الإنكليز إلى بغداد، كان إحدى الأوراق التي لعبتها الحكومة آنذاك، بالتوازي مع بثّ الإذاعة العراقية للبيانات العسكرية التي تخللتها أول أناشيد فاشية نشأت في العراق، تلك الأناشيد التي سبق وأن أوعز الملك غازي بنظمها عند إنشائه منظمة الفتوة والشباب على غرار المنظمات الفاشية، مثل نشيد "لاحت رؤوس الحراب تلمع بين الروابي"، و"نحن الشباب لنا الغد"، و"يا تراب الوطن ومقام الخلود ها نحن جئنا لما دعينا لنعود".

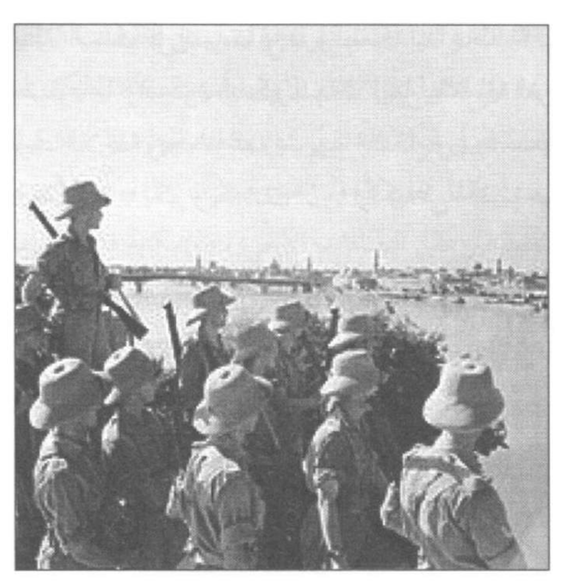
كل ذلك لم أعرفه في تلك الأيام، وكان عليّ أن أكبر لأعرف أن الأناشيد المذكورة أعلاه، التي كان علينا طوال دراستنا في المرحلة الإبتدائية أن ننشدها كل صباح في ساحة المدرسة عند ساعة رفع العلم الوطني، هي بقايا المرحلة الفاشية القصيرة تلك، وأن السلطات التي حكمت لاحقاً لم تفعل كغيرها سوى أنها سارت على ذات الخطى في غسيل المخ القومي للأطفال. أيضاً لم أعرف عدد الضحايا التي تركتها أحداث



الفرهود وراءها، ولا عدد الضحايا الأبرياء الذين سقطوا وقتلوا في حينه نتيجة القصف الجوي الذي جرى بين القوات الجوية البريطانية والمدفعية العراقية. حتى الدعم الجوي الألماني للانقلابيين ما كنت عرفت به لو لم أرَ لاحقاً، وبعد سنوات من حصولي على البطاقة البريدية تلك للجنود البريطانيين على ضفة نهر دجلة اليمنى على جانب الكرخ في بغداد، حطام هيكل طائرة فوكر ألمانية أسقطها الإنكليز، هيكل ظل جاثماً هناك حتى ساعة مغادرتي بغداد إلى المنفى في ٢٨ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٨٠. كل ذلك عرفته لاحقاً.

في ذلك الوقت شغلني الرجال الذين في الصورة: هندامهم، تنظيمهم، نظافتهم، لكن قبل كل شيء جذبني الهندام. بناطيلهم الكاكية اللون والقصيرة كانت تُظهر سيقان الجنود. قيل إن الناس في البصرة، حيث دخل الجيش البريطاني عام ١٩١٤، كما بعدها في بغداد، استغربوا منظر الجنود البريطانيين. رجال ببناطيل قصيرة؟ سيقانهم بادية للعيان؟ لم يكن حتى ذلك الحين منظراً مألوفاً بالنسبة لهم، الجيش العثماني كان يلبس بناطيل طويلة. ومَن لم يرمِ الجنود بالحجارة كما فعل الصبيان، أو مَن لم يدّعي أن العالم سينقلب وأن ساعة يوم القيامة قد حانت، كما صرح بعض رجال الدين، ظنّ أن الجنود البريطانيين جنّوا، وإلا كيف يلبسون بناطيل قصيرة في الصيف؟ ألا يخشون لسعات البق والحر الشديد؟ "ألم نقل إن البريطانيين قوم غريبو الأطوار، مجانين؟"، كما علّق جدي يوماً على تلك الأحداث.

لكنّ ذلك حدث عام ١٩١٤، في المراحل الأولى من دخول الجيش البريطاني إلى العراق. مع الوقت اعتاد الناس عليهم، بل راحوا يقلّدونهم حتى شاع ولفترة طويلة لبس البنطلون القصير، على الأقل بين أفراد الطبقة العليا في بغداد، كما شاع في فرق الكشافة، وهذا ما جعل وجودهم يبدو لي وبالزيّ الذي لبسوه بديهياً وروتينياً. لم أفكر في حينه أنهم ربما كانوا انتهوا من مهمة عسكرية للتو، كأن كانت تلك هي لحظة سقوط بغداد في يد الإنكليز مجدداً، كلا، كل ما شغلني هو لون الملابس الكاكية تلك، دون أن تخطر في ذهني أية علاقة لها بالعسكرية كسلوك، كمفهوم. فحتى ذلك الوقت لم يكن التلفزيون قد دخل بيتنا بعد، لأرى ماذا يفعل العسكر في مناطق مختلفة من العالم. ثم أنني لم أرَ، في الواقع، جنوداً بهذا المنظر. الجنود العراقيون من أبناء المدينة كان منظرهم مختلفاً عن هؤلاء، ملابسهم



دخول القوات البريطانية إلى بغداد عام 1917 من جهة الباب الشرقي.

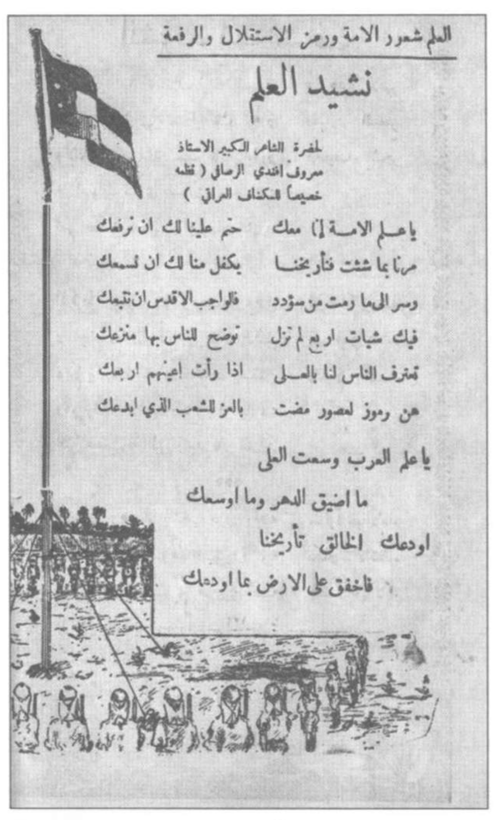
لم تكن أنيقة، مهلهلة، ملبوسة بدون عناية، وإذا رأيت أحدهم صدفة في السوق أو في الشارع، تجده دائماً يسير على عجل، وجهه حزين. أتذكّر جاراً في شارعنا، خدم في دائرة التجنيد في مركز المدينة، وكان كل يوم بعد نهاية الدوام الرسمي يمر في الشارع مسرعاً، لا يرفع عينيه عن الأرض، كأنه خجل من ملابسه، لا يصدق أنه سيصل إلى البيت لكي ينزع الملابس العسكرية ويلبس ملابسه المدنية. على عكس هؤلاء الجنود البريطانيين، الذين بدوا لي مختلفين في كل شيء: منظرهم وهم يقفون على مرتفع عند النهر، القبعات التي غطّت رؤوسهم، أكمام القمصان التي طووها ورفعوها إلى الأعلى، ومنظر النهر العريض، نهر دجلة الذي انسابت مياهه أمامهم بهدوء... كل ذلك جعلهم يبدون لي كما لو أنهم في نزهة، بل أكثر، كأنهم ذاهبون في رحلة استكشافية، خاصةً مع منظر التلسكوب الذي تخيلته بيد رئيسهم الذي كان يقف في مكان أعلى من البقية. ليس من الغريب، إذن، أنني لم أتردد طويلاً بالانتساب إلى فرقة الكشافة المدرسية في أول مناسبة قادمة: البنطلون القصير الذي يشبه بنطلون الجيش الإنكليزي، والقميص الكاكي النظيف و"الشَفْقَة" أو "السِدارة"، والمنديل الملون الذي سيُعقد بعناية عند الرقبة، أغروني مباشرةً بالدخول إلى فرقة الكَشافة، كأنني أردت تقليد الجنود الإنكليز الذين وقفوا على نهر دجلة

في البطاقة البريدية. أليست كل انتماءتنا في فترة الطفولة تبدأ عاطفية؟ نريد تقليد الكبار، دون التفكير بمضمون ما نراه، دون التفكير بتبعات الفعل. العاطفة الغريزية هذه بالذات هي ما يدمغ تجربتنا اللاحقة ويجعلنا نتصرف بهذا الشكل أو غيره. سعيد الحظ هو من لا يضطر للندم لاحقاً، عندما يكبر ويكتشف أن ما ارتكبه في الحقيقة هو شر وحماقات، ليس إلا!

أبي وجد في انتمائي للكشافة أمراً إيجابياً. قال لي إنّ ذلك ما رغب فيه في طفولته أيضاً. لكن حينئذ، في سنواته الأولى في المدرسة، لم يكن دخول فرقة الكشافة بالأمر السهل. كانت الكشافة لأبناء النخبة فقط، حتى إنها عند تأسيسها كانت محصورة

جنود بريطانيون في شارع النهر في بغداد عام 1917.

فقط في مدارس بغداد، وكان أغلب أفرادها ليس من الطبقات الراقية من المجتمع البغدادي وحسب، بل كانوا، في المقام الأول، أبناء العائلة المالكة، ثم أبناء الوزراء ووكلاء الوزارات. دخولي للكشافة لم يُذكِّره بشغفه فقط، بل أراه كيف أن الأزمان تغيرت، ولكي يثبت لي ذلك جلب لي في إحدى سفراته مجلة قديمة، **مجلة الكشاف العراقي** التي عثر عليها مثلما عثر على البطاقات الأخرى في مكتبة قديمة في سوق السراي. المجلة هذه صدرت أولاً في ١٥ حزيران/ يونيو عام ١٩٢٤، وكان صاحبها، محمود نديم، أحد رواد الحركة الكشفية والمشرف عليها في ذلك الحين في العراق. المجلة هي مجلة علمية تهذيبية تحتوي على موضوعات علمية وعملية كان هدفها نشر حركات


العلم شعور الامة ورمز الاستقلال والرفعة

نشيد العلم

لحضرة الشاعر الكبير الاستاذ معروف افندي الرصافي (نظمه خصيصاً للكشاف العراقي)

يا علم الامة إنّا معك — حتم علينا لك ان نرفعك
مر بما شئت فتاريخنا — يكفل منا لك ان نسمعك
وسر الى ما رمت من سؤدد — فالواجب الاقدس ان نتبعك
فيك شيات اربع لم تزل — توضح للناس بها منزعك
تعترف الناس لنا بالعلى — اذا رأت اعينهم اربعك
هن رموز لعصور مضت — بالعز للشعب الذي ابدعك

يا علم العرب وسمت العلى
ما اضيق الدهر وما اوسعك
اودعك الخالق تاريخنا
فاخفق على الارض بما اودعك

مجلة الكشاف العراقي.

الكشاف والعمل على نهضتها في العراق، وكانت، كما عرفت لاحقاً، مجلة نصف شهرية، صدرت منها – للأسف – بضعة أعداد ثم توقفت وعاودت الصدور ثانيةً عام ١٩٢٦، قبل أن تتوقف نهائياً. انحصرت اهتمامات المجلة بتعليمات ونشاطات الكشافة في العراق والعالم مثل: أصول تشكيل الفرق الكشفية، نصب الخيام، إقامة المعسكرات الكشفية، الألعاب الكشفية والرياضية والإسعافات الأولية، إضافةً إلى الأبواب الثابتة (أخبار كشافة الوطن، بين المجلة وقرائها). ولكي يريني أبي التغيير الذي حدث للكشافة، فتح المجلة أمامي. "هل ترى هذه الصور؟" سألني وهو يشير للصور التي زيّنت صفحات المجلة الداخلية، والتي كُتب تحتها: "سمو الأمير المعظَّم المحبوب ولي عهد العراق"، في حين جاء على الصفحة الأخرى ما يلي: "سمو الأمير الجليل قدمت أهلاً ووطنت سهلاً يبتهج بك العراق ويتقدم إليك الكشاف العراقي بتحية الإخلاص والولاء"، ثم وردت العبارات التالية: "العراق يودّ تباهي كشافته بسمو أميرها كما يتباهى الكشاف العراقي في يومنا هذا بأمير ويلس الذي شمل بعنايته كشافة شعبه". "إنه الملك غازي" قال لي أبي.

ثم حدثني عن قصة الملك مع الكشافة، والتي حدثت قبل ولادة أبي بسبع سنوات. قال لي: "بعد وصول الملك غازي إلى بغداد عام ١٩٢١، شعر والده الملك فيصل الأول بالحاجة إلى تطوير قدرات ابنه الذهنية والجسدية وبما يليق به كولي للعهد، لذلك أخضع ولده، الذي وُلد عام ١٩١٢، إلى سلسلة من التدريبات العملية والرياضية وكان من بينها انخراطه في فرقة الكشافة الملوكية التي أُسّست أصلاً بدافع إعداده وتطوير قدراته الحركية والرياضية. وبعد أن تأكد للقائمين على تربية الأمير أنه بحاجة إلى الاختلاط والبناء البدني، تقرّر تشكيل فرقة كشفية تضم أبرز الكشافين في المدارس البغدادية، ممن هم في عمر غازي، ولهذا الغرض صدر عن مركز الكشافة العام في بغداد كتاب جاء فيه: "ستتألف فرقة كشافة ممتازة باسم الفرقة الملكية المنتخبة وتكون هذه الفرقة مرتبطة بالمركز العام رأساً ولا تنتسب إلى فرق المدارس أما أفرادها فسينتخبون من الكشافة الحاملين علامة الدرجة الثالثة (الأرقى) من جميع الفرق ومن المحتمل أن ينتسب سمو الأمير غازي إلى هذه الفرقة". هكذا تمّ اختيار نخبة من الطلاب المتفوقين من أبناء الوزراء ووكلاء الوزارات والحكام في عام ١٩٢٥، وتم إبلاغهم بالحضور إلى



البلاط الملكي لهذا الغرض، وهناك قابلوا الملك فيصل الأول الذي كان مهتماً جداً بأمر الفرقة وطلب منه ومن بقية الحاضرين من الطلبة أن يبذلوا قصارى جهدهم من أجل التطور وإتقان الألعاب الكشفية والتعامل مع ولده ككشاف وليس كأمير!". ولكي يمزح أبي معي قال لي: "إن الأمير غازي كان مثلك ضعيف البنية ويُقال إنه كان أقل الجميع قدرةً على الحركة واستيعاب المفردات الكشفية حتى أنه أثناء التدريب كان خجولاً جداً وغير قادر على الاستعداد والاسترخاء مثل بقية أعضاء الفرقة المتمكنين، وكثيرا ما كان يصاب بالتعب بعد أقل مجهود يبذله، علماً أن الفرقة كانت تتدرب مرتين في الأسبوع". "ربما تتساءل - قال لي أبي - لماذا أُختيرت الكشافة لتربية غازي بدنياً و لم يُزجّ في فعاليات رياضية أخرى؟ أجيبك بأن العديد من الألعاب الرياضية لم تكن معروفة آنذاك لا في العراق ولا في بغداد على وجه الخصوص، كما إن الملاعب والقاعات والاتحادات الرياضية لم يكن لها وجود، وكانت الكشافة هي الرمز الأعلى للنظام وتقوية صلات العلاقة بين الفرد وجماعته ومجتمعه، كما هي الوسيلة الوحيدة التي يضمن فيها الملك فيصل الأول تربية ولده بدنياً واجتماعياً وجعله أقرب إلى واقع حال عصره في بغداد. ولذلك اختيرت للفرقة الكشفية مجموعة من الصغار الأذكياء الذين هم في مقدمة فرق الكشافة في بغداد، وصاروا في يوم ١ كانون الثاني/ يناير ١٩٢٦ بمشاركة ثلاث وعشرين فرقة كشفية مثلها ٣٠٠٠ كشاف هم أعضاء الفرقة الملوكية". "أنت منذ اليوم، يا ولدي، لا خوف عليك"، قال لي أبي، لكن بلهجة جاءت من صميم قلبه، خالية من أية نبرة ملوكية متعالية، "لا تعرف ما ستجلب لك الكشافة من فوائد إيجابية".

فيما خصّني، لا أدري إذا صنّفت انتسابي لفرقة الكشافة أولاً في مرحلة الدراسة الابتدائية، ثم فرقة الجوالة لاحقاً في الدراسة المتوسطة والإعدادية، أمراً جيداً. أعرف أن الصنفين كانا محاولة لتربية الناشئة على الالتزام والطاعة، لكنني أعرف أنهما تأسسا أيضاً على حب المغامرة والفضول، ناهيك عن زرع الثقة والاعتماد على النفس، وهذا ما جعلني أرغب بالانتماء لها، إذا نحينا السبب الرئيسي: أناقة زي الكشافة.

الصديقة الشاعرة والروائية السورية التي تعمل وتقيم في باريس سلوى النعيمي (صاحبة الـ"بيست سيللر" **شهد العسل**) كتبت إلي عام ١٩٩٨م، وهي تهدي لي مجموعة



قصصية لها، "إلى نجم جوّال الآفاق والكلمات"، ولا أدري إذا أصبحت أنا ما أصبحت عليه جوالاً في الكلمات لو لم أكن أصلاً جوالاً في الآفاق، أطوف في العالم مثل "بحّار على اليابسة"، كما أطلق الأندلسي الشاعر رافائيل البرتي على ديوانه الأول، أو لو لم أدخل فرقة الكاشفة وبعدها الجوالة؟

لا أستطيع أن أحصي الرحلات التي قمنا بها في ذلك الوقت، لكنني أعرف أنها لا تُحصى. في فترة الكشافة ذهبنا فقط إلى القرى والأرياف القريبة: المشتل (منطقة حفظ بيئة) على طريق الكحلاء أو مسعيدة، بساتين قلعة صالح، المنطقة الرئيسية إن لم تكن العاصمة بالنسبة لطائفة الصابئة المندائيين، أهوار العمارة، هور الصحين عند ناحية الميمونة (اليوم قضاء الميمونة)، هور الطويِّل (عند ناحية السلام)، هنا كدت أن أغرق وأخرجني زميل لي من الكشافة، وأسماء أخرى لا تحضرني، لكن كلها تابعة للواء العمارة، أو ما يُطلق عليه محافظة ميسان الآن. وفي فرقة الجوالة وحدها قمنا برحلات إلى مدن قريبة، إلى البصرة، إلى مدينة الكوت، وغيرها من الأقضية والنواحي التابعة لتلك المدن. رحلات عديدة، بعضها نسيتها وبعضها الآخر ما زالت ذكراها عالقة في الذهن، مثلاً: الرحلة إلى منطقة الطِيب، أو منطقة الجزيرة. ففي السهوب الواسعة الجرداء الواقعة بين إيران والعراق، كان من الممكن أن يتيه المرء، أن يتحول إلى جوّال



نجم والي بين زميلين له من فرقة الكشافة المدرسية (تحسين علي وقيس مراد) في العمارة، في الصف السادس الابتدائي عام 1968.



فعلاً، يدور ربما في المكان ذاته ولا يعرف أنه تاه، هذا ما حصل لنا: تهنا! ولا أعرف لماذا أخطأت البوصلة التي كانت عند المسؤول عنّا، مدرّس الرياضة بالوكالة لأنه كان أستاذ اللغة الإنكليزية أصلاً، الأستاذ ماجد، أو ربما، لغروره وتعاليه اللذين عُرف بهما، لم يحمل معه أية بوصلة. ففي لحظة ما لم نعرف إذا كنا في الأراضي العراقية أم في الأراضي الإيرانية، إلى حين رؤيتنا راعيَ غنم مع قطيعه. سألنا الراعي عن مكاننا فقال لنا بلهجة عرب الأهواز: "أنتم في إيران"، ثم دلّنا على الطريق الصحيح الذي علينا أن نعود فيه إلى العمارة. ما زلت أتذكّر وجه المدرس الذي شحب حتى اختفى الدم منه لخوفه، عندما عرف أننا في إيران. لكن المفارقة الكبيرة التي لا يمكن لي أن أنساها أبداً، من غير المهم كم سنة مرّت على ذلك، هو طلب الراعي منا، وقبل أن نسلك طريق العودة، أن نوصل تحياته إلى رئيس الجمهورية العراقية، الزعيم عبد الكريم قاسم! أمر غريب، إن لم يكن طريفاً. نعم، عبدالكريم قاسم. لم يعرف الراعي أننا كنا في عام ١٩٧٠، وأن الزعيم محبوبه، الزعيم عبد الكريم قاسم، قُتل في انقلاب البعثيين الدموي في ٨ شباط/ فبراير ١٩٦٣. اليوم كم أحسد الراعي هذا على جهله ذاك! أعوام السبعينيات هي الأعوام الأخيرة من انتشار الرعاة هناك، الحرب العراقية الإيرانية في ٢٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٠ فاجأتهم جميعاً بالتأكيد، منذ ذلك الحين وحتى اليوم لا مكان لقطعان الماشية والرعاة. منطقة الطِيب أو الجزيرة، المنطقة الغنية بالنفط، هي مزرعة كبيرة للألغام، إن لم تكن تحولت وعلى مدى السنوات الثمانية للحرب إلى مقابر جماعية للجنود. لا يزال أهالي العمارة يرون كيف أنه في أيام الأمطار الشديدة تجرف السيول القوية معها بعض الألغام.

في زيارتي الأولى للعراق، في يناير/ كانون الأول ٢٠٠٤، وقفت هناك مع صديق طفولة لي كان معي في فرقة الجوالة، شربنا نخب ذكرى الأيام الماضية، ذكرى الطِيب الآخر، عندما كان الأفق مفتوحاً أمامنا، أقرب لنا من السماء، شربنا وبكينا، لكن ضحكنا وشتمنا العالم أيضاً إلى حدّ البكاء. آه يا أيام الجوالة التي مضت! ماذا فعلت البلاد بنا، وماذا فعلنا نحن للبلاد؟ أين هم زملاؤنا الذين كانوا أرقّ من ندى فجر وأحلى من تمرٍ مطبوخ؟ كلهم ذهبوا، بعضهم قتلته الحرب، قيس مراد مثلاً، والبعض الآخر ضاع في عذاب المهنة وتربية الأولاد، تحسين علي يوسف وجاسب بدر مثلاً، شابا مبكراً صديقاي الجميلان. في ذلك اليوم، ودون أن أدري أنني في وقفتي تلك في

منطقة الطِيب، إلى جانبي وعلى مرتفع صغير وقف صديقي الذي رافقني إلى هناك، كنت كأنني أقلّد صورة الجنود الذين وقفوا في الصورة قبل سبعة عقود وثلاث سنوات. لم يكن دجلة أمامنا، ولا أي نهر آخر، وحده الأفق امتد متلألئاً في البعيد. كم بدا المشهد هادئاً أمامنا، وحده الهواء يتحرك، فيما وقفنا نحن الاثنان في البرية بلا حراك، ربما التفتنا مرة أو مرتين حوالينا، لكي نتأكد أننا الوحيدان اللذان وقفا هناك. الجنود في البطاقة البريدية بدوا كأنهم يترقبون ما سيأتي، فيما بدونا نحن كأننا خرجنا للتو من معركة. باستثنائنا، لم يخرج منها أحد على قيد الحياة!



الزعيم عبد الكريم قاسم والدكتور عبد الجبار عبد الله رئيس جامعة بغداد.

٨

صور بالأسود والأبيض

عربات ربل ومحطات عالمية
وقطار موت وكنائس وسينمات

أظن أنّ التنوع الذي جسّدته البطاقات البريدية التي احتفظت بها هو ما جعلني أتخيل عالماً أكبر من العالم المحيط بي. بدون الصور تلك ما كان مقدراً لي أن أصوغ تأملاتي الأولى للعالم، العلاقة بين المكان والفرد. في كل صورة وجدت طريقاً جديداً أو معادلاً له علاقة بي. لا يهمّ أنني لم أعرف كنهه غالباً، إذا لا أقول دائماً. لكن عدم المعرفة تلك لم تلغِ شعور المتعة والفضول، على العكس مع كل صورة نشأت صور أخرى سيزدحم بها الرأس، ومع هذه الصور، هذه التي ازدحمت في الرأس، بدأ مشواري في الحياة، ومن مكاني الصغير، من بيتنا الصغير في محلة المحمودية الذي كان عليّ تقاسم غرفة صغيرة منه مع جدي وجدتي، قبل ولادة أخواتي لاحقاً ونومهم معي في الغرفة ذاتها، من طفولتي البسيطة والمحدودة بالمكان ساعدتني الصور على شق طريقي، أولاً عن طريق الخيال، وثانياً عندما بدأت بالكتابة. وشكراً للصور وما تحمله من قوة. نحن نرى دائماً صورة لكننا في الوقت نفسه نرى صورتين: الأولى أمامنا كائنة، والثانية هي التي ستكون، امتداد للأولى، تتطور أولاً



في عمق الصورة ذاتها، قبل أن تشق طريقها وتخرج وتدخل في الرأس. صورة تلد صورة، وخيال يلد خيالاً، ومدينة تلد مدينة. ذلك ما حصل لي، سواء في عمر الطفولة ذاك أو لاحقاً عندما كبرت وقررت أن أصبح كاتباً.

ليست حياتي ونشاطي وهواياتي وحسب، بل حتى القصص الشفاهية التي رويتها وأنا صغير، والقصص القصيرة التي كتبتها لاحقاً، ما كانت تشكلت بدون صور بغداد هذه، كأنني كنت بحاجة لنقطة ينطلق منها خيالي، وفي هذه الحالة كانت النقطة بغداد. أليس ذلك ما نفعله عند كتابة رواية، أو رواية قصة ما؟ أولاً الموضوع، الواقعة التي تنطلق منها القصة، ثم بناء القصة عليها، كل ما يأتي بعد ذلك له علاقة بالخيال، وكلما كان محبوكاً بصورة جيدة كلما أصبح أكثر قوةً من الواقعة ذاتها التي تأسست عليها القصة. نفس الشيء حدث لي مع صور بغداد. الصور الأساس الذي بنيت عليه مدينتي التي تخيلتها بعناية. ومثلما سأختار بعناية مواضيع قصصي لاحقاً عندما سأصبح كاتباً،

عربات الربل التي تجرها الخيول عند القصر الأبيض في بغداد في الثلاثينيات.



اخترت صوري أيضاً بعناية، كأن الصور تلك خصتني وحدي. كنت مثل من قرر اختيار المواضيع التي ستهمه أو ستشغل حياته أكثر من غيرها، دون أن أدري أنني لم أفعل غير أنني بهذا الشكل لم أبنِ غير مدينة في خيالي بكل ما حوته من تنوع وألوان، أو أنني بهذا الشكل لم أصرّ على واقعية هذه المدينة، كلا، ليس ذلك وحسب، بل وضعت عن طريق سلوكي ذلك أيضاً الأساسات الأولى لحياة هي الأخرى تسير باتجاه تنوعها واختلافها أكثر مما ذهبت فيه الصور تلك. لا صورة لوحدها مطلقة، مثلما لا حقيقة مطلقة هناك. كأنني أنا المسؤول عن الصور هذه، أنا من يمنحها حاضراً، وجوداً غنياً ومستقبلاً سيبداً لحظتئذ، بل كأنها لا تعود موجودة بدون ما أضيفه إليها من حياة، خاصةً تلك الصور التي لم تحمل تاريخاً قديماً، أو لها قصة، قبل أن تبدأ برواية حكاية صورة ما لي. فبطاقات بريدية مثل بطاقة جامع الخلفاء، بطاقة قبر زمرد خاتون، لكل واحدة منها قصتها، بل حتى بطاقة الجنود الإنكليز في وقفتهم عند نهر دجلة تروي قصتهم الخاصة بهم، وإن لم ترِوها أمي، لكن الصور الأخرى قدّمت ما أطلقت عليه أمي دائماً "منظر من بغداد"، وكانت تكتفي بأن تقول عنه: "شلون منظر حلو!" أو "شلون منظر يفتح القلب"، وهذه المناظر التي تفتح القلب هي التي جعلت مخيلتي تذهب بعيداً، مرة عن طريق أسئلتي الكثيرة التي لا أحصل إلا على إجابات مقتضبة عنها، أحياناً، أيضاً، لا جواب، ابتسامة فقط من أمي، أو ضحكة من أبي، يصاحبها تعليق: "نجم لا يترك شيء إلا ويريد قصته"، "كل شيء يريد له قصة". ولم يتردد في بعض المرات، خاصةً تلك التي ألحّ بها عليه أن يحكي قصة هذا الشيء، من التأكيد عليّ: "ستكبر وتدخل للجامعة وسترى المنظر بعينك"، كأنه كان متأكداً من بقاء المكان "المنظر" دون أن يعرف أنه بجملته تلك لم يفعل غير أن يشحن دماً جديداً في خيالي يُضاف إلى الدم الذي ضخّته الصور أصلاً. أمسك الصورة "المنظر"، أتأملها، أصفن لدقائق وأرحل بعيداً عن المكان الذي جلست فيه، مرات عديدة تخيلتني أزور المكان "البعيد" هذا، لكن الموجود في عمق الصورة، أزوره في يوم ما، إن ليس قريباً بصحبة أبي في نزهتي المتخيلة معه، فعلى أبعد تقدير عندما سأكبر وتصبح الطفولة ذكرى بعيدة في بُعد الأيام، وإن حدث ذلك فعلاً بعد سنوات، أقصد بعد نسياني الصور تلك، أو بعد توقف أبي من العمل على طريق العمارة – بغداد، وزيارتي الأولى لبغداد. أعرف أن ليس للتخيل حدوداً، وأنه يمنح

أجنحة لمن لا جناح له للطيران. "السماء لمن يجيد الطيران"، لا أدري من قال ذلك، رغم أنني أدري أنني ما كنت حفظت الجملة تلك التي رأيتها مطبوعة ذات يوم على بطاقة بريدية لو لم تكن بغداد السماء التي سعيت للوصول إليها، زادي البطاقات البريدية تلك، وكل بطاقة منها هي علامة لانشعالٍ لاحق أو خيال.

لنتأمل البطاقات البريدية بالأسود والأبيض مثلاً. البطاقة التي تظهر فيها بغداد عام ١٩٣٠، عربات الربل، أو العربات التي تجرها الخيول، وحدها في الشارع، فيما ظهرت سيارة قديمة من موديلات ذلك الزمان. سيارة أميركية بالتأكيد لونها أسود، كنت أرفض أن تكون موديل شيفروليه، لأن سيارة الشيفروليه التي امتلكها أبي كانت بيضاء اللون، والسيارة هذه سوداء، لم أعرف لاحقاً أن كل السيارات الأميركية في الماضي كانت سوداء اللون، على الأقل حتى عام ١٩٥٠، عندما بدأت شركة شيفروليه أولاً بتصنيع سيارات ملونة، لكي يودع الأميركان "ذه فورتي ديبريسيز يريس" (سنوات الأربعينيات الحزينة) لكي ينطلقوا في الحياة. **دع القلق وابدأ الحياة** كان كتاب "البيستسيلير" في الخمسينيات. لكن تعلقي بالبطاقة البريدية هذه ليس بسبب عربة الربل، فالعمارة هي الأخرى لم تخلُ من هذه العربات، بل امتلكت أجمل العربات، واحدة منها ستتحول إلى شخصيات رئيسية في إحدى قصصي القصيرة الأولى التي كتبتها، "صهيل بشري". كلا، لم أحتفظ بالبطاقة لهذا السبب ولا لوجود السيارة الأميركية السوداء، ولا للجندي البريطاني الذي ظهر في الصورة يلبس نصف بنطلون، بل احتفظت بها بالتأكيد قبل كل شيء بسبب البناية التي ظهرت في الصورة: القصر الأبيض. البناية التي بدت لي جميلة بأناقتها، بدت لي أقرب للأسطورة أيضاً. إذ كيف من الممكن أن يكون القصر الأبيض هذا بكل ما ملكه من أبهة وفخامة محطة للعربات "الكاري أو الكاريات" أيضاً؟ أماكن وقوف العربات في العمارة، مثلاً، تتوزع على ثلاثة مواقع: الأول موقف رئيسي عند رأس السوق المسقوف، على جهة النهر من شارع دجلة، الموقفان الآخران في أوقات معينة فقط، في ساعات المساء عند مدخل سينما الخيام الشتوي والصيفي وعند مدخل سينما الثورة الصيفي فقط، بانتظار العائلات التي تخرج من السينما بعد انتهاء العرض المسائي. ثم، في العمارة كما أعرف هناك المنطقة الراقية "سبعة قصور"، ولم أرَ فيها يوماً محطة لوقوف العربات. حسناً، بعض العربات تنقل ركابها من مركز

مدينة العمارة أو من السينما إلى هناك، تعويضاً عن التاكسي الذي لم يكن شائعاً آنذاك. فمدينة صغيرة مثل العمارة كان يمكن قطعها مشياً على الأقدام، شمالاً وجنوباً، خلال نصف ساعة على أكثر تقدير، لا تحتاج تاكسي، لكن عربات ربل نعم، خاصةً وأن أغنياء المدينة لديهم سياراتهم الخاصة، وإذا تنازلوا عن التنقل بها، فعن بطر ليس غير. الصعود في عربات الربل هو بالنسبة للكثير منهم نوع من المتعة أيضاً، تأجير عربة هو دليل نعمة حقيقة. لم أعرف إذا كان الأمر هو نفسه في بغداد، رغم أن ركّاب العربة في الصورة يقولون لي إنهم ليسوا من طائفة الأغنياء، لم أسأل أمي. ثم لماذا أسألها والأمر لم يشغلني؟ ما شغلني فقط هو منظر القصر الأبيض ووقوف العربات أمامه. صحيح أن المشهد بدا لي ملتبساً، غامضاً، عصياً على الفهم، لكنه بدا لي لهذا السبب بالذات أمراً مفهوماً، له علاقة بعالم بعيد عني، صعب المنال، ليس لأنني وحتى ذلك الحين لم أصعد في إحدى تلك العربات، بل لأن العربات تلك بدت لي وهي تنطلق بخيولها أقرب إلى تلك العربات التي سمعت عنها في القصص، كيف أنها تسير مثل أسهم في الهواء، خيولها تخبّ بحماس، تصهل في صوت يتقاطع مع الصوت الذي تُحدثه عجلاتها، إيقاعات تحلّق في البعيد، تأخذني إلى أماكن معبأة بالأسرار. ألم يرتبط الاثنان معاً في القصص الأسطورية التي سمعتها من جدتي: القصور والعربات؟

إذاً، كل عربة غواية بالرحيل، وكل قصر فنطازيا تُغري بالاكتشاف!

الانطباع الذي تركته عندي البطاقة البريدية هذه هو قريب من انطباع لاحق بعثته عندي مباشرةً بطاقة بريدية أخرى، ارتسمت عليها هذه المرة صورة المحطة العالمية



المحطة العالمية للقطار في بغداد عام 1960.



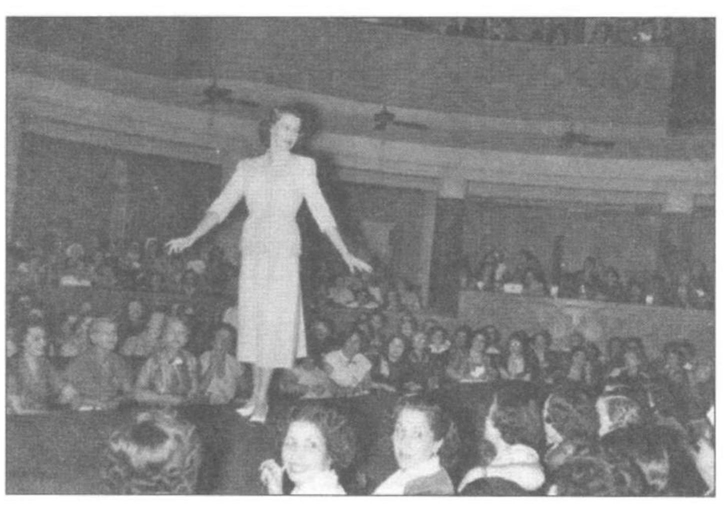
للسكك الحديدية، ليس بشكلها الأول الذي أريدَ لها أن تكون عليه عندما تمّ الشروع ببناء خط سكة حديد قطار الشرق الذي أريدَ له أن يربط برلين – بغداد – البصرة، إن لم يُخطّط له بأن يتجاوز حتى البصرة وينتهي عند الكويت التي كانت تابعة لإقليم البصرة آنذاك، بل بشكلها اللاحق كما أصبحت عليه بعد الانتهاء من بنائها عام ١٩٥٢، لأن المشروع الأول الذي كان في الأصل فكرة اقترحها عام ١٨٨٨ الإمبراطور الألماني فريدريش فيلهلم الثاني على السلطان العثماني، عبد الحميد الثاني، من أجل كسب وده، المشروع الذي أُطلق عليه بالخط العريض والذي شُرع العمل به في ٢٧ تموز/ يوليو ١٩١٢، من بغداد باتجاه الشمال، فاجأته الحرب العالمية الأولى، و لم يصل أبعد من سامراء التي تبعد عن بغداد مسافة ١٤٥ كم، الأمر الذي جعل البناية الأولى مجرد رسم خلّد نفسه على شكل تخطيط بناء، أو على شكل أسطورة ما زالت ذكراها تُستعاد حتى اليوم من وقت إلى آخر، مثلها مثل كل أسطورة بعيدة المنال، أو مثل حلم لم يتحقق، ولا يهم أن محطة بريطانية نشأت على أنقاضها. المحطة البريطانية هذه التي في الصورة، والتي كانت فخمة في زمانها، بل ولا تزال رغم جور الزمن عليها وما مرّ عليها من مصائب وأحداث، هي: محطة قطار وحسب. هكذا هي بالنسبة لأمي: محطة! كانت أمي تكتفي بهذا الجواب. ولأن ليس هناك قطاراً في الصورة، مثلما ليس هناك محطة قطارات في العمارة، كان عليّ تخيل القطار والمحطات التي يمرّ بها. ساعدتني في ذلك بعض أغاني الراديو، الموسيقار المصري محمد عبد الوهاب كان يغنّي "يا وابور قل لي رايح على فين"، والوابور في اللهجة المصرية هو القطار الذي كانت ماكنته تعمل على الفحم. "ذبني القطار بليل"، غنّى المطرب العراقي حضيري أبو عزيز. القطار والسفر. تخيل القطار وحده جعل أجنحة التخيل تنمو عندي بسرعة. الغريب هو أن قصائد الشعراء الشعبيين عندنا، خاصةً في سنوات السبعينيات، اكتظّت بالمحطات والقطارات والعشاق الذين ارتبط حنينهم بالانتظار وأصوات القطار، رغم أن العديد من المدن العراقية لم تملك محطات قطار، أو بعضها كانت لها محطة قطار، لكنها أصبحت في عداد التاريخ. مدينة العمارة مثلاً كان لها خط سكك حديد ربطها جنوباً بميناء البصرة، لكن الإنكليز، الذين يعود الفضل لهم ببناء هذا الخط، يعود لهم الفضل أيضاً بإلغائه؛ فضّلوا عليه النقل النهري، أو أرادوا أن يظل النقل نهرياً لكي تحتكر حركة النقل شركة "لنج"



كنيسة تارزيا للاتين الكاثوليك في السنك في بغداد.

للنقل البحري لوحدها، أو ربما أرادوا جعل التنقل بين المدن الجنوبية صعباً لكي يعرقلوا حركات التمرد ضدهم. ربما أحد هذه الأسباب يصحّ، وربما كلها.

كان من الطبيعي، إذاً، أن تستوقفني المحطة، ليس فقط لأن أمي نطقتها بطريقة خاصة، وهي تمط الكلمة، "محطـــة"، قفلتها بلوعة، بآهة صعدت من القلب، بل أيضاً لأن وحده اسمها، "المحطة العالمية"، سيثير الخيال عندي، رغم أنني لم أعرف عنها شيئاً في ذلك الوقت. أعني، لم أعرف أن المحطة هذه التي وُضع حجر الأساس لها في موقعها الحالي في جهة الكرخ من بغداد عام ١٩٤٨، والتي سُمّيت بالمحطة العالمية لأن فكرة إنشائها دارت حول أنها تكون تقاطع طرق بين الشرق والغرب، حيث إيران من الشرق وسوريا وتركيا من الغرب، هي واحدة من مبانٍ أخرى لا تزال شاخصةً حتى اليوم في بغداد، أنجزها معماري بريطاني رائد ترك بصماته على العمارة العراقية منذ بدايات القرن الماضي: المعماري الإنكليزي جيمس موليسون ولسون ١٨٨٧–١٩٦٥، كلا، مثلما لم أعرف أيضاً أن طراز بناء المحطة كان لا بدّ أن يثير خيالات غامضة عند صبي مثلي، لفرادته، لحداثته، نوعه الجديد، وأن الطراز المعماري هذا ما جاء بهذا الشكل لو لم يُنفَّذ حسب تصورات المعمار البريطاني ولسون. كان ولسون، وقبل أن تُتاح له فرصة العمل في العراق بصحبة القوات البريطانية عام ١٩١٨، معمارياً



عرض أزياء في قاعة الشعب، بغداد، عام 1956.



معروفاً في زمانه صاحب خبرة معمارية طويلة في إيرلندا وفي العاصمة لندن وفي الهند البريطانية آنذاك. وهذا ما يمكن رؤيته في المحطة، فهي توأم لمحطتين بنيتا أيضاً من قبله، إحداهما في الهند والأخرى في لندن. برجا المحطة وحدهما يؤكدان هذا التأثر، فهما يضمّان ساعتين إحداهما تحمل أرقاماً هندية عربية والثانية تحمل أرقاماً إنكليزية، كما تشابه دقات ساعاتي المحطة العالمية في بغداد دقات ساعة "بيغ بِن" الشهيرة في لندن. (الساعتان هاتان تعرضتا، كحال بناية المحطة، إلى السلب والنهب والحرق بعد عام ٢٠٠٣. لحسن الحظ أُعيدت الحياة لهاتين الساعتين بعد جلب أجزاء بدل التالفة من بريطانيا وهما اليوم بكامل عافيتهما وتتردد دقاتهما في سماء بغداد).

ولسون (ومعه شريكه لاحقاً هارولد ميسون) عثر كما يبدو في بغداد بعد الحرب العالمية الأولى على فرصة جديدة للبدء بمشروع إقامة الدولة المدنية، في تنفيذ مشروعه المعماري وتطبيق رؤيته الجمالية بالشكل الذي أراد أن تكون عليه العمارة الحديثة والمدينة. عام ١٩٢٠، عام تأسيس الدولة العراقية، ترأس ولسون قسم الإنشاءات الذي سُمّي فيما بعد قسم الأشغال، ثم دائرة الأشغال. ويمكن القول إن ما بناه هذا المعماري ومكتبه المشترك منذئذ، من إنشاء جامعة آل البيت في الأعظمية في جهة الرصافة من بغداد، مروراً ببناء كنيسة سانت جورج الأنجليكانية التذكارية في كرّادة مريم في بغداد عام ١٩٣٦، والتي أُطلق عليها اسم "تذكارية" لأنها أريد لها أن تكون كنيسة تذكارية لذكر الجنود الإنكليز الذي سقطوا قتلى في العراق في الحرب العالمية الأولى بمواجهة الجيش العثماني (التركي)، وانتهاءً بإنجاز أعمال بناء محطة بغداد العالمية للسكك الحديد ١٩٤٨-١٩٥٢، فضلاً عن تصاميمه الإنشائية الأخرى لأبنية وقصور ومطارات ومؤسسات دولة ناشئة تحت إدارة بريطانية، أسّس الملامح الرئيسية لتوجه معماري جديد بدأ مع بدايات القرن العشرين يربط بين التراث المعماري القديم وبين طراز حديث يلبّي متطلبات العصر. ولسون، حسب ما يقول الذين عاصروه، أو حسب ما توحيه آثاره المعمارية، شغل نفسه كثيراً بزيارة المواقع الأثرية القديمة في بابل وسامراء والمواقع العباسية وأبواب بغداد التي كانت قائمة آنذاك، الباب الوسطاني والباب المعظم مثلاً وغيرهما من أبواب بغداد المعروفة، كما زار بقايا جامع الحجّاج في واسط (١٦١ كم جنوب بغداد) وجامع طيسفون في سلمان باك (المدائن حالياً) (حوالي ٤٠ كم إلى

الجنوب الشرقي من بغداد)، بالإضافة إلى زيارته لملوية سامراء (١٢٥ كم شمال بغداد) وتفقّده بقايا قصر المعشوق (١٥ كم شمال سامراء). إعجابه بطريقة العقد في التسقيف جعله يدرس موازناتها الفيزيائية وعناصر ثباتها وتناغمها مع البيئة. تصاميمه وإنشاءاته تشير إلى تأثره بالقباب والأقواس والعقود وجعلها ثيمةً أساسية وباعثاً تصميمياً ملهماً بمثابة حلٍ معماري ينقل خبرة المعمار العراقي منذ أقدم الحضارت. المهم كل هذه هي معلومات لاحقة، مثلها مثل معرفتي بالأحداث التاريخية التي مرت بها المحطة، أهمها قصة قطار الموت في صيف عام ١٩٦٣ (عام أول انقلاب بعثي دموي في العراق) الذي انطلق منها وهو يحمل مجموعة من الشيوعيين والمعارضين باتجاه مدينة السماوة ثم معتقل نقرة السلمان الصحراوي. حُشِر المعتقلون في عربات شحن مغلقة، بدون ماء وهواء، وعندما علم سائق القطار، البغدادي عبد عباس المفرجي، من شخص انتظره في محطة الحلة الواقعة على الطريق، قال له: "إنك لا تحمل بضاعة. تحمل بشراً أحياء"، عرف أن الوسيلة الوحيدة لإنقاذ الجموع البشرية تلك، لكي لا تختنق في العربات المغلقة، هو مضاعفة سرعة القطار التي كانت بطيئة في ذلك الوقت، لكي يصل إلى سجن السماوة قبل مفارقتهم الحياة، حتى نجح في مسعاه. عبد عباس المفرجي (الذي سيصبح ولداه لاحقاً صديقين لي، الابن الأكبر مظهر الذي عاش منفاه الطويل في لندن قبل أن يموت لاحقاً بسكتة قلبية بعد عودته إلى بغداد بعد سقوط صدام حسين، وابنه الأصغر علاء المفرجي، المحرر الثقافي لصحيفة المدى التي أكتب لها منذ سنوات عموداً أسبوعياً) وصلت شهرته لاحقاً كل أطراف العراق: سائق قطار الموت، ذلك هو اللقب الذي حمله، لقب اقترب من الأسطورة حقيقةً، لكن قاده إلى حتفه أيضاً، فقد اعتُقل بعد حادثة القطار وفُصل من العمل. أُطلق سراحه وأعيد للعمل عام ١٩٦٤، لكنه اعتُقل أكثر من مرة بعد تسلّم البعثيين السلطة من جديد عام ١٩٦٨ (آخرها وله من العمر ٧٣ عاماً. فبسبب نشاط أبنائه السياسي استُدعي عام ١٩٨٧ إلى مديرية الأمن العامة في بغداد في ساعات الصباح الباكر، عندما حضر أحد الضباط لاصطحابه من البيت، هو الرجل المُسنّ والمتعب، أطلقوا سراحه في المساء، وبعد عودته إلى البيت توفى مباشرةً، رغم أنه لم يكن يشكو من شيء قبل اعتقاله).

كل هذه وغيرها من المعلومات والتجارب التي ستقدّم لي نفسها لا علاقة لها بالمحطة



سينما الزوراء في شارع الرشيد عام 1960.

التي قدّمت نفسها لي في البطاقة البريدية (المعايدة) ولا لها علاقة بالمحطة، محطة أمي. كان لا بدّ لي أولاً من اختراع المحطة، محطتي. ففي ذلك الوقت، في وقت نمو ريش أجنحة الطيران الأولى لي، كان يكفي أن تقول لي أمي "ماذا يعني القطار" وهي تقلّد صوته وينفث دخانه. ففي ذلك الوقت كانت القطارات لا تزال بخارية ومترية، تعمل بالفحم، وعرض سكتها الحديدية متر واحد (بعد سنوات ستصبح القياسية التي بلغ عرض سكتها ١,٢٠ متراً)، أو كان يكفي أن أسمع حضيري أبو عزيز وهو يغنّي "ذبني القطار بليل"، أو محمد عبد الوهاب وهو يغنّي "يا وابور قل لي رايح على فين"، نعم، كان يكفي كل ذلك لكي أتخيل مدناً بعيدة، مدناً غير مرئية، إذا استعرت هذه التسمية من الإيطالي إيتالو كالفينو، لكي أصل إليها كان لا بدّ لي أولاً من الوصول إلى محطتي الأولى، محطتي الرئيسية التي سأنطلق منها: محطة بغداد!

الريش ذاته نما على أجنحة الصغير نجم عند رؤيته ثلاث بطاقات أخرى:

الأولى: البطاقة التي تصوّر كنيسة اللاتين، واحدة من أعرق وأقدم كنائس العراق، إن ليست أضخمها. ٧٠ كنيسة ودير وكاتدرائية امتلكت بغداد، على العكس من مدينة العمارة. كانت هناك كنيسة واحدة: كنيسة أم الأحزان، التي كانت كنيسة الأرمن بالأصل. ثم أنها كنيسة بسيطة، لا تملك ضخامة كنيسة اللاتين في بغداد، ولا قدمها. كنيسة اللاتين، أو كنيسة السيدة العذراء كما يُطلق عليها، التي تقع قريباً من جامع الخلفاء في الشورجة، يعود تاريخ بنائها إلى عام ١٨٧١، في العهد العثماني. في الحرب العالمية الأولى حُوّلت إلى مستشفى، ثم أحرقها الجيش العثماني عند انسحابه من بغداد. وفي عام ١٩٥٦ أصبحت ملكاً للدولة، وبقيت مغلقة ما بين عامي ١٩٦٦ و ١٩٧٦، ولكن عندما تزايد عدد العمال المصريين الذين استوردتهم الحكومة العراقية للعمل من أجل سدّ النقص في الأيدي العاملة، بسبب الاستنفار العام الذي حصل للرجال أثناء الحرب العراقية الإيرانية، تمّ ترحيل الآباء الكرمليين عنها الذين اتّخذوا منها مقراً، واستلمها الأقباط الأرثوذوكس من العمال المصريين. في عهد الديكتاتور الأول، صدام حسين، هُدمت العديد من مبانيها وضُمّ أجزاء منها إلى سوق الشورجة، خاصةً بعد رحيل العمال المصريين، لكن على الأقل ظلت محافظة على شيء من الماضي. فهي تضم مجمع الكنيسة ودير ومدرسة القديس يوسف، وقبر العلامة انستاس ماري الكرملي،

وقبور الآباء الكرمليين، ومدافن الأخوات الراهبات الدومينيكيات المعروفات براهبات التقدمة، وتماثيل لقساوسة لاتينيين.

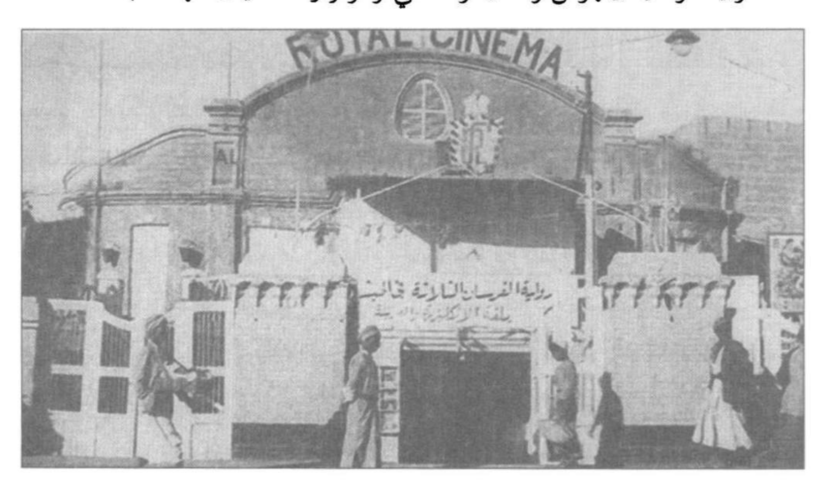
في زيارتي الأخيرة لبغداد تجولت فيها بعد جولتي في جامع الخلفاء، فواجهني الحطام والرُكام في كل مكان منها، أما الخشب فقد تآكل، فيما علت الرطوبة جدران الدير القديم ومدرسة القديس يوسف، فيما غمرت المياه الجوفية المختلطة مع مياه الصرف الصحي الأرض وقبور راهبات التقدمة... منظر محزن يثير الغضب، ويُضاف إليه شمّ الرائحة النتنة التي تزكم الأنوف في المكان. لكن ما يُفرح هو منظر الزوار. فرغم الوضع المزري الذي هي فيه، يلتقي الزائر بالناس، زوار مسيحيين ومسلمين يؤمّونها للابتهال للسيدة العذراء ويوقدون الشموع على أرواح المدفونين فيها. قالت لي امرأة مسلمة إنها تواظب على زيارة الكنيسة، التي كانت والدتها تحدثها كثيراً عنها، وعن قيمتها الأثرية وما تحويها من أطلال وقبور أناس صالحين. لم أقل للمرأة المؤمنة إن صورة الكنيسة هذه صاحبتني لليالي طويلة، لم أروِ لها تخيّلي لنواقيسها وهي تضرب بقوة، وكيف أنني مع كل ضربة ألبّي نداءها بالرحيل. ضربات النواقيس وأصوات القطارات ارتبطت دائماً عندي بالسفر والرحيل؛ نوع من نوستالجيا غير قابلة للإشباع.

البطاقة الثانية هي البطاقة التي صوّرت عرضاً للأزياء في بغداد عام ١٩٥٦، بالضبط في العام الذي وُلدت فيه. البطاقة هذه سرقتها من أمي حقيقةً، و لم تعرف بذلك حتى ٢٠٠٤، عند عثورها على حزمة البطاقات البريدية في خزانة جدتي. أمي التي كانت حريصة على أناقتها، أثار بالتأكيد العرض عندها الإعجاب، إن لم أقل الدهشة. وهذا ما جعلها تحتفظ بالصورة لها لوحدها، لأنني لم أرها تخرجها يوماً كما كانت تفعل مع البطاقات الأخرى التي حرصت على عرضها على صديقاتها. وفيما يتعلق باختيارها للموضة، فقد ارتبط أغلبه بتلك الموديلات التي عثرت عليها في مجلة بوردا الألمانية (سآتي بالتفصيل على هذا الموضوع). ربما كانت معرفتها أن ثوباً بهذه الموضة أو بهذا الطراز الذي بدا فيه على جسم عارضة الأزياء في الصورة وهي على خشبة المسرح، لا يليق بمدينة أخرى غير بغداد، هو ما جعلها لا تعرض الصورة على صديقاتها أو ما جعلها تمتنع عن عرضها على الخيّاطة أم بديع، التي لم أعرف أن أمي خاطت عند امرأة غيرها! وإلا ليس هناك سبب آخر جعلها تخفي البطاقة هذه في مكان غير المكانين اللذين كانت

تخفي فيهما بعض البطاقات عني، عادةً تحت المخدة في السرير، أو في الكوميدينو الصغير عند طاقم الزجاج. لكن ليس في الجرارة الصغيرة التي حفظت فيها أدوات وعلب مكياجها. عادةً أبحث عن البطاقات بنفسي، لكن في ذلك اليوم كأنّ البطاقة ذاتها بحثت عني. عثوري على البطاقة هذه كان مصادفة عجيبة. في ذلك اليوم، وعند سحبي الجرارة الصغيرة للكوميدينو، لم تكن غايتي العثور على بطاقة بريدية بل كانت رغبة مني لاختيار بعض أدوات الماكياج الخاصة بأمي. أمر مضحك حقيقةً، أو نوع من العبث لا غير. كانت أمي قد خرجت للتو لزيارة بيت الجيران. سعدية زوجة يوسف ابن جارنا حاشوش ولدت، وأرادت أن تبارك لها. لا أدري من أين جاءتني فكرة استخدام ماكياج أمي، حفّ الحاجب بالملقط ووضع البودرة واستخدام قلم الشفاة. لكن رؤيتي للصورة جعلتني أنسى قضية الماكياج تماماً في ذلك اليوم. كنت مثل من عثر على كنز عظيم. أنا الذي أخفى الصورة هذه المرة عن أمه. وضعتها مع الدفاتر التي اشترتها لي أمي للتو لسنتي الدراسية الأولى. لا أدري لماذا لم تفكر بأنني أنا الذي أخذتها من الجرارة. فبعد أسبوعين، عندما اكتشفت اختفاء الصورة، سمعتها تقول: "أخذتها ملكية، دائماً كانت تريد الصورة هذه"، وهي تقصد خالتي ملكية، أختها الأصغر منها، التي كانت متزوجة في الزبير بالبصرة وجاءت لزيارتنا بعد أسبوع من سرقتي للصورة. لم تتذكر أمي ما إذا كانت سألت خالتي عن الصورة في زيارة قادمة، ليس لأنها نسيت الصورة بل لأنها، كما قالت لي عام ٢٠٠٤ وأنا أروي لها القصة، بالتأكيد وجدت السؤال زائداً. من غير المهم الجواب الذي كان سيأتي من خالتي، ما كانت أمي ستصدقها، فقد كانت خالتي مجنونة في الصورة، و لم تكن تخفي ذلك عن أمي، مرات عديدة طلبتها منها. كانت خالتي تتمنى، هي أيضاً، أن تُسنح لها الفرصة ذات يوم وتعيش في بغداد وتلبس مثل هذه الأثواب. المسكينة، قالت أمي وهي تتحدث عن أختها، ولا حاجة لها أن تقول لي ذلك، ففي النهاية لم تُسنح لخالتي الفرصة بالعيش في بغداد، بل لا أدري إذا سنحت لها الفرصة بزيارة العاصمة ذات يوم، كيف وهي كان عليها قضاء حياتها الزوجية مع زوجها، صاحب مقبرة الزبير ودفانها؟ حاولت أن تخفي الآهة التي خرجت من فمها غصباً عنها، أو حبس الدمعة التي رأيتها تتلألأ في عينيها لحظتئذ.



كم رغبت أن أواسيها، أن أروي لها ما حدث للصالة التي سارت على خشبة مسرحها عارضات الأزياء، كيف أن الصالة تلك هي "قاعة الشعب" في الحقيقة، الصالة التي كانت تُعرض فيها الحفلات الموسيقية، تحوّلت، بعد انقلاب العسكر وسقوط النظام الملكي في ١٤ تموز/يوليو ١٩٥٨، إلى قاعة محكمة "المهداوي" رئيسها وابن خالة رئيس الجمهورية آنذاك الزعيم عبد الكريم قاسم، أو "محكمة الشعب" كما أطلق عليها رسمياً، لمحاكمة الوزراء والمسؤولين في النظام الملكي أولاً ثم رجال حركة الشواف عام ١٩٥٩م، والرئيس الأسبق عبد السلام عارف وكل أولئك الذين تآمروا على النظام الجمهوري. الضباط أنفسهم الذين شاركوا الزعيم قاسم انقلابه على العهد الملكي وتأسيس الجمهورية العراقية انقلبوا عليه وحاولوا اغتياله عام ١٩٦١، زميله وصديقه عبد السلام عارف مثلاً. نعم صالة عرض الأزياء التي صدحت فيها أسماء عارضات الأزياء، أو صوت حفيف ثيابهن، أصبحت مكاناً للعلعة صوت العقيد فاضل عباس المهداوي يصرخ بالمتهمين من ١٥ آب/ أغسطس ١٩٥٨ حتى الانقلاب البعثي في ٨ شباط/ فبراير ١٩٦٣. كيف أروي لأمي أن الصالة هذه التي تقع في باب المعظم قرب مبنى وزارة الدفاع لم تستعد عافيتها إلا في فترات قصيرة ومتقطعة، في السبعينيات أولاً، عندما رقصت فيها الفرقة القومية للرقص الشعبي، أو عندما عزفت فيها الفرقة السمفونية الوطنية بيتهوفن وتشايكوفسكي وموتزارت، كيف أنها أصبحت مكاناً



سينما رويال في بغداد عام 1945.

مجدباً في نهاية السبعينيات، وأنني في فبراير/ شباط ١٩٨٠، عندما سيُرمى بي مع سبعة جنود آخرين في زنزانات وزارة الدفاع المجاورة للقاعة، كنت أسمع من حين إلى آخر صوت الفرقة القومية للرقص الشعبي وهي تتدرب على الرقصات الشعبية يأتي من نافذة صغيرة (""رازونة"" حقيقةً) في أعلى الزنزانة عند لقاء الحائط بالسقف فوق رؤوسنا نحن المعتقلين. كيف أروي لأمي أن أصوات الدف والرق والناي والمطبگ اختلطت مع أصوات التعذيب الروتينية في أقبية تعذيبنا تلك، ومع أصوات المؤذن في جامع الأزبك، الجامع التاريخي الصغير، الذي لم يجدوا أفضل منه للتغطية على بناية السجن التي التصقت به من الخلف؟ أعرف أن القصص هذه ربما خففت من ألم فقدانها زمانها الجميل ذلك، لكنها بالتأكيد ستزيد عذاب الأزمنة اللاحقة عندها، بالضبط مثلما كان ليحصل لي لو كنت تذكرت البطاقة البريدية في زنزانتي تلك.

الثالثة: بطاقة المعايدة التي حملت صورة سينما الزوراء: ليالٍ طويلة حلمت بها، بالدخول إلى سينما الزوراء، حتى قبل أن يبدأ أبي بأخذي معه إلى السينما. طبعاً سمعت بكلمة سينما، والحديث عنها، خاصةً في البطاقة البريدية تلك التي صوّرت سينما الزوراء في بغداد، لكنها كانت عالماً غامضاً، بعيد المنال، شأنه شأن عالم بغداد. الصورة التي احتفظ بها أبي تعود إلى عام ١٩٤٤، جلبها له الصاحب الإنكليزي من بغداد مع الصور الأخرى، وكان الصاحب يتحدث له عنها بشغف، حتى إنه قال له: "إذا فكرت مرة بفتح سينما فيجب أن تكون مثل سينما الزوراء في شارع الرشيد، في منطقة المربعة، في بغداد". لم يكن الصاحب الإنكليزي على خطأ، وإن بدا ما قاله مبالغة، لأن السينما هذه بالفعل كانت دار عرض سينمائي استثنائية في تاريخ بغداد، ولم تأتِ شهرتها من كونها الوحيدة التي قدّمت أفلاماً للمواطنين البريطانيين، أو أنها إحدى أوائل دور السينما في العراق، أو أنها اشتهرت بعرض الأفلام الجاسوسية في المقام الأول، أشهرها مثلاً فيلم "المخابرات البريطانية" لبوريس كارلوف، بل اشتهرت أكثر بسبب طراز بنائها. كانت فريدة من نوعها. دارا السينما الوحيدتان اللتان كان من الممكن أن تنافساها بالجمال هما سينما السنترال وسينما الرشيد. الأولى، سينما السنترال التي أنشأها تاجر بغدادي في عام ١٩٢٠، في منطقة حافظ القاضي في شارع الرشيد، والتي استُبدل اسمها فيما بعد إلى سينما الرافدين، هذه الدار التي تغنّى الشيوخ بجمالها، والتي كانت الوحيدة



التي تُقام بها حفلات خاصة للنساء لسنوات عديدة، التهمتها النيران فيما بعد. الثانية هي دار سينما الرشيد التي تأسست في الثلاثينيات ببنايتها الضخمة الجميلة التي ازدانت بالزخارف والتماثيل خارج صالة العرض وداخلها وطراز بناء السلّم الذي كان يقود إلى ردهة صغيرة للاستراحة ثم إلى الكاليري وطراز السلالم الجانبية الطويلة التي كانت تقود إلى المقصورات الخلفية وإلى حجرة ماكنة العرض، ناهيك عن الطابق السفلي الذي احتوى على الكاليري الأرضي (أبو الأربعين). باستثناء هاتين السينماتين اللتين لم يُقيّض لهما البقاء، الأولى احترقت في ظروف ملتبسة، والثانية هُدمت في الثمانينيات وتحولت إلى موقف للسيارات، أقول: باستثنائهما لم تنافس سينما الزوراء أية دار سينما أخرى نشأت في بغداد. منذ رؤيتي للبطاقة تلك ولا صورة دار سينما في رأسي غير صورتها: صورة سينما الزوراء. ليس من الغريب إذن أنني وفي أول زيارة لي مع أبي لبغداد طلبت منه أن نذهب إلى سينما الزوراء.

٩

هل هذه إذن بغداد؟

علاقتي الأولى ببغداد يمكن تشبيهها بتلك العلاقة التي شاعت في تلك الفترة بين هواة التعارف والتي وجدت مكانها على صفحات بعض المجلات القادمة من بغداد، وأيضاً يمكن سماعها في بعض برامج إذاعة بغداد، بل وحتى على صفحات مجلات الأطفال التي كانت تأتينا من العاصمة أيضاً، مجلة **صندوق الدنيا** مثلاً. تبادل الرسائل بين المتراسلين لا يؤدي إلا إلى مضاعفة الحماس لديهم بالتعارف إلى بعضهم بعضاً، هذا هو التفسير المنطقي لحماسهم في كتابة الرسائل وتحميلها كل ما يمكن من كلمات وجدانية، وهي مسألة وقت حتى يحدث اللقاء ليكتشفوا أن الانفعالات التي عبّروا عنها على الورق توضع على المحكّ في لحظة اللقاء وجهاً لوجه. النتيجة معروفة سلفاً وجرّبها أغلبنا. من يفتعل أو يتكيف مع اللحظة، من لا يكون هو نفسه ولا يتصرف بتلقائية، سيخسر الرهان. سلوكه سيقول إن المشاعر التي عبّر عنها ليست صادقة. فقط من يظل كما هو لن يفعل اللقاء غير أن يزيد الحماس الموجود عنده سلفاً.

هكذا يمكن وصف ما حصل لي عند زيارتي الأولى لبغداد. فإلى حين وصولنا إليها، طوال الطريق، ومن حين إلى آخر، لم يتوقف أبي من تحذيري: "سنكون في بغداد، وعليك التصرف بشكل لائق". وأنا لا أفعل غير أن أهزّ رأسي تعبيراً عن الموافقة، لأنني لم أملك جواباً جاهزاً آخر. لم أعرف ماذا أقول، لأنني لم أفهم تأكيده وإلحاحه على ترديد ذلك، كأن أسأله، مثلاً، ماذا يعني باللائق؟ رغم أن التفسير الوحيد أو الشعور

الوحيد الذي امتلكته في تلك اللحظة، وإن كان ضبابياً، هو أنه كان يمزح. هذا ما جعلني أبتسم، خصوصاً في المرات التي شعرت فيها بالملل من هزّ رأسي، أو التي شعرت فيها بلا جدوى إعادة موافقتي على تأكيده. وعندما أراه يكرر الجملة تلك من جديد، وهذه المرة وهو يخاطب صديقه، الحاج حنون الجالس إلى يميني، متسائلاً: "أليس كذلك يا حاج حنون؟"، وكان الحاج الرصين يهزّ برأسه ويقول مشجّعاً: "لكن نجم سيربح الرهان"، لا أدري من أين جاءت الثقة هذه له؟

لا أدري إذا كان الحاج حنون على حق، لأنني كلما فكرت بالأمر أدرك أن الذي ربح الرهان هو المدينة، بغداد. فمن غير المهم تلك المشاعر التي سيطرت عليّ وقتها منذ دخولنا المدينة، منذ سماعي الحاج حنون يقول: "ها نحن نعبر جسر القناة"، يقصد قناة الجيش التي شُقّت في عهد الزعيم عبد الكريم قاسم والتي جهزت الجهة الجنوبية من بغداد بالماء، فأنا لم أكن حينها إلا أنا نفسي.

أبي قال لي: "سترى بغداد هذه المرة"، وأنا لم أحمل في ذهني غير صورة المدينة التي تخيلتها من قبل. في الحقيقة لم تكن الرحلة أصلاً إلى بغداد بل كانت من أجل زيارة سامراء والكاظمية والنجف والكوفة وكربلاء. هذا يعني المرور ببغداد في الرحلتين: رحلة الذهاب ورحلة الإياب. النوم فيها. كان أبي يملك سيارة نقل، شيفروليه موديل ١٩٦٠، أطلق عليها "الستين"، هيكلها من الخشب، عُمل خصيصاً لها في النجف. وكان في كل عام، في أواسط شهر عاشوراء، عندما يحيي الشيعة ذكرى مقتل الإمام الحسين وعائلته في واقعة الطَفْ المعروفة القريبة من مدينة كربلاء ويحين موعد الزيارات الحسينية أو أربعينية الإمام الحسين كما يطلقون عليها، يقرّر مجموعة من الزوار أن يأخذهم في سيارته إلى الزيارة. زيارة الأربعين لم تقتصر آنذاك على زيارة المدن الثلاث القريبة من بعض: كربلاء حيث مرقد الإمام الحسين، والنجف حيث مرقد أبيه الإمام علي، الخليفة الراشدي الرابع الذي مات مقتولاً هناك قبل عقدين تقريباً من وفاة الحسين، والكوفة حيث مرقد أخيه الإمام العباس الذي قُتل معه في واقعة الطف، بل تضمّن برنامجاً مكمّلاً؛ زيارة سامراء، حيث مرقد الإمام الحسن العسكري والسرداب الذي اختفى فيه الإمام المهدي، أو "صاحب الزمان" كما يطلق عليه الشيعة الذي لا بدّ وأن يظهر يوماً، عند إعلان يوم القيامة، أيضاً زيارة منطقة الكاظم في بغداد، مرقد



الإمام موسى الكاظم وحفيده الإمام محمد الجواد، حيث النوم في الرحلتين.

طفل في مثل سنّي كان من الصعب عليه تخيل المسافات التي تفصل بين تلك المدن، التكهّن بالوقت الذي تستغرقه كل رحلة منها، مثلما من الصعب عليه معرفة الأسباب المنطقية التي تجعل الناس يتحمّلون كل هذا العناء، مشقة الطريق من أجل تلك الزيارات، خاصةً إذا عرفنا أن الطرق في ذلك الوقت لم تكن معبّدة بل ترابية تفيض وتتحول إلى غرين طيني في أيام الشتاء وفي أوقات اشتداد المطر. نحن نتحدث هنا عن زمن آخر، بداية الستينيات، ١٩٦١ أو ١٩٦٢، لا أدري بالضبط، لكنه أحد هذين العامين ولا يمكن أن يكون بعد ذلك، لأن أبي سيفقد سيارته عام ١٩٦٣.

في ذلك الزمن لم يكن الإيمان الديني قد وصل إلى مرحلة التعصّب الأعمى كما هو عليه اليوم. التعصّب والتطرف والإرهاب، قتل الآخر بسبب هويته ومذهبه، هي قناعات وسلوكيات نشأت مع ترسّخ الإسلام السياسي، الذي بدأ مسيرته، أولاً، بعد دخول الجيش السوفييتي إلى أفغانستان في ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٩. المجاهدون والطالبان والقاعدة، هي الصورة المثالية للتطرف الديني الذي جسّد طموحات الأيديولوجية السنّية الوهابية التي تطمح إلى السيطرة على العالم الإسلامي بالقوة. لا ننسى أن الوهابية التي نشأت عليها المملكة العربية السعودية أولاً، وقبل أن يحمل لواءها لاحقاً أسامة بن لادن، حاولت وعلى مرّ التاريخ سحق المذاهب الأخرى بحجّة محاربة البدع الشركية، لكنها لم تنجح إلاّ بشكل محدود. عام ١٩٢٦ مثلاً، عند هدم السلطات السعودية في زمن الملك عبد العزيز بن سعود قبور الشيعة في مقبرة البقيع في المدينة، أو في دعم مشايخ اليمن ضد الحكم الجمهوري الناشئ في اليمن في سنوات الستينيات. لكن دخول الروس إلى العاصمة الأفغانية كابول ونجاح الثورة الإيرانية بقيادة الشيعي آية الله الخميني جعلا الوهابية تكشّر عن أنيابها. هكذا وبالتوازي مع التطرف السنّي الوهابي رحنا نشهد تطرفاً شيعياً خمينياً. اليوم يتجسّد الصراع هذا بأعلى صوره في العراق. لكن في ذلك الوقت، في سنوات الستينيات، لم يكن هناك مكان لا للتطرف الديني السنّي ولا للشيعي، خاصةً في العراق، فقد كان الإسلام الشعبي هو السائد هناك. اليوم لو نظرت إلى إسلام جدي أو جدتي لوجدتهما أكثر ليبراليةً من ليبراليّي هذا الزمان. لذلك لم تحمل الزيارات الحسينية الملامح القوية

التي تحملها اليوم. كانت تقليداً شبيهاً بزيارات السياحية الدينية التي يمارسها الناس في الغرب، صحيح أنها حافظت على صفتها الدينية الطابع، لكنها من الناحية الأخرى حملت أيضاً ملامح استجمامية، ارتبط بها الاقتصاد السائد. لذلك كانت المدن الدينية هذه بمثابة مراكز اقتصادية، في كربلاء والنجف والكوفة والكاظم نمت طبقة أثرياء من الشيعة، بينما في سامراء نمت بالتوازي مع طبقة من الشيعة الأغنياء أيضاً طبقة من السنّة الأغنياء، إن لم تنمُ هناك، وعلى مرّ التاريخ، طبقة أغنياء يهود أيضاً، على الأقل حتى ١٩٥١، عام الخروج الكبير ليهود العراق.

كلما عدت إلى ذلك الوقت، وإلى الطقوس تلك وقارنتها مع ممارسة الطقوس نفسها في أيامنا هذه، كلما لاحظت الهوة التي فصلت بين الزمنين. كانت المواكب الحسينية، التي تُسمّى "السبايات"، تبدأ في مدينة العمارة في مسيرتها من المدخل الجنوبي لشارع المدينة الرئيسي، شارع بغداد، وتنتهي بالتفرق عند حسينية الحاج عبد الغفار. كان لكل محلة موكبها مثلما كان لكل موكب شاعره أو رادوده الخاص، وكانت مسيرة الموكب تبدأ بضاربي "الزناجير" الذين يمشون في صفين متوازيين تفصل بينهما قرابة ستة أمتار تقريباً، وفي وسطهم يسير ضاربو النقارة والطبول والصناجات ورؤوساء المحلة، فيما يمشي الأطفال الصغار المنذورون لضرب في أيام عاشوراء وسط الموكب تحت رعاية ورقابة آبائهم وأقربائهم. ويكون ضرب على الظهر رتيباً على إيقاع النقارة البطيئة التي تشبه المشية الجنائزية في الجيوش، ثم تجيء بعدهم جَوق اللطّامة عراة الصدر، ولا علاقة لمشيتهم بضرب النقارة، بل إنهم يشكلون أجواق زوجية. فإما جوقان أو أربعة أو ستة أجواق. وكل جوق يحوي على أربع جماعات. وكل جوق يبدأ بالربع الأول من شطري القول الذي هو عادةً قصيدة، فيما يكمل الربع الثاني الشطر الثاني، وهكذا دواليك. لم يكن هناك وجود لا لأمواس الحلاقة الملحقة ولا لجرح الصدور بآلة حادة كما هي الموضة اليوم. نعم، كان هناك التطبير، ولكن الذين كانوا يمارسون الضرب الحقيقي بالقامات على الرأس كانوا أشخاصاً معدودين، الأغلبية كانت تلامس الرأس بشكل رمزي لتؤدّي نذراً قامت به أمهاتهم وحسب. بل حتى وقت التطبير كان يتم في ساعات الفجر الأولى، خارج المدينة، ليس كما اليوم، حيث لا مكان ولا زمان له محددين، بل يصل الجهل واللامسؤولية حدّ أن ترسل بعض الأمهات أطفالهن الرضّع

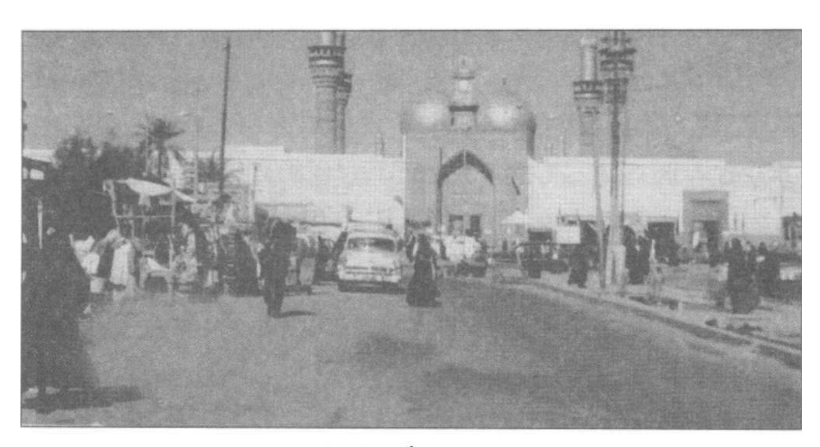
في أقمطتهم للتطبير. كان هناك نوع من البساطة في تنسيق المواكب وفي مشيتها، في ضربها الزنجيل أو في لطمها، على طول الطريق الذي تمرّ به يقف جمهور كبير، نساء ورجال يتزاحمون تحت أعمدة شارع بغداد. وكان التزاحم بين الشابات والشبان واضحاً للعيان، فغالباً ما كانت تقف فتاة بعباءتها السوداء، ويقف خلفها أو إلى جانبها شاب ليس بالضرورة بقميصه الأسود. الصورة ذاتها رأيتها في منطقة الكاظمية، بل حتى في كربلاء والنجف والكوفة. وفي أواخر سنوات الستينيات بدأ الفصل أولاً بين الذكور والإناث، وأصبح على كل فريق منهما الوقوف عند جهة من الرصيف. هذه المرة وقف الاثنان متقابلان، يغازلان بعضهما، أما المواكب التي تمرّ فهي ذريعة للاثنين ليكونا هناك.

إذا أردت تشبيه المواكب الحسينية تلك، فهي تشبه مواكب عيد الفصح في بلدان أوروبا الكاثوليكية، خاصةً في إسبانيا وإيطاليا والبرتغال، أو أشبه بالجمهور الذي يزور الفاتيكان، أو أشبه بمواكب الكرنفال. أما السير على الأقدام ولمسافة كيلومترات طويلة تستغرق أياماً وليالٍ حتى الوصول إلى المراقد المقدسة فيشبه الحج إلى مدينة فاطمة حيث قبر القديسة فاطمة في وسط البرتغال، أو الحج التقليدي الكاثوليكي القديم الذي لا يزال على الطريق الذي يقود من مدينة ليون الفرنسية حتى قبر القديس سانتياغو كومبوستيلا في المدينة المسماة على اسمه في إقليم غالسيا في شمال إسبانيا. الفارق هو أن الخمرة هي أمر غير مسموح به في الزيارات الدينية في العراق، على عكس الاختلاط بين الجنسين. الاختلاط ليس في مشاهدة المواكب وحسب، بل في خانات النوم في المدن المقدسة أيضاً، لأن الزوار الذين يأتون من مدن أخرى في سيارات النقل الكبيرة ينامون حيث تقف السيارات، لا يبتعدون عنها. أغلب السيارات إذا ليست جميعها تختار المبيت عند الخانات الكبيرة، التي إذا قارنّاها فهي مثل تلك التي يطلقون عليها "آوتوهوف" في ألمانيا، أو هي نوع من الهوتيل المعاصر لسوّاق الشاحنات على الطريق السريع. في الكاظمية مثلاً كان هناك خان كبير، "الخان السريع"، يؤوي الزائرين والسيارات. كنا في أواخر الأيام من فصل الربيع، أتذكر ذلك، وكنا في شهر مايو/ أيار، لأن الحاج حانون اشترى لي مشمش، أحلى مشمش ذاقه لساني حتى الآن، ووقت قطاف المشمش كما أعرف في العراق يكون في هذا الشهر. أخبرني الحاج حنون كيف أن المشمس

هذا فريد من نوعه، لا يضاهيه مشمش آخر في طعمه، وذلك يعود لأنه قادم من بستان قريب، ثم روى لي كيف أن المدينة المقدسة، الكاظمية، التي هي إحدى مناطق بغداد، تحوي العديد من المحلات العريقة، وأن إحدى هذه المحلات هي محلة "أم النومي"، لأنها كانت بستاناً عامرةً بفاكهة النومي، كما يُسمّى الليمون في اللهجة الشعبية، وجراء دخول العمران إليها عبر سنوات طوال تلاشت البستان من الوجود وأصبحت عامرة بسكانها حيث نرى امتدادها من مشارف الصحن الكاظمي وحتى مداد نهر دجلة، كما تطل على محلتي التل والبحية، وأن أحد معالمها الخالدة، قال لي، الخان السريع الذي نحن فيه. الحاج حنون، دليلي الأول في بغداد، وإن في منطقة الكاظمية فقط، حكى لي ذلك بروية وبنبرة هادئة ودافئة تدخل إلى القلب، مثل جدة تروي لأحفادها في ساعات الليل قصة لن ينسوها حتى عندما يكبرون.

في ذلك الخان نمنا، أو كان علينا أنا وأبي أن ننام فوق سطح السيارة، لأن الزوار ومعهم الحاج حنون ناموا في الساحة، توزعت أفرشتهم بالعشرات هناك، وكان يمكن سماع أحاديثهم تحت ضوء القمر وحرارة ليل الربيع العراقي حتى ساعات متأخرة من الليل، وعندما يسود الظلام تماماً وتتناثر الأجساد على أفرشتها البسيطة التي حملتها معها، بطانيات كانت أو شراشف أو حصران، لا يعود التمييز بين مَن ينام مع مَن وبين الهمس الذي يأتي من البعض الذي ما زال مصراً على الدردشة رغم الساعة المتأخرة وضرورات النوم للنهوض مبكراً، وبين أولئك الذين لا يريدون أن يُفضحوا في الفعل الذي يرتكبونه تحت الشراشف في جنح الظلام. لكن الصورة المتشكلة بحرية في المكان تمنح انطباعاً واحداً لا غير؛ أن الناس سعيدون بزيارتهم تلك، ها هم أخيراً في طريقهم إلى أئمتهم الطاهرين، غداً سيطوفون حول مرقد الإمام موسى الكاظم، أو الإمام أبو الجوادين، غداً عندما ينتهون من الزيارة سيذهبون للتجوال في أسواق الكاظم، سيأكلون ما يطيب لهم من أكلات، السوق تكتظ بالمطاعم، وكل شيء لذيذ في الرحلات، سيشربون عصير الزنجبيل المعروف به الكاظم، وفي ساعات العصرية، إذا لم يذهب القسم الأكبر منهم، خصوصاً النساء، أو المخطوبون والمخطوبات تواً، المقبلون على الزواج، سيذهبون إلى سوق الذهب، ذهب الكاظم مشهور بجودته، كما يُشاع، نقوش فارسية وهندية فائقة الجمال، وفي المساء سيبيتون ليلة ثانية، لكي يسافروا بعدها إلى

سامراء، ثم إلى النجف وكربلاء. ذلك هو المغزى الديني للزيارة، وهذا ما يجعلهم سعداء، لا يهم عدد الساعات التي ينامون بها، من يتطهر قلبه سيشعر بالسعادة والصفاء، لا تعب ولا حزن ولا نعاس، ذلك ما جسّدته الهوسات أو الردّات التي رددوها، ذلك ما جسدته الأحاديث والضحكات التي انطلقت طوال الطريق. إنهم فرحون، في طريقهم إلى هدفهم، إلى تحقيق حلمهم الذي تخيلوه. كم حلموا بزيارة أئمتهم أولئك؟ ألا يخفق قلبهم للمرة الأولى تلك؟ وأنا؟ ألست أنا الآخر فرح بتحقيق هدفي للمرة الأولى في حياتي، في زيارتي لمدينة الحلم: بغداد؟



باب المراد في الكاظمية 1955.

أبي لا يزال يتذكر الرحلة تلك. لقد قام بالعديد من الرحلات قبلها، لكن الرحلة هذه بقيت في ذهنه، أو بعد تلك الرحلة لم يعد أو يشأ تذكّر رحلة أخرى. أو كأن بغداد انكشفت أمامه في الرحلة تلك بشكل آخر، ليس لأنها الرحلة الأولى لي والأخيرة لأبي، بصفته السائق الذي يحمل الزوار إلى هناك، بل لأنه، هو الآخر، كان عليه لاحقاً أن يبني مدينته بغداد التي بدأت تفقد نفسها شيئاً فشيئاً. أنا بنيت مدينتي المتخيلة على إيحاء تلك الصور التي جلبها أبي من بغداد، أما هو فما زال يحمل عدة حاضر المدينة التي بدأت بالزوال تدريجياً. ومنذ جولتنا النهارية تلك، بعد ساعات الظهيرة الأولى، بعد



أن ترك الحاج حنون مع السيارة والزوار مباشرةً عند وصولنا وأخذني ليريني بغداد، كما قال لي في حينه، أصبح من الصعب عليه الحديث عن بغداد بدون نوستالجيا العودة إلى النهار ذاك، بدون استعادة صورتنا نحن الاثنين: صورتنا ونحن نسير سويةً، بالضبط كما تمنيت في تخيلاتي وأنا أبني مدينتي بغداد مع التطلع لكل بطاقة بريدية أو معايدة؛ بالضبط كما حلمت عند دخولي فراش النوم كل ليلة. نحن الأثنان نسير مثل صديقين: هو على عتبة الثلاثين من عمره، أنيق رغم عناء رحلة السفر ومتاعبها، بشاربه الأسود الخفيف وشعره المجعد المصفوف بعناية والذي ارتفع عند المقدمة، كل شيء على خطى كلارك غيبيل (ريت بتلر) في فيلم "ذهب مع الريح"، وأنا الذي دخل السادسة من عمره وانتقل للتو إلى الصف الثاني الابتدائي. أنا الذي كلي فضول لرؤية مدينتي التي حلمت بها، وهو دليلي السياحي الذي راح يدور بي في المدينة، في مركزها، أو في قلبها كما قال لي. أما حماسه في طريقته بالمشي، أو في إجابته السريعة على كل سؤال مني، أو في لفته انتباهي لرؤية ما لم أنتبه له رغم مرورنا به، حماسه ذلك كان جديداً بالنسبة لي. أتذكر عجلته. مباشرةً بعد وصولنا قال للحاج حنون إنّ عليه أن يذهب إلى قلب المدينة لأنه حريص أن يُري نجم المدينة. "لازم يعرف بغداد" قال أبي لصديقه، ربما فهم الحاج حنون الذي لم يكن عنده أطفال، وربما لا، لكن الطريقة التي نطق بها أبي الجملة بدت مقنعة، جعلته يفهم. ويقول له أيضاً إنّ عليه أن يذهب مباشرةً ويستفيد من كل دقيقة، "نعم، نجم لازم يشوف بغداد" قال، كأنه هو الآخر فهم، لكي ينمو الطفل الصغير الذي كنته، لكي يصل إلى أرضه الموعودة، لا بدّ وأن يرى "مكة" العراق: بغداد.

النزهة البغدادية تلك هي الفتح الأول لي للعالم. نابليون بونابرت قاد جيوشه الكبيرة وذهب لفتح العالم. أنا أيضاً في ذلك اليوم تحولت إلى فاتح عظيم، إلى "إسكندر" آخر، وذهبت لفتح بغداد، أمسك بيد أبي تارةً وتارةً أخرى أسير طليقاً، لكن إلى جانبه. صحيح أنني كنت لا أزال صغيراً على اكتشاف أسرار بغداد، لكن الامتياز الذي منحتني إياه لا يمكن حسابه بالسنين، ليس لأنني سأكتشف على الأقل بعض الأسرار الصغيرة، مثلاً سر المكان الذي يشتري منه أبي أسطواناته، أو سر المحل الذي سنشتري منه بعض أعداد مجلة بوردا الألمانية الخاصة بالأزياء، أو سر استوديو التصوير الذي أخذ أبي أجمل بورتريهاته فيه، أو سر المكان – الكنز الذي اعتاد أبي شراء البطاقات البريدية منه والتي



ظهرت صور قديمة أعيد طباعتها وحسب – كلا، ليس لأحد تلك الأسباب، بل ولا حتى بسبب المفاجأة التي خبّأها لي أبي في الزيارة تلك، والتي ستغيّر حياتي هي الأخرى منذ ذلك الوقت، عندما ستصبح بديلاً عن الصور الأخرى المطبوعة على البطاقات، وإنما لأنني بعد الزيارة تلك أصبحت أملك امتيازاً جديداً، سأحسد عليه، إذ سيجعلني أفوق التلاميذ الآخرين معرفةً. فحتى وقتٍ قريب كنت أزهو بتفوقي عليهم بقدرتي على تعداد أنواع التمر. فشكراً لجدي فرجٍ، والد أمي، الذي عمل مفتشاً للتمور في الشركة الوطنية للتمور في البصرة، والذي اعتاد أن يأخذني معه، كلما ذهبنا أنا وأمي لزيارة بيت أجدادي في البصرة، إلى محطة المعقل للقطارات ويُصعدني معه إلى عربات القطارات التي تنتظر انطلاقها إلى بلاد الله الواسعة هناك، ليريني صفائح التمور المعبّأة باللوز والجوز والفستق، التمور التي لم يذق طعمها أحد في العراق، لأنها تمور خاصة بالتصدير، وهو جدي الذي علّمني أنواعها، "٦٢٤ نوعاً" قال لي، وفي كل مرة يطلب مني عدّها أمامه. في المدرسة كانت فرصتي لكسب الرهان مع التلاميذ الآخرين: عدّ أنواع التمور. لا أحد من التلاميذ تعدّى في عدّه العشرة، وأنا؟ أنا لا يوقفني أحد، أستطيع أحصي وأحصي. لكن بعد زيارتي إلى بغداد لم يعد أحد من التلاميذ يستطيع أن يقول لي: وهل تعرف شيئاً غير عدّ أنواع التمور؟ هذه المرة سأقول لهم وبفخر: نعم، أعرف بغداد.



١٠

دخول أول إلى شارع الرشيد

لا يمكن الحديث عن بغداد دون الحديث عن شارع الرشيد، ليس لأنه أقدم من نشأة الدولة العراقية، أو لأن أسمه ارتبط في النهاية بالخليفة الأسطوري الذي عرفه العالم جميعاً عن طريق **ألف ليلة وليلة**، بل لأن بغداد الحديثة ارتبطت أو وُلدت مع ولادة هذا الشارع. وكأن قائد الجيش والوالي العثماني حاكم بغداد خليل باشا، الذي حكم بغداد من عام ١٩١٥ إلى عام ١٩١٧، وضع اللبنة الأولى للمكان الذي سيكون قلب المدينة النابض ورمزاً للتحديث الذي سيبدأ في عشرينات القرن الماضي عندما أمر ببناء الشارع في مايو/ أيار ١٩١٦. الصدفة هي أمر عجيب. الصدفة يمكن أن تصنع تاريخاً. من الناحية العملية لم تكن بغداد بحاجة إلى شارع جديد، كان يكفيها شارع النهر الذي سيجاوره شارع الرشيد. لكن خليل باشا، الذي كان مخدّراً بنشوة انتصاره على بريطانيا في معركة الكوت، أراد - جرياً على تقليد شاع عند الولاة العثمانيين الذين أرادوا ركوب موجة التحديث وإطلاق أسمائهم على أي إنجاز حتى إذا كان لا لزوم له - تخليد اسمه عن طريق شقّ شارع جديد قريب جداً إلى شارع النهر، إن لم يكن ملاصقاً له، شارع لا لزوم له حقيقةً، لكنه سيصنع تاريخ المدينة، مثلما ستصنع المدينة تاريخه. والأكثر من ذلك، ما جرى هناك، وفي ذلك التاريخ، هو شاهد آخر على عبث كل هؤلاء القادمين إلى بغداد من الغرباء، وإن انتهت نتيجة عبث الوالي العثماني باتجاه آخر غير ذلك الذي شاءه للشارع. فحسب القصة التي يرويها مؤرخ بغداد الأول،



عباس بغدادي، أن خليل باشا، حاكم بغداد وقائد الجيش العثماني، حين قام بتوسيع وتعديل الطريق العام الممتد من الباب الشرقي إلى باب المعظم وجعله شارعاً باسم "خليل باشا جادة سي" لم يحضر معه لا خارطة بغداد ولا المهندسين ويأمرهم بفتح شارع وفق الهندسة والاستقامات. كانت هذه الجادة أصلاً سبيلاً لعربات القناصل الأجانب الذين سكنوا في الباب الشرقي في قصور تطل على نهر دجلة، مثلما كانت الجادة التي يمرّ بها كبار القوم في محلة باب الشيخ الذين كانوا يترددون على السرايا الحكومية.

كل ما أراده خليل باشا في البداية هو توسيع الطريق وتسويته وتعديل استقامته قدر المستطاع، وذلك لأسباب عسكرية ولتسهيل حركة الجيش العثماني وحركة عرباته، لذلك تمّ العمل في هذه الجادة بصورة ارتجالية ومستعجلة، وكان غالباً ما يصطدم

مكتب شركة الإنتاج السينمائي الأميركية الشهيرة «ميترو غولدوين ماير» في شارع الرشيد في بغداد في الأربعينيات.

بمعارضة العلماء ورجال الدين عند ظهور عقبة تتمثل ببروز أحد المساجد على الطريق كما حصل عند اصطدامه بالحائط المائل لجامع مرجان المواجه لبناية البنك المركزي حالياً والذي أزيل لاحقاً بحجة أنه آيل إلى السقوط، وأُرجع إلى الخلف بضعة أمتار، وبهذا توسّع الشارع، أو عندما يصطدم امتداد الشارع بأملاك المتنفذين والأجانب المشمولين بالحماية وفق الامتيازات الأجنبية. ولقلة المال اللازم لعمليات الاستملاك وتعويض المالكين، تعرّض الشارع لانحناءات تبعاً لتلك العراقيل. لكن خليل باشا تجرّأ على أملاك الفقراء والغائبين ومن لا وارث ولا نفوذ لهم، فأعمل فيها هدماً ومصادرةً لصالح الجادة التي أطلق عليها اسم "خليل باشا جادة سي". وكانت اللوحة المعدنية المؤشّرة على ذلك معلقة على جدار جامع السلطان إلى ما بعد الخمسينيات من القرن الماضي، رغم أن أهالي بغداد أطلقوا عليه في حينه تسمية "الجادة العمومية" ثم سُمّي "الشارع العام"، وأخيراً، عندما اجتمعت لجنة تسمية الشوارع والمحلات في بغداد، وهي لجنة تاريخية أدبية، أصبح يُطلق عليه اسم "شارع الرشيد"، كما حصل لبقية "الجادات" في بغداد، التي أُبدلت إلى اسم شارع، مثل "جادة الصالحية"، و"جادة باب الشيخ"، و"جادة علاوي الحلة"، و"جادة الأكمخانة" و"جادة السراي"، وكلها صارت تُسمّى شوارع.

كان شارع الرشيد في أول عهده مترباً غير مستوٍ إلا في بضعة أمتار في منطقة الميدان، فكان فيها الطابوق المرصوف، مثلما كان منخفضاً في بعض أجزائه، خاصةً في ساحة الميدان وأمام سوق الصفافير وجامع مرجان ورأس القرية، لذلك كانت أشغال الحمالين أيام المطر رائجة في هذه المناطق، كما يقول عباس بغدادي، لحمل الناس على الأكتاف لكي يعبروا من جهة إلى أخرى. وحسب توثيق المؤرخ البغدادي، انطلق مشروع تبليط شارع الرشيد بعد منتصف العشرينيات، بدأ بالتعديل أولاً ثم فُرش الرمل والحصى الناعمة، ثم المشبك الحديدي (بي. أر. سي)، ثم التبليط باليد وبالشبيك الخشبي المدهون بالنفط الأسود كي لا يلتصق بالجير، واستمر التبليط شهوراً طويلة، وما أن انتهى حتى أصبح شارع الرشيد المتنزه الأمثل لأهالي بغداد، خصوصاً لسكان الجهة الأخرى من بغداد، سكان الكرخ، والسعيد منهم من يحصل في وقت العصر على محل خالٍ في تخت أحد المقاهي المشرفة على الشارع ليتفرج على المارين من الناس. لا

عجب إذن أننا، أنا وأبي، ذهبنا في ذلك اليوم عبر شارع الرشيد متنزهين، كأن الشارع لم يبطل مهمته تلك، أن يكون مكاناً للفسحة، أو مكاناً يدخل منه المرء إلى قلب بغداد!

صحيح أن رحلتي الأولى له وأنا صغير بصحبة أبي لم تستغرق إلا ساعات قليلة، لكن الأماكن التي تعرفت عليها في جولتنا تلك ظلت مطبوعة في ذاكرتي مثل ختم أو وشم ظل ملتصقاً لا يبارح مكانه. الأماكن تلك، التي سينطفئ ضوؤها أو سيختفي بعضها مع مرور الزمن، لم أنسها لا في زياراتي التي ستأتي ولا في إقامتي اللاحقة في بغداد، لأكون بهذا الشكل (أو كأن أبي تعمّد ذلك) شاهداً على حقبة من التغيير الذي طرأ على الشارع عموماً، وعلى هذه الأماكن بالذات، اندثار بعضها، شأنها شأن اندثار أماكن أخرى شكّلت خارطة الشارع التاريخي هذا، فاندثارها هو جزء من اندثاره، فصل من فصول رواية تاريخ الشارع الذي ارتبطت المدينة به، مثلما ارتبط هو بها، حتى أطلق بعضهم على بغداد اسم "مدينة الشارع الواحد"، أو مثلما منح البعض الآخر الشارع الاسم الذي يليق به: قلب المدينة النابض. لكن بعيداً عن كل هذه التسميات، لا يمكن لأحد أن يقول إنه زار بغداد، إذا لم يزر شارع الرشيد، ولو سار على الجزء اليسير منه، إذا لم يتسنَّ له أن يقطعه كله، من بدايته من جهة ساحة باب المعظم، حتى نهايته عند ساحة الباب الشرقي، قبل أن ينزلق من تحت جسر الجمهورية ويلتحم بشارع أبي نوّاس.

في رحلة الاكتشاف الأولى لبغداد، وفي ساعة من ساعات نهار مايو/ أيار ١٩٦٢، قال أبي لصديقه الحاج حنون: "نجم يجب أن يرى بغداد"، وهو يقصد شارع الرشيد، "فلكي يكبر ويصبح ذا شأن لا بدّ وأن يعرف العاصمة بغداد". أبي كرّر كلمة بغداد مرتين، والأكثر من ذلك أنه ربط بين أن أصبح أنا "ذا شأن"، دون أن أفهم ماذا كان يعنيه في ذلك، وبين معرفة المدينة. كل ذلك قاله بصورة عفوية. خرج كلامه من قلبه مباشرةً، دون تحضير. وأنا، بشكلٍ ما، وبحس الصغير الذي كنته، فهمت الرسالة. لم أسأله، كأن أقول له: "لكن ألسنا في بغداد؟ أليست الكاظمية أيضاً بغداد؟" أو "ماذا تقصد ببغداد؟"، وحتى عندما سمعته يطلب من سائق التاكسي أن يأخذنا إلى شارع الرشيد لم أسأله: "ولكن ألم تقل: نجم يجب أن يرى بغداد؟"، كأنني أنا الآخر بدأت أصدق، مثل بقية العراقيين، أن شارع الرشيد هو رديف لبغداد، حتى قبل أن أعرف

الشارع. البديهية هذه، التي تعلمتها منذ الصغر، ستصاحبني كل سنوات حياتي، عندما يذهب أحد، مثلاً، في رحلة إلى بغداد، أسأله: "وهل سرت في شارع الرشيد؟"، وإذا جاء جوابه بالنفي أقول له: "إذن أنت لم تذهب إلى بغداد". كم ضحكت جدتي من تعليقاتي هذه! فعندما عدنا من رحلة أخرى، هذه المرة اصطحبت فيها أبي وجدّي الذي مَرِضَ بالروماتيزم، ووصفوا له طبيباً شعبياً "طب عَرَبْ" كما أطلقوا على المعالجين الشعبيين هؤلاء، في منطقة السدة، حيث كان يسكن ابن عم له، عبد الله دشر، فلاح هاجر من العمارة إلى بغداد في نهاية الخمسينيات، شأنه شأن العديد من الفلاحين الذين تركوا قراهم وأريافهم في جنوب العراق هرباً من جور الإقطاع وجاؤوا ليسكنوا تلك المنطقة الواقعة بين كمب الأرمن والمقبرة الكائنة هناك وبين باب الشيخ، قريباً من "الحاج منشد" (أو "شطيط"، التي هي كلمة تصغير لشط بسبب المياه التي كانت تأتي من الشط من حي القاهرة وتدخل على الساكنين هناك)، فعلى الرغم أن منطقة السدة هذه تقع في قلب بغداد، لم أشعر أننا زرنا بغداد، الأمر الذي جعل جدتي تضحك على رفضي هذا. أيضاً خالي الذي انتقل للسكن في بغداد لاحقاً، وأين؟ في منطقة راس الحواش، في الأعظمية، منطقة عريقة بالأخرى في بغداد، حيث مرقد الإمام الأعظم،



شارع الرشيد عام 1950.

أو أبي حنيفة، والتي يفصلها جسر الكاظمية أو جسر الأئمة عن منطقة الكاظم، كان عليه أن يقبل مني اعتراضي على قوله، أو "ادّعائه"، كما قلت له بوقاحة، إنه يسكن في بغداد. هكذا هو الأمر ببساطة بالنسبة لي: من لا يسكن في شارع الرشيد، لا يسكن في بغداد. طبعاً كل ذلك تهويمات طفل صغير، فأنا لم أرَ من شارع الرشيد في زيارتي تلك غير أربعة أماكن. لكن الأماكن تلك كانت كافية لطفل صغير مثلي لأن تكون بالنسبة له هي بغداد، ليس لأن كل واحد منها مثّل جزءاً من هوية شارع الرشيد أو هوية بغداد، وليس لأن كل واحد منها شكّل اندثاره شهادةً تاريخية على خراب مدينة واندثار نخبة من البشر وانهيار مجتمع وضياع قيم وأخلاق، بل لأن تلك الأماكن، بكل ما حوته من سعة وتنوع وجمال، شكّلت أمام الطفل الصغير الذي كنته عالماً بعيد المنال، الوصول إليه يتطلب جهداً ومغامرة. لنحاول التجول من جديد في الأماكن الأربعة تلك، لأني بدون الجولة ما كنت قادراً على رسم تسلسل لتحولات شارع الرشيد التاريخي، ولا لتحولات المدينة بغداد.

المكان الأول، أسطوانات جقمجي: في هذا المكان الواقع عند ساحة الباب الشرقي مباشرةً، حيث نهاية شارع الرشيد قبل أن يمرّ من تحت جسر الجمهورية وينتهي إلى شارع أبي نؤاس، وبالضبط عند موقف محطة باصات مصلحة نقل الركاب، تلك الباصات الإنكليزية الصنع الحمراء ذات الطابقين، اشترى أبي أسطوانات جديدة لمطرباته المفضّلات ومطربيه المفضلين؛ أحدث أغاني الموسيقار المصري محمد عبد الوهاب، المغنية المصرية أم كلثوم، المغنية السورية التي عاشت في مصر أسمهان، المغنية العراقية عفيفة إسكندر والمغني العراقي ناظم الغزالي وزوجته المغنية المشهورة سليمة مراد، اليهودية الأصل، وغيرهم من الفنانين. كان أبي فرحاً بأسطواناته. في الماضي، عندما كان يعمل على خط البصرة، كان يشتريها من محل أديب خلف في العشار في البصرة، كما عرفت منه مباشرةً، لكن منذ أن بدأ بالعمل على خط بغداد ما عاد يمضي شهر إلا ويشتري أسطوانات جديدة من محل أسطوانات جقمجي. "جقمجي عالم ثاني" قال لي أبي، وكان يعني، طبعاً، الوفرة والتنوع. في هذا المحل ليست هناك أسطوانة جديدة و لم تصل مباشرةً إليه. وكان الحصول على أسطوانة جديدة لم يمرّ على صدورها وقت طويل متعةً غير قابلة للتعويض بالنسبة له. ثم إن الأسطوانات القادمة من بغداد لها وقع خاص



في نفسه. أبي عاشق للموسيقى، عاشق للأسطوانات. ما زلت أتذكر كيف أن الأسطوانات تبدأ مباشرةً بعد ملامسة الإبرة لها، أولاً بالإعلان عن الشركة المنتجة للأسطوانة: شركة جقمجي لإنتاج الأسطوانات، شركة بيضفون، أو شركة أوديون، الشركات الثلاث تلك سادت آنذاك، وسماع أسمائها وهي تنطلق من فوهة الغرامافون كافية لأن تثير عندي رغبة بتخيل عالم بعيد، هذا العالم لم رأيته في بغداد يملأ ممرات سوق الأسطوانات هناك؛ أسواق جقمجي، سوق برواق طويل يزدحم بالغناء وحسب.

المكان الثاني، أسواق حسو أخوان: في هذا المكان الذي كان يقع في شارع الرشيد قرب ساحة حافظ القاضي - ساحة فيصل الثاني حتى ١٤ تموز/يوليو ١٩٥٨ - والذي كان صاحبه تاجر مسيحي بغدادي قديم، رأيت جهاز غرامافون يشبه غرامافون أبي معروضاً هناك. "هل تراه؟" سألني أبي قبل أن ندخل المحل وهو يشير إلى الجهاز الذي كان معروضاً خلف الواجهة الزجاجية، كان سعره ستة دنانير، وكان أبي فخوراً بشرائه الجهاز الذي يملكه بثلاثة دنانير من جارتنا سليمة بنت شنين، جهاز مستعمل قديم، لكنه "عنتيكة" أصلي كما يقول أبي. مفاجأة جميلة؛ فحتى زيارتي تلك لم أكن قد رأيت جهاز غرامافون آخر غير الجهاز الذي في بيتنا، حتى ظننت أننا الوحيدون في المدينة



شارع الرشيد عام 1959.



ومنها بالنظام المعروف عالمياً "أفتر سيرفيس"، المعمول به في بعض البلدان الغربية، بما فيها نقل البضاعة. أتذكّر كيف كلّف والدي أحد الفنيين الذي عمل في قسم الـ"أفتر سيرفيس" والذي صاحبناه بعد شراء التلفزيون إلى سيارته التي كانت من نوع أنكليا الإنكليزية، والتي، كما عرفنا منه، كان يتنقل بها وعدّته مع ابتسامته التي لا تفارق وجهه ليقوم عادةً بفحص الجهاز وتنظيفه أو تبديل لمبة حين كانت التلفزيونات الأسود والأبيض تعمل بنظام اللمبات، كلّفه بنقل التلفزيون إلى الخان السريع في الكاظمية، هناك يسأل عن سيارة الزوار القادمين من العمارة بسيارة الشيفروليه الستين الصفراء ويترك الجهاز له عندهم.

المكان الثالث، محل استوديو أرشاك: مصور مسيحي اشتهر في العراق، هو الآخر ارتبط بشارع الرشيد، مثلما ارتبط الشارع به. "كيف نحن في بغداد ولا نأخذ صورة للذكرى عند المصور أرشاك" قال أبي وهو يقودني من منطقة حافظ القاضي إلى الجهة الأخرى من شارع الرشيد، لكي ندخل إلى سوق عبود وبعدها إلى الزقاق المؤدي إلى بيت الزئبق والباججي والمصور أرشاك. أتذكر أننا مررنا ببناية كبيرة، قال لي أبي: "إنه 'أورزدي باك'، سوبر ماركت آخر، ولو كان عندنا الكثير من الوقت لدخلنا إليه، لكن علينا أن نأخذ صورة ثم علينا أن نشتري لأمك المجلات التي طلبتها"، وهو يقصد مجلة الموضة الألمانية بوردا. في ذلك اليوم، دخلنا إلى الاستوديو، أبي بأناقته، بدلته البيضاء وربطة العنق، وأنا إلى جانبه بقميص مخطط وبنطلون، وببوزة لم تفارق صوري في ذلك الحين، منذ أن رأيت صورة جلبها خالي الدون جوان للممثل الأميركي جيمس دين، تلك الوقفة التي اشتهر بها من فيلمه "في الجانب الآخر من جنة عدن"، كأن الوقفة أو عنوان الفلم كانا مناسبين لذلك اليوم. ألست أنا في زيارة إلى عدني: بغداد؟

المكان الرابع: والذي يظل يقاوم الانقراض مثله مثل أستوديو أرشاك، لأن أسطوانات جقمجي وأسواق حسو أخوان ودّعا المدينة مع نهاية سنوات الستينيات، هو مكتبة مكنزي الواقعة في منتصف شارع الرشيد، المكتبة التي أسّسها الأسكوتلندي كينيث مكنزي (١٨٨٠) الاشتراكي النزعة الذي جاء إلى بغداد بعد نهاية الحرب العالمية الأولى. كانت تلك هي المرة الأولى التي أدخل فيها مكتبة أهلية في حياتي (لأن المكتبة العامة أعرفها منذ دخولي غرفة المطالعة للأطفال في المكتبة العامة في العمارة قبل عام من زيارتنا



تلك). الطريف أن المكتبة الصغيرة هذه التي تتعاطى بيع الكتب والمجلات والصحف الإنكليزية لها حكاياتها الخاصة بها، ليس لأنها ستتحول إلى أحد أماكني المفضلة عند انتقالي إلى بغداد، حيث ستكون لي حكاياتي الخاصة معها، أو ليس لأنها ظلت شاخصة تقاوم موتها (أُغلقت أخيراً) بعد وفاة مؤسسها كينيث كيندي الذي مات بالسكتة القلبية عام ١٩٢٨، ثم بعد مغادرة دونالد مكنزي (شقيق زوجة مؤسسها ووريثها) وإيداعه المكتبة إلى مساعده المرحوم جواد كريم الذي بقي يدير المكتبة حتى وفاته والذي عُرف بين أصدقائه وزبائن المكتبة باسم "كريم مكنزي"، بل إنها البناية الوحيدة في الشارع التي لم يتغير اسمها الأجنبي أو القطعة المعلقة عند مدخلها التي كُتب عليها كلمة "بوك شوب" بالإنكليزية، رغم تعليمات أمانة بغداد في زمن صدام حسين باستبدال الأسماء الأجنبية بأسماء عربية "أصيلة"، وكان يكفي أن تُتّهم بأنها أو أن جناحاً منها شغله ذات يوم شخص يهودي يدعى المستر جستن، تاجر يتعاطى بيع الأحذية الأجنبية وخاصةً الإنكليزية منها، وهو بغدادي الأصل، خال الدكتور ألبير إلياس الذي أُبعد من العراق وأُسقطت عنه الجنسية العراقية أوائل الخمسينيات. في المكتبة المقاومة هذه على طريقتها، والتي عرفت لاحقاً أنها كانت أصلاً دكاناً تابعة للبناية الضخمة لشركة "لنج" للنقل النهري واستيراد المضخات المائية المشهورة (رستن والخنزيرة تان جي) أجّرها السيد مكنزي من الشركة المذكورة، اشترينا بعض أعداد مجلة الموضة الألمانية، مجلة بوردا، كما أوصتنا بها أمي، مثلما اشتريت لاحقاً كل ما احتجته من كتب في لغاتها الأصلية. مكنزي أيضاً هو أول من جلب كتاب رأس المال لكارل ماركس.

أماكن أربعة وحسب إذن، لكن ما حدث لها كان شاهداً على ما حدث لشارع الرشيد. الحديث عن كل واحد منها يروي قصة، تاريخ مدينة، سواء بما خصّ المكان وعلاقته بالأمكنة التي جاورته، أو بما حدث للناس، مالكيه. لنأخذ مثلاً المصور أرشاك، فهو بالتأكيد ما كان اختار موقع محله لو لم يرتفع عند حلق الزقاق المؤدي إليه، بالضبط عند المكان الذي نشأت عليه سوق عبود، مبنى سينما سنترال، أكثر سينمات بغداد أبهةً وفخامةً وجمالاً، سينما اشتهرت بستائرها المخملية الحمراء وبمقاعدها المريحة، جمهورها نخبة بغداد، هنا عُرض للمرة الأولى الفيلم الصامت "كل شيء هادئ في الميدان الغربي" المأخوذ عن رواية الألماني أريش ماريا ريمارك؛ هنا جرت حفلة المصارعة



المشهورة التي شهدتها المدينة، بين الهر كريمر، بطل في المصارع الرومانية اليونانية، أو "الزورخانة" كما أُطلق على تلك الرياضة في بغداد، مصارع قدم من ألمانيا وأصرّ على العيش في بغداد، وبين المصارع العراقي الحاج عباس الديك بتحكيم المحكّم أكرم فهمي، الشخصية الإشكالية في تاريخ الرياضة في العراق، والذي كان هو من شجع الهر كريمر أصلاً على المجيء إلى بغداد بعد أن تعرّف عليه في دورة الألعاب الأولمبية في برلين في أغسطس/آب ١٩٣٣، المصارعة التي انتهت بفوز العراقي الحاج عباس الديك الذي سأراه ذات مرة في أواسط الستينيات في العمارة، في مدرسة النبراس، في حي السراي، بفانيلته السوداء وهو يمزّق صواني كبيرة من البرونز. أما "الهر كريمر" فسأحصل على شرف، لكن أيضاً على متعة، اللقاء به، في الطابق السابع من مدينة الطب في بغداد، في أوساط السبعينيات، وبوقت قصير قبل أن يموت. لم ينسَ الهر كريمر سينما سنترال وحفلة المصارعة التي جرت على خشبتها. لكن هل هناك أحد يستطيع أن ينسى السينما هذه؟ فهي لو لم تحترق لكانت ظلت تحتل المركز الأول لملكات جمال سينمات بغداد. كانت أقدم سينما نشأت في المدينة، والحريق الذي التهمها جعل سينما الزوراء تتسلّم مكانها. ولحسن حظ المصور أرشاك أن السينما الجديدة، سينما الزوراء، لم تنشأ بعيدة عن محله.

جمهور السينما النخبوي هو ذاته جمهور سنترال القديم، هم ذاتهم الذين غالباً ما مروا به لأخذ الصور عنده. الذكرى جرس يدق في وادي النسيان. تلك القطعة المعلّقة على واجهة زجاج الاستوديو هي تأكيد عل حضور الماضي. وإذا لا يكفي مثال استوديو أرشاك، فلنأخذ مثال مكتبة مكنزي. أليس من يزورها سيسأل عن القدر الذي انتهى إليه السيد مكنزي أو عن القصص التي دارت في محل الأحذية الصغير؟ أية مؤامرات حاكها السياسيون وأية أقدار بشرية قُررت هناك؟ ومستر جستن وخاله الدكتور ألبير إلياس، ماذا حدث لهم؟ حسناً، لا أحد يعرف عن نهاية مستر جستن، لكن الدكتور إلياس، ألم ينتهِ إلى الهجرة إلى إسرائيل؟ أية حياة جديدة نشأت عنده هناك؟ ثم ماذا عن الخيّاط البيروتي الشهير علي رضا الذي كان محله يقع إلى يمين المكتبة، كل السياسيين والطبقة الراقية خاطت بدلاتها عنده، أين يعيش أولاده وأحفاده الآن؟ ثم ماذا بقي من تكية السيد البدوي وحديقتها؟ بل ماذا بقي من كازينو شريف وحداد لصاحبيها



عبد الله شريف وإسماعيل حداد اللذين كانا موظفين في گمرك بغداد وعملا سوية في هذه الكازينو؟ حسناً، الكازينو أصبحت لاحقاً بار شريف وحداد. كم جلسنا فيها في أوقات الظهيرة، حيث تزدحم بالزبائن الذين أغلبهم موظفون قادمون من دوائرهم بالجوار؟ هنا جلست للمرة الأولى مع أحمد خلف وجمعة اللامي، كانت الفترة الأولى من مجيئي للدراسة في جامعة بغداد، أيضاً كانت الفترة القصيرة من عملي في القسم الثقافي لإذاعة بغداد. أحمد عمل في القسم الثقافي أيضاً، أما جمعة فعمل في قسم آخر، كان أحمد نشر للتو قصته القصيرة "سهم في غابة" في مجلة **ألف باء**، قصة معبقة برائحة الغابة وبهاء ضوئها، بعذاب بطلها الفارس الذي يشق الغابة على فرسه مثل سهم، هارون. وكان الحديث في الحانة دار عنها. شريف وحداد أيضاً هو السرادق الأخير الذي ودعته قبل مغادرتي بغداد في خريف ١٩٨٠، قبل عبوري جسر الوثبة أو جسر الأحرار إلى جهة بغداد الأخرى، حيث الصالحية مبنى الإذاعة والتلفزيون وحيث كراج النقليات الذي

شارع الرشيد في يوم حار.

سينقلني باص منه إلى منفاي الذي سيبدأ بإسطنبول، شريف حداد هو المكان الأول الذي سأراه حالما أعبر الجسر ذاته، لكن المخرّب، عند عودتي إلى بغداد بعد ٢٣ عاماً من منفاي. أي خراب! شريف وحداد كان الصدمة، العلامة الأولى على الخراب الذي حلّ بالبشر والبلاد!

الذكرى جرس يدقّ في وادي النسيان. ماذا عن البناية الأنيقة التي وقعت آنذاك، عندما كانت بغداد لا تزال تقاوم شباباً لا يريد الانتهاء، البناية التي وقعت جوار شريف وحداد على نفس الشارع، "أوتيل مود"، وكان يديره المرحوم محمود النعماني وطبّاخه الإيطالي كوستا، تناول وجبة غداء خرجت من يديّ كوستا لذة ليس لها مثيل، وإلا لما خلّدته آجاثا كريستي في رائعتها الرواية البولسية **وصلوا إلى بغداد**. حسناً، أوتيل مود انتقل إلى الكرخ لتنشأ في مكانه وما جاوره من العقارات أسواق ومحلات تجارية ومنها المصور إلدورادو، ثم تأتي مباشرةً الأرض الواسعة التي أخذت كراجاً ومحلاً لتصليح وإدامة سيارات "نيرن" قبل أن تنقلب إلى بناية شركة "أوررزدي باك" التي لم يملك أبي لا الوقت الكافي لكي ندخل إليها ولا الوقت الكافي لكي نتمشّى قليلاً حيث ساحل نهر دجلة الذي تنتهي إليه، حيث يقع جامع الشيخ سلطان علي، الذي كان مركزاً لجماعة الطريقة الرفاعية الصوفية (هل بقي أحد منهم الآن؟ أقصد هل سحقتهم المليشيات أم التهمت بنايتهم حيتان المقاولات؟). من ينسى الساحل الشهير هذا، أو الشريعة كما يطلق عليه السكان، شريعة السيد سلطان علي، أهم شرائع بغداد سعةً وازدحاماً، ثم محلة الجنابيين، وعلى شارع الرشيد كان دكان الإيراني البهائي الذي يبيع أحسن أنواع الفستق والبندق واللوز وبقية المكسّرات، ثم دكاكين الآرمن الذين يبيعون البسطرمة والكيك واللبن الرائب، ثم البيت الكبير العائد للوجيه الأرمني البغدادي القديم سركيسيان الذي اتّخذ محلاً للمشروبات وللرقص كملهى، وفيه اتُّهمت الفنانة المشهورة، التي كانت تستأجر البيت، صبيحة كسرى، بقتل إحدى الفنانات، رمتها من السطح العالي إلى الأرض، قيل غيرةً، لكن المحكمة برّأتها، وكان المعروف عنها، هي الملقّبة بـ"أم أكرم"، شقاوتها ومراجلها وجمالها. ثم قصر النقيب الكبير على دجلة مباشرةً (الذي تحوّل إلى معهد الدراسات الموسيقية) ثم دار المقيم البريطاني الذي اتُّخذ محلاً لگمرك بغداد وكان مديره الإنكليزي المستر "مونك" وهو المشهور بعملية تهريب موظفي الگمرك بواسطة



الزوارق النهرية، ذلك أن أكثر موظفي الگمرك كانوا يستدينون من المرابين النقود على أساس دفعها عند قبض الراتب، وعندما تجمّع المرابون الدائنون في باب الدائرة بانتظار نهاية الدوام وملاقاة الموظفين المدينين لقبض بعض الديون، حيث صادف حلول عيد الفطر، لفت نظر المستر مونك تجمّع هؤلاء، وعندما علم بأسبابه اتّصل بالسلطات المسؤولة طالباً المساعدة، فأرسلوا له زورقين بخاريين من شريعة السيد سلطان علي وأركب فيها الموظفين وبعثهم إلى بيوتهم قبل انتهاء الدوام وحرم الدائنين من قبض ديونهم لذلك الشهر. بعده يأتي القصر الذي كان يقيم فيه القنصل البريطاني ثم قائد القوات البريطانية، وقد بقي المدفعان وسارية العلم البريطاني المرفوع حتى الثلاثينيات من هذا القرن، قبل يُتّخذ مقراً لوزارة الاقتصاد، مدة طويلة، ثم القصور العائدة لعبد القادر الخضري والحجّي ياسين الخضري، ثم قصر الباجه جي وهو نهاية شارع الرشيد حيث الكنيسة الإنكليكانية الإنكليزية، التي عرفتها من بطاقة بريدية معايدة... من يتذكّر كل هؤلاء؟

الذكرى جرسٌ يدقُّ في وادي النسيان. ألا ترون معي، هي أربعة أمكنة، لكنها تبدو لي الآن مثل خاصرة العالم، دارت حولها الأماكن الأخرى من الشارع بكل ما عاشه من قصص وحكايات وعبث وأقدار. أربعة أماكن اندثرت، وذهب معها عالم أقرب للخيال الآن. أربعة أماكن تروي حكايات خراب حاضر وآخر كان، خراب يأتي وآخر يدقّ على الأبواب. خراب في خراب. من يعترض إذن على القول إن شارع الرشيد هو بغداد لا غير؟ كم كان الصبي على حق إذن! بغداد مدينة الشارع الوحيد. لها ما للشارع والعكس يصحّ. في فترات ازدهار المدينة يزدهر الشارع، وفي فترات اندحارها يندحر معها. نوع من التضامن القديم. الأمر الوحيد الذي يختلفان به هو أن المدينة حافظت على اسمها، حتى في فترة الدمار الذي لحقها بعد الغزو المغولي. أسماء الشارع تغيّرت مع تغيّر ريح السياسة والسلاطين، شأنه شأن أغلبية مدن وشوارع وساحات. حتى اسم البلاد تبدّل مرة في زمن الديكتاتور السابق، من الجمهورية العراقية إلى جمهورية العراق. من المؤنث إلى المذكّر. أما أعلامها وأناشيدها الوطنية فهي تعبير عن رغبات الحاكم هذا أو ذاك. كل سلطة لها علمها ونشيدها الوطني. إذا استدعت الحال فلتظل بلا علم ونشيد، كما يحدث الآن. شارع الرشيد تغيّر هو الآخر عشرات المرات. فهو

منذ أن شقّه العثمانيون عام ١٩١٦ وانتهى العمل فيه في مطلع عام ١٩١٧: شارع خليل باشا ("خليل باشا جادة سي")، وشارع هندبيرك، وشارع النصر، والشارع الجديد، ثم شارع الرشيد. الطريف هو أن الإنكليزي أدموند كاندلر، أحد الذين رافقوا قوات الاحتلال البريطاني التي دخلت بغداد عام ١٩١٧، يقول: "تقدمنا في شارع خليل باشا، هو الشارع الوحيد العريض في المدينة، لقد أُطلق عليه اسم شارع هندنبرك بمناسبة سقوط الكوت. إنه ليس بشارع جميل أو جذاب. وكانت عملية تطويره وأوقات إصلاحه متباعدة". الشارع هذا الذي لم ينظر إليه الإنكليز بعين الرضا، لأن اسمه ذكّرهم بالجنرال الألماني هندنبرك الذي قاد الجيش العثماني في حصار القوات البريطانية في الكوت (كوت العمارة) الذي بدأ في ٧ كانون الأول/ يناير ١٩١٥، وانتهى بإستسلام الجيش البريطاني في ٢٩ أبريل/ نيسان ١٩١٦، الشارع هذا الذي سينسى اسم الجنرال الألماني، مثلما سينسى أسماء أخرى ستُفرض عليه، الشارع هذا حاول على الأقل المقاومة. ولكي يكون جميلاً واستثنائياً، أمامه فقط الاحتفاظ بالإسم الذي فضّله على بقية الأسماء: شارع الرشيد، بكل ما يحويه من أسطورة وعالم مفقود، مثله مثل المدينة التي تحضنه: بغداد، فهي الأخرى يُطلق عليها عاصمة الرشيد!



١١

عباس بغدادي موسوعة بغداد

إذا كان ابن إيناس والجبرتي هما مرجعان لا يمكن الاستغناء عنهما عندما يُراد استعادة تاريخ القاهرة ومصر في القرون الثلاثة الأخيرة، أو إذا كان البديري والحلاق الشامي مرجعين سجّلا حقبة مهمة من أحوال الشام خلال القرن الثامن عشر، فإن عباس بغدادي يظلّ صاحب الامتياز الأول الذي لا بدّ من الرجوع إليه لمعرفة تاريخ مدينة بغداد وملامحها، خاصةً فيما يتعلق باستعادة التفاصيل المتعلقة بحياة الناس في تلك الحقبة الحاسمة من تاريخ المدينة، سنوات العشرينيات، سنوات التحول الراديكالي التي عاشت فيها البلاد، وعاصمتها بغداد، بشكل خاص. فمثلما بدأ القرن الحادي والعشرون الميلادي بتغيير في أحوال الناس ونمط معيشتهم وحياتهم هناك مع دخول قوات المارينز إلى بغداد في ٩ نيسان/ أبريل ٢٠٠٣، عاش العراقيون وأولهم سكان بغداد تبدلاً جوهرياً في حياتهم في بداية القرن العشرين، بالضبط الفترة التي امتدت من نشوب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وحتى احتلال القوات البريطانية لبغداد في ١١ آذار/ مارس ١٩١٧. وربما لم تكن الحرب التي دارت رحاها في أوروبا قد أثّرت عليهم، لو لم يكن العراق جزءاً من الدولة العثمانية، الرجل المريض على البوسفور الذي تصارعت دول أوروبا الكولونيالية على تقاسم ميراثه. العراق، الذي سقط ثمرةً ناضجة في سلّة التاج البريطاني، كان مسرحاً لصراع بين بريطانيا من جهة وتركيا وألمانيا من الجهة الأخرى. ألمانيا، التي كانت حتى نهاية القرن التاسع عشر مشغولة بحروبها



الداخلية التوحيدية، دخلت على الخط، خط تقاسم الغنيمة، متأخرة، أما مشروعها ببناء خط سكة بغداد – برلين الذي أرادت عن طريق استثمارها الكبير فيه إغراء السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، فلم يفعل غير أنه قام بالتعجيل في إشعال الحرب العالمية الأولى. أمر مفهوم: كيف تسمح بريطانيا التي تصرفت على راحتها في مستعمرتها القريبة من العراق، الهند "جوهرة التاج البريطاني" كما أُطلق على شبه القارة الهندية، لألمانيا بالاقتراب من حدودها عن طريق مدّ خط سكة حديد يوصل بغداد ببرلين، وحتماً سيصل البصرة الواقعة على الخليج؟

عباس بغدادي الذي وُلد في محلة جامع عطا في بغداد عام ١٩١٣، أو في سنة "السفربرلك" كما قيل له، هو شاهد نموذجي على تلك الحقبة التي اكتوى بنارها العراقيون، إن لم يكن هو الذاكرة الحيّة لمدينة بغداد التي شكّلت تلك الحقبة بداية دخولها العصر الحديث على رغم ما حوته تلك الحقبة من تناقضات ومصائب. عديدون كتبوا عن بغداد في فترة من الفترات، عن حقبة تاريخية منها أو عن بعض المراحل التي مرت بها، وأنا أقصد بالعديدين ليس المستشرقين، لأن نظرة هؤلاء لبغداد تظل مختلفة باختلاف دوافعها، إنما من شركائه في المواطنة وفي العمر من المؤرخين البغادّة، لكنه يظل مختلفاً عنهم. فعلى عكسهم جميعاً، لم يؤرخ عباس بغدادي أو يكتب عن مدينته من خلفية أكاديمية أو كان اختصاصه دراسة التاريخ. مؤرخون كبار، مثل أمين المميز أو جلال الحنفي البغدادي وآخرون، يمكن تدوين قائمة بأسمائهم. فالأول المميز، الذي وُلد في بغداد عام ١٩٠٩ وتوفي عام ١٩٩٧، صحيح أنه باحث موسوعي ومؤرخ بغدادي، وأن كتبه من المصادر التاريخية المهمة التي لا يمكن الاستغناء عنها، خاصةً كتابه الشهير **بغداد كما عرفتها**، إلا أنه كان دبلوماسياً قضى أغلبية سنوات عمره متنقلاً في عمله الدبلوماسي في ثلاثينيات القرن الماضي في دول عديدة، في السعودية وأميركا على وجه الخصوص.

الثاني، جلال الحنفي، أو الشيخ جلال الحنفي البغدادي كما أُطلق عليه، الذي وُلد في بغداد عام ١٩١٤ وتوفي فيها عام ٢٠٠٦، صحيح أنه شكل ظاهرة فريدة في سيرته ومواهبه وطبيعته الشعبية، في شطحاته ونوادره، كما تهيّأ له، خلال تلك الرحلة الطويلة من العمر ومعاصرته لحقبه، أن يكون شاهداً على القرن العشرين، ليد

من الخواطر والمعلومات في كتب وبحوث موسوعية تركت بصماتها بصفتها علامة من علامات الرجل والحقبة والوعي العراقي، إلا أنه يظل عالمًا درس علوماً مختلفة، فإلى جانب الفقه جمع المختص والخبير: علوم التاريخ، والعروض، وتميّز على نحو خاص بالتاريخ المحلي وعلوم المقام العراقي، حتى امتزج اسمه بهما، وكما امتزج بجامع الخلفاء، أقدم جوامع بغداد وأجملها عمارةً، لعمره الطويل الذي قضاه فيه معلّماً وإماماً وخطيباً، بل حتى حارساً وخادماً، لفرط عشقه لهذا الجامع التاريخي العريق، الذي لم يوازِه طبعاً غير عشقه الكبير لبغداد التي عاشت في دمه وليس في عقله فقط. في سنّ مبكرة، في العشرين من عمره، وتحديداً في عام ١٩٣٣، لقّبه اللغوي الكبير الأب انستاس ماري الكرملي بالشيخ العلاّمة، رغم أن لقب "شيخ بغداد وعاشقها" هو أكثر ألقابه شهرةً، والذي اكتسبه بعد عودته من القاهرة التي سافر إليها ليدرس فيها ويقضي عاماً واحداً في جامع الأزهر، لكن عشقه لبغداد جعله يعود إليها. جلال الحنفي اشتهر أيضاً بتنوع وغزارة مؤلفاته: **معاني القرآن، مقدمات الجنوح في الأحداث، بقايا ديوان، التشريع الإسلامي: تاريخه وفلسفته، الصناعات والحرف البغدادية، الأمثال البغدادية، معجم اللغة العامية، معجم اللغة العامية الكويتية والتونسية واليمنية، مبغى البصرة، العروض، المقام العراقي، الرصافي في أوجه وحضيضه**، وغيرها من المؤلفات.

على عكس المؤرخين الموسوعيين والعملاقين هذين، لم يكتب عباس بغدادي عن بغداد بخلفية أكاديمية أو رغبةً في نشر كتاب تاريخي أو اجتماعي أو أدبي، كما فعل أدباء مثل الشاعر البغدادي الشهير الملاّ عبود الكرخي أو الصحفي صادق الأزدي أو الروائيين البغداديين بامتياز غائب طعمة فرمان وفؤاد التكرلي أو عالم الاجتماع علي الوردي أو الدبلوماسي أمين المميز أو، أخيراً وليس آخرهم، جلال الحنفي، لأن قائمة الذين كتبوا عن بغداد طويلة، بل كتب عن معايشة، ذاكرته هي مثل المدينة ذاتها، نمت وتطورت وخزنت تفاصيلها معه، وعندما كتب **بغداد في العشرينات** (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – عمان، ١٩٩٩) بيضته أو مدونته الوحيدة في الحياة، والتي عمل عليها طوال سنواته الأخيرة، لم يفعل ذلك لغاية أو غرض، كأن يكون كتبها لأغراض سياسية أو لأطماع شخصية، لأغراض أكاديمية أو أدبية، أو بغرض طلب الشهرة. كلا، عباس بغدادي فعل ذلك لأنه أراد رواية ما عاشه مباشرةً منذ الحقبة تلك؛

لأنه أراد أن يقول: "أشهد أنني عشت" بصوت أصدق من الصوت الذي أطلقه ذات مرة صاحب النوبل الشاعر التشيلي بابلو نيرودا وهو يستشهد بتلك الجملة التي بدأ بها كتابة **مذكّراته**، إن لم يشأ الذهاب أبعد: "أشهد أنني عشت، وعاشت المدينة بغداد معي". المدينة هي التي تهمّه، وهذا ما جعله يسجّل ما لم يُسجَّل "مستثنياً منها حديث السياسة والمساجد والمدارس والقوات المسلحة"، كأن الأيديولوجيا المتمثلة بالسياسة، والدين المتمثل بالمساجد، والتعليم الموجّه أو تدريس التاريخ الزائف المتمثلين بالمدارس، والعسكرتاريا المتمثلة بالقوات المسلحة، كأن هؤلاء الأربعة هم الذين دمّروا مدينته بغداد، أو على الأقل الحديث عنهم لا يضيف شيئاً، ليس لأن "المواضيع هذه أُشبعت بحثاً من ناس هم أقدر وأكفأ على معالجتها وتسجيلها"، كما كتب هو نفسه بتواضع، بل إن إعادة تسجيلها سيدخله في متاهات جديدة وأحكام لا تفعل شيئاً غير تشويه الصورة التي يريد نقلها عن بغداد؛ طبعاً بغداد التي عاشها على هواها كما شاءت، وليس كما شاءت الإيديولوجيا والدين والتربية والعسكرتاريا لها. باختصار: بغداد العمل والنزهة... بغداد الحياة!

من الصعب على من يقرأ مدونته أن يفكّر بأمر آخر. لا بدّ أن يكون الأمر بهذا الشكل. عباس بغدادي عاش وعاشت المدينة معه، وقبل أن يموت أراد أن يقول: هاكم المدينة هذه، تعلّموا الدرس الأول منها: لكي تكونوا كما أنتم، لكي تكونوا مخلصين لأنفسكم، عليكم أن تعيشوا مثلها. ومن يقرأ كتابه لن يتردد عن إعجابه بصدقه، بذاكرته النشطة حتى سنوات حياته الأخيرة، إذا لا يحسده على بساطته، التي تبدأ مع تاريخ ولادته. لا تاريخ مكتوب لولادته، يقول عباس بغدادي، فكما كان متعارف عليه في بغداد على وجه الخصوص، كانت سنين الولادة تُعرف بحوادث تلك السنوات المتميزة، مثل سنة الثلجة أو سنة الجحيل (البرد الشديد) أو سنة الجراد أو سنة الموحي (الجفاف) أو سنة الشوحي (الفيضان) أو سنة أبو زوعة (الكوليرا) أو الطاعون... إلخ. فيما يخصه، قيل له: إنك وُلدت بسنة واحدة قبل سنة "السفربرلك"، ولأننا نعرف أن الكلمة هذه، التي تعني "الذين ذهبوا بلاعودة"، هي صفة أُطلقت على قانون التجنيد العثماني الذي بدأ تطبيقه بحزم عند اندلاع الحرب العالمية الأولى على رعايا الدولة العثمانية، حيث كان المجنّد حينذاك، إذا شارك في حملة عسكرية، نادراً جداً ما يعود



إلى أهله، ولأن الحرب العالمية الأولى اندلعت عام ١٩١٤، يكون تاريخ ولادته هو عام ١٩١٣.

السفربرلك الكبير، أو اللاعودة الكبيرة كما هو معنى الكلمة التركية الأصل في اللغة العربية، حيث فقدت العديد من العائلات العراقية أبناءها على جبهات الحرب البعيدة، حدث في العراق في عام ١٩١٤. أما الدولة العراقية فقد تأسست عام ١٩٢١، والصبي عمره ثمانية أعوام، كان قادراً على رصد الأحداث أمام عينيه، خاصةً وأن الصبيان في ذلك الزمان كان عليهم تحمّل الكثير. اضطراره للعمل مبكراً لمساعدة عائلته جعله يتقلّب في مهن كبيرة، رغم أن ذلك لم يمنعه من مواصلته للدراسة، حتى تخرّجه من كلية الحقوق في بغداد. لكن تنقّله من مهنة إلى أخرى بالذات هو الذي منح كتابه نكهة لم يملكها أي كتاب آخر عن بغداد. حتى تعليمه الأولي لم يدرسه في مدرسة، بل تعلمه في مدارس شعبية بسيطة كانت أصلاً لتدريس القرآن. درس على يد الملالي كما أطلق على الشيوخ ورجال الدين الذين تخصصوا بتعليم الصغار في المدارس الخاصة. على يد الملاّ رجب أولاً، ثم عند ملاّ مهناية التي ذاعت شهرتها آنذاك في بغداد! ولأن عمل إخوته كان في سوق الصفافير، فقد نُقل إلى الملاّ عارف في سوق الخفّافين، الخطاط الشهير في بغداد، حيث درس عنده القراءة والكتابة ومبادئ الحساب وحسن الخط، قبل أن يدخل بعدها مدرسة تطبيقات دار المعلمين الابتدائية، ثم مدرسة التفيض الأهلية، ثم الثانوية المركزية، أشهر ثانوية في بغداد، ليدرس بعدها في كلية الحقوق، المحطة الدراسية الأخيرة في حياته.

لكن في كل السنوات تلك اشتغل عباس بغدادي منذ صغره "بأعمال ووظائف قد لا تخطر على البال"، كما يقول عباس بغدادي عن نفسه في مقدمة كتابه. فقد كُلّف بجمع الأسبوعية من الزبائن المدينين لأبيه في أسواق بغداد كل يوم جمعة، أما في ساعات العصر فيبدأ بشغل الخان لكي لا يعبث أو يلهو، أو يقوم بخدمة الزوار والضيوف في محلهم في الخان يومي الثلاثاء والجمعة، أما الأيام التي لا يذهب فيها للدراسة على يد الملا أو العمل في الخان فيجب عليه قضاؤها بالعمل عند أقاربهم مثل صبّاغ المحلة، يصبغ الملابس أو ينشرها على الحبال، أو في محل دكان السيد محمد الحجي صالح، الذي اشتهر ببيع السجائر والنرجيلة، وكان عمله يتركّز في ملء السجائر ودكمّها أو في ثرم

تبغ النرجيلات وتجهيزه في أكياس الشخاط الفارغة، أو يذهب إلى مسجد عطا الصغير المقابل لبيتهم ليخدم في المسجد الذي يقوم عليه رجل هندي عجوز جاء أصلاً إلى بغداد مرافقاً للعلاّمة الكبير غلام رسول الهندي. وعندما أنهى دراسة الحقوق باشر بالعمل في مختلف الوظائف الحكومية، "صغيرها وكبيرها في مختلف أنحاء العراق" كما يقول، حيث عمل محامياً وتاجراً مستورداً ومصدّراً من تجار الدرجة الثانية، ومزارعاً وصحفياً محرراً دائماً في مجلة **الوادي** وصاحب امتياز مجلة **الفلقة**، وشاعراً في العامية والفصحى، ومشاركاً وبائعاً بدكان حلويات الشكرجي، ومجهزاً للأقمشة أيام التموين إلى مدينة المحمودية، وشريكاً في مخبز في سوق الشاوي، وسائقاً للتاكسي، وضارباً بعصا التنظيف في سوق السجاد مع الحجي إبراهيم الكردي وعباس فيلي (أسماء كانت معروفة آنذاك في بغداد)، وبائعاً للنفط الأبيض والأسود ووكيلاً عن شركة النفط أثناء غياب وكيلها الشخصية المعروفة خطّاب الخضيري، ومديراً لمحلج القطن في ناحية العزيزية جنوب بغداد، ومديراً لمعمل القطن الطبي في الوزيرية، وخبيراً في شركة الغزل والنسيج، ومديراً لمكتب أنباء العالم العربي في بيروت ودمشق وعمّان، وخبيراً في الخطوط وفي تقدير الأملاك والمزارع في أمانة العاصمة بغداد، وفي المحاكم المدنية، ومربياً للأغنام ومالكاً لرؤوس من الخيل، ونزيل معتقل الفاو والعمارة ونقرة السلمان (السجن الصحراوي المشهور في جنوب العراق)، ومديراً لتمور المنطقة الوسطى في جمعية التمور، ومديراً لرواتب المتقاعدين ومدوناً قانونياً في وزارة العدل، ومفتشاً عدلياً ووكيلاً للفنادق ومستخدماً فيها، وتلك كانت أشقّ الأعمال على نفسه وأمرّها مادياً ومعنوياً.

باختصار وكما يقول عباس بغدادي عن نفسه: "وملكت وأفلست وسقمت وعوفيت، وصعدت ونزلت، ولقيت من الأمور ما لقيت ولبست العرقجين والكشيدة والطربوش والسدارة والبرنيطة. وشرقت وغربت وسكنت خارج بغداد سنين عديدة. وعرفت سوريا ولبنان ومصر وإيران وتركيا والأردن والسعودية والكويت والبحرين وأوروبا. ودرست في لندن سنة واحدة موضوع التسويق التجاري. وعاشرت مختلف طبقات الناس ملوكاً وصعاليك، أغنياء وفقراء، علماء وجهلة، إقطاعيين وفلاحين، أصوليين ومتشككين، رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً. وتزوجت ولي ولدان وابنتان. وقال الناس عني ما قالوا قدحاً ومدحاً. وذقت من الحياة حلوها ومرّها". كلمات معبّرة



حقيقةً. لكن مهما قال عباس بغدادي، الذي كتب هذه الكلمات وهو في الخامسة والثمانين من عمره عن نفسه، فإن أمراً واحداً ثابت، هو أن بغداد لم تعرف حياةً زاخرةً مثل حياة الشخص هذا. أغلب تلك المهن، إن لم تكن كلها، انقرضت وانقرض معها تاريخ متنوع من بغداد! عالم يبدو اليوم أقرب للأسطورة حقيقةً، يُذكّرنا بعالم **ألف ليلة وليلة**، رغم أنه عالم واقعي بامتياز، ليس لأنه عالم وُجد بالفعل ذات يوم، ليس لأنه عالم شكّل روح المدينة هذه بغداد، بل أكثر من ذلك، لأنه العالم الذي سجّله ورواه هذا الشخص بالذات. ليس هناك وصف للمدينة يفوق وصف عباس بغدادي. بغداد تتحول على يده مكاناً قابلاً للعيش وحسب، لا يهم المهنة التي يزاولها المرء، المهم أنه في عدنه: بغداد!



١٢

أنا على خطى كولومبوس

كولومبوس اكتشف أميركا، وأنا اكتشفت بغداد. كولومبوس صنعته أميركا وليس الهند التي أراد الوصول إليها أصلاً، وأنا صنعتني بغداد، وليس الأمنية هذه، الـ"ذا شأن"، التي حرّضني أبي على الوصول إليها. في اللحظات السعيدة من حياتي وأنا طفل، وهي عديدة، لم أنسَ المغامرة تلك أبداً، كنت فخوراً باكتشافي بغداد، كأن تلك الـ"ذا شأن"، التي قالها أبي، ليست هي المقصودة أصلاً، هي مجرد عذر أو باعث للوصول إلى بغداد. بدون أميركا ليس هناك كولومبوس. بدون بغداد ليس هناك أنا، بل ليس هناك "ذا شأن" في العراق. لا يهم أن جملة أبي كانت غامضة بالنسبة لي، ثم أنني لم أدخل في تفاصيلها، ليس بسبب شعور أنني لست معنياً بالأمر، بل حدث الأمر ببساطة هكذا، فطفل في مثل سني آنذاك لا تهمّه التفاصيل بهذا القدر. صحيح أنني، وعلى عكس العديد من أقراني الصغار، كنت مغلّفاً بالفضول، السؤال عن شيء ما عصيّ عليّ فهمه لم يخجلني أبداً، لكنني، وذلك هو السبب لعدم سؤال أبي على ما أعتقد، ظننت أنني فهمت ما عناه في جملته تلك: "لكي يصبح نجم ذا شأن، لا بدّ له أن يرى بغداد". كنت على عجلة لكي أفهم ما أراده أبي لي في ذلك اليوم، وكنت سعيداً بذلك حقيقةً، كأن الجولة تلك هي بداية لفتح العالم. كل العالم سيصبح بيدي. أي امتياز! الطفل الذي سينهي قريباً سنته الدراسية الأولى في المدرسة، الطفل الذي تعلّم للتو القراءة والكتابة بسرعة، مثلما تعلم الحساب، يحصل على امتياز التجول في بغداد. وشكراً لأبي الذي



فعل كل ما في وسعه لتحقيق ذلك، ولا يهمّ أنه أخذ لي ثلاثة أيام إجازة من المدرسة. وحتى عندما أبدى مدير المدرسة قلقه من غيابي، طمأنه أبي، طلب منه ألاّ يقلق: "أمه ستدرّسه ما سيفوته من دروس". طبعاً لم يشكّ المدير في ذلك. كيف يفعل ذلك وأنا كنت الأول على الصف، "فارس الصف"، الميدالية تلمع على صدري. "تلك مكافأة له"، قال أبي للمدير، "سيصاحبني لزيارة سامراء وكربلاء وطبعاً بغداد". في الغرب يُعمَّد الطفل، وأنا؟ كأنّ أبي أراد تعميدي ببغداد.

من الصعب وصف شعوري في الشهر الربيعي ذلك، شهر قطف المشمس، لذة اللحظات تلك هي بلذة أكل المشمس الذي قُطف للتو. وكان يكفي بالنسبة لي، بعد عودتنا من جولتنا القصيرة تلك، أنني تعرفت على بغداد التي رأيتها، لكي أشعر بأنني أطير، بأن كل قوانين الجاذبية التي سأتعلمها كفّت في تلك اللحظات عن الوجود. كريستوف كولومبوس وصل أميركا قبلي، في عام ١٤٩٢، وأنا وصلت بغداد قبل وصول رجل الفضاء الأميركي نيل آرمسترونغ. أنا وصلت بغداد في الأسبوع الأخير من شهر مايو/ آيار ١٩٦٢، ونيل آرمسترونغ وطأت قدمه مع فريق أبولو ١١ القمرَ في ٢١ تموز/ يوليو ١٩٦٩.

صحيح أن بغداد التي رأيتها في ذلك الحين مساحتها صغيرة، لكنها كانت كافية لكي تمنحني القناعة بأنّ لا بغداد غير تلك المدينة التي رأيت. المساحة والسكان أو الخرائط لا تلعب دوراً هنا. ألم يكن هدف كولومبوس الوصول إلى الهند عن طريق الغرب لكي يصبح "ذا شأن"؟ لم يصدقه أحد عندما عرض مشروعه عليهم. مجلس الشيوخ في مدينة ولادته جنوة الإيطالية رفض عرضه. كذلك فعل هنري السابع ملك بريطانيا، وحتى عندما لجأ إلى مستشار الملك البرتغالي خواو الثاني لم يقتنع هذا بما كتبه له كولومبوس في الرسالة التي بعثها إليه، يطلب منه دعمه في مشروعه، رغم ذلك لم ييأس كولومبوس. كان مصرّاً، ظنّه لم يخطئ، فها هو سيصبح "ذا شأن"، عندما سيوقّع في ١٧ نيسان/ أبريل ١٤٩٢ معه الملوك الكاثوليك الإسبان اتفاقية جاء فيها أن كولومبوس "كمكتشفٍ للجزر والقارات في البحر والمحيط وانطلاقاً مما سبق سيُمنح رتبة أمير البحار والمحيطات كقرار ملكي يسري في جميع أنحاء البلاد، يُضاف إلى ذلك أنه سيُمنح ١٠% من الذهب والبضائع التي سيُحضرها معه بدون أية ضرائب".

إذن الشهرة والثراء هما الـ"ذا شأن" بالنسبة لكولومبوس. لا يهم. المهم أنه كان سعيداً إلى ما وصل إليه، رغم أن هدفه الأول، كما كتب في رسائله لكل الملوك الذي طلب دعمهم له، هو الوصول إلى الهند عن طريق الإبحار غرباً، وليس اكتشاف أميركا، كما حدث في النهاية صدفة. وأنا؟ أعرف أنني لم أفكر لا بشهرة أو مال، أعرف أن الأطفال لا يعرفون الثروة المادية. المعرفة هي ما يصبون إليه.

سابقاً كنت أخترع المدينة، عدتي في ذلك كانت صور البطاقات البريدية أو المعايدات، شأنها شأن خرائط كولومبوس. الآن أصبح الأمر مغايراً. لم تعد بغداد صوراً وخرائط متخيلة. بغداد هي الأرض التي سرت عليها سعيداً، ولا يهم أنها كانت شارع الرشيد. بغداد فتحي الأول، وطريقي لكي أصبح "ذا شأن"، نقطة انطلاق جديدة باتجاه الحياة. الحد الفاصل بين مرحلتين، الأولى قبل زيارتي لها، والثانية بعدها. ها أنا أبدأ مرحلة جديدة إذن. الآن عليّ التفكير مرات عديدة قبل أن أبدأ بالحديث عن المدينة. لم تعد الصور عدّتي. هذه المرة عدّتي ما عشته في رحلتي القصيرة تلك. الصور التي تضخّ الدم في شرايين حكاياتي عن المدينة ليست مطبوعة على الورق في هذه المرة. مع كل وصف للمدينة تأتي كل الصور تلك التي ظلت مطبوعة في ذاكرتي. الرحلة الأولى تلك كانت امتيازي غير القابل للمصادرة، على الأقل هذا ما شعرت به. كأن الانتقالة التي حدثت لي لم تأتِ صدفة. كأن أحداً جلس في مكانٍ ما وقال: حان أوان الانقلاب الذي سيحدث في حياة الصغير الذي كنته، لا يكفي دخوله المدرسة وتعلّمه القراءة والكتابة. لا بدّ وأن يوازي ذلك، أو لا بدّ وأن يسبقه، أو لا بدّ وأن يتأسّس على انقلاب جذري آخر: أن يرى عدنه التي كانت بالنسبة له خيالاً وحسب. وهي اللحظة هذه، اللحظة التي يتم فيها عادةً تبادل الأدوار بين الكائن وموضوعه، التي ستبدأ بصناعة الإنسان. هذا ما حصل لكريستوف كولومبوس أيضاً. منذ اللحظة التي وطأت فيها قدمه أميركا عرف أنه أصبح منذ الآن شخصاً آخر، أو أنه منذ اللحظة تلك لم يعد الشخص الذي كانه من قبل. كل ما نعرفه عنه جاء بعد رحلته لأميركا. بدون الرحلة تلك ما كنّا عرفنا باسمه. آلاف البحّارة، آلاف الطامحين بالاكتشاف، ذهبوا دون أن نعرف عنهم شيئاً، دُفنوا بدون أسماء، وكان يُمكن أن يكون أحدهم كولومبوس. لكن اكتشافه لأميركا جعل حياته تنقلب رأساً على عقب فجأةً. كل وصف له أو تعريف



ارتبط بأميركا. كأنها أميركا هي التي صنعته، شكّلته على مخرطتها منذ اليوم الذي وطأت عليها قدماه، فبدونها ما أصبح الشخص الذي عرفناه.

أنا الآخر صنعتني بغداد. بعد زيارتي تلك تغيّر عالمي تماماً. كل شيء تعلّمته، عشته بعد ذلك، هو اكتشاف. فأنا لم أزر بغداد وحسب، بل أصبحت أعرف كتابة اسمها، أستطيع تهجّي حروفها: باء، غين، دال، ألف، دال. ذلك وحده اكتشاف. فتح جديد. أمي تقول لي: "تعلّم كتابة الخط". "اكتب ما يخطر على بالك" تقول لي، فلا يخطر على بالي غير اسمها: بغداد. في الماضي كانت أمي تضحك من أحاديثي عن بغداد. هذه المرة تتابع حركة يدي وأنا أخطّ الكلمة على الورق بجدية، كأنها تشاركني اللحظة السعيدة تلك. حتى أحاديثي عن المدينة، ووصفي لما رأيته هناك، امتلك كثافةً جديدة. أنطق اسم المدينة، وبالتوازي مع ذلك تتشكّل حروفها أمام عيني. حتى نطقي لها اختلف. هناك ثقة في كلامي. أشعر بذلك.

الزيارة الثانية التي رافقت فيها أبي وجدي إلى ابن عمه في منطقة السدة زوّدتني بالعديد من الاكتشافات، بعضها جديد وبعضها تنويعة على ما زوّدتني به الرحلة الأولى من خبرات. فلكي نصل إلى منطقة السدة تلك كان لا بدّ لنا من المرور بمنطقة كمب الأرمن، إحدى المناطق العريقة في بغداد. ليست هناك مقارنة بين المنطقتين. الفارق



نجم والي بين صديقين (إيهاب وسعدون شليبة) في حدائق دجلة في العمارة 1968.



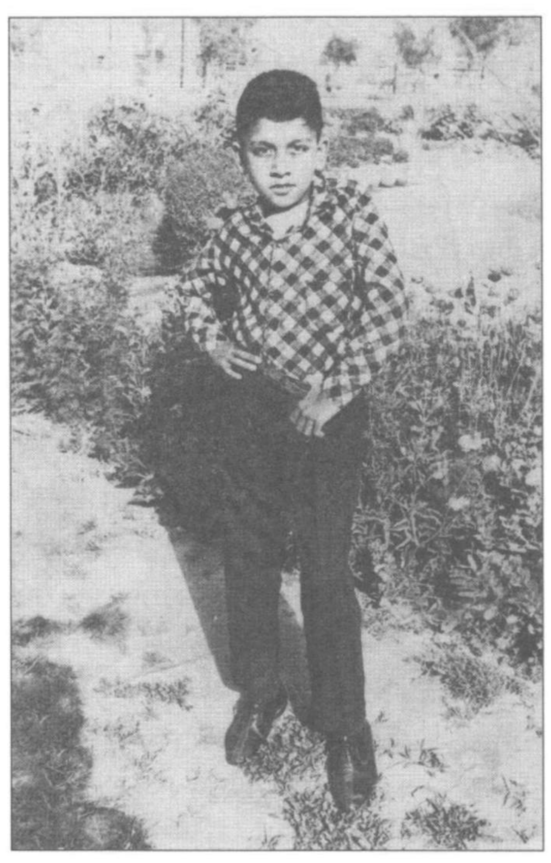
بينهما هو كالفارق بين السماء والأرض. منطقة السدة، المنطقة الطارئة على بغداد، هي منطقة سكنى الفقراء، الفلاحين المهاجرين الذي عاشوا في صرائف وأكواخ، لا ماء عندهم ولا كهرباء. منطقة كمب الأرمن هي المنطقة الرئيسية لسكنى المسيحيين في بغداد، شوارعها نظيفة وبيوتها بسيطة وأنيقة، مبنية من الطابوق. ثم أن مقبرة اليهود القديمة قريبة منها، كما أن إلى جوارها مقبرة الأرمن. رغم أن تلك كانت انطباعات عابرة، لكنها كانت جزءاً من لحظات السعادة تلك، الطفل الصغير يسير بصحبة أبيه وجده في أزقة وشوارع لم يرَ لها مثيلاً في السابق. أمام البيوت يلعب الأطفال، أطفال نظيفون، ملابسهم أنيقة. بنات بضفائر صغيرة، بشرتهن بيضاء، شعرهن أسود، أو أشقر، وعيونهن بكل الألوان. طبعاً في مدينة العمارة سكنت بعض العائلات المسيحية، لكن عددها قليل، ثم أن أغلبهم جاؤوا من شمال البلاد، آشوريون وكلدان وتلكيفيون من الموصل غالباً، بعضهم اشتهر ببيع الكبّة الموصلية، الكبّة المصنوعة من البرغل، آخرون اشتهروا بمحلات بيع المشروبات الروحية أو امتلاك البارات، ثم أنهم لم يسكنوا حياً واحداً مع بعض.

هنا، في بغداد، يقطع المرء شوارع هذا الحي التي تبدو أنها لا تنتهي. لا أظن أن لا طريق آخر هناك للوصول إلى منطقة السدة، كأن نكون أتيناها من جهة باب الشيخ، المنطقة الصناعية، حيث ورشات تصليح السيارات، لكنه أبي الذي شاء بالتأكيد عمل جولة صغيرة قبل الوصول إلى أحياء الطين والأكواخ المبنية من البواري (جمع بارية). "انظروا إلى جمال المنطقة"، أسمع جملة أبي تلك مخاطباً جدي، الذي سيجيبه بقوله واثقاً: "البيوت هذه تشبه بيوت الإنكليز". جدي عمل بستانياً عند الإنكليز، في مقبرة الإنكليز في العمارة، وهو يعرف ماذا يقول، فيما أبتسم أنا، لا أنطق كلمة، أسير قدماً. سعادتي لا تعرف الحدود؛ كل حركة من جسمي تقول ذلك. أعرف غنيمتي التي سأعود بها إلى العمارة. قريباً ستنتهي العطلة الربيعية، وسنعود إلى الدرس، وسأروي لزملائي التلاميذ الصغار عن رحلتي الجديدة، كما رويت لهم عن رحلتي الأولى. أعرف أن البعض لن يصدقني، سيغار، بل أعرف أن البعض سيجمع عصابة الأطفال الصغار وينتظرونني عند بوابة المدرسة بعد نهاية الدوام لكي ينقضوا عليّ، وأنا لا أعرف سبباً في حينه حقيقةً، لم أفهم لماذا تستدعي رواية عن بغداد كل العدوانية هذه؟ لماذا الهجوم



عليّ وبهذا الشكل الصريح؟ لكن رغم اللكمات والخراميش التي حصلت عليها منهم، كنت، من الناحية الأخرى، سعيداً في الصميم. ها أنا أكتشف اختلافي عن الآخرين. لا أحد فيهم يعرف بغداد. أي امتياز!

من اللحظات السعيدة في طفولتي، والتي، كما قلت سابقاً، كانت لا تُحصى، هي لحظات مصاحبتي لأمي في زيارة الخياطة "أم بديع". لم أعرف اسمها، فقط كنيتها، عندها ولدان، بديع ولميع. ولأن بديع الأكبر فقد أطلق عليها، كما جرت العادة، "أم بديع". كان بيتها يقع في سوق صناعة الآلات الزراعية، المحراث والمنجل وغيرها



نجم والي بتقليد للمثل الأميركي جيمس دين في حدائق دجلة في العمارة 1968



من الآلات. كان العاملون هناك بالأحرى كلهم من طائفة الصابئة المندائيين، بلباسهم التقليدي، الدشداشة والغترة الحمراء المرقّطة بالأبيض غالباً، ولحاهم الكثيفة. بيت أم بديع يقع عند نهاية السوق، بالضبط عند نهاية محلة المحمودية، وحيث تبدأ محلة السرية. سابقاً، قبل اكتشافي بغداد، كانت رحلتي إلى هناك تشكّل وحدها متعة بالنسبة لي. وحده الجلوس في باحة البيت بمواجهة أم بديع وهي تجلس عند ماكنتها ماركة سنغر القديمة، فيما تضرب قدماها على قاعدة الماكنية بحركة متوازية مع حركة يديها وهي تدفع قطعة القماش على سطح الماكنة في الأعلى، هو متعة تفوق التصور. الصغار الآخرون الذين جاؤوا بصحبة أمهاتهم يلعبون ويركضون في زوايا البيت، وأنا أظل محافظاً على جلستي تلك، أراقب أم بديع في حركتها، وأنا أسمعها تتحدث بصوتها الناعم والموسيقي، كأنها ضبطته على إيقاع حركة ساقيها ودفع يديها للقماش تحت ضربات الإبرة. ربما دار الحديث بين النساء اللواتي جلسن هناك، واللواتي غالباً لا يقلّ عددهن عن العشرة نساء، عن الشؤون المنزلية أو عن السوق والأزواج والأطفال، إلا إنه في هذه الحالة لن يستمر طويلاً، لأن النساء اللواتي جئن في ذلك اليوم لم يجئن للحديث عمّا سيتسوقنه من السوق أو ما يطبخنه لأزواجهن في ذلك اليوم، أو للحديث عن مشاغبة أولادهن والبنات، عن مستواهم الدراسي وصعوبة المدرسة. كلا، النساء لا يشغلن أنفسهن بأحاديث يمكن أن تدور في أي يوم، بل جئن من أجل أمر واحد وحسب: من أجل مجلة بوردا. يوم وصول بوردا من بغداد هو كرنفال بالنسبة لهن؛ مناسبة للاحتفال. طبعاً بالنسبة لي أنا أيضاً، لأن أغلب أعداد بوردا التي وصلت إلى أم بديع جلبها أبي من بغداد. في استثناءات قليلة، أو في تلك الفترات التي لم يتسنَّ لأبي الذهاب إلى مكتبة مكنزي أو مكتبة أخرى لشراء المجلة الألمانية، تبرز فجأةً مجلة بوردا في بيت أم بديع. لا أدري من يجلبها، لأنني لم أسأل أو - وذلك هو الأكثر رجحاناً - أنني لم أشأ معرفة مصدرها، لم أشأ فقدان الامتياز الذي حصلنا عليه: جلب بوردا من بغداد. أظن أن أمي كانت هي أيضاً فخورة. كلما جلب أبي عدداً جديداً من بوردا رأيتها تلبس ملابسها الأنيقة، تضع الماكياج على وجهها وترشّ العطر ثم تقول لي: "لنذهب إلى بيت أم بديع". غالباً، وقبل أن تقول ذلك، تجدني أنتظرها عند الباب، فأنا أعرف: وصول مجلة بوردا يعني الذهاب إلى بيت أم بديع. الغريب هو أنه، وبالرغم من



عدم شيوع أجهزة التلفون آنذاك، لا يستغرق الأمر طويلاً حتى يكون الخبر قد انتشر بين نساء الحي بسرعة البرق.

أحياناً، حتى قبل أن نصل إلى بيت أم بديع، نجد النساء جلسن بانتظار أمي هناك. لبرهة فقط، وقبل أن تجلس أمي على الكرسي أو على البساط الذي فرشته أم بديع لضيفاتها من النساء وسط ساحة البيت، تتعالى أصوات النساء سويةً مخاطبةً أمي: "عفية أم نجم، راويني المجلة"، فتروح المجلة تدور من يد إلى أخرى، بعضهن سيشرن إلى أحد الموديلات أو إلى أحد الأثواب، "عيني شلون موديل حلو هذا!"، البعض الآخر لا يعجبه ما يراه من موديلات وسيقلن: "لننتظر في المرة القادمة، مع الأسف، هذي المرة الموديلات ما تعجبني!"، وفي كل تلك المرات كنت أكتفي بالتطلع بالنساء المنشغلات بكرنفالهن، كرنفال بوردا، لا أنطق بكلمة، أفكّر فقط ببغداد، بشارع الرشيد، بمكتبة مكنزي. أي مدينة جميلة تلك التي ترسل بوردا، مجلة ألمانية لها امتياز حيازتها وحدها، ترسلها إلى النساء من صديقات أمي وجاراتها، وفي كل المرات تلك لم يخلُ الأمر من الغموض، كأن المجلة الأنيقة المليئة بالصور ومخططات لخياطة بعض الأثواب تُصنع هناك، في بغداد.

الجو المحيط بي، الذي كان أشبه بالكرنفال، كان يُفرحني، والفرحة تلك ستتضاعف عندما أجلب أنا المجلة؛ عندما سأسلّم المجلة بنفسي إلى أم بديع. أية لحظة سعيدة تلك! هذه المرة، أعرف أين تُباع المجلة، النساء يصغين لي وأنا أقدّم لهن، مثل مراسل صحفي، تقريراً عن رحلتنا إلى بغداد، عن الأماكن الأربعة التي زرناها، عن أسطوانات جقمجي، عن أسواق حسو، عن المصور أرشاك وعن مكتبة مكنزي. الثلاثة الأوائل مررت عليهم مرور الكرام، وفقط عند الوصول إلى مكتبة مكنزي بدأت الدخول بالتفاصيل. النساء يتطلعن بي، جميعهن بدهشة كلها فضول، وأم بديع تفتح عينيها على اتّساعهما وتحرّك ليس رأسها فقط بل كل جسمها يتحرك مع كلماتي، كأنها تنقلت معي في المكان. "عفية، سبع، إحكي، بعد، بعد". وأنا أحكي وأحكي، لا يتوقف لي قرار، سعيداً بشدّي للنساء بالإصغاء لي. كنت مخدّراً بتقريري، حتى إنني لم أتطلّع لأمي. كأنها كانت الكاميرا، ومن يقدّم تقريراً تلفزيونياً لا يتطلّع إلى الكاميرا أو إلى الأشخاص الحاضرين هناك. حتى الأطفال كفّوا عن اللعب في ذلك اليوم، حتى أولئك

الذين يخرجون عادةً للعب في الشارع، جميعهم جاؤوا للإصغاء إلى ما أقول. أظنها أم بديع، هي التي قالت وهي تخاطب النساء اللواتي يجلسن هناك: "عيني يحكي مثل واحد صحفي بالإذاعة"، ثم تضيف مخاطبةً أمي في المرة هذه: "عيني أكيد ابنك راح يصير صحفي". لم أفهم ماذا عنت أم بديع بجملتها تلك: صحفي إذاعة. لم أفهم معنى الكلمة تلك. كانت المرة الأولى التي أسمع بها. وكان يعني أنني على طريق اكتشاف جديد. أية لحظة سعيدة! أي امتياز!

ذلك كان ديدني. كنت سعيداً باكتشافي لبغداد، أتحدث عنها في كل المناسبات. حتى أن معلم الجغرافية، القصير القامة، أستاذ عزيز، الذي كان كلما أراد الإجابة على سؤال تلميذ رفع يده اليمنى وضغط ببنصره على الجانب الأيمن من جبين رأسه، ثم يبدأ بتدويره، كأنه يدوّر برغياً، سألني ذات مرة وأنا أقف في ساحة المدرسة في إحدى الاستراحات بين الدروس: "صحيح أنك سافرت إلى بغداد؟" وعندما هززت رأسي بنعم، وأنا أكاد أطير من الفرح أن الخبر وصل مسامع معلم في مدرستنا، قال لي: "اسمع، أريدك أن تأتي اليوم في درس الجغرافية وتحكي للطلاب عن بغداد؟"، وعندما رآني أرتبك؛ وجهي يحمرّ، جسمي يرتعش ويعرق، قال لي وهو يشير بالعصا التي يحملها بصفته مراقباً على التلاميذ في استراحات ذلك اليوم: "لا تهتم، سأطلب من مدير المدرسة أن يوافق على مجيئك للصف". كيف أرفض العرض الذي قدمه لي؟ فدرس الجغرافية يبدأ في الصف الرابع الابتدائي، وأنا كنت في الصف الثاني. أية سعادة! كأن ما حدث لي مع معلم الجغرافية كان تأييداً لما قاله أبي، أنني أصبحت "ذا شأن".

والأكثر سعادةً بالنسبة لي في حينه هو شعوري أن من يصبح "ذا شأن" سيصدّق الناس كل ما يقوله، الأمر، قبل كل شيء له، علاقة بطريقته بالروي، بكيفية شدّه لمستمعيه. كلمة واحدة من مدرس الجغرافية، أستاذ عزيز، وكان يمكن أن تسبّب فشل تقريري الثاني عن بغداد، وهذه المرة أمام جمهور أكبر. لكنني، كما يبدو، جلبته مقدّماً إلى صفي أولاً، ولا أدري كيف؟ لا أدري إذا كنت نجحت أولاً بغوايته من خلال طريقتي في الروي، أم أنني أصبحت مثل راوية محترف، منذ أن وقفت أمام جمهور من النساء في بيت أم بديع، أو – وذلك هو الأكثر رجحاناً – أنني كنت مخدَّراً ببغداد، سعيداً بالامتياز الذي حصلت عليه، وما عاد يخيفني أن جمهوري هذه المرة اقترب

من الثلاثين مستمعاً، صف مدرسي كاملٍ بحضور معلّم، هو معلم للجغرافية لا غير. نعم، كنت مخدَّراً ببغداد، حتى إنني لم أفكر بأن ربما عليّ أن أتواضع قليلاً، ألاّ أشتطّ بخيالي، وأتكلّم أو أسير أمام التلاميذ متبختراً، وأنا أتحدث عن بغداد، لأنهم لن يغفروا لي زهوي، سيغارون، بعضهم سينتظر ساعة خروجي من المدرسة لكي يضربوني، هذه المرة أقوى من كل المرات السابقات. من منا لم يعرف ذلك في المدرسة؟

كل معرفة هي تميّز، وكل تميّز هو خروج عن الجموع، ومن يخرج عن الجموع، من يريد أن يصبح متميزاً، فرداً، أو يؤسّس فرديته، لا بدّ له وأن يدفع ثمن ذلك، في المدرسة سيضربه زملاؤه التلاميذ، سيقولون له: "تتعيقل"، أو "تتباهى"! إذن سنعلّمك الدرس. دائماً ردّ الفعل ذاته. أعرف ذلك وأنا صغير. الطفل الذي لا يلعب مع أخوته الصغار، الطفل الذي ينزوي لوحده في غرفة أخرى، سيشكّل قلقاً لذويه وأقربائه، سيتساءلون: ماذا حلّ به؟ أو سيقولون: "إنه غير طبيعي". كل فردية هي ظاهرة غير طبيعية؛ هي خروج على الأعراف؛ مرض لا بدّ من معالجته، لأن الجماعة تأتي في المقام الأول. والفرد؟ الفرد في أسفل درجات السلم. حتى ٩ نيسان/ أبريل ٢٠٠٣ لم يجرؤ أحد في العراق على كتابة عنوان على رسالته التي يبعثها بالطريقة التي يفعلها المرء في الغرب. عليه أن يكتب أولاً اسم الدولة، ثم اسم المدينة، ثم اسم الشارع أو المؤسسة، ثم اسم الشخص المرسلة إليه. الأطفال لا يطبّقون غير ما تعلّموه في البيت أو الشارع، أو في المدرسة. ومن يحتفظ بامتياز خاص به سيُعاقب بسبب هذا الامتياز. وخاصةً في ذلك اليوم، لم أزعج نفسي بالتفكير بذلك، مثلما لم أقله للمعلم، الأستاذ عزيز. إنها فرصتي لكي أعرف أنني مختلف عن الباقين، وأن الـ"ذا شأن" هذه، التي تحدث عنها أبي، ليست غير أن أصبح مختلفاً، أن أكون أنا، وليس أحد أفراد القطيع، وإذا كان ثمن ذلك الضرب، فليضربونني. المهم هو أنني "ذا شأن"، وإذا كان عليّ أن أشكر أحداً بأنني أصبحت بالفعل "ذا شأن"، فسأشكر بغداد. كريستوف كولومبوس، الذي صنعته أميركا، كان همّه الشهرة والمال، فقط بهذا الشكل عرف أنه سيصبح "ذا شأن". الصغير نجم فكّر ببغداد وحسب. بغداد التي ستصنعه، وحدها القادرة على جعله يصبح "ذا شأن". أي فقدان لها سيعني له سأماً وفراغاً. أي خراب لها، يعني خرابه أيضاً. مثل طفل عنده هدية عزيزة يريد الاحتفاظ بها مدى الحياة، ليس من الغريب، إذن، أن يستحوذ عليّ

الرعب ذات يوم، بعد وقت قصير من زيارتي الخاطفة الثانية، وفي يوم ٩ شباط/ فبراير ١٩٦٣ بالذات. من سينسى ذلك التاريخ؟

كانت ساعات الصباح الأولى، عندما استيقظت ورأيت أبي يغطّ في نومه العميق. مفاجأة جميلة بالأحرى، لأنني عرفت أنه عائد من بغداد. لكن، لمفاجأتي، لم تدم فرحتي تلك، لأنني في اللحظة التي ركضت فيها باتجاه السرير، للاقتراب منه، رأيت أمي تضع أصبعها على فمها وتطلب مني ألاّ أحدث ضجيجاً. أخذتني إلى الغرفة المجاورة، أجلستني في حضنها وقالت لي إنّ عليّ أولاً أن أترك أبي ينام لأنه مرهق جداً، وثانياً عليّ أن أشكر الله لأنه على قيد الحياة. لم أفهم. لكن في وقت الظهيرة، عندما رأيت جدتي تدخل البيت قادمةً من السوق مولولة، تضرب على خدها وتصرخ "قتلوا الزعيم"، تقصد الزعيم عبد الكريم قاسم، أول رئيس وزراء في الجمهورية العراقية، عرفت أن مصاباً كبيراً أقرب للزلزال حدث في بغداد. هذا ما قالته لي التظاهرة الصغيرة التي رأيتها لاحقاً في حيّنا، عندما خرج ناجي الصفّار، جار لنا، على رأس تظاهرة صغيرة وهو ينادي "الزعيم عدل (على قيد الحياة)"، فيما رفع صورته عالياً. وهذا ما قاله أكثر حديث أبي عندما استيقظ من النوم وطلب مني التقدم إليه، حضنني وراح يقبلني، ثم ليقبل أختي الصغيرة التي كان عمرها سنتان، نوال. كان ساهماً بعض الشيء، كأنه لم يصدق أنه ما زال على قيد الحياة، ثم ليروي، كيف أنه حوصر مع مساعده عبد الأعور (عورة) في سيارته الشيفروليه الستين في بغداد، وكيف أنه لجأ إلى مقهى واقعة بين باب الشيخ وكمب الأرمن، كان الفجر قد طلع للتو، عندما بدأ إطلاق النار فوق السطوح، مساعده ظل ينزف غائطاً كله دم، وعندما يأس أبي من توقف إطلاق النار الذي طال وطال سحب مساعده وركضا إلى السيارة، لم يهمه الرصاص الذي انهمر عليهما وعلى السيارة، صعد السيارة وضغط على دوّاسة البنزين، كان عليه أن يزوغ من طريق إلى آخر، يجرّب طرقاً لم يعرفها في بغداد، لكي يعبر أخيراً جسر قناة الجيش ويصبح خارج بغداد. الطريق السريع كان هادئاً، كأنّ شيئاً لم يحدث في بغداد. "أمر مفهوم"، قال أبي، "الإنقلابيون والحرس الجمهوري يتقاتلون في بغداد، من يسيطر على بناية إذاعة بغداد في الصالحية أو على مُرسلاتها في أبي غريب أو على الاثنين، كما فعل البعثيون، سيسيطر على البلاد كلها". ثم – وتلك هي الجملة التي جعلتني أشعر بالخراب – روى



أبي (ولا أدري إذا كان يُبالغ أم لا!) كيف أن الجثث تناثرت في شوارع بغداد، وطفت بعضها فوق سطح ماء دجلة، (قتل البعثيون ٥٠٠٠ عراقياً فقط في اليوم الأول والثاني من انقلاب ٨ شباط/ فبراير ١٩٦٣)، وكيف أن القصف بصواريخ طائرات "الميگ" ومدفعية دبابات "هملن" وبرشاشات "الأخوة العرب" المصريين (بورسعيد). حتى نصب الحرية للنحات جواد سليم، الذي هو علامة بارزة في ساحة التحرير في بغداد، لم ينجُ من قصف الإنقلابيين، (حتى اليوم لا تزال آثار الرصاص بارزة عليه).

بغداد ما عادت بغداد. لقد خُربت بغداد. الجملة الأخيرة لأبي كانت بالنسبة لي مثل من يطلق النار عليّ، على الصغير نجم الذي جلس هناك. خراب بغداد هو خراب لي. انقلابيو ٨ شباط/ فبراير ١٩٦٣ لم يكتفوا بتسمية انقلابهم بالثورة، بل أطلقوا عليه "عروس الثورات". فيما يخصني أنا، ٨ شباط/ فبراير ١٩٦٣ هو أول خراب لعدني، لمشروعي الحياتي، لحلمي الأبدي: بغداد.

١٣

الوصول إلى بغداد عن طريق جرائدها

صحف العاصمة، أو صحف بغداد، تلك كانت النعوت التي سمعتها على لسان أبي أو لسان أصدقائه. أيضاً في المدرسة، حدث مراراً وأن سمعت الكلمات نفسها في بعض الحوارات التي دارت بين المعلمين والتي وصلني بعضها صدفة. ودائماً في السياق ذاته: "هذا ما قالته صحف العاصمة"، أو "هذا ما تؤكّده صحف بغداد"، وكأن ما تقوله الصحف تلك حقائق لا تقبل الجدال، أو كأن كل ما يأتي من بغداد له قيمة مختلفة، ولا يهم هوية صاحب الجريدة أو ميوله السياسية. لا أظن أن أحداً شغل نفسه بهذه الأمور. المهم هو أن الصحف قادمة من العاصمة، بغضّ النظر عن عددها أو أهميتها. المهم أنها قادمة من العاصمة، وكل ما يأتي من هناك يكتسب قوته. في سنوات الستينيات كان عدد الصحف الصادرة في بغداد في تزاحم نسبياً، أتذكر منها جريدة **النصر**، جريدة **صوت العرب**، جريدة **المواطن**، جريدة **كل شيء**، جريدة **الثورة العربية**، وجريدة **الجمهورية**، وغيرها، مثل مجلة **الراصد** الأسبوعية وجريدة **بغداد أوبزيرفر** اليومية الصادرة باللغة الإنكليزية، إذا لا نتحدث عن الجريدتين الرياضيتين، **الملعب** و**الرياضي**، بل وحتى المكفوفون كان عندهم جريدتهم، **أبناء النور**، لكن تظل أهم صحيفة هي صحيفة **الجمهورية**، ليس لأنها صحيفة الدولة الرسمية بل لأنها حوت على ملحق أدبي أسبوعي لعب دوراً مهماً في تنشيط الحياة الأدبية في العراق وكان النشر فيه امتياز كبير.

أعتقد أنّ مدرس اللغة العربية، أستاذ مزهر، وهو معلم جاءنا من قضاء القرنة القريب



من البصرة، هو الذي قال لي ذات يوم وهو يحثني على المشاركة في مسابقة الخطابة التي تنظمها سنوياً مديريات التربية في المدن العراقية: "إذا فزت في المركز الأول في مسابقة الخطابة ستصبح مشهوراً؛ ستكتب عنك صحف بغداد"، هذا ما قاله لي. كأنه عرف بترددي بالمشاركة في المسابقة تلك، أو كأنه عرف علاقتي القديمة ببغداد. فهاهي تمر أربع سنوات على عودة أبي الأخيرة من بغداد. لم يعاود أبي السفر إلى عدني المضاع مرةً أخرى، ليس لأن نوعاً من الرهاب أصابه بسبب تعرضه لإطلاق النار الكثيف، بل أكثر، لأن سيارته تضررت، لم يصمد هيكلها الخشبي أمام الإطلاقات النارية التي توزعت آثارها في كل مكان، وكان على أبي أن يدفع مبلغاً كبيراً بالنسبة له لكي يعيد بناء الهيكل.

لم تكن الظروف الاقتصادية في البلاد على ما يرام. الانقلاب الدموي للبعثيين شلّ الحياة الاقتصادية تماماً، وبدل أن يأتي المستثمرون إلى العراق، كما وعد الانقلابيون، هرب أصحاب رؤوس الأموال العراقيون إلى خارج البلاد. عام ١٩٦٣ كان أيضاً البداية لهجرة الأدمغة العلمية وأصحاب الكفاءات من العراق. ويكفي أن نذكر هجرة علاّمة فيزيائي وفلكي مثل الدكتور عبد الجبار عبد الله، الذي كان ثاني رئيس لجامعة بغداد (١٩٥٩-١٩٦٣) ومرجعاً مهماً لأهل الأنواء الجوية، لكي نعرف حجم الخسارة التي تعرض لها العراق. ولمن لا يعرف عبد الجبار عبد الله (ولا بأس أن أستطرد هنا قليلاً، على الأقل لأن عبد الجبار عبد الله نجح قبلي بالوصول إلى بغداد!) عليه فقط أن يعرف أن الرجل هذا، الذي وُلد في قضاء قلعة صالح التابع لمدينة العمارة عام ١٩١١، لعائلة عراقية من الطائفة المندائية، انتقل، مباشرةً بعد انتهائه من دراسته الثانوية في بغداد، إلى بيروت والولايات المتحدة الأميركية لمواصلة دراسته الجامعية حيث حصل على شهادة الدكتوراه في العلوم الطبيعية (الفيزياء) من معهد مساشوستس للتكنولوجيا (أم آي تي)، مثلما هو واحد من أربعة طلبة فقط في العالم تتلمذ على يد ألبرت أينشتاين، عند عودته للعراق شغل منصب رئيس الطاقة الذرية العراقية عام ١٩٥٨، قبل شغله منصب رئيس جامعة بغداد الذي بقي فيه حتى الانقلاب البعثي الدموي في ٨ شباط/ فبراير ١٩٦٣، حيث أقيل من منصبه واعتُقل، ولم يشفع له أنه عالم كبير. فضلاً عن إجادته اللغتين العربية والآرامية، أجاد اللغة الإنكليزية والفرنسية والألمانية، وهو صاحب العديد من النظريات العلمية وخصوصاً في مجال الأنواء الجوية، خصوصاً فيما يتعلق بالأعاصير



والزوابع من فيزياء الجو. أخيراً، وبعد المضايقات والاعتقال الذي تعرض له على يد البعثيين واتّهامه بالانتماء إلى الحزب الشيوعي، اضطر إلى مغادرة العراق إلى الولايات المتحدة الأميركية، حيث قلّده الرئيس الأميركي هاري ترومان وسام "مفتاح العلم" لجهوده العلمية المتميزة، خاصةً بعد أن أصبح مرجعاً مهماً لأهل الأنواء الجوية والتنبؤ بالطقس قبل أيام.

ما حصل للعالم عبد الجبار عبد الله حصل للعشرات من أمثاله، ناهيك عن دخول البلاد منذ تلك الفترة نفق الانقلابات والأزمات. تأميم النفط العراقي، وقانون الإصلاح الزراعي، وتوزيع قطع الأرض على الفقراء، كل تلك القوانين التي شرعها عبد الكريم قاسم، انتهت مع نهايته الوحشية على أيدي قتلته البعثيين. أبي الذي مرّ بأزمة اقتصادية أصلاً، لأن العمل الذي مارسه انتهى، لم تعد حياته كما كانت، أولاً أصبحنا ثلاثة بعد ولادة أختي الثانية دلال، والتي ستأتي بعدها بعام واحد فقط، عام ١٩٦٤، أخت ثالثة، أحلام. العائلة توسعت، الأمر الذي جعل مسؤولية أبي تزداد. كانت أيضاً تلك الفترة التي بدأت فيها أمي رحلة طويلة مع الأمراض والعمليات الجراحية، من عملية "المصران الأعور" وعملية تفتيت الحصى في كليتها، إلى استئصال المرارة بسبب التهابها، ورقودها في مستشفيات عديدة بسبب اضطرابات والتهابات أخرى في الاثني عشر والبنكرياس والقولون، بل وحتى إجراء عملية للكتف. ولأنه لا يوجد تأمين صحي في العراق، تطلّبت كل تلك المراجعات الطبية والعمليات الجراحية مصاريف عالية دفعها أبي، كان من الصعب عليه تنفيذها بالتوازي مع دفعه التكاليف التي تطلّبتها السيارة. تصليحات السيارة استهلكت منه حقيقةً الحصة الأكبر مما كسبه منها، إن لم تأتِ على كل ما ادّخره من مال. الأضرار التي لحقت بالسيارة بسبب إطلاق النار الذي تعرضت له في رحلته الأخيرة إلى بغداد كانت الشعرة التي قصمت ظهر البعير، كما يقول المثل عندنا، لأن تصليحات السيارة أصلاً جعلته ييأس في بعض الأحيان. سيارة تتنقل يومياً ولمسافة كيلومترات طويلة، أكثر من ٣٦٥ كم، لا بدّ وأن تخضع لشروط الإدامة. الأدوات الاحتياطية غالية، فضلاً عن أن السيارة، وبسبب الطرق غير المعبّدة، كانت تتعطّل في كل رحلة تقريباً، وبعد كل رحلة كان على أبي أن ينتظر إلى حين تصليحها لكي يبدأ العمل من جديد. مصاريف كثيرة. ثم إن أبي، وعلى عكس



الكثير من أصدقائه وزملائه بالمهنة الذين عرفوا التكيف مع التطور الذي حدث على طرق المواصلات، لم يفكّر بتغيير سيارته. أغلبهم عرفوا أن سيارات نقل بهياكل خشبية لم تعد تصلح للنقل، لا بدّ من استبدالها. هذا ما جعلهم يسافرون إلى ألمانيا، إلى برلين مرةً أخرى، لكي يجلبوا باصات قديمة من شركة "مان" لكي تعمل على الطريق السريع بدل سيارات الشيفروليه.

سنوات الستينيات هي بداية صعود السيارات الألمانية الصنع. أبي لم يعرف ذلك. ولسوء حظه، أو لقلة تدبيره، تخلّف عن اللحاق بأصدقائه. وعندما تضررت السيارة في انقلاب البعثيين في بغداد، كان عليه أن يقرر، بين دفع مبلغ كبير لتصليح السيارة ومواصلة العمل مثلما كان قبل، أو ترك السيارة بهيكلها المتضرر والعمل لنقل المسافرين بين الأقضية والنواحي القريبة من مدينة العمارة، ثم ومع الوقت، إذا حصل وكسب مبلغاً محترماً من عمله الجديد، يستطيع دائماً تصليح السيارة والعودة للعمل على طريق بغداد، وليعتبر الأمر فرصة استراحة له بين محطتين. ولكن عندما حصل انقلاب عبد السلام عارف في ١٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٣، بعد تسعة شهور فقط على الانقلاب الأول، فكّر أبي في عبث العودة للعمل على طريق العمارة – بغداد. لا تزال صورة الرعب أمامه عندما حاصره قصف الطائرات والدبابات والرشاشات في بغداد، كأنه عرف أيضاً أن البلاد دخلت نفق الانقلابات العسكرية، وأن بغداد لن تهدأ بعد الآن. العسكر يحكمون في بغداد. العسكر لا يثقون ببعضهم، لا يطيقون بعضهم بعضاً. الجهل والعجرفة والوحشية، صفات ارتبطت بعسكر العراق. من فترة إلى أخرى انقلاب جديد. الانقلابات تلاحقت، واحدٌ بعد الآخر وبتنافس حاد. ليس من الغريب أن نسمع بعد ذلك من حين إلى آخر من راديو بغداد خبر انقلاب وقراءة "البيان رقم واحد" وتشكيل مجلس يُطلق عليه اسم "مجلس قيادة الثورة". انقلابات عديدة حدثت. أبي الذي تنبأ بذلك قرّر بيع السيارة في ١٤ سبتمبر/ أيلول ١٩٦٤، أو من الأفضل القول إرجاعها إلى شركة القريشي وكيلة بيع سيارات الشيفروليه، التي كان مقرها النجف. إرجاع السيارة مقابل إسقاط الديون التي عليه، كان ذلك هو الاتفاق الذي وقّعه أبي مع محاسب السيارة، حياوي، الذي جاء خصيصاً من أجل ذلك إلى العمارة.

١٤ أيلول/ سبتمبر ١٩٦٤ كان أيضاً بداية مرحلة جديدة بالنسبة لي، معرفتي أن



عليّ أن أنسى، أنني سأسافر مع أبي إلى بغداد ذات يوم، وأنني لكي أنجز ذلك، عليّ التفكير بالوصول إليها بنفسي. لذلك عندما قال لي المدرّس مزهر، بعد أربع سنوات من إرجاع أبي للسيارة، أو بعد أربع سنوات من نهاية حلمي بالسفر إلى بغداد، إنّ فوزي في مسابقة الخطابة السنوية على مستوى محافظة العمارة سيعني كتابة صحافة بغداد عني، الأمر الذي يعني، ربما، أنني سأسافر إلى بغداد للمشاركة ممثلاً عن العمارة في مسابقة الخطابة لعموم البلاد، تحمّست فوراً للتدرب على الخطابة والمشاركة في ذلك العام، عام ١٩٦٨ على ما أتذكر. و لم أدرِ أنني، وبعد أسبوعين أو ثلاثة من تمرني يومياً على نص خطابي كتبه أستاذ مزهر ذاته ويتحدث عن عظمة الأم، سأتعرض إلى نكسة لم تكن بالحسبان. من أين لي أن أعرف أن المدرّس هذا، الذي بذل كل الجهد ليقنعني بالموافقة على المشاركة بنصه الخطابي الذي لم أحبه مطلقاً بسبب كل ما حواه من كليشهيات، سيطلب مني التوقف عن التمرين، لأنه لم يعد بحاجة لي، وأنه فضّل عليّ طالباً جديداً جاءنا منقولاً من مدينة أخرى، طالباً وسيماً بالأحرى، لا أدري إذا كان السبب هو رغبة منه بالاعتداء على التلميذ جنسياً، لأنه قال لي وبوقاحة، عندما سألته عن السبب الذي جعله يستبدلني و لم يبقَ أمامنا والمسابقة غير أسبوع: "لا نستفيد من خدماتك!"، فما هي الخدمات التي عناها إن لم تكن الخدمات الجنسية؟ لأن الطالب الجديد لم يكن يملك لا موهبة الخطابة ولا سلامة نطق الكلمات، مثلما لم يكن يملك الوقت الكافي للتدرب، كان طالباً جميلاً جداً وحسب. بالفعل، لم يفز الطالب المذكور بأي مركز، بل حصل على المرتبة الأخيرة! لكن من يهتم بمحاسبة مدرّس أساء في ذلك الحين ومثله العشرات من المعلمين؟ النكسة تلك جعلتني أفكّر: صحيح أن موضوع الخطابة أصبح ماضياً، لكن موضوع صحف بغداد لا بدّ وأن يظل على جدولي. قدري هو بغداد. لا بدّ وأن نلتقي مرةً أخرى. كنت على يقين من أنني سأكون في بغداد ذات يوم. لا مفرّ، لا بالنسبة لي ولا للمدينة. وهذا ما جعلني، ما إن تبدأ العطلة الصيفية المدرسية، ألجأ لبيع الصحف مع صديق طفولة، اسمه مجيد جمعة، والذي أصيب بتدرّن في العمود الفقري لاحقاً قبل أن يُعدم وهو معوّق في سجن أبي غريب، أحد سجون البعثيين.

كانت في العمارة مكتبتان تتسلّمان الصحف من بغداد: الأولى المكتبة العصرية أو الرحمانية على اسم صاحبها ومؤسسها في عام ١٩٢٩ عبد الرحيم الرحماني (لا تزال



المكتبة إلى يومنا هذا تقاوم للبقاء) الذي سلّمها قبل وفاته لمعاونه حيدر حسين، أبو أسعد الذي هو صاحبها الآن. المكتبة الثانية، وهي الأصغر، هي مكتبة الأهالي، لصاحبها كاظم الجاسم، شخص دمث، طويل القامة وأنيق، رغم صلعته المبكرة، لهذه المكتبة عملت بائعاً للصحف. ها أنا أخيراً أمسك في يدي صحف بغداد.

اليوم، وأنا أتأمل تلك الأيام، أستطيع القول أنْ ليس هناك أحد مثلي في العمارة، أو – من يدري – في عموم العراق، قرأ الجرائد جميعها بنهم، من الصفحة الأولى حتى الصفحة الأخيرة، ولا ننسى أن أغلب الصحف حوت على ٨ صفحات فقط في ذلك الوقت. حتى الإعلانات كنت أقرأها. "عيني يحكي مثل واحد صحفي بالإذاعة"، أو "عيني أكيد ابنك راح يصير صحفي"، ما زالت جملة الخياطة أم بديع ترنّ في أذني، وهي تقصد صحفي إذاعة. لكن ماذا هو صحفي الجريدة؟ لا بدّ وأن أعرف ذلك. الآن صحافة بغداد كلها في متناول يدي، حتى أسماء أصحاب امتيازات الصحف حفظتهم، ومعهم أسماء أغلب الصحفيين والصحفيات (للأسف عدد الصحفيات كان قليلاً). يمكنني عمل قائمة كبيرة بالجرائد والصحفيين الذين عملوا فيها، أغلبهم تنقّلوا من صحيفة إلى أخرى. صحفيون لعبوا دوراً مهماً في تحديث الصحافة العراقية، خاصةً في مجال الصحافة الثقافية والفكرية. بعضهم مات وبعضهم الآخر لا يزال على قيد الحياة. بعضهم سُجن أو نُفي، إن لم يترك مهنة الصحافة بنفسه. بل إن بعضهم – للمفارقة! – سيصبحون، ورغم فارق العمر بيننا، زملاء أو أصدقاء لي. ولا يهم أن أغلب الصحف تلك توقفت عن الصدور بعد صدور قانون تأميم الصحف بعد ٥ حزيران/ يونيو ١٩٦٧م، بسبب نقدها لحكومة عبد السلام عارف آنذاك، وتحميلها أسباب نكسة حرب حزيران ضد إسرائيل، وحتى تلك التي قاومت بالبقاء مُنعت من الصدور بعد انقلاب البعثيين الجديد في ١٧ تموز/ يوليو ١٩٦٨. للأسف لا أتذكر أنه كانت هناك صحف خاصة بالنساء بين كل تلك الصحف، السبب بسيط: لأن الصحافة الخاصة بالنساء لم تصلنا، رغم أن ظهور هذا النوع من الصحافة في العراق يعود إلى فترة مبكرة مقارنةً ببعض الأقطار العربية، حيث ظهرت مجلة ليلي في ١٩٢٣م، لبولينا حسون مثلاً، والتي وصل من خلالها صوت المرأة إلى الرأي العام، للمطالبة بحقها في التعليم والعمل.

ليست مهمتي هنا تقديم صورة عن تاريخ الصحافة العراقية، أو تاريخ صحافة بغداد. خلاصة ما أردت قوله هو أنني عن طريق الصحف أردت أن أظل قريباً من بغداد، أو أشعر أنني أعيش هناك، مثلما فكرت في سنوات طفولتي الأولى، بأنني أصاحب أبي في كل جولاته عبر أزقة وشوارع بغداد، أو مثلما فعلت مع البطاقات البريدية، المعايدات، وكأني مع كل مرحلة من عمري اخترت الوسيلة المناسبة للوصول إلى عدني: بغداد. أما أسماء الصحفيين التي قرأت لها وحفظت أغلبها عن ظهر قلب، فلم تكن غير محاولة مني لمعرفة صورة الصحفي عن طريقهم، تلك الصورة التي رسمتها لي الخياطة أم بديع. ربما فكرت أنني، مع قراءتي للصحف وللأسماء، وقراءتي كل ما كتبه الصحفيون أولئك، سأستدل على الطريق الذي سيقودني إلى بغداد. لا بدّ أنني سأكتب مثلهم ذات يوم، وأنني إذا نجحت لن يكون هناك مفر غير العمل هناك، كما لو كنت على قناعة: أن يكون المرء صحفياً يعني أنه يعيش في بغداد! تصوّر طفولي بريء بلا شك، من غير المهم ما حواه من سذاجة أو من غموض. المهم أنه قرّبني من بغداد وجعلني أواصل إقامتي في المكانين: في العمارة وفي بغداد.

كما هي حالي دائماً، نجم بقدم في الجنوب، في العمارة، ونجم بقدم في بغداد. شعور ملتبس حقيقةً، لكن لم تنطفئ شعلته يوماً، وهذا الشعور بالذات هو الذي جعلني، ومع كل يوم جديد، أشعر أكثر بالحماس، وما أن يبدأ النهار حتى أبدأ بإحصاء الدقائق والساعات. أتناول وجبة غذاء الظهر على عجالة، لكي أذهب إلى مكتبة الأهالي، رغم معرفتي أن الصحف لن تكون هناك قبل الساعة الثانية ظهراً، بل ليس من النادر أن تتأخر بالقدوم، خاصةً عند تعرض الشاحنة التي حملتها لحادث أو عطل على الطريق السريع. ثم أن أغلب الناس ينامون نوم القيلولة، من يشتري الصحف تلك؟ لكن لهذا السبب بالذات كنت أول بائعي الجرائد الذي يجلس أمام المكتبة، أنتظر قدوم الصحف، من غير المهم ارتفاع درجة الحرارة في ذلك اليوم. حتى في تلك المرات التي تأتي فيها الصحف وتكون فيها المكتبة الصغيرة لا تزال مغلقة، لأن صاحبها كاظم الجاسم ما زال ينام القيلولة، كنت آخذ ما يفوق حصتي المفترضة من الصحف، وهو أمر حيّر صاحب المكتبة و لم يجد له تفسيراً، غير أنني كنت أفعل ذلك لكي أكسب أكثر من زملائي الآخرين من بائعي الجرائد (كنت أحصل على خمسة فلوس عن بيع النسخة الواحدة). لم يخفِ ظنّه ذلك عليّ، الأمر الذي

أحرجني وجعلني أصمت لا أردّ عليه، كيف أقول له إنني، مباشرةً بعد أخذ الجرائد، أركض للبحث عن زاوية خفية فيها ما يكفي من ظلال لكي أجلس وأقرأ الصحف جميعها؟ كلا، ليبقَ مع ظنونه، وأنا مع جرائدي. المهم أن أحذر وألاّ أجعل أحداً يراني ويشي بي إليه، دون أن أدري أن الخطر لن يأتي من رب عملي، كاظم الجاسم (الذي سيصبح أخوه الأصغر محمد، المقيم اليوم في أميركا، صديقاً لي أيضاً بعد سنوات)، بل جاء من أبي الذي عرف ببيعي الصحف، وهو أمر لم يرق له، فعمل ابن صغير لأحد في مدينة صغيرة مثل العمارة كان أمراً مخجلاً في ذلك الوقت.

ذات يوم فاجأني أبي في السوق أحمل الجرائد فطلب مني، والغضب بادٍ في صوته وفي عينيه، أن أرجع الصحف فوراً وألاّ أعود للعمل في الشارع بعد الآن. أمرٌ أحزنني، ليس بسبب عدم بيعي الصحف بل لأنني أصبحت بعيداً عن صحف بغداد، لذة قراءة الصحف يومياً، خاصةً الصفحات الثقافية لجريدة **الجمهورية**، أو محاولتي فكّ ألغاز الأخبار والكلمات التي كان يكتبها الصحفيون، من غير المهم أنني لم أكن أفهم تماماً أغلب ما يكتبونه، هي لذة غير قابلة للتعويض. كأنني لم أُبعد عن الصحف بل أُبعدت عن المدينة بغداد، لكني، رغم الحزن الذي لفّني آنذاك، لم أيأس من تحقيق حلمي بالوصول إلى بغداد، على الأقل عن طريق صحفها الصادرة هناك.

في عام ١٩٦٨، العام الذي درست فيه في الصف الثاني متوسط (الصف العاشر)، جاء إلى مدرستنا مخرج مسرحي من النشاط المدرسي، يبحث عن تلاميذ يرغبون أو يجدون في أنفسهم موهبة بالتمثيل على خشبة المسرح، الأستاذ قاسم علوان. ولمفاجأتي اختارني المخرج المسرحي النحيف القامة الذي لم تكن السيجارة تقع ثانية واحدة من يديه، اختارني من مجموعة طلاب قليلين، إبراهيم عوض، مالك زبالة، وطالب آخر نسيت اسمه، للتمثيل. المسرحيتان اللتان تمرّنّا عليهما وعرضناهما في صالة النشاط المدرسي في المدينة أولاً، ثم على قاعات مسارح أخرى، خاصةً مدارس البنات، كانتا قادمتين من بغداد أيضاً. الأولى **ماكو شغل** من تأليف المسرحي العراقي المخضرم يوسف العاني، والثانية **بنطلون** نسيت اسم مؤلفها. ولأنني مثلت الشخصية الرئيسية في المسرحيتين، ولأننا عرضنا بنجاح، فوجئت ذات يوم بمدير المدرسة يطلب مني الحضور إلى غرفته التي هي غرفة المعلمين أيضاً، هناك وجدت شاباً أنيقاً يجلس بانتظاري وقد استقرّت في

حضنه محفظة أوراق. ابتسم الشاب بوجهي وقال لي إنه هنا لإجراء حوار معي لصحافة بغداد، لجريدة **الجمهورية** بالتحديد. الدهشة التي استحوذت عليّ، أو السعادة الغامرة التي هجمت عليّ، جعلتني أرتعش قليلاً، أتلعثم بالحديث، كان الأمر أشبه بالحلم، إذن بالفعل سيظهر اسمي مع صورتي على صفحة إحدى صحف العاصمة. ها أنا سأصل بغداد. بالضبط كما تمنيت. وعندما طلب مني الشاب أن آتي معه، ونذهب إلى قاعة المسرح المقابلة لغرفة المدير لكي يجري معي الحوار، سرت وراءه مثل المخدَّر، كأنني أسير باتجاه بغداد. وعندما نشرت الجريدة، بعد أسبوع، الحوار مع صورة لي على صفحة محليات، رحت أدور في المدينة، في يدي الجريدة، كأن الناس جميعهم، سكان العمارة، رأوا الصورة وقرأوا المقابلة، أو كأن على جميعهم أن يعرفوا أنني وصلت إلى بغداد. فمن يصل إلى صحافة بغداد، لا بدّ وأن يكون وصل إلى بغداد.

نشر الحوار المذكور معي في الصحيفة جعل علاقتي تزداد قوةً بصحافة بغداد. فإذا كان من غير المسموح لي بيع الجرائد، فلم يبقَ أمامي هذه المرة غير شرائها. ليس شراءها جميعاً طبعاً، فمصروفي اليومي لا يكفي لشراء أكثر من جريدة واحدة. كان سعر الصحيفة في حينه ٢٥ فلساً، وبالضبط كان ذلك ما أحصل عليه من أمي كل يوم. لكن الحل بسيط. فلأن جريدة **الجمهورية** نشرت حواراً معي، ولأنها تحوي على ملحق أدبي أسبوعي، وعلاقتي بالأدب بدأت تأخذ منحىً جدياً، رحت أشتريها فقط يوم الخميس، اليوم الذي يظهر فيه الملحق، قبل أن تلتحق بها تدريجياً ومع مرور الزمن، أو مع تزايد وتنوع قراءاتي، بعض المجلات الأدبية التي بدأت بالصدور في بغداد في بداية سنوات السبعينيات، مثل مجلة **الثقافة** غير الحكومية ومجلة **الأقلام** التي كانت تصدر عن وزارة الثقافة والإعلام، قبل أن تنضم إليها بعد سنتين أو ثلاث سنوات جريدة الحزب الشيوعي اليومية **طريق الشعب**. وكنت كلما اشتريت صحيفة أو مجلة، كلما تصفحتها، زادت عندي الرغبة في المساهمة فيها.

أظن أنها المرة الأولى التي فكّرت فيها بالكتابة بشكل جدي، لأنني ظننت أنني فقط بهذا الشكل سأصل إلى بغداد. الكتابة؟ لكن كتابة ماذا؟ الشعر الذي جربت حالي معه، توقفت عنه بعد أن فشلت بإقناع الفتاة التي جاءت عائلتها منقولة من بغداد وأجّرت أحد البيوت المجاورة لبيتنا بحبي لها. سميرة كان اسم الفتاة. كتبت من أجلها خمس



أو ست قصائد، وعندما أعطيتها إياها، تعبيراً عن حبي لها، ألقت علي محاضرة ما زلت أتذكرها حتى اليوم، لأن هذه المحاضرة بالذات هي التي جعلتني أسير في الطريق الذي أنا عليه الآن. كنت أظن أنها قصائد عبقرية، خاصة جداً، يفوق مستواها كل تلك القصائد التي نشرتها صحف ومجلات العاصمة، لكن ما أن قرأتها الفتاة حتى انتظرتني ذات يوم أمام بوابة المدرسة، ما زلت أتذكر الخوف الذي استحوذ علي، جسمي تعرّق وأسناني اصطكّت، حتى إنني حاولت تجنّبها، ربما لاحظت ذلك، لأنني رأيتها تبتسم وهي تقترب مني، وعندما أصبحنا متجاورين قالت لي إنها قرأت رسالتي، وهي آسفة لأنها مزّقت القصائد مباشرةً. وعندما رأت التجهّم على وجهي قالت لي إنها فعلت ذلك بسبب سخف القصائد التي كتبتها إليها، ثم أوضحت لي كيف أن القصائد تلك هي خواطر حقيقةً، لا تختلف عن مئات من الخواطر الأخرى التي يطلقون عليها جزافاً بالقصائد، أو، كما اعترفت لي بصراحة، أنها تهويمات مرضية وحسب. وعندما رأتني أتجهّم أكثر اعتذرت وقالت إنها لا تقصدني بكلامها، فأنا ما زلت صغيراً على الخبث والكذب والرياء. ولكي توضح لي ما تعنيه شرحت لي كيف أنني مثل العديدين عندنا، أغلبهم بداياتهم شعرية، قالت لي: يفعلون ذلك بدون وعي، دون أن يعرفوا سخف ما يقومون به. "هل تعرف"، سألتني، "أن تسعة وتسعين بالمئة من شعرائنا أدعياء، كل ما كتبوه عن المرأة مزيف، لا علاقة له بحقيقة أنهم جبناء، حقيقة أنهم لم يلمسوا أية امرأة في حياتهم، وهي إحباطاتهم، إذا لم تكن عنّتهم الجنسية، هي ما تجعلهم يقولون هذه الكلمات الكبيرة ويطلقون التصريحات الرنّانة في المقابلات، كيف أن الواحد منهم فاق كازانوفا ودون جوان". وقبل أن نفترق قالت لي بنبرة فيها الكثير من الصدق: "إنك، كما تبدو، شاب لطيف، طموح. صحيح أنني لا أحبك، لكن هذا لا يغيّر من القضية، بأنك شاب لطيف وأن أمامك مستقبلاً باهراً، شريطة أن تبطل كتابة الشعر. ولا تعتقد أنّ النساء تحب الشعراء، لا تتفاجأ إذا قلت لك إننا نحب المغامرين، حتى وإن كانوا محتالين أو قطّاع طرق، وإذا أردت أن تعشقك النساء فعليك أن تكتب عن هؤلاء".

كانت سميرة تكبرني بسنتين، وكانت قوية الشخصية، كل كلمة خرجت من فمها نطقتها بثقة عالية، وما جعلها تبدو مقنعة لي هو أنها لم ترفضني كما ظننت في الوهلة الأولى، فبالنسبة لها، كما أخبرتني، ليس من الضرورة أن يكون رجل وامرأة حبيبين،



من الممكن أن يكونا صديقين. ولكي تثبت ذلك راحت تأتي كل صباح إلى بيتنا، في أيام دوام مدرستنا الصباحي، لكي نذهب سوية إلى المدرسة، هي إلى إعدادية العمارة للبنات في محلة حي الحسين وأنا إلى متوسطة المرتضى الواقعة بين محلة الصابونجية وبين محلة الجديدة ، و لم يهمها ما يقوله الناس عنها وعني، ليقولوا ما يشاؤون، المهم أننا أصدقاء، كما أخبرتني ذات يوم، رغم أن لا حاجة لها لأن تقول ذلك لي، لأنني كنت فرحاً بصداقتنا. سميرة بدت ناضجة جداً بالمقارنة بي، وهذا ما جعلني أقتنع بكلماتها.

لم أعد إلى كتابة الشعر مرة أخرى.

كانت تلك أيضاً هي الفترة التي بدأت فيها ميولي القصصية. المحاولة الأولى كانت كتابة قصة قصيرة عن زوجة شيخ جامع في شهر محرّم / عاشوراء، تنتظر زوجها أن يذهب إلى قيادة المواكب الحسينية، لكي تذهب إلى عشيقها، شاب يقيم في الجوار. قصة فيها الكثير من الغضب، لكن فيها الكثير من الايروسية. هذه المرة أرسلت القصة لأهم مجلة أدبية شهرية في بغداد، **الأقلام**. لخيبتي، لم تنشر المجلة القصة لي، لكن لفرحتي أيضاً، أن رئيس تحرير المجلة، الذي كان أديباً معروفاً في حينه، الروائي عبد الرحمن مجيد الربيعي، أرسل إلي رسالة يبيّن لي أسباب عدم نشره القصة. الردّ لوحده أفرحني. إذن أخذ هو قصتي على محمل الجد. يا إلهي، ها أنا بدأت أصل إلى بغداد. الردّ ذلك جعلني لا أتحمّس لكتابة قصة أخرى لمجلة **الأقلام**. هذه المرة سأرسلها إلى **طريق الشعب**، إلى صفحة ثقافة التي يحررها ليس غير شاعر العراق الأول آنذاك، سعدي يوسف، الذي سألتقيه لاحقاً شخصياً في بغداد، والذي سيقول لي إنه لم يظن أن القصة تلك التي تحمّس لنشرها فور قراءته لها كتبها شاب في السادسة عشرة من عمره، لا يزال طالب ثانوية!

كانت تلك هي بداية انطلاقتي الأدبية، إن لم تكن بداية وصولي الفعلي إلى بغداد!

"مستطيل من الضوء عند الجانب الآخر" هو العنوان الذي حملته القصة. تتحدث القصة عن امرأة تلبس البوشية، تأتي يومياً إلى محطة الباصات في المدينة، تنتظر زوجها الغائب، الجندي الذي يقاتل في مكانٍ ما، كل يوم تنتظر هناك حتى غروب الشمس، وعند انطفاء أضواء المحطة يطلب منها العاملون مغادرة المحطة. ذات يوم وبعد أن انتظرت على عادتها، وكانت تهمّ بالمغادرة، شعرت بظلام دامس يطبق على المحطة أكثر من الأيام السابقة، لكن فجأةً شعرت بقلبها يخفق بقوة ما أن لمحت برتقالتين



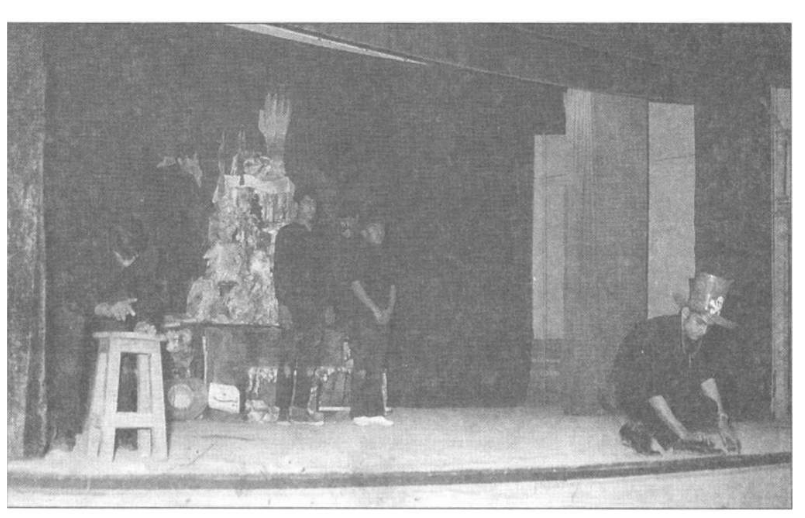
ترتفعان وتهبطان وسط الظلام، ثم رأت شاباً يلعب بالبرتقالتين ينقلهما بالتناوب بين كفّيه مثل لاعب سيرك. عندئذ بدأت تتحرك نحوه، بالتوازي مع تحرّكه نحوها.

"من أين تعرف المرأة هذه؟" سألني سعدي يوسف وهو يستذكر القصة في بغداد. "أية إمرأة؟" سألته، وكنت أظن في حينه أنه سأل عن صديقتي في الجامعة سين، والتي كانت معي عند لقائي الأول به في مبنى اتحاد الأدباء في بغداد. أجابني وكان يمكنني رؤية الابتسامة على كشرته البارزة: "من غيرها؟ أقصد بطلة قصتك؟". "إنها امرأة مثل العديدات من نساء الجنوب" قلت له، ولم أشأ أن أروي له القصة، لأنني نفسي تفاجأت بأنني بالفعل عرفت هذه المرأة قبل كتابتي عنها، أو إذا لم تكن هي صورة عن المرأة التي عرفت فهي خليط من نساء عديدات، والمفاجأة الأكبر أنني ما كنت كتبت عنها ربما، أو بالتأكيد، لو لم تفكر المرأة مثلي أيضاً بالذهاب إلى بغداد! أمر مدهش بالفعل! نكتب قصة ولا ندري بمصدرها، وشكراً لسعدي يوسف الذي سألني، لأتذكر المرأة تلك التي تعرّفت عليها صدفةً وأنا صغير.

كان أحد أيام الصيف الحارة، على ما أتذكّر، وكان الوقت عصراً، كنّا نجلس في طارمة البيت، نشرب الشاي، عندما سمعنا الباب وهو يُضرب بقوة، وصوت امرأة يطلب النجدة: "دخيلكم". دخلت تهرول، لدرجة أن صوت لهاثها وصلني قبل رؤيتي لها. كانت المرأة تلبس البوشية، وكانت طويلة القامة، جسمها مربوع، بشرتها بيضاء، عرفت ذلك من يديها اللتين ظهرتا من فتحة عباءتها السوداء المصنوعة من قماش سميك لكنه ناعم الملمس، ثوبها كان أسود أيضاً، حتى السوتيان الذي ظهر طرفه عند حافة فتحة صدر ثوبها، عندما رفعت البوشية لاحقاً وهي تشرب الماء، كان أسود. أدخلتها أمي صالون البيت بعد أن أغلقت باب الدار على غير المعتاد. جلست المرأة على طرف القنفة (الأريكة) وكأنها تستعدّ للخروج في أية لحظة. أعطتها أمي طاسة من الماء البارد. دفعتها المرأة تحت البوشية وشربت بهدوء. وضعت يدها على صدرها وانتظرت حتى يهدأ نَفَسُها. ظلت أمي تتطلع إليها بعينين قلقتين. هل كانت تعرف ماذا حصل للمرأة؟ بالتأكيد، وربما ذلك ما جعلها تغلق باب دارنا للمرة الأولى على غير المعتاد، بل استخدمت قفلاً ضخماً. قالت المرأة من دون أن يسألها أحد إنها مطاردة. روت كيف أن الأخ الأكبر لزوجها، الذي هو ابن عمها أيضاً، أراد قتلها. هربت، ركبت سيارة،

جاءت من البصرة، لكن أعمامها تعقّبوها في سيارة أخرى. رأتهم ينزلون في محطة السيارات. كانت في طريقها إلى بغداد كي تلحق بالرجل الذي تحبّه وتتزوج منه، لكنها اضطرت لقطع طريقها ونزلت. أثناء هروبها من مطارديها مرّت ببيوت عديدة، لكن قلبها قال لها: "ادخلي هذا البيت، هؤلاء الناس سيمنحونك الأمان، وينقذونك من الموت"، ومنذ أن رأت أمي ورأتني، ثم رأت جدي وجدتي وأبي الذين انضموا إلينا مباشرةً، حتى تأكد لها هذا الإحساس. وعندما انتهت من جملتها الأخيرة رفعت البوشية عن وجهها. بقيت المرأة عندنا ثلاثة أيام. في الليل وقبل النوم حكت لي عن زوجها الذي أحبّته، لم يكن عندهما أطفال. لم يكن في حياتها غيره. كان مجرد التفكير بأن تفقده يوماً أو يحدث له مكروه يعذّبها، كم تمنّت الموت قبله، وألاّ يُقتل هو في الحرب. في العام الماضي غاب طويلاً، عبثاً انتظرته، وكانت على استعداد أن تنتظر وقتاً أطول لو عرفت ماذا حدث له بالضبط. كانت تذهب في كل نهاية أسبوع، كل يوم خميس، إلى محطة السيارات على أمل أن يأتي في إجازته كما كان يفعل في الماضي. لم تعرف عبث ما كانت تفعله إلاّ قبل وقت قريب. لم يقل لها أحد إن زوجها مات منذ أكثر من عام، سقط صريعاً في حرب الشمال، في جبال كردستان.

ذات يوم رأت شاباً يتقدم صوبها في محطة السيارات. تذكّرت أنها رأته من قبل.



أثناء عرض مسرحية أنشودة أنغولا لبيتر فايس، إخراج فاضل السوداني، على مسرح إعدادية البنات في العمارة عام 1972.



رأته يتحرك ذهاباً وإياباً، يلتفت يميناً ويساراً، بالضبط في الجهة المضيئة تحت قمرة انتظار المسافرين، حيث انتشر "مستطيل من الضوء عند الجانب الآخر" أحاطه مثل هالة نور، كأنه ملاك نزل من السماء فجأةً. فكّرت: ربما بعثه لها خصيصاً إمام أو نبي. فهي نذرت للنبي سليمان أن يعيد لها زوجها، لا أن يبعث لها رجلاً آخر. وعندما رأته في المرة الأخيرة يتجه إليها، بيده برتقالتان يلعب بهما في الهواء، تساءلت: لماذا لا يكون الله، أو النبي سليمان، أو أحد الأئمة الطاهرين، قد أرسله لها لينتشلها من الغمّ الغارقة هي فيه، يطرد عنها وحشة لياليها ويردّ لجسمها الشباب ولروحها البهجة؟ سمعت الشاب يهتف باسمها. سألته من أين عرفها. أخبرها أنه يعرف أيضاً أنها تنتظر زوجها في المحطة منذ سنة، وأن النبي "العزير" طاف به وأوصاه أن يأتي إليها. حدثها أيضاً أنه كان مع زوجها في الشمال، وصف لها شكل وجهه. مات زوجها في الليلة التي قررا فيها الهروب من وحدتهما العسكرية. قال لها الشاب إنه سيذهب إلى بغداد، أعطاها عنواناً هناك. قالت له: سألحقك. ثم سكتت المرأة. أخرجت آهة عميقة وقالت: "ماذا تفعل امرأة حزينة مثلي غير أن تلبّي نداء سعادتها المفقودة؟". في اليوم الثالث ودّعتنا المرأة، قبّلتني على خدي، وذهبت إلى بغداد!

"منذ ذلك اليوم وأنا أفكر بحزن نساء الجنوب، لا أعرف واحدة منهن لا تنتظر!" قلت لسعدي يوسف بنبرة امتزج معها الخجل. "لا تقلق"، قال لي، "كل القصص الحزينة متشابهة، مثل قصص الحب، في النهاية من الجميل أن تعرف أن كل واحد ينتظر أحداً يُقاتل على طريقته في مكانٍ ما". ثم أضاف: "من يقرأ قصتك هذه لا يعتقد أنها أول قصة كتبتها، بالتأكيد كتبت قصصاً عديدة من هذا النوع؟". أردت أن أخبره أنه على حق، أنها ليست أول قصة لي كما أنها لن تكون الأخيرة، ستكون هناك قصص أخرى وأخرى، لكنّي فضّلت ألاّ أضيف كلمة واحدة تُفقده نشوة قراءة القصة التي قرأها.

"مَن يدري أية قصص ستكتب في بغداد؟" قال لي، وكأنه عرف ما دار في ذهني وأراد مساعدتي ومواساتي. ضحكت وقلت له: "بالفعل، أية قصص سأكتب، لكن عليّ أولاً اكتشاف بغداد".



١٤

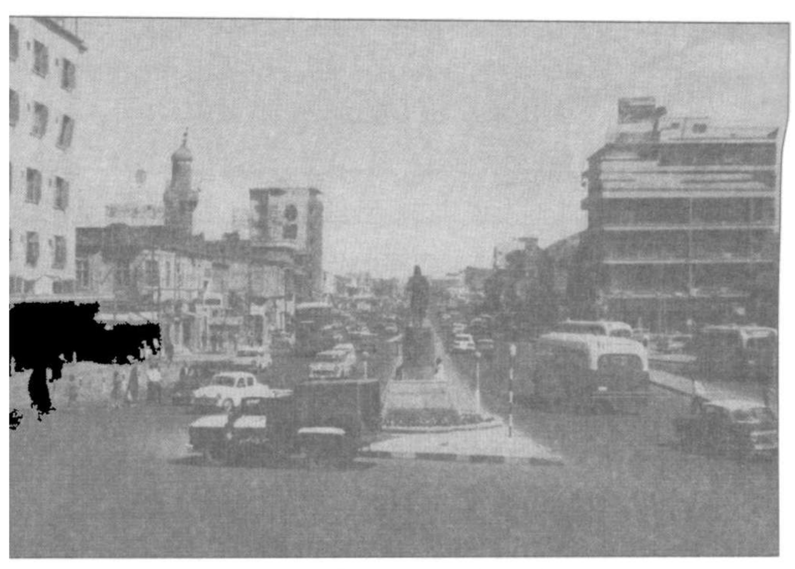
نصب لتمجيد الانتحار

لا أظن أن هناك مدينة في العالم تحتفي بالانتحار مثل بغداد. المدينة لا تقول ذلك علانية. الناس أيضاً لا يدّعون ذلك. لكن النصب الذي يتجسّد فيه الانتحارهناك يرتفع في وسط بغداد، وفي شارع أُطلق عليه ليس غير اسم الشخص المنتحر. الشارع هو شارع السعدون، أحد شوارع بغداد الرئيسية، ويبدأ من ساحة التحرير حتى ينتهي بعد بضعة كيلومترات عند نصب الجندي المجهول. أما النصب فهو نصب عبد المحسن السعدون (١٨٨٩-١٩٢٩)، سياسي عراقي أقدم على الانتحار وله من العمر أربعون عاماً. هناك في منتصف شارع السعدون، عند ساحة النصر تحديداً، انتصب التمثال المصنوع من النحاس الذي يصوّره واقفاً بملابسه الكاملة معتمراً سدارته، وهو يحمل بيده اليسرى مجموعة من الأوراق، ويشير بيده اليمنى إلى صدره، كأنه يدفع تهمة عنه، أو كأنه يدعو المارة إلى الالتفات إليه، ويقول لهم: "نعم، أنا، لقد فعلتها وأقدمت على الانتحار"، ذلك هو الانطباع الذي يمنحه النصب لمن يراه للمرة الأولى، خاصةً لمن لا يعرف ملابسات قصة انتحار عبد المحسن السعدون، كما حدث لي في خريف ١٩٧١ وأنا في طريقي إلى كاليري للرسم، أُطلق عليه "كاليري الأربعة في شارع السعدون". أمر أثار دهشتي، ليس لأنها المرة الأولى التي أرى فيها نصباً يُذكّر بشخصية انتحرت وحسب، بل جاءت دهشتي أكثر لأخلاق الكيل بمكيالين في هذه البلاد.



لم أشأ الدخول في حينها في قصة ملابسات انتحار شخصية السعدون، وعن أسباب إقامة نصب له، أو معرفة النحات الذي عمل النصب المصنوع من النحاس. كل تلك معلومات عرفتها لاحقاً، لأن التمثال حافظ على وقفته تلك في مكانه الذي رأيته فيه على الأقل حتى ٦ تموز/ يوليو ٢٠٠٣ أي بعد مرور ٣ شهور تقريباً على دخول المارينز بغداد. وبغضّ النظر عن مروري اللاحق وشبه اليومي به في سنوات السبعينيات، وحتى خروجي من بغداد، سواء في طريقي إلى بناية اتحاد الأدباء في ساحة الأندلس، أو لمشاهدة فيلم في سينما بابل أو سينما سمير أميس في شارع السعدون، أو لزيارة مسرح "الستين كرسي"، أو في فترة عملي القصيرة عام ١٩٧٤ متدرباً في صفحة ثقافة في جريدة **طريق الشعب** الشيوعية، بعد انتقالها من البناية القريبة من مديرية الأمن العامة إلى شارع السعدون؛ أقول: بغض النظر عن ذلك، شخص مثلي بدأ بالكتابة والعمل الصحفي كان لا بدّ وأن يبحث عن قصة النصب وصاحبه.

في ذلك الوقت، في خريف ١٩٧١، في طريقي إلى كاليري الأربعة في نهاية شارع السعدون، مقابل سينما بابل بالتحديد، وفي آخر أسبوع من العطلة الصيفية،



تمثال محسن السعدون ومدخل شارع السعدون عام 1962.

في الأسبوع الثاني من شهر أيلول/ سبتمبر، شغلني أمر واحد: لماذا يصحّ الانتحار في هذه الحالة ولا يصحّ في حالات أخرى؟ هل يُقبل الانتحار، *لدرجة التمجيد في هذه الحالة، لأن الانتحار حدث في بغداد وحدث لشخصية من الطبقة الراقية*، ولا يصحّ في مدن وطبقات أخرى؟ فذكرى الملاحقات والتهم والتهديدات التي تعرضت لها شلتنا "الوجودية" في العمارة بعد محاولة انتحار أحد أفراد الشلة، الرسام رحمن سلمان، لا تزال عالقة في الذهن. كان رحمن أو شاكر أيضاً، وهو اسمه الثاني أو اسمه الرسمي في العائلة، التي تتكون من الأم والأب والأخت، شكرية، يكبرني على الأقل بثلاث سنوات، وكان أكثر أعضاء شلتنا في العمارة شهرةً، ليس لأنه أكثر أفراد الشلة ميلاً للعزلة، أو أكثرهم نهماً للقراءة، لم يره المرء يتجول يوماً في المدينة دون حمله لكتاب؛ ليس لأنه كان رساماً استثنائياً أيضاً، عثر على لغته الخاصة به بالرسم مبكراً، أو ليس لأنه أكثرنا جرأةً، إذ لم يهمّه مثلاً، هو صاحب الجسد النحيف والذي مَن يراه سيقول إنه مصاب بسوء تغذية مزمن، مرةً، أن يعبر شارع دجلة، الشارع الرئيسي في المدينة، إلى الجهة الأخرى، من أجل صفع فلان قامة، الشقي (البلطجي) رقم واحد في المدينة، رغم معرفته أن الشقي هذا لن يغفر له ويمكنه أن يسحقه علناً في الشارع (والذي لدهشتنا ضحك بوجه رحمن، ربت على كتفه ثم قرصه من خده وقال له: "سبع"، أمر لم يضِرْه، رغم ما حواه من سخرية واستهزاء منه بقدرات صديقنا رحمن، ففي النهاية رحمن هو الذي صفعه، وليس العكس. "المهم أنني صفعته"، كما قال رحمن). كلا لم يكن رحمن، أو شاكر، مشهوراً لأحد هذه الأسباب أو كلها، بل أكثر لأنه هو وليس غيره الذي كان وراء كتابة رسائل عديدة، كانت تُلقى عند بوابة الفيلا الضخمة لعائلة المليونير وصاحب إحدى أكبر شركات النقل في العراق، حنا الشيخ، أو تُرمى تحت هيكل سيارة الشيفروليه الواقفة أمام الفيلا الواقعة في مركز المدينة، وفي كل الرسائل كان رحمن يهدّد العائلة المسيحية الثرية باختطاف ابنتهم إذا لم يدفعوا فدية بقيمة مليون دينار، في أزمان كان فيها الدينار العراقي يعادل ٣ دولارات أميركية. شهور عديدة والمدينة تتحدث عن رسائل التهديد، شهور عديدة وبنات وأولاد حنا الشيخ لا يغادرون البيت، إلى حين إلقاء القبض على رحمن، أو شاكر. في ذلك الوقت لم أكن قد تعرفت على رحمن بعد، أو كنت صغيراً عندما حدثت قصة رسائل التهديد في عام ١٩٦٧، لكن عندما خرج من

السجن، بعد صدور عفو عام ١٩٦٩، أو قبله، وعندما بدأت بزيارة المكتبة المركزية العامة، تعرفت عليه. أولاً على مسافة، لأن رحمن كان دائماً يفضّل البقاء لوحده، و لم أنجح بالتقرب منه مهما حاولت من فضول. أتذكر كيف أنني سألته مرةً عن كتاب **طعام الآلهة**، للإنكليزي هـ. ج. ويلز، الذي رأيته بين يديه، إذا كان ينصحني أيضاً بقراءته، الأمر الذي جعله يحدّق إلي باستغراب ويغادر المكان دون الحديث معي كلمة واحدة. لكن لاحقاً، بعد أسبوعين أو ثلاثة، اقترب مني وسألني إذا كنت أسمح له أن يرسمني، لأنه وبعد تفكير عميق وجد وجهي صالحاً لرسم البورتريهات.

تلك كانت بداية صحبة وصداقة حميمة دامت، للأسف، سنتين فقط، تخللتها عشرات البورتريهات التي رسمها رحمن لي، وبدا لي في كل تلك المرات مثل رجل صوفي، غارقاً في عمله: وجه كله جدية، عيناه تتلألآن. كانت تلك هي المرة الأولى التي يرسمني فيها أحدهم. بورتريهاته القوية وقوة ألوانه، حتى في لوحاته الأخرى التي دار أغلبها عن صورة فتاتين تسيران أو تجلسان معاً في حميمية، تظهران على مقدمة اللوحة، لكن دائماً هناك في عمق الصورة، صورة معلقة على الحائط أو في مكان للوحة التي نراها، لوحة في لوحة، تلك القصص التي يرويها رحمن في صوره والتي تُذكّر بلوحة مشهورة لفان غوغ "أختان"، إحدى لوحاته المتأخرة من عام ١٨٩٠. لا ننسى أن الرسام الهولندي، الذي عاش مفلساً حتى موته، انتحر وله من العمر ٣٧ عاماً، أربعة عشر عاماً أكبر من السنّ التي انتحر فيها رحمن. لوحات فان غوغ تُباع اليوم بأسعار خيالية. لوحات رحمن ضاعت كلها للأسف، حتى قبل انتحاره الأخير، لأن انتحاره الأول، أو من الأفضل القول محاولات انتحاره الأولى، حدثت بعد تعرّفنا على بعض بعام.

في عام ١٩٧٠ قطع رحمن شريان يده اليسرى، طولياً، ليس عرضياً، متعمداً عدم إنقاذه وموته بلا شك، وعندما أُنقذ وأُدخل المستشفى حاول مرة ثانية شنق نفسه في غرفة الحمام، وعندما فشل جمع أوراقاً حول نفسه وأشعل فيها النار، وعندما أُطفئ الحريق قرّر الأطباء تكبيله في سريره بالسلاسل، لكن حتى هذا لم يمنعه من بلع زجاجة فارغة حوت على مصل طبي أراد الطبيب حقنه به قبل النوم. بعد أن أجروا له عملية وأخرجوا الزجاجة، قال لي رحمن عندما زرته في أيام نقاهته الأخيرة: "حسناً، لن



أموت، لا أحد يسمح لي بالموت، أو كما يبدو لا يُراد لي الموت". في ذلك اليوم الذي أفرحني سماعي جملته تلك. نصحتني ممرضة شابة كانت تعمل في المستشفى، قبل مغادرتي الردهة، ألاّ أعاود الزيارة، وعندما سألتها عن السبب حدثتني عن رجال الأمن الذي زاروا رحمن قبل ساعات وسألوه عن أصدقائه وعن الذين حرّضوه على الانتحار. أحد ضباط الأمن، قالت لي، طلب منها أن تخبره بهوية القادمين وأن تكتب له أسماءهم، "ولأنك شاب لطيف وصغير، ولا أريد أن يحدث لك مكروه، أطلب منك عدم المجيء أبداً"، قالت لي. في النهاية، ولأنني لم أكن الوحيد الذي توقف عن زيارته، كل الشلّة عرفت بخطورة الأمر كما يبدو. اعتقلت سلطات الأمن رحمن نفسه بتهمة التحريض على الأفكار الهدّامة، فهو عن طريق محاولته تلك يشجّع شباب المدينة على الانتحار. "الثورة تبني، هدفها صناعة الأبطال، وأنت تدعو للجبن والانتحار"، قالوا له في دائرة الأمن.

الجبن هو رديف الانتحار في عرف السلطة والنظام، على الأقل في حالة الرجال، أعرف ذلك، مثلما أعرف أنه وصمة عار ستطارد العائلة أبداً في حالة النساء. لذلك ليس عندنا، لا في ذلك الوقت ولا اليوم، إحصائيات استقصائية عن معدّلات الانتحار في العراق، فأغلب حالات الانتحار لا تظهر للعلن، يخفيها أصحاب الشأن عبر تغليفها بقصص وحكايات أخرى تجنباً لإشاعة الخبر. العائلة العراقية تتجنّب الإفصاح عن الانتحار، خاصةً في حالة انتحار ابنتها لأن انتحارها غالباً بما يُربَط بالشرف، فتقول: "انفجرت المدفأة"، أو "احترقت بالفرن"، أو "لعبت بسلاح والدها أو شقيقها"، أو "أخذت العلاج عن طريق الخطأ"... كل تلك الادّعاءات تقولها العائلة حسب الطريقة التي لجأت إليها الفتاة للانتحار: حرق نفسها أو إطلاق النار أو أخذ جرعة من الحبوب. وحتى في حالة رحمن حاول أبوه التستّر على محاولة انتحار ابنه، لكن دائرة الأمن لم تسمح له، ووصل بها الأمر أنها لم تكتفِ باعتقال رحمن بل أرادت اعتقالنا جميعاً بصفتنا مروجين للانتحار. والآن أزور بغداد، لا أسمع قصة انتحار لشخص ما وحسب، بل أرى نصباً أُقيم له، كأنّ الانتحار فقط في بغداد شجاعة ومثال!

لم أفكر في حينه أن الأمر أبعد من ذلك، له علاقة بالطبقات والتصنيفات الاجتماعية أكثر. لأن ما يحدث في قاع المجتمع يُمكن التستر عليه، على عكس ما يحدث في



طبقات المجتمع العليا، خاصةً إذا تعلّق الأمر بشخصية مهمة لعبت دوراً في تاريخ الدولة العراقية الحديث، مثل شخصية السياسي عبد المحسن السعدون، فهو ليس شخصاً مجهولاً لكي يُقال إنه قُتل على يد مجهول، فأسرة مثل أسرته، أسرته آل السعدون، هي أسرة تُرجع نسبها إلى الأشراف من سلالة أمراء المدينة المنورة في شبه الجزيرة العربية، كما أنهم كانوا حكام إمارة المنتفق تاريخياً، تلك الإمارة التي ضمت يوماً معظم مناطق وقبائل وعشائر جنوب ووسط العراق، ويكفي أن نقرأ ما كتب عنها البارون الألماني ماكس فرايهير فون أوبينهايم: "ما من قبيلة عراقية تضاهي المنتفق في الأهمية ولا عائلة شيوخ تضاهي عائلة سعدون – شبيب التي أسّست في أواخر القرن السابع عشر مملكة المنتفق على الفرات الأدنى والتي جلبت في الحرب العالمية الأولى – عندما كانت تلك المملكة قد سقطت – لاسم المنتفق الفخر والاعتزاز مرة أخرى" (كتاب البدو، ج٣، ص٥٩٠)، أو نعرف أن المستشرق النمساوي المشهور إدوارد فون زامباور ذكر العائلة أيضاً في معجمه الضخم الذي حمل عنوان **الأنساب والأسر الحاكمة في التاريخ الإسلامي**. أسرة مثل أسرته، أسرة من العيار الثقيل هذا، المطلوب منها في حال ادّعائها أنه قُتل على يد آخر ألّا تسكت أبداً عن قتل ابنها، مثلما سيكون المطلوب منها أن تأخذ بثأره، من غير المهم الجهة التي قتلته. ذلك هو العرف الاجتماعي. إذن لماذا لا تلجأ القبيلة إلى تفسير آخر يخرجها من المأزق، كأن تدّعي مثلاً، كما فعلت (لا يهم إذا صحّ ذلك أم لا)، أنه أقدم على الانتحار لأسباب وطنية. قيل: " لم يشأ أن يبيع العراق للقوى الاستعمارية". وعندما اتهمه أحد النواب، أو منافسه جعفر العسكري، بالخيانة، فعل تلك الحركة، قال له متسائلاً وهو يشير إلى صدره: "أنا؟ خائن؟". المفارقة أنه، وفي مكان آخر، قيل إنه نطق الجملة تلك أمام ابنه الذي كان في صراع "أوديبي" معه، عندما اتّهمه هذا بالخيانة!

كل ذلك لم أعرفه في ذلك اليوم الخريفي وأنا أمرّ بتمثال عبد المحسن السعدون صدفة، لم أعرف أنه ترأس أربع وزارات: أعوام ١٩٢٢، ١٩٢٥، ١٩٢٨م، وأخيراً عام ١٩٢٩، العام الذي أطلق فيه النار على نفسه. لم أعرف أن المعارضة هاجمته بشدة، حيث اتّهمته آنذاك بالتراجع عن مواقفه السابقة التي أصرّ فيها على المطالب العراقية عند إجراء المفاوضات لوضع معاهدة جديدة مع بريطانيا وتعديل الاتفاقيتين العسكرية



والمالية، وأن ردّه جاء بنفس الدرجة من العنف، حيث قال: "إذا حصل ذلك فإني أعتقد أن نيل الاستقلال تابع إلى جرأة الأمة، فالأمة التي تريد الاستقلال يجب أن تتهيأ له، ولا يكون ذلك بالكلام والأقوال الفارغة، فالاستقلال يؤخذ بالقوة والتضحية، وهذا ما أحببت أن أقوله". لم أعرف أنه ترك وصية لابنه علي (رغم الخلاف المزعوم بينهما!)، في ١٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٢٩، شرح فيها أسباب إقدامه على الانتحار، وأوصاه بوالدته وأخوته الصغار، وهذا هو نص الوصية:

> ولدي وعيني ومستندي علي: اعفُ عني لما ارتكبته من جناية، لأني سئمت هذه الحياة التي لم أجد فيها لذةً وذوقاً وشرفاً. فالأمة تنتظر مني خدمة، والإنكليز لا يوافقون، وليس لي ظهير. العراقيون طلاّب الاستقلال ضعفاء وعاجزون، وبعيدون كثيراً عن الاستقلال، وهم عاجزون عن تقدير أرباب الناموس أمثالي. يظنون أنني خائن للوطن وعبد للإنكليز؟ ما أعظم هذه المصيبة!! أنا الفدائي الأشد إخلاصاً لوطني، قد كابدت أنواع الاحتقارات وتحمّلت المذلات مضضاً في سبيل هذه البقعة المباركة التي عاش بها آبائي وأجدادي مرفّهين. ولدي نصيحتي الأخيرة لك هي: ١- أن ترحم إخوتك الصغار، الذين سيبقون يتامى، وتحترم والدتك، وتخلص لوطنك. ٢- أن تخلص للملك فيصل وذريته إخلاصاً مطلقاً.
>
> اعفُ عني يا ولدي علي.

التوقيع

عبد المحسن السعدون

المفارقة أنه كتب وصيته تلك باللغة التركية!

أيضاً لم أعرف أن الحكومة العراقية سارعت إلى إذاعة نبأ الفاجعة، وجرى تشييع مهيب له إلى المقبرة الكيلانية في باب الشيخ، وكما كتبت الصحف في حينه "سار خلف جنازته جميع الشخصيات السياسية، وجمع غفير جداً من أبناء الشعب، وهم يعبّرون عن الأسى والحزن العميق لانتحاره، وانهالت برقيات التعازي من شتى أنحاء العالم". أما وكيل المندوب السامي البريطاني فقد احتجّ على الحكومة العراقية بشدة بسبب



سماحها بنشر وصية السعدون، معتبراً ذلك العمل تحريضاً على بريطانيا وسياستها تجاه العراق، وتثير هيجاناً لدى الرأي العام العراقي. لكن الملك فيصل والحكومة حاولا تبرير نشر الوصية إرضاءً لوكيل المندوب السامي البريطاني.

والأكثر من ذلك أنني لم أعرف أن النحات الذي عُهدت إليه مهمة تصميم ونحت التمثال هو النحات الإيطالي بيترو كنونيكا، الذي سبق له وأن نحت تماثيل ملك العراق فيصل الأول؛ السياسي المصري مصطفى النحاس؛ مؤسس الدولة التركية الحديثة أتاتورك والجنرال البريطاني ستانلي مود الذي كان قائد القوات البريطانية التي احتلت بغداد في

تمثال ستانلي مود قائد القوات البريطانية التي دخلت بغداد عام 1917.

١١ آذار/ مارس ١٩١٧، والذي توفي أيضاً في بغداد في ١٨ تشرين الثاني/ نوفمبر من نفس العام؛ مثلما لم أعرف أن التمثال الذي أنجزه كنونيكا في ٢٠ أيار/ مايو ١٩٣٣ رُفع عنه الستار أولاً في ساحة صغيرة خضراء تقع في نهاية شارع الرشيد بالقرب من مدخل شارع أبي نؤاس، حيث كان يقابله آنذاك متحف صغير لمخلفات الملك فيصل الأول البسيطة، قبل أن يعيش قصة تنقّل عجيبة، قصة لا يمكن أن تحدث إلا في مدينة مثل مدينة العجائب بغداد: لقد تنقل التمثال من موقعه الأصلي إلى حيث مدخل جسر الجمهورية ليقابل مدرسة الراهبات، ثم إلى بداية ساحة التحرير، ولما كان التصميم والإنشاء قد اعترضا مكانه في الحالتين فقد نقل إلى موقعه الأخير في ساحة النصر منذ عام ١٩٦٢، حيث وقفت في ذلك اليوم الخريفي أعاين التمثال - كل ذلك عرفته لاحقاً.

لكن ماذا كان سينفعني كل ذلك لو عرفته في حينه، فأنا، حتى في تلك السنّ، لم تخدرني أفكار الوطنية لدرجة تجعلني أميّز بين الانتحارَين، بين انتحار صديقي رحمن وانتحار السياسي عبد المحسن السعدون، لكي أقول إن انتحار رحمن، أو شاكر، جريمة قتل للنفس، على عكس انتحار عبد المحسن السعدون الذي فسّره البعض بأنه انتحار من أجل الوطن، "أنا الفدائي لوطني"، كما فسّره الشاعر والقانوني إبراهيم الواعظ الذي قيل إنه أحد الذين أسهموا مادياً في حملة التبرعات الشعبية لإقامة التمثال، والذي ذهب أكثر في تفسيره لدلالات وقوف وإشارات السعدون: "الوقوف فهو دليل على الشموخ والاعتداد بالنفس؛ وأما الأوراق التي يحملها فهي دليل على صفحة أعماله وخطاباته، وما اليد اليمنى التي تمتد لتلامس صدره إلا إشارة إلى ما أكّده في رسالته الأخيرة لابنه علي... (أنا الفدائي لوطني)". أما قاعدة التمثال المصنوعة من المرمر الصقيل، والتي قد برزت عليها تماثيل صغيرة لبعض شخصيات تلك الفترة من تاريخ العراق السياسي المعاصر، فقد وجدها ترمز إلى أعضاء مجلس النواب والوزراء وكأنهم يستمعون إليه خطيباً. طبعاً حسب درجة القرب والبعد عن السياسي الاستثنائي هذا، تسمح للعديد من التأويلات، لكن ألم يكن رحمن رساماً استثنائياً؟ ماذا لو عملنا له تمثالاً؟ في النهاية الانتحار، كفعل مجرّد، يظل في الحالتين هو واحد، أما التفسيرات فهي أمور مطاطة وهلامية، ذلك ما يُفسّر - بالمناسبة - كيف أن المصابين بمرض الوطنية من العراقيين لم يصدقوا أنه انتحر واتّهموا الإنكليز



بقتله، لأن الانتحار ليس حراماً وحسب بل هو جبن في عرف هؤلاء، أو أنه فعل لا يليق بالطبقات العليا. حتى اليوم نعثر على جمل لا تقول إنه انتحر بل تدّعي أنه "توفي في ظروف غامضة بعد إعلانه مناهضة السياسة البريطانية ورفضه التوقيع على معاهدة عام ١٩٢٥، وربما انتحر أو قُتل، حتى يقال إنهم وجدوا طلقتين في رأسه عندما وجدوه ميتاً عام ١٩٢٩". أحد المؤرخين المعروفين، اسمه عماد عبد السلام رؤوف، يذهب أبعد من ذلك، فهو يؤكد على وفاة عبد المحسن السعدون "مقتولاً من قبل البريطانيين".

ما فات هؤلاء جميعاً أنه في حالة الانتحار يتساوى الجميع، لأن الانتحار لا علاقة له بطبقة أو قومية أو جنس، وأن حتى الأغنياء وأفراد الطبقات العليا يمكن أن ينتحروا، لشعور بالخيبة، أو لبحثهم عن سعادة لا يحققها الثراء لهم بالضرورة، وأشهر مثال على ذلك هو كريستينا أوناسيس، ابنة الملياردير اليوناني المشهور أوناسيس، صاحب الجزر والأساطيل البحرية والطائرات والمليارات، الذي يعدّ من أكبر أثرياء العالم، ولأن كريستينا هي وريثته الوحيدة فقد ورثت عنه كل ثروته الهائلة، إلا أن ذلك لم يحقق لها السعادة التي بحثت عنها، تزوجت عدداً من المرات، وكان زواجها الأخير من أحد الشيوعيين، حيث سئمت حياة الترف والثروة، وذهبت لتعيش مع زوجها في منزل متهالك في أحد أحياء موسكو الفقيرة، إلا أن الفشل لاحقها في هذا الزواج أيضاً ففارقت زوجها بعد أن أصيبت باكتئاب مزمن وحزن مرضي متّصل، و لم تستطع الثروة والمال أن يحققا لها أبسط معاني السعادة الإنسانية وأقل درجات الرضى والطمأنينة، فقررت الانتحار ووُجدت ميتة على أحد السواحل الأرجنتينية، بعدما ابتلعت عدداً كبيراً من الحبوب المنومة، وكان عمرها آنذاك سبعة وثلاثين عاماً فقط، وهي لم تجد السعادة: لا في الغنى ولا في الفقر!

حوادث الانتحار ترتفع في أعدادها في كل دول العالم، حيث تشير إحصاءات منظمة الصحة العالمية إلى أن ما يقرب من مليون شخص ينهون حياتهم انتحاراً في كل عام، أو ما يعادل حالة وفاة واحدة كل ٤٠ ثانية، لكنها تظل طبعاً في العراق ذات خصوصية، بسبب الطبيعة المحافظة للمجتمع والتركيبة الإجتماعية والعشائرية، إضافةً إلى القيم الدينية، وكلها عوامل من المفترض أن تكون كوابح لعجلة زيادة حالات



الانتحار. لكن مع ذلك كله فإن ذلك لم يوقف لا صديقي رحمن ولا سياسي قبله مثل السياسي عبد المحسن السعدون. الاثنان ينتميان إلى طبقتين وعائلتين مختلفتين، مثلما يختلفان في توجهاتهما واهتماماتهما، لكن ذلك لم يمنع أن الانتحار جعلهما يصبحان موحَّدين، ليس لأن الاثنين انتهيا النهاية ذاتها، أو أنهما عانيا من محيطهما حتى بعد موتهما، رحمن سُرقت لوحاته ولم يبقَ أي أثر لأيٍّ منها مباشرةً بعد موته، وعبد المحسن السعدون اقتُلع تمثاله في ٣٠ تموز/ يوليو ٢٠٠٣ بمعاول مجموعة من الغوغاء وعلى من مرأى الدبابات الأميركية التي جابت في حينه شارع السعدون، وعلى مرأى من جمهور محتشد، بدل أن يهبّ لنجدة النصب، راح يستغيث برعاة الدبابات لإيقاف المعاول التي هوت على النحاس والحجر، ونجحت في النهاية في اقتلاع التمثال من أساسه ونقلته على عربة خشبية يسحبها حمار إلى جهة مجهولة، حسب شهود عيان. كلا، ليس في ذلك وحسب كانا موحدين، بل أكثر لأنهما:

أولاً، شخصيتان استثنائيتان، شخصيتان سجّلتا تاريخاً، كل واحد منهما في مجاله. لا يهم الأسباب التي استدعت كلاً منهما على الانتحار، عبد المحسن السعدون في السياسة، لأنّ، باستثنائه، لم تعرف السياسة العراقية انتحاراً سياسياً آخر، لا قبل عبد المحسن السعدون ولا بعده؛ رحمن سلمان في فن الرسم، لأنّ، ما عداه، ليس هناك شخصية في تاريخ الرسامين العراقيين، لا قبله ولا بعده، أقدمت على الانتحار.

ثانياً، لأن الاثنين الاستثنائين انتحرا في المدينة نفسها، في بغداد. فرحمن، أو شاكر، الذي فشل في محاولاته الأولى في الانتحار في العمارة، نجح في النهاية بالانتحار في بغداد. بعد أسابيع من وقفتي تلك، بعد أسابيع من زيارتي له في غرفته التي أجّرها في منطقة الفضل أثناء دراسته في أكاديمية الفنون الجميلة في بغداد، بعد أسابيع من حديثه المتفائل معي عن اللوحات التي سيرسمها، عن المعارض التي سيقيمها، وعن حبه لمنى، زميلته القادمة من الجنوب هي الأخرى، والتي درست معه الرسم في أكاديمية الفنون، بعد أسابيع من توديعي الحار له، سيلقي رحمن بنفسه من الطابق العاشر لبناية الأقسام الداخلية للطلبة العرب في شارع الجمهورية القريبة من الميدان ومن ساحة الأمين.

كأنّ بغداد ليست عاصمة العراق وحسب بل هي عاصمة للمنتحرين الاستثنائيين،



وأقول المنتحرين لأن الفارق بين "المنتحرين" هؤلاء وبين "الانتحاريين"، أولئك الذي سيغزون بغداد بعد ٩ أبريل/ نيسان ٢٠٠٣، قادمين من كل حدب وصوب، أجانب وعراقيين، ليس فارقاً في قواعد النحو أو الإملاء، بل هو فارق بين الحياة والموت. عبد المحسن السعدون ورحمن سلمان قتلا نفسيهما، لكنهما ظلا شعلتين مضيئتين تنيران ظلام بغداد، عكس الانتحاريين المعاصرين الذين مع انتحار كل واحد منهم تفجيراً لنفسه تغطّي المدينة غمامة سوداء.

١٥

المدينة بعيون شهرزاد "ألف ليلة وليلة" واختراع مدينة عن طريق القَصّ

في **ألف ليلة وليلة** لا تنجح شهرزاد بإنقاذ نفسها ومعها بنات جيلها من الموت المحقق على يد الملك الطاغية شهريار، أحد ملوك ساسان "بجزائر الهند والصين وصاحب جند وأعوان"، كما تخبرنا عنه **ألف ليلة وليلة** في سطورها الأولى، عن طريق روايتها القصص واختراعها الحكايات، بل كانت الشخصية الأدبية الأولى التي اخترعت بغداد. صحيح أن الليلة الأولى من ليالي **ألف ليلة وليلة** تبدأ برواية شهرزاد "حكاية التاجر والعفريت" التي تتحدث عن تاجر اشتدّ عليه الحر فجلس في العراء وأكل تمرة ما إن رمى نواتها حتى تحولت إلى عفريت طويل القامة وبيده سيف هدّد به التاجر... إلى آخر الحكاية، لكن تلك هي مجرد تمهيدات أولية للقدوم إلى بغداد. في القصة هذه، وفي قصص أخرى لكن قليلة، ليس هناك كتاب نثري، في الحقيقة، يحكي عن أحوال بغداد في تلك الفترة، كما حكت عنها شهرزاد، رغم كل ما حوته حكايتها من اختراع.

رغم ارتباط **ألف ليلة وليلة** ككتاب، أو كمجموعة حكايات، بمدينة بغداد، إلا أن اسمها لا يبرز فيها منذ البداية. ثم لا الملك شهريار ولا الفتاة التي ستغامر بالزواج منه، ملكة الحكايات، شهرزاد، من سكان بغداد. الحكاية الأولى، "حكاية الملك شهريار وأخيه الملك شاه زمان"، التي هي بمثابة مدخل تمهيدي للكتاب، تبدأ بالشكل التالي:



يُحكى، والله أعلم وأحكم وأعزّ وأكرم، أنه كان فيما مضى وتقدم من قديم الزمان وسالف العصر والأوان ملك من ملوك ساسان بجزائر الهند والصين صاحب جند وأعوان وخدم وحشم. وكان له ولدان... وكان الأكبر أفرس من الصغير وقد ملك البلاد وحكم بالعدل بين العباد... وكان أخوه الصغير اسمه الملك شاه زمان وكان ملك سمرقند...

لا ذكر لبغداد لا في المدخل التمهيدي هذا ولا في الليلة الأولى، عندما تبدأ شهرزاد برواية حكاياتها.

أولاً، في الليلة التاسعة يبرز اسم بغداد، في "حكاية الحمّال مع البنات". صحيح أن بغداد ستظهر من حين إلى آخر في حكايات أخرى، بعضها يحمل اسم بغداد، كما هي الحال مع حكاية "مزيّن بغداد" في الليلة الثامنة والخمسين، لكن تظل صورتها في الليلة التاسعة أقوى من كل صورها القادمة، إذا لا تكون الأساس الذي ستعتمد عليه الحكايات الأخرى. كأن شهرزاد تعمدت في تقديمها ذلك بناء الإطار العام لمدينة بغداد التي ستكون مسرحاً لحكايات قديمة. بل كأنها أرادت أن تؤسس إطاراً واقعياً لمدينتها المخترعة، سواء فيما خصّ المكان الذي دارت فيها الرواية أو فيما خصّ الشخصيات التي ستكون المحرك الأساسي للقصة. فمن جهة الشعب، سكان بغداد بتنوعهم الطبقي والأثني، ومن الناحية الأخرى الخليفة هارون الرشيد ووزيره جعفر البرمكي، دون كيخوته وسانشو بانثا بالأحرى.

في الليلة التاسعة تبرز بغداد للمرة الأولى، لكن أيضاً ليست هناك قصة أخرى في **ألف ليلة وليلة** تضاهيها في رسم صورة لبغداد تريد فرض واقعيتها علينا بالقوة. في الحكاية هذه، التي تبدأ بوصف الحمال بأنه "إنسان من مدينة بغداد"، نتعرّف على صورة نموذجية لبغداد، مدينة يتوفر فيها كل شيء لمن يملك قوة شرائية، النساء يتجولن في أسواقها وحاراتها، بل يسكنّ بلا أزواج ويقمن الحفلات في بيوتهن. فالحمّال الفقير، الذي كان متكئاً على قفصه في السوق ينتظر زبونه، لم يجد غرابة في الأمر عندما وقفت فجأةً امرأة أمامه، مثلما لا يبدو الأمر غريباً أن تتجول امرأة بهذا الجمال وحدها في السوق: امرأة ملتفّة بإزار موصلي من حرير مزركش بالذهب وحاشيتاه من قصب، كانت تلبس قناعاً لم تتردد في رفعه أمام الحمّال أو عند تجوالها في السوق

"ليبين من تحته عيون سود بأهداب وأجفان، وهي ناعمة الأطراف كاملة الأوصاف". وعندما نصاحب المرأة هذه في تسوقها لا نكتشف تنوع البضائع في السوق وحسب بل نكتشف أيضاً تنوع مصدرها، فهي تشتري "تفاحاً شامياً وسفرجلاً عثمانياً وخوخاً عُمانياً وياسمينَ حلبياً وبنوفرَ دمشقياً وخياراً نيلياً (من النيل، من السودان!) وليموناً مصرياً... إلخ". وحدها الفواكه تقول لنا إن بغداد كانت على علاقة تجارية مع كل البلدان أو المناطق التي جاءت منها تلك البضائع. أما شراؤها الزيتون من بائع نصراني فيؤكد لنا أن باعة الزيتون إما كانوا في أغلبيتهم من غير المسلمين (نصرانيين) أو أن هؤلاء عُرفوا ببيعهم نوعية جيدة من الزيتون، وإلا لما جاء هذا التأكيد. أما دخول الحمّال البيت مع البضاعة وصاحبة البضاعة فيمنحنا صورة عن المعمار الذي قامت عليه البيوت، وعن الديكور الداخلي لها في الفترة تلك، عن الذوق الأرستقراطي السائد في بغداد، لأن النساء الأربعة، الدلاّلة التي قادت الحمّال والأخوات الثلاثة المقيمات في ذلك البيت الفسيح - كما سيظهر في نهاية الحكاية - ينتمين إلى عائلات معروفة، من النخبة أصلاً، وراءهن قصة تراجيدية إذن، كما في بقية حكايات **ألف ليلة وليلة**. "فحمل الحمّال القفص وتبعها إلى أن أتت داراً مليحة وقدامها رحبة فسيحة وهي عالية البنيان مشيدة الأركان بابها بشقين من الآبنوس مصفح بصفائح الذهب الأحمر، فدقت الصبية على الباب ودقت دقاً لطيفاً وإذا بالباب انفتح بشقيه فنظر الحمال إلى من فتح لها الباب فوجدها صبية رشيقة القدّ ذات حسنٍ وجمال وقدٍّ واعتدال وجبينٍ كغرّة الهلال وعيونٍ كعيون الغزلان وحواجبَ كهلال رمضان وخدودٍ مثل شقائق النعمان وفمٍ كخاتم سليمان ووجهٍ كالبدر في الإشراق". وبعد ترحيب الصبية به طلبت منه أن يدخل، "مشوا حتى انتهوا إلى قاعة فسيحة مزركشة مليحة ذات تراكيب وشاذورات وأثاث ومصاطب وسدلات وخزائن عليها الستور مرخيات، وفي وسط القاعة سرير من المرمر مرصّع بالدر والجوهر منصوب عليه ناموسية من الأطلس الأحمر، ومن داخلهِ صبية بعيون بابلية وقامة ألفية ووجهٍ يُخجل الشمس المضيئة فكأنها بعض الكواكب الدرّية أو عقيلة عربية".

حتى عمولة ذلك الزمان تقدّمها لنا الحكاية هذه: الدينار. "وأعطين للحمال دينارين". ليس ذلك وحسب، بل التعامل "الديموقراطي" هذا الذي يقترب من



المساواة، سواء تعامل النساء الأربعة أم تعامل الحمّال معهن، لدرجة أن الحمّال لا يشعر بالنقص، بأنه حمّال من الطبقة الواطئة وهنّ نساء أرستقراطيات، فها هو لا يتردد في التدخل في حياتهن: "فنظر (الحمّال) إلى البنات وما هنّ فيه من الحسن والطبائع الحسان فلم يرَ أحسن منهن ولكن ليس عندهن رجال". أما عندما ينظر إلى "ما عندهن من الشراب والفواكه والمشمومات وغير ذلك فتعجّب غاية العجب ووقف عن الخروج". وعندما تسأله إحدى الفتيات بأدب ما له لا يروح وقد أعطينه أجرته، حتى إنها التفتت إلى أختها وطلبت منها أن تعطيه ديناراً ثالثاً ظنّاً منها أنّ توقّفه له علاقة لأنه يطالب بأجرة أكثر، أجاب الحمّال: "والله يا سيداتي إنّ أجرتي نصفان وما استقللت الأجرة وانما شغل قلبي وسري بكن وكيف حالكن وأنتن وحدكن وما عندكن رجال ولا أحد يوانسكن وأنتن تعرفن أن المنارة لا تثبت إلا على أربعة وليس لكُنَّ رابع وما يكمل حظ النساء إلا بالرجال". لا غرابة أن ينطق الحمّال بحكم مثل هذه، فهو، كما يقدّم نفسه في الحكاية وللبنات، "وحياتكن إني رجلّ عاقل أمين قرأت الكتب وطالعت التواريخ أُظهر الجميل وأُخفي القبيح".

هو الآخر إذن صاحب سرّ. ما يدور بعد ذلك هو أمر غريب، إذ تطلب منه إحدى الفتيات أنه إذا أراد البقاء معهن، الجلوس معهن ويصير نديمهن حتى تطلع وجوههم الصباح الملاح، فعليه أن يدفع لهن مبلغاً من المال، لأن المكان الذي هنّ فيه كلّفهن جملةً من المال. أو كما قالت صاحبة الدار: "إذا كانت بغير المال محبة فلا تساوي وزن حبة". بعد ذلك طبعاً يجلس الحمّال معهن، يشرب معهن الشراب، وهنَّ في رقصٍ وغناء ومشمومات، وهذه تجذبه وتلك بالمشموم تضربه، ولا يهم أن الخمور لعبت بعقولهن، لأنها البداية للدخول لحكاية جديدة، حكاية الصعاليك الثلاثة الذين سيقودهم طريقهم أيضاً إلى البيت.

أما دخول الخليفة هارون الرشيد ومعه وزيره وصديقه جعفر البرمكي فيريد أن يقول لنا إننا في بغداد هارون الرشيد، أي بين عامي ٧٨٦ و٨٠٩م، الفترة التي حكم فيها الخليفة العباسي الخامس. إنها مناسبة أيضاً لنعرف أن الخليفة هذا، الذي اشتُهر بالحذر واعتاد بثّ عيونه وجواسيسه بين الناس ليعرف أمورهم وأحوالهم، وأنه أحياناً كان يطوف بنفسه متنكراً في الأسواق والمجالس ليعرف ما يقال فيها، أنه خليفة عادل،



ورع ومتدين، تسيل عبراته عند سماع الموعظة، وأنه لا يقبل الظلم.

في نهاية الحكاية التي تستمر تسع ليالٍ، حتى الليلة الثامنة عشرة، تنتهي القصة نهايةً سعيدة، إلى: أولاً، زواج المرأة الأولى، الدلاّلة التي قادت الحمّال إلى البيت، بالخليفة هارون الرشيد، "ثم أن الخليفة تزوج بالدلالة ورقد تلك الليلة معها فلما أصبح أفرد لها بيتاً وجواري يخدمنها ورتّب لها راتباً وشيّد لها قصراً". ثانياً، زواج الأخوات الثلاث بالصعاليك الذين ظهر أنهم ملوك، والذين وظّفهم الخليفة "حجّاباً عنده وأعطاهم ما يحتاجون إليه وأنزلهم في قصر بغداد". ثالثاً، أما الصبيّة المضروبة التي تظهر مسحورةً على شكل كلبة في الحكاية الداخلية، "حكاية الصعاليك الثلاثة"، فزوّجها من ابنه الأمين. في النهاية نحن إذن أمام تبادل للأدوار، وذلك هو ديدن **ألف ليلة وليلة** في كل حكاياتها. هناك تبادل دائم بالأدوار. السلّم الطبقي غير ثابت، غير أبدي. صعود وهبوط. مثل لعبة حيّة ودرج. مثل لعبة مونوبولي.

بهذا الشكل تكون الليلة التاسعة، أو حكاية "الحمّال مع البنات"، بكل التفاصيل "الواقعية" التي افترضتها، والتي هي خيالية أكثر، أرادت تقديم صورة عن بغداد العصر العباسي: شعب يعيش في رفاهية واستقرار اقتصادي وحرية من ناحية، ومن ناحية أخرى ملك (هارون الرشيد) عادل يسهر على خدمة الناس. رغم أن الحكاية، بما صوّرته أيضاً من طرب ومجون، قدّمت صورةً أخرى عن بغداد، من الجائز جداً أنّ الحكاية لم تتعمّد ذلك، لكن قوة الصورة التي تضمّنتها فرضت نفسها علينا كقراء، خاصةً أولئك القراء البعيدين عن بغداد. وهذه الصورة هي التي ترسّخت في أذهان الأوروبيين في المقام الأول: صورة بغداد اللاطبقية، بغداد النساء الجميلات اللواتي يعشن وحدهن، لا يترددن في استقبال الرجال في بيوتهن، يشربن معهم، يغنّين ويرقصن، صورة بغداد **ألف ليلة وليلة** التي لم تغب عن خيال وعن ذهن أي رحّالة توجّه إلى الشرق عامة، فكيف هي الحال إذا توجّه إلى بغداد؟ طبعاً الحديث عن **ألف ليلة وليلة** كلها، بصفتها كتاب جامع لحكايات مختلفة، أو بصفتها "الرواية الشرقية الشهيرة"، هو أمر آخر، لأننا إذا أخذناها بصورتها الإجمالية سنجدها بمثابة وثيقة تشرح أحوال العصور الإسلامية الوسطى وعادات أهلها على اختلاف طبقاتهم مع بيان أخلاقهم وآدابهم في مجالسهم وأحاديثهم وأعراسهم ومآتمهم ومعاملاتهم التجارية والقضائية والعائلية وغير ذلك من الأمور التي

تنظم الحياة اليومية لمجتمع ما، من غير المهم ما حوت عليه من عناصر غرائبية وتخيلية، فكل تلك هي أشكال أدبية غايتها كانت إيصال المضمون الذي استندت عليه، خاصةً إذا عرفنا أن الوسائل الغرائبية تلك، وبكل ما حوت عليه من حكم وأمثلة، كانت السلاح الذكي، أو بمثابة العلاج النفسي (تيرابي في زمننا الحاضر)، الذي ساعد شهرزاد على النجاح في تغيير موقف الملك شهريار المعادي للنساء. ففي النهاية، وخلال كل الزمن الذي استغرقته حكاياتها، لم تُقتل أية امرأة، أما الملك فيتحول دون أن يدري إلى أب ويصبح عنده ثلاثة أولاد من شهرزاد. كل ذلك جيد، لكن المشكلة تظل في الصور التي ثبّتتها **ألف ليلة وليلة** أو ثبّتها الغربيون في أذهانهم عن الشرق عموماً وبغداد بصورة خاصة، والتي هي في النهاية كولاج من صورتين: صورة بغداد في "حكاية الحمّال والبنات" وصورة الشرق في المدخل التمهيدي للحكايات.

في المدخل التمهيدي ذلك، البرولوج، نعرف أن الأخوين، شهريار وشاه زمان، الملكين "العادلين"، يتعرضان لخيانة زوجتيهما لهما. شاه زمان "وجد زوجته راقدة في فراشه مع عبد أسود من عبيده" فاسودّت الدنيا في وجهه حتى "إنه سلّ سيفهُ وضرب الاثنين فقتلهما في الفراش". بعدها يزور أخاه الذي سيلاحظ مرضه وفقدانه شهية الأكل، لكنه، وللغرابة، سيشفى بسرعة، ما أن يرى ما تفعله زوجة أخيه الملك شهريار، بعد سفر هذا إلى الصيد. "كان في قصر الملك شبابيك تطلّ على بستان أخيه، فنظر وإذا بباب القصر قد فُتح وخرج منه عشرون جارية وعشرون عبداً وامرأة أخيه تمشي بينهم وهي في غاية الحسن والجمال حتى وصلوا إلى فسقية وخلعوا ثيابهم وجلسوا وإذا بامرأة الملك قالت يا سمعود فجاءها عبد أسود، وما زالوا في بسط وانشراح ونحوِ ذلك حتى ولّى النهار. ولمّا رأى شاه زمان ذلك قال لنفسه: "إنّ بليّتي أخفّ من هذه البليّة"، وقد هان ما عنده من القهر والغم". وعندما يروي شاه زمان ما رآه لأخيه شهريار، سيدّعي هذا السفر إلى الصيد ويتنكّر ويقف عند الشباك المطلّ على البستان ساعةً من الزمان، "وإذا بالجواري وسيدتهم دخلوا مع العبيد وفعلوا كما قال أخوه واستمر ذلك إلى العصر". صورة أورجيا بالأحرى. جماع جماعي، كما في أفلام البورنو وفي خيالات الناس. نساء جميلات، زوجات ملوك، يتضاجعن مع عبيد، سود البشرة طبعاً، لا يتعبون من ممارسة الجنس حتى انتهاء النهار!

كلّ الكتّاب الغربيين امتلكوا الصورة هذه عن الشرق وبغداد، حتى وإن لم يزر أغلبهم بغداد، خاصةً الكتّاب والفنانين الرومانسيين الذين كانوا روّاداً في السفر إلى البقاع الجديدة، إلى الشرق، بحثاً عن فردوس دنيوي ضاع منهم، نتيجة للاهتزازات الاجتماعية والنفسية التي حملتها بدايات الثورة الصناعة التي اجتاحت أوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. الرومانسيون (الفرنسي نيرفال مثلاً) هم أول من وجد في الشرق "القديم"، ببساطة ناسه وطبيعته وحسن ضيافته وجمال نسائه، أرض الميعاد. نظرة الرومانسيين هؤلاء رسخت أيضاً مثل كليشيه عامة عن الشرق القديم، بصفته مكاناً مريحاً للتخيل ومرتعاً لإشباع الشهوات. وحتى عندما اختلفت الصورة أمامهم، لم يشاؤوا تغيير القوالب الحالمة والمتخيلة التي استحوذت على كتاباتهم. لقد توقف المجتمع أمام أعينهم عن أية حركة، باستثناء ما كان يدور في رؤوسهم المخدّرة بالحشيش والخمر وأجساد الغواني.

وما ساعد على نقل أوهام الرومانسيين إلى الأجيال الأخرى هو التعرّف على كتاب **ألف ليلة وليلة** الذي تكررت ترجماته إلى لغات أوروبية أخرى منذ صدور ترجمته الأولى إلى اللغة الفرنسية، المعروفة بترجمة غالان، قبل أكثر من ٣٠٠ عام. الأوروبي الذي بدأ يضيق بالتقدم الصناعي، الذي حمل معه عملية اجتماعية معقدة، أصبح بإمكانه، عن طريق قراءة الكتاب في صالون البيت، الرحيل إلى الشرق القديم. ليس الشرق القديم بعاداته "الأصيلة" وحكمته وأدبه الغني، إنما الشرق الخالي من أية واجبات، يسرح ويمرح في القصور، يمارس حفلات أورجيا الجنس والسحاق والغلمان، بالضبط كما جاء في الصور المتخيلة في الحكايتين المذكورتين، وكأن كتاب **ألف ليلة وليلة** توقّف عند تلك الحكايتين فقط: "حكاية الملك شهريار وأخيه الملك شاه زمان"، التي هي البرولوج الذي يقودنا إلى الحكايات، و"حكاية الحمال والبنات"، التي تبدأ في الليلة التاسعة أولاً، وتبدأ برسم المخطط الأول لاختراع بغداد، ليس من قبل شهرزاد وحسب، بل المخطط الأول لبغداد المخترعة التي ستثبت صورتها في أذهان الأوروبيين!



١٦

بيت الحكمة
كل ما تبقّى من مختبر ضخّ الأفكار

لمن يريد معرفة بغداد الأرض، وليس بغداد السماء، من يريد بغداد الواقع، وليس بغداد الاختراع، عليه أن يزور مكاناً واحداً فيها: بيت الحكمة؛ البيت ذلك الذي يعود تأسيسه إلى العصر العباسي، إلى الخلفية العباسي أبي جعفر المنصور أولاً، ثم إلى الخلفاء الثلاثة الذين لحقوه، المهدي (٧٧٥-٧٨٥م)، وقبل كل شيء الخليفة الأسطوري هارون الرشيد (٧٨٦-٨٠٩م)، ثم المأمون (٨١٣-٨٣٣م). بيت الحكمة، الذي أحدث نقلة نوعية في الترجمة التي مهدت لظهور ما أُطلق عليه لاحقاً "العصر الذهبي الإسلامي" في بداية القرن التاسع الميلادي، سنة ٨٤٠ ميلادية تقريباً، يُعدُّ حسب المؤرخين "أول جامعة في التاريخ"، تكوّنت من طابقين، طابق سفلي ضمّ قاعات خاصة بخزائن الكتب وأقسام الترجمة والنسخ والتاليف والتجليد والمطالعة والدراسة في كل مجال من مجالات المعرفة والعلوم والآداب، وطابق علوي خاص بإقامة المؤلفين والمترجمين والدارسين والعاملين وغيرهم، بالإضافة إلى ساحة جامعية (كامبوس) ومطعم لتزويد رواد الجامعة بالغذاء. وحسب المؤرخ العربي المشهور المسعودي، كان أبو جعفر المنصور هو أول خليفة عربي شجّع على ترجمة الكتب من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، إذ لم يكتفِ بعنايته بنشر العلوم المختلفة، وبرعايته للعلماء من المسلمين وغيرهم حتى أنه أنشأ مركزاً دراسياً في قصر الخلافة، أشرف عليه بنفسه، أطلق عليه بيت الحكمة. كما أرسل بهذا الخصوص



يطلب بعض كتب اليونان من إمبراطور الروم، الذي لبّى نداءه، فبعث إليه بكل ما طلبه من كتب في الطب والهندسة والحساب والفلك، كتب قامت مجموعة من المترجمين بنقلها إلى اللغة العربية، من بينها ترجمة كتب أرسطوطاليس التي تبحث في المنطق عن اللغة الأغريقية القديمة، وكتب أخرى نُقلت عن اللغات البيزنطية والبهلوية والفارسية الجديدة والآشورية. يكفي أن نعرف أن أحد علماء الفلك الذين عملوا في بلاط الخليفة هو أبو صالح بن نوبخت الذي تُرجمت مخطوطاته إلى اللغة اللاتينية، واعتمد عليه في قرون لاحقة كوبيرنيكوس في اكتشاف نظريته التي تثبت كروية ودوران الأرض.

من يزور المكان الواقع على نهر دجلة، والذي كان ذات يوم أول مركز للترجمة وأول جامعة عرفها التاريخ، لا يهمّ حتى إن كانت زيارته له في الخيال، لا بدّ له وأن يتذكر كل العلماء والفلاسفة الذين درسوا هناك. جولة في المكان وسيتخيل صورهم، هنا كانوا جميعهم، جلسوا طلاباً ومترجمين، علماء ومؤلفين، هنا تقاسموا الأفكار والمعلومات، تبادلوا الكتب والزاد. وإذا واصل الزائر بحثه، سيلتقي بهم جميعاً: الخوارزمي (٧٨٠-٨٥٠)، عالم الرياضيات والفلك المشهور، عند الزاوية الأخيرة من الصالة، بدا كما لو أنه كان يشرح أمراً ما لأحد الطلاب. مجموعة كبيرة أخرى من الرجال عند الزاوية الأخرى من بيت الحكمة مشغولين بقياس خطوط الطول والعرض على خريطة العالم. كل شيء يشير إلى أنه مشروع طموح لتحديد المدن، الجبال، البحار، الجزر، المناطق الجغرافية والأنهار في خريطة عالم مفصلة، وأيضاً قياس حجم محيط الأرض. ٧٠ جغرافياً ساعدوا الخوارزمي في هذا المشروع (لاحقاً سيكتب الخوارزمي كتابه المشهور **صراط/ مظهر الأرض**)، بعض هؤلاء ساعدوه لتحديد الأفلاك، حساب الأوضاع الحقيقية للشمس، القمر والكواكب، اللوائح التجويفية والمماسّات الفلكية الفضائية، اللوائح الفلكية، حساب كسوف الشمس، ورؤية القمر. أما حكايته مع الصفر فتقترب من الخيال. قيل إنه هو الذي ابتكر الصفر وجعله عدداً مهماً في العمليات الحسابية. يقول الخوارزمي: "الصفر يجب أن يكون من يمين العدد، لأن الصفر من يسار الاثنين مثلاً -٢٠- لا يغيّر من قيمتها، ولا يجعلها عشرين".

ما زلت أذكر زيارتي لبيت الحكمة، ولكل الصور التي ارتسمت أمامي، كأنني عدت هناك إليها، كما كانت عليه في الزمن القديم، أكبر "ثينك ثانك" (مركز لشحن



المعرفة) في العصور الوسطى! في زيارتي تلك رأيت الخوارزمي والتقيت العديد من زملائه الآخرين، الذين لولا ترجمة أعمالهم إلى اللغة اللاتينية لما وصل الغرب إلى الوضع الذي أصبح عليه. لنحصِ على الأقل بعض الأسماء المألوفة عالمياً منهم:

١- جابر بن حيان بن عبد الله الأزدي (٧٢١-٨١٥ م) مثلاً، المعروف في الغرب باسم "الحكيم جيبير"، الذي يُعتبر في العالم مؤسّس الخيمياء، التي هي في الأصل ممارسة قديمة ارتبطت بعلوم الكيمياء والفيزياء والفلك (التنجيم) والفن وعلم الرموز وعلم المعادن والطب والتحليل الفلسفي. وعلى الرغم أنها لم تمارس بطريقة علمية كما تُعرف اليوم، حتى إنها سُمّيت في معناها القديم (كما عند المصريين) "الأرض السوداء"، وذلك لارتباطها قديماً بالسحر، كما رُبط اسمها بالأسود (العلم الأسود)، إلا أن الخيمياء تُعتبر أصل الكيمياء الحديثة قبل تطوير مبدأ الأسلوب العلمي. ليس هناك عالم اختُلف في نشأته ومذهبه الذي يُنتسب إليه مثل جابر بن حيان. المؤرّخ ابن النديم، مثلاً، ذهب في كتابه المشهور **الفهرست** إلى الاختلاف حول نسبة جابر إلى الشيعة أو البرامكة، بل إن هناك من أنكر وجوده، أو تحفّظ بشأن نسبته إلى الصابئة، رغم أن اشتغاله على الذهب والفضة يجعله أكثر قرباً لهذه الطائفة، لأن الصابئة عاشوا قريباً من نهر دجلة، وعملهم حتى اليوم هو سبك وصياغة الذهب والفضة.

٢- محمد بن موسى الخوارزمي (٧٨١-٨٥٤م) الذي يُعتبر من أوائل علماء الرياضيات المسلمين حيث ساهمت أعماله بدور كبير في تقدم الرياضيات في عصره، اتّصل بالخليفة العباسي المأمون، وقدم من مدينه ومسقط رأسه خوارزم (التي تسمّى "خيوا" في العصر الحالي، في جمهورية أوزبيكستان) إلى بغداد للعمل في بيت الحكمة حتى كسب ثقة الخليفة فولّاه الإشراف على البيت، كما عهد إليه برسم خارطة للأرض عمل عليها أكثر من ٧٠ جغرافياً، وقبل وفاته في عام ٨٥٠م كان الخوارزمي قد ترك العديد من المؤلفات في علوم الفلك والجغرافيا من أهمها كتاب **الجبر والمقابلة**، وقد تُرجم إلى اللغة اللاتينية في سنة ١١٣٥، ودخلت على أثر ذلك كلمات مثل الجبر والصفر إلى اللغات اللاتينية. ويكفي أن نعرف ما كان لإسهاماته من تأثير كبير على اللغة العلمية حتى نكتشف مدى أهميته لنا حتى اليوم. الغوريسم والغوريتم تنبعان من الغورتيتمي، وهو الشكل اللاتيني لاسمه، واسمه هو أصل

الكلمة "غواريسمو"، وبالبرتغالية "الغاريسمو"، والاثنان يعنيان "رقم" بالعربية. وإذا عرفنا أن ليس هناك اليوم برمجة للكومبيوتر بدون اللوغاريتمات، فإننا لا نستطيع إلا أن نرفع قبعتنا تحيةً له!

المستنصرية، مدرسة بيت الحكمة.

٣- أبو يوسف بن إسحاق الكندي (٨٠١-٨٦٦م)، الذي أطلق عليه الغرب لقب "فيلسوف العرب"، بصفته المؤسس الحقيقي للفلسفة العربية الإسلامية، والذي لم يبرع في مجالات علمية مختلفة فقط، مثل الفلك والفلسفة والكيمياء والفيزياء والطب والرياضيات والموسيقى وعلم النفس، بل برع أيضاً في علم المنطق الذي كان يُعرف بعلم الكلام. الخليفة المأمون أوكل إليه مهمة الإشراف على ترجمة الأعمال الفلسفية والعلمية اليونانية إلى العربية في بيت الحكمة. الكندي المعروف عند الغرب باسمه اللاتيني "الكيندوس"، يُعدُّ أول الفلاسفة ""المشّائين""، أي الأرسطيين، المسلمين

أيضاً. وفضلاً عن تعريفه العرب والمسلمين بالفلسفة اليونانية القدمية والهلنستية، لعب الكندي دوراً هاماً في مجال علم الرياضيات في إدخال الأرقام الهندية إلى العالم العربي الإسلامي والمسيحي. كما كان رائداً في تحليل الشفرات واستنباط أساليب جديدة لاختراق الشفرات باستخدام خبرته الرياضية والطبية، ووضع مقياساً يسمح للأطباء قياس فعالية الدواء، كما أجرى تجارب حول العلاج بالموسيقى. للأسف اختفى العديد من مؤلفاته ولم يكن في المتناول غير بعض الأعمال التي حُصل عليها في القرون الوسطى وفي اللغة اللاتينية فقط والتي حوت على نظريته الخاصة بفنّ السحر أو نظريته المتعلقة بأشعة الكواكب، التي يدّعي فيها أنّ الأجرام الفضائية تبعث شعاعاً وتؤثّر على كل شيء في الكون، حتى على الإنسانية.

٤- أسماء أخرى تعرّف عليها الغرب لاحقاً، هم بنو موسى، الأخوة محمد وأحمد والحسن، أولاد موسى بن شاكر، وهم رياضيون وفلكيون ومشتغلون بالحيل (الميكانيكا)، أخوة أصلهم جاء من إيران من خراسان، عاشوا في القرن التاسع الميلادي، اتّصلوا بالخليفة المأمون وبرعوا في علومهم. كان والدهم موسى بن شاكر منجّماً أصلاً ويعمل في خدمة المأمون، فلما توثقت صلته به ووثق فيه المأمون أوصاه قبل وفاته بأولاده الثلاثة، فعهد بهم الخليفة إلى أحد فلكيّي بيت الحكمة، وهو يحيى بن أبي منصور، الذي علّمهم الرياضيات والفلك وعلوم الحيل (الميكانيكا)، فبرع محمد والحسن - وهو أعلمهم وقد توفّي عام ٨٧٣ - في الأولتين (الرياضيات والفلك) وبرع أحمد في الأخيرة (الميكانيكا). جمع بنو موسى أموالاً طائلة وجذبوا حولهم علماء وأطباء ومترجمين كثيرين، منهم حنين بن إسحاق وثابت بن قرة، ولم يبخلوا على العلوم بشيء، فقاموا بسفرات عديدة إلى الدولة البيزنطية للحصول على الكتب وأقاموا في قصرهم الباذخ في بغداد مرصداً كاملاً.

لكن العلوم اليونانية القديمة لم تكن منارةً للعلوم الطبيعية وحسب، كما في علم الفلك، التنجيم، الرياضيات، الهندسة والطب... إلخ. أهم الفلاسفة العرب، كما هي الحال مع الفيلسوف المذكور سابقاً الكندي، أو الفيلسوف اللاحق الفارابي (٨٧٠- ٩٥٠م)، نظروا باتجاه الأغريق. الفارابي، في اللاتينية الفرابيوس، الذي كان العالم الأرسطي الثاني وفيلسوف العالم العربي الإسلامي بعد الكندي، والذي كان متأثراً

كثيراً بأفلاطون، حاول الجمع بين أرسطو وأفلاطون، رغم تناقض فلسفة الاثنين.

من الممكن عمل قائمة طويلة بعلماء وفلاسفة العالم العربي الإسلامي الذين درّسوا وبحثوا، تحت تأثير اليونانيين القدماء، في بيت الحكمة في بغداد أو في الوقت اللاحق في مدن عربية إسلامية أخرى أخذت بغداد مثالاً لها ونافستها. فعلى امتداد ١٥٠ عاماً ترجم العرب المسلمين كل كتب العلم والفلسفة اليونانية وحلّت اللغة العربية مكان اللغة اليونانية لغةً للبحث العلمي، وغدا التعليم العالي أكثر تنظيماً في أوائل القرن التاسع، حيث أصبح في أغلب المدن الإسلامية جامعة ما. الفضل في كل ذلك يعود لبغداد، ولموجة حركة الترجمة المحمومة التي انطلقت هناك والتي ازدادت مع مرور السنوات ووصلت قمتها في عهد الخليفة المأمون. من الضروري هنا أن نعرف أن صناعة الورق التي انتشرت في بغداد آنذاك شجّعت على نقل "عدوى" المعرفة وبسرعة إلى أوروبا وإلى بقية العالم الجديد. أول مصنع للورق نشأ في بغداد عام ٧٩٥، الأمر الذي ساعد طبعاً على ازدهار النتاج العلمي، في الوقت الذي كانت فيه أوروبا لا تزال تكتب على جلود الحيوانات. بغداد أصبحت "خاصرة العالم" بالفعل!

لكن كيف يمكن الحديث عن بيت الحكمة وبغداد دون الحديث عن المترجمين الذين عملوا هناك؟

١ - حنين بن إسحاق العبادي (٨١٠-٨٧٣م) الذي وُلد في الحيرة لكنه ترعرع في بغداد. حنين بن إسحاق الذي وُلد لأب مسيحي عمل في الصيدلة، والذي درس الطب في بغداد وترقّى حتى أصبح طبيب الخليفة المأمون، كان أحد كبار مترجمي عصره. ففضلاً عن العربية، عرف اللغة السريانية والفارسية واليونانية، الأمر الذي جعل الخليفة المأمون يعيّنه مسؤولاً عن بيت الحكمة وديوان الترجمة. وبرز حنين بشكل خاص في الترجمة حيث ترجم جالينوس وتعليقاته على كتب أبقراط بدقة ونظام اعتمده الكثير من المترجمين اللاحقين لعصره، كما ترجم أرسطو والعهد القديم من اليونانية إلى العربية. حنين بن إسحاق، الذي عاصر تسعة من الخلفاء، زادت ترجماته على المائة، وأصبح المرجع الأكبر للمترجمين جميعاً ورئيساً لطب العيون، حتى أصبحت مقالاته العشر في العين أقدم مؤلف عن الطريقة العملية في طب العيون وأقدم كتاب مدرسي منتظم عرفه تاريخ البحث العلمي في أمراض العين.



٢ – قسطا بن لقا (٨٢٠–٩١٢م): لبناني الأصل وُلد في بعلبك لكنه ترعرع في بغداد، يُعرف أيضاً باسم كونطابولوس عند الغربيين، قسطا الذي ينتمي إلى الأرثوذكس الملكيين، وهي كنيسة أرثوذكسية يونانية، ترجم العديد من النصوص الإغريقية إلى العربية.

٣ – ثابت بن قرة (٨٣٦–٩٠١م): صابئي مندائي (الصابئية ديانة لها علاقة بالنجوم وجدت مركزها في بلاد وادي الرافدين) وُلد في حران الواقعة على نهر البليخ في تركيا. ثابت بن قرة، الذي ترجم من السورية القديمة "الفينيقية" واليونانية إلى العربية، لم يكن مترجماً فقط، بل كان أيضاً عالماً في الفلك والرياضيات والهندسة والموسيقى، وهو أول من توصّل لحساب السنة الشمسية حيث حددها بـ ٣٦٠ يوماً و٦ ساعات و٩ دقائق و١٢ ثانية (أي أنه أخطأ بثانيتين فقط! كما هو معمول اليوم). الطريف أن ثابت، وقبل أن يأتي وينشط في بيت الحكمة، عمل صيرفياً في حران، وهي الصدفة التي قادته إلى بغداد.

بدون موجة الترجمة هذه لم يكن من الممكن انتشار العلم والفلسفة. في بغداد بدأ ذلك لتنتقل العدوى إلى بقية العالم. بيت الحكمة "ثينك ثانك": محطة لضخّ الفكر قبل أن يتحول العراق محطةً لضخّ البترول.

ما زال هناك الكثير من التعلّم. لا بدّ من التجول هناك. صحيح أن كل ما حوته خزائن ورفوف مكتبات وأروقة بيت الحكمة احترق بعضه خلال حصار بغداد من قبل المغول، فيما نهب بعضه الآخر هؤلاء عند دخولهم بغداد في عام ١٢٥٨ م: النهب شمل كل المساكن، حتى جامع المعظم، حيث مرقد الإمام الأعظم، وجامع الكاظمين، حيث مرقد الإمام موسى الكاظم وحفيده محمد الجواد. المغول حطموا المدينة، حطموا تماثيلها وإرثها الثقافي. بغداد كفّت عن أن تكون كما كانت عليه من قبل: عاصمة الإسلام.

لكن رغم الحطام والخراب ذلك، رغم الحبر الذي سال في مياه دجلة واختلط لونه مع لون الدم، ما زالت الروح التي تركتها الكتب تلك وراءها مبثوثة في المكان. نعم، البناية التي يُطلق عليها اليوم بيت الحكمة لا علاقة لها ببيت الحكمة القديم، لا من قريب ولا من بعيد، لا ترجمة تجري هنا ولا دراسة علوم، معهد البحث في بغداد الذي أطلقت عليه السطات بيت الحكمة هو مدرسة دينية بُنيت في القرن الثالث عشر الميلادي، بل



حتى طراز بنائها لا علاقة له ببناية بيت الحكمة الأصلية كما بناها بنو العباس. بيت الحكمة، مضخ الأفكار، يرتفع في السماء، مثل شعاع بقي هناك. لا يهم أنه على شكل خرائب قديمة اليوم، كل ما يحتاجه الزائر هو القليل من التركيز، استحضار أرواح الكتب التي طُبعت في هذا المكان، لكي يعثر على كنز المعرفة بكل ما حواه من خزائن ومكتبات. نظرة إلى ما حول، وسيرى المرء العاملين هناك. ليس من الصعب تخيلهم. من يبحث عن المعرفة سيراهم هناك، تلك هي صورتهم:

يجلسون هنا، بعد نهاية عملهم، يتناقشون. ماذا لو أخرجتهم من هناك؟ ماذا لو جعلتهم يذهبون في جولة إلى شارع الورّاقين المجاور، يلتقون بزملاء وُلدوا بعدهم بقرون، رواد العَمارة الكبار مثلاً، أولئك الذين جلبهم إلى بغداد مجلس الإعمار في منتصف الخمسينيات من القرن الماضي، أمثال الأميركي فرنك لويد رايت لتصميم أوبرا بغداد في جزيرة أم الخنازير، والألماني فالتر كروبيوس لتصميم جامعة بغداد في الجادرية، والفنلندي ألفارو آلتو لتصميم البريد المركزي، والسويسري الفرنسي لو كوربوزيه لتصميم المدينة الرياضية، والإيطالي جيو بونتي لتصميم بناية مجلس التخطيط على نهر دجلة والمجاورة لجسر التحرير من الجنوب (أتى عليها القصف الأميركي تماماً في ٢٠ مارس/آذار ٢٠٠٩)، روّاد العَمارة الكبار هؤلاء، الذين تظل بغداد ناقصة منهم بدون زيارة بيت الحكمة التاريخي ذاك؟ أو ماذا لو جعلت سكان بيت الحكمة الأولين يلتقون الشباب السائرين على خطاهم، جوّالي الكلمات والآفاق، الذين يتوزعون كل يوم جمعة بين مكتبات شارع المتنبي، شارع الورّاقين سابقاً؟

من سيبدو منا ينتمي أكثر إلى أهل الكهف، هم الذين سيخرجون من الكتب، ينفضون عنهم غبار التاريخ، فيبدون مثل الغرباء اليوم هنا، أم هؤلاء الذين يجلسون في مقاهي شارع المتنبي هنا، الذين يريدون السير على خطى أولئك الذين سكنوا بيت الحكمة، فيبدون هم الآخرون لمحيطهم غرباء؟ وأي البغدادين سنختار: بغداد التي كانت أم بغداد التي ستكون؟ بل وماذا عني أنا الذي يأتي من مكان بعيد، يبحث في عدنه بغداد عن لحظات التاريخ، ليس بصفته تاريخاً، أو نوستالجيا، يقبع هناك منذ قرون، مقبوراً تحت الأرض أو بين طابوق الخرائب الآيلة للسقوط، مقبوراً في ثنايا وعطفات شارع الوراقين سابقاً، أو في بقايا الدمار الذي ألحقته المفخخات بشارع المتنبي كما يُطلق



على الشارع الآن؟ أين أنا الآن؟ أعرف أننا نجتمع من جديد في المتنبي وفي دار الحكمة وفي كل كتاب مرمي على الرصيف هناك، لكنني أعرف أيضاً أننا جميعاً، سكان البيت القدماء وسكان شارع الوراقين اليوم، معاصرين أكثر من أولئك الذين جلسوا خارج دائرة شارع المتنبي، في مكانٍ ما، في زاوية من بغداد، في الظلمة تحت ضوء شمعة لا تستطع الإبقاء على شعلتها، بسبب هؤلاء الجالسين حولها حقيقة، وليس بسبب ذوبان مادتها القابلة للاشتعال، لأنها تعرف أن الذين جلسوا بوجوه عابسة يخططون لهدف

رسم يمثل حصار المغول لبغداد عام 1258.

شرير، تعرف أنهم سيركّبون قنابلهم المليئة بالمسامير وأدوات القتل الأخرى لكي يقودوا سياراتهم المفخخة ويركنوها هناك ليس غير في المكان ذلك، شارع المتنبي، في جوار بيت الحكمة القديم، أعداء الحكمة هؤلاء، فقهاء الظلام، هم أهل الكهف الخارجين من غبار التاريخ، الذين لا يريدون إزالة غبار التاريخ عنهم، بل يصرّون على العيش في سراديب وقنالات التاريخ، الفرحة لا ترتسم على وجوههم العابسة أصلاً إلا مع الضغط على زر الريموتير، الضحكة التي تزداد مع ازدياد عدد القتلى، وعندما تنفجر السيارة الملغّمة، كما حدث في ٥ مارس/آذار ٢٠٠٧، في شارع الوراقين سابقاً، شارع المتنبي الآن، عندما يختلط الدم مع حبر الحرف المطبوع، عندما تختلط الأشلاء البشرية للباعة والزبائن الجوالين من عشاق العلم والأدب مع أشلاء الكتب التي قطعتها مسامير التفجير، سيفرح هؤلاء، سيظنون أنهم بجريمتهم تلك سيصنعون الصورة التي شاؤوها لبغداد، لا يدرون أن ما يقومون به هو هدم "خاصرة العالم" بغداد مجدداً.

بيت الحكمة احترق على يد هولاكو وجيشه، أحرقه المغول، قيل إن ماء دجلة امتلأ بالحبر الأسود إن لم يختلط بلون الدماء. وماذا فعل هؤلاء؟ الأمر ذاته، دمّروا وقتلوا من جديد، أحرقوا الكتب وعشاقها في بغداد. بيت الحكمة في بغداد يحترق مرتين، إذا لم يحترق ثلاث مرات، كما حصل لبيت الحكمة الآخر الذي بناه الفاطميون في القدس على خطى بيت الحكمة في بغداد. فقهاء الظلام لا يقيمون في بيت الحكمة. فقهاء الظلام يفضّلون الإقامة في بيت الإرهاب!



١٧

عندما تصبح المدينة في متناول اليد

إذا كان هناك سؤال عن أجمل الأيام في حياتي، فسأجيب هو يوم انتهائي من الدراسة الإعدادية والتهيؤ للتقديم للدراسة في جامعة بغداد. في بداية شهر تموز/ يوليو حصلنا على النتائج، وكان معدلي ٧٨% في الفرع الأدبي، ما يعادل ٢ حسب مقاييس الدراسة في المدارس الأوروبية. في الحقيقة لم يهمني الحصول على معدل عالٍ في الصف السادس الإعدادي، لأنني أردت التقديم للدراسة في أكاديمية الفنون الجميلة في بغداد، ليس لأن ليست هناك أكاديمية فنون غير تلك الموجودة في بغداد، بل لأن المسرح استحوذ على حياتي. صحيح أنني منذ الصف الخامس ثانوي (الصف الحادي عشر) لم أصعد على المسرح، بسبب المضايقات السياسية التي تعرضت لها، والتي انتهت إلى انتقالي إلى البصرة في النصف الثاني من العام الدراسي، لكن هوى المسرح لم يغادرني أبداً، اختلط مع هوى كتابة القصة، كأن الاثنين أرادا تبادل الأدوار، أو كأنني هيّأت نفسي مسبقاً للجوء إلى أحدهم في حال فشلي في الثاني. ولأن الدراسة في أكاديمية الفنون الجميلة في ذلك الحين لم تكن تتطلّب معدلاً، فإنني كنت شبه متأكد من أن قبولي للدراسة في فرع التمثيل فيها أصبح واقعاً، وهي قضية أيام وسأكون هناك في بغداد. لماذا لا أفكر في ذلك وأنا أعرف أن، باستثناء حفنة صغيرة من المجانين، لم يفكر أحد بالدراسة في أكاديمية الفنون الجميلة بشكل جاد، لأن الباقين من الطلاب، وهم الأغلبية، لجأوا للدراسة فيها بسبب تدنّي معدلاتهم الدراسية لا غير. وفي حالتي، كل شيء مضمون:



معدل عالٍ نسبياً، وخبرة عملية أو موهبة بالتمثيل.

على مدى شهرين تقريباً، منذ حصولنا على نتائج امتحان البكالوريا وحتى ذهابي إلى بغداد، كنت مثل من سيذهب لفتح العالم. أخيراً سأذهب إلى بغداد، ليس لزيارة عابرة، كما حدث ذات مرة عندما طلب مني صديق يكبرني بست أو سبع سنوات، علي عيدان عبد الله، شاعر سوريالي كما يعرّف نفسه، أن أذهب إلى بغداد، إلى مجلة **ألف باء** بالذات، للبحث عن الرسام العراقي المشهور فيصل لعيبي، لكي يرسم له غلاف ديوانه الأول الذي سمّاه، أولاً، **أغاني الدوريش**، قبل أن أقترح عليه أن يسمّيه **أغنية رقم واحد**. علي دفع لي مبلغ الرحلة في حينه. بقيت ثلاثة أيام هناك. نمت في فندق قريب من كراج النهضة. التقيت فيصل في بناية دار الحرية للطباعة، حيث مكاتب جريدة **الجمهورية** ومجلة **ألف باء**. فيصل، الذي يكبرني سناً، كان كريماً معي و لم يجد في الشاب الصغير ما يستدعي عدم التعامل معه باحترام، دعاني في نفس اليوم لحضور حفلة افتتاح غاليري جديد، عرفت أنه غاليري الأربعة، الذي ضمّه مع ثلاثة رسامين آخرين. كان الغاليري يقع في نهاية شارع السعدون، وكانت المناسبة تلك هي أول افتتاح معرض في غاليري (فيرنيساجة) بالنسبة لي. هناك تعرفت على رسامين آخرين، عزيز النائب وصلاح جياد وأخت فيصل عفيفة لعيبي، بعضهم أساتذة في أكاديمية الفنون الجميلة، إسماعيل فتاح الترك وفائق حسن مثلاً. في كل ذلك لم يمنحني فيصل لعيبي الشعور بأنني صغير السن، فحتى في اليوم الثاني، عندما سلّمني الغلاف، مازحني قائلاً: "ابن الحلاج أحسن من ابن القحبة!"، إشارةً منه إلى الاسم المستعار "ابن الحلاج" الذي اختاره علي عيدان عبد الله لنفسه كشاعر على غلاف الديوان، تيّمناً بالشاعر الصوفي الكبير أبي عبد الله الحسين بن منصور الحلاج (٨٥٨–٩٢٢م) الذي عاش في العصر العباسي وقُتل على يد الوزير حامد بن العباس تنفيذاً لأمر من الخليفة العباسي المقتدر. من يدري، ربما ظنني أكبر من سنّي، فتلك هي ليست المرة الأولى التي يعاملني فيها الذين كبروني سناً كأني صديق لهم. أغلب أصدقائي كانوا يكبرونني في السن، بل حتى النساء، أغلب اللواتي صادقتهن كنّ أكبر منّي في السن، سميرة مثلاً، حبيبة الرسائل الشعرية. على أية حال، تعامل فيصل معي أكسبني ثقة بنفسي أكثر، صحيح أنها رحلة قصيرة، ثلاث أيام فقط، لكن عودتي مع صورة غلاف الديوان لم تمنحني الثقة بنفسي وحسب، بأنني قادر على



زيارة بغداد وحدي، بل جعل صورتي تكبر في عيون الأصدقاء. راح بعضهم يقول: نجم يعرف الفنانين والأدباء في بغداد.

الثقة تلك كانت عدتي في رحلتي الطويلة الأولى إلى بغداد، فلماذا لا أكون فرحاً وأنا أعرف أنني حققت الحلم، أخيراً تحقق ما كنت أصبو إليه، سأدرس وأقيم في بغداد، محطتي الأولى باتجاه العالم. وهو خدر الفرحة هذه الذي جعلني ليس لا أنام في الفترة الأولى من تسلمنا نتائج الإمتحانات فحسب، بل جعلني لا أنتبه أنني لم أعر الاهتمام الكبير للامتياز الذي حصلت عليه والذي لم يحصل عليه كل زملائي الآخرين، الذين كان عليهم، مثلي، السفر من أجل أوراق التقديم للجامعة إذا شاؤوا الدراسة هناك. أنا في طريقي إلى بغداد وبصحبة فتاتين، لنسمّي الأولى جنان، ابنة جيران لنا وصديقة صديق لي يكبرني سنتين، لنقل اسمه: خليل الذي سيتزوجها بعد تلك الرحلة بسنوات، ولنسمّي الثانية سناء التي جاءت من محلة السراي، لكنها صديقة وزميلة لجنان، أي امتياز! السفر مع بنتين، سأقيم معهما في فندق واحد. في رحلتي الأولى إلى بغداد وأنا صغير مع أبي كانت عدتي البطاقات البريدية/ المعايدات. في الرحلة هذه، التي هي بداية فتحي للعالم، عدتي هي حبي الذي تراكم كل هذه السنوات صوب مدينة اسمها: بغداد.

كانت فترة بداية عقد السبعينيات، بكل ما حملته تلك السنوات من حرية نسبية وحداثة بالنسبة لجيلي، سواء فيما يتعلق بتلك الحرية النسبية التي حصل عليها المحسوبون على اليسار، سواء من الذين انتموا فعلاً للحزب الشيوعي أو إحدى منظماته الطلابية، كما في حالة صديقي خليل، صديق جنان وزوجها اللاحق، أو الذين لم ينتموا إلى حزب، حملوا أفكاراً ليبرالية لكنهم تعاطفوا بشكل ما مع الشيوعيين، كما في حالتي أنا. ليس لأن جبهة تشكلت بين الحزب الشيوعي العراقي وبين الحزب الذي قاد السلطة آنذاك، حزب البعث العربي الإشتراكي، أُطلق عليها "الجبهة الوطنية والقومية التقدمية"، بل لأن السنوات تلك كانت سنوات انتعاش اليسار عموماً والماركسية بشكل خاص، في كل العالم. الانتماء للماركسية هو دليل على تقدمية الشخص، خاصةً إذا كان أديباً أو فناناً. مَن ينسى تلك النقاشات التي دارت بين العديد من المفكرين الإنسانيين في هذا المجال، خاصةً الخلاف الذي

حصل بين فيلسوف الوجودية الفرنسي جان بول سارتر، الذي رأى أن لا مفرّ من الوقوف إلى جانب الاتحاد السوفييتي في صراعه ضد الإمبريالية الأميركية، كما جاء في أشهر كتاب له، **ما هو الأدب الملتزم؟**، ولاحقاً في **ما هو المثقف؟**، وبين فيلسوف وجودي فرنسي آخر، ألبير كامو، الذي دعا لموقف أخلاقي عام لا يفرّق بين جرائم الشيوعية وجرائم الفاشية. الغلبة كانت في تلك الفترة لسارتر. كم ظُلم كامو، حتى أصبح الحديث عنه، أو مدحه، دليلاً على الرجعية، إن لم يكن يعني الخيانة لمعسكر اليسار. رغم أن الشيوعيين عندنا لم يكتفوا برفضه، بل رفضوا سارتر أيضاً، نعتوا الاثنين بـ"البورجوازيين الصغار".

سنوات السبعينيات، سنوات "ربيع" الماركسية إذا تحدثنا بتعاريف اليوم، لم تهبّ رياحها غرب الكرة الأرضية وحسب، بل وصلتنا مفلترة أيضاً بفِلتر أولئك الذين ترجموها، بكل ما حواه الفلتر من تلوّث وسموم أصحابه، وهذه الرياح هي التي جعلتنا نرى العالم بعين واحدة: عين كارل ماركس، أو عين جان بول سارتر. وخاصةً عين الأخير، فهي أصلاً كانت مريضة، حولاء. كأن المرض الفيزيولوجي، الذي دمغ الرجل القصير القامة والقميء سارتر، انتقلت عدواه إلى نظرته للعالم، للسياسة وللمجتمع. كل شيء لا علاقة له بماركس أو بسارتر كان مرفوضاً من طرفي، حتى الحب أو الجنس! من غير ذلك يصعب عليّ تفسير ما حدث في الرحلة تلك. فمن الصعب عليّ أن أرجع ذلك إلى تركيزي على أمر واحد، على بغداد، أو إلى حبي لبغداد، لا بدّ وأن يكون الأمر أبعد، ليس لأنني لم أكتفِ بعدم إعارتي اهتماماً للفتاة الأخرى، صديقة جنان ورفيقتنا في الرحلة، سناء، بسبب معرفتي بأنها بعثية، بل لأنني حتى عندما رأيتها تقف أمامي بثوب نوم شفاف أسود، أولاً في غرفة الحمام، ولاحقاً في غرفتي في الفندق، فعلت كل ما في وسعي لكي أشيح ببصري عنها.

ما زلت أتذكّر صراعي بين الرغبة لتلبية نظراتها المتوسلة وحركاتها التي تعمّدتها لإغرائي، من حديثها المتغنج معي إلى تعديل صدرها البارز (أو الصاروخي كما سمّيناه في تلك الأيام)، ثم اضطرابها الواضح، خاصةً عندما طال وجودها في غرفتي، لأن خليل الذي أقام معي في نفس الغرفة، والذي كان يقيم أصلاً في بغداد، لأنه سبقني في الدراسة في أكاديمية الفنون بعام واحد، ذهب إلى الغرفة الأخرى الملاصقة لغرفتي،



لكي يبقى وحيداً مع جنان. مرات عديدة تحركت سناء أمامي، كأنها أرادت عرض جسدها المكتنز الذي بانت ملامحه من خلف ثوب نومها الشفاف والقصير أيضاً، حتى إنه أظهر جزءاً من فخذيها. كل شيء كان ظاهراً، لباسها الداخلي الأحمر، حلمات صدرها. كانت تعرف ذلك، لأنني رأيتها أكثر من مرة تتطلّع بي، لكي تتأكد إذا ما كنت قد أعاينها، وعندما يئست استلقت على السرير، حتى انحسر ثوب النوم عن فخذيها، وقالت لي: "من يدري، إذا طال وجود خليل في الغرفة الأخرى فأسضطر للنوم هنا"، ثم سألتني بغنج، وهي تسحب خصلة من خصلات شعرها المجعّد الأسود التي سقطت على جبينها، إذا كنت أوافق على نومها في الغرفة، أو أنها تسبب لي الإزعاج؟ "أبداً" قلت لها، ثم لأقوم بحركة لم تسامحني عليها أبداً، لأنها في اليوم الثاني تجنّبت الحديث معي، تصرّفت كأنني غير موجود، وأظن أن تصرفها ذاك كان صحيحاً، لأن ردّ فعلي السلبي على اقتراحها بالنوم في الغرفة، مع ما حواه من إشارات وتلميحات جنسية، كان تصرفاً أرعن. كان من غير اللائق ألاّ أستجيب لندائها، حتى عندما سمعتها تُخرج صوتاً يشبه أصوات القطط في شهر فبراير/ شباط. اليوم أعرف الأحمق الذي كنته، والذي لكي يتجنب إغراء فتاة في سنه، تلحّ عليه بممارسة الجنس، يقرر الخروج إلى الشارع وترك الغرفة لها، ليس لأنه لم يرغب في الجنس، ليس لأنه لا يميل للنساء، بل لأن الفتاة تلك كانت ببساطة: بعثية!

أنا خيّبت أمل سناء، وأكاديمية الفنون الجميلة خيّبت أملي. فمثلما كانت سناء شبه متأكدة من أنه ليس هناك شاب أو رجل يستطيع مقاومة إغرائها، خاصةً وأنها امتلكت كل ما يميز امرأة ما عن غيرها: جمال وجهها الدائري، لون جلدها الحنطي، شعرها الأسود المجعّد الطويل، أنفها الصغير المدبّب، عيناها السوداوان الكبيرتان، شفتاها العريضتان، قامتها المتوسطة وجسدها المكتنز ومؤخرتها المكوّرة وصدرها البارز، وشخصيتها الجريئة... أقول: مثلما كانت سناء متأكدة من تلبيتي لندائها، كنت أنا الآخر متأكداً من قبولي بالدراسة في أكاديمية الفنون الجميلة. هكذا ذهبت في اليوم الثاني لامتحان القبول في الأكاديمية، لم يزعجني تجاهل سناء الحديث معي طوال الطريق باتجاه منطقة الوزيرية، أو تجاهلها النظر إلى وجهي، حتى أنها لم تودّعني عندما نزلت أنا من التاكسي مباشرةً بعد مرورنا من تحت جسر الصرافية أمام بناية الأكاديمية، وتركتهما في

التاكسي يكملان طريقهما حتى بناية كلية التربية الرياضية القريبة، فقط جنان قالت لي "وداعاً" وتمنّت لي حظاً سعيداً في امتحان القبول، أمنية زائدة وجدتها في ذلك الحين، دون أن أدري ما كان ينتظرني هناك، مثلما لم تعرف سناء ما كان ينتظرها معي.

نزلت المفاجأة عليّ مثل الصاعقة، ليس لأنني عرفت مسبقاً أن القبول في الكليات الثلاث، كلية التربية الرياضية وكلية التربية وأكاديمية الفنون الجميلة، أصبح منذ ذلك العام قبولاً مغلقاً، فقط للطلاب البعثيين، بل لأنني، رغم معرفتي تلك، لم أشأ تصديق ذلك تماماً. كنت لا أزال أعتقد أن أحداً مثلي، سينجح في امتحان القبول النظري والعملي، لن تقف في وجهه مسألة الانتماء لمنظمة أو حزب، بالتأكيد سيعملون له استثناءاً، خاصةً وأن الأكاديمية ما زالت تضمّ سلكاً تدريسياً أساتذته معروفون بيساريتهم، بعضهم كان شيوعياً، وبعضهم الآخر يؤمن بمهنية المسرح، بل غايته تأسيس مسرح رائد في العراق. بذلك الشعور المطمئنّ ذهبت لامتحان القبول في ذلك الصباح، ولا يمكن تخيل زهوّي في ذلك اليوم، خاصةً وأنني نجحت في الليلة الماضية بامتحان الإغراء الذي أخضعتني له سناء طوال ساعات!

الامتحان النظري أنجزته خلال ساعة، وكان يمكن أن أنتهي قبلها لو لم أساعد الطالبين اللذين جلسا إلى جانبي، إلى اليمين واليسار، واللذين سألاني: من هو برناردشو؟ وما هو المقصود بـ شكسبير؟ (للمفارقة، أحد هذين الطالبين سيصبح لاحقاً رئيس الاتحاد الوطني لطلبة العراق البعثي، في أكاديمية الفنون الجميلة، وسيمنعني من دخول بناية الأكاديمية لزيارة الأصدقاء هناك!). لم يكن عندي شك في الأجوبة التي قدمتها على الأسئلة كلها، والتي كان أغلبها عن المسرح العالمي، عن مسرحيين عالميين معروفين وعناوين مسرحيات، إضافةً إلى بعض الأسئلة التي تعلّقت بالأمور التكنيكية التي لها علاقة بالمسرح، من ديكور وإنارة وإخراج. نفس الشعور المطمئن صاحبني عند تقديم الامتحان العملي، كان عليّ تقديم مشهد مسرحي على خشبة مسرح الأكاديمية، أمام لجنة الأساتذة الذين أشرفوا على القبول. المشهد الذي قدمته سبق وأن تدربت عليه طويلاً، مشهد من مسرحية بيتر فايس **أغنية أنغولا**، مسرحية تنتمي للمسرح الوثائقي أو التسجيلي الذي تميّز به بيتر فايس، ويدور موضوعها عن البعثات التبشيرية والكولونيالية الغربية إلى أفريقيا وعن الأنظمة الديكتاتورية العميلة للغرب هناك. الامتحان النظري

والامتحان العملي، اللذين خضعت لهما في نفس اليوم، أنجزتهما بتفوق، لأن اللجنة التي سأدخل عليها بعد يومين، في مكتب عميد أكاديمية الفنون الجميلة، هي التي ستؤيد ذلك.

ما زلت أتذكر ذلك اليوم، لأنه اليوم الأول الذي أثبت لي بما لا يقبل الشك أن البلاد التي نعيش فيها سائرة إلى الهاوية لا محال، لأن بلاداً تزدحم بالانتهازيين والكذابين، بالنسبة لهم الحديث عن المهنية هو علكة سمجة لا غير، حكمت على نفسها بالخروج من التاريخ، وإلا كيف يمكن تفسير أن الشخصيات التي جلست أمامي، والتي صدعت رؤوسنا (بعضها توفي والبعض الآخر لا يزال حياً) بحديثها عن المسرح العراقي والفنون الجميلة الأخرى، أن لجنة "الفطاحل" هذه من أصحاب الخبرات تساهم وبفعالية في خراب المسرح العراقي، ليس عن طريق موافقتها تجاه قبول الطلاب البعثيين وحسب، بل عن طريق تنفيذهم تلك الإجراءات بحماس وبدون تأنيب ضمير: رفض قبول الطلاب من غير البعثيين، رغم حصولهم على الدرجة الأولى في الامتحان النظري والامتحان العملي، فقط لأنهم لم يجلبوا ورقة تأييد انتماء أو حسن سلوك من إحدى منظمات حزب البعث في مدنهم؟ لا حاجة لذكر أسمائهم، لكنني ما زلت أتذكرهم في جلستهم، يحدّقون فيّ مبتسمين، يباركون تفوقي، "مبروك ابني"، نطقوا بها جميعهم، ثم وأنا أقف حائراً أمامهم، أنتظر الكلمة الأخرى التي تقول لي: "أنت مقبول"، ربما بدوا، هم الآخرين، حائرين، لأنهم شغلوا أنفسهم جميعاً بتقليب أوراق تقديمي أو ملفي بين أيديهم، أو أنهم انتظروا أحداً منهم يزفّ لي البشرى. عدم قبولي في الأكاديمية لأن ورقة نقصت من أوراق التقديم، "ورقة تأييد انتماء لحزب البعث أو إحدى منظماته"، أو في أحسن الأحوال أن "قبولي معلّق حتى جلب الورق"، كما قالوا لي وبأدب، وأكملوا كلامهم: "لكن حاول تدبّر ورقة"، أو "هي ورقة وبس" كما سيقول لي وبشيء من المرح أحدهم. ما زلت أتذكر نظراتهم المندهشة إلي عندما أخبرتهم أنني لن أجلب ورقة، وإذا أرادوا قبولي للدراسة في الأكاديمية فليكن بسبب موهبتي ومعرفتي بالمسرح، الباقي لا علاقة له بالمسرح، ثم إنه غير موجود كشرط في أوراق التقديم. "إذن يؤسفنا أن نقول لك إنك غير مقبول"، هذا ما قاله رئيس اللجنة.

النبرة التي عبّر فيها عن أسفه، والتي رافقتها زفرة من الأعماق، كانت صادقة على



ما أظن، لكن صادقة ليس بمعنى أنه تأسّف لعدم قبولي فعلاً، فماذا يستطيع أعزل مثلي أن يقدّم لمسرح أصبح الصعود عليه محصوراً بالدعاية للحزب الحاكم وحسب؟ المسرح العراقي سار إلى حتفه منذ العام ذلك، إن لم يكن ذلك ما حدث لكل البلاد، فحتى هؤلاء الذين أطلقوا على أنفسهم الكبار بدأوا بتقديم أعمال مسرحية من أجل إرضاء السلطة وحسب، وعندما نشبت الحرب العراقية الإيرانية راحوا يقدمون مسرحاً "من أجل المعركة". وصل الأمر بمسرحي مخضرم ما زال على قيد الحياة أن يعدّ ويقدّم في التسعينيات رواية الديكتاتور السابق صدام حسين **زبيبة والملك** على المسرح. الطريف أنه، هو ذاته الذي أنشد لصدام، راح ينشد مباشرةً بعد ٩ نيسان/ أبريل ٢٠٠٣ للسلطات الجديدة ويقدّم مسرحيات على مقاسها. كلا، كانت نبرة رئيس اللجنة صادقة، لأنها عبّرت عن خيبة أمل عنده حقيقة، كيف أن ظنونه لم تصدق. بالتأكيد ظنّ أن ليس هناك أحد سيقول له إنه لن يجلب ورقة تأييد من حزب البعث، حتى لو كانت ورقة شكلية يحصّلها له قريب أو معارف أو صديق. أحد يقول: لا، في زمن بدأ الجميع يصرخ فيه وبأعلى حنجرته: نعم، هو خبر مخيّب لآمال لجنة حفنة أساتذة من الانتهازيين والطبّالين والمدّاحين لكل ما يأمر به سيدهم الديكتاتور، إذا لم يكونوا جاؤوا كلهم من لون واحد، طائفة واحدة، ومذهب واحد، كما اتضح لي اليوم، أمر يعني، في مقاييس ذلك الوقت، لا علاقة له بالانتماء لحزب البعث وحسب، بل له علاقة بورقة تأييد حسن سلوك لي، أنا القادم من الجنوب، المشكوك بولائه دائماً، وهم القادمون من مناطق أخرى، غير الجنوب. السوريالية والمعاصرة، الحداثة وما بعدها، هي مجرد شعارات احتمى خلفها هؤلاء الذين ما كان مسموحاً لهم التشدق بها لو لم ينتموا للطائفة التي انتمى لها الديكتاتور!

خلال أسبوع واحد كان عليّ التقديم إلى فرع آخر، كلية أخرى، ولحسن الحظ لم ينجحوا بغلق القبول في الجامعات كلها على الطلاب من غير البعثيين. ولأنني لم أشأ الدراسة في مدينة أخرى غير بغداد، لأن معدلي سمح لي الدراسة بالفرع الذي أشاء من الكليات الأخرى، باستثناء الكليات الثلاث المذكورة فوق، رغم ذلك، أردت الدراسة في بغداد. جاء تسلسل الفروع التي رغبت في دراستها على النحو التالي: علم الاجتماع، الآثار، كلية الآداب قسم اللغات الأوروبية: فرع الأدب الإنكليزي،



الأدب الفرنسي، فرع الأدب الألماني. ليرمي بي معدلي وحسب القبول المركزي إلى فرع الأدب الألماني.

كأنّ كل حياتي سارت باتجاه ألمانيا لا محال. كأنّ كان يلزمني الانتظار سنوات لاحقة لكي أعرف أنني - وشكراً لعدم قبولي ذلك في الدراسة في أكاديمية الفنون الجميلة في بغداد - بقيت على قيد الحياة، أو أنني - وشكراً لدراسة الأدب الألماني في قسم اللغات الأوروبية في جامعة بغداد - لم أذهب إلى باريس كما فعل كل الأدباء والفنانين في العالم، العيش في باريس عاصمة العالم. "لحسن الحظ أنك جئت إلى ألمانيا"، كما يصرح بافتخار صديقي وناشري ميشائيل كروغير على الدوام. آه كم كنت محظوظاً أنني رُفضت، لأنني لو كنت درست في أكاديمية الفنون الجميلة لتحولت إلى جثة متفحمة على جبهات الحرب ضد إيران، كما حدث لصديقين لي أصرّا على الدراسة في أكاديمية الفنون، وحصلا على ورقة تأييد من منظمة حزب البعث عن طريق أقربائهما، سقطا لاحقاً قتيلين في الحرب تلك. لم يعثر على جثة أحدهما حتى الآن. القصة حدثت بالشكل التالي: الدورة الأولى المغلقة من طلاب أكاديمية الفنون الجميلة، والتي بدأت بالدراسة عام ١٩٧٤، انتهت من الدراسة عام ١٩٧٨. في ١ آب/ أغسطس ١٩٧٨ كان على خريجي هذه الدورة، حالهم حال خريجي بقية الكليات في الفروع الإنسانية، أداء الخدمة العسكرية الإلزامية لمدة ٢٣ شهراً، كما حصل لي. بدأت في الخدمة في ١ آب/ أغسطس ١٩٧٨، وانتهيت منها في ١٨ آب/ أغسطس ١٩٨٠ (كان عليّ أداء خدمة زائدة بسبب السجن والعقوبات). على العكس مما حصل للصديقين كاظم وسعيد. فلأن دورتهما هي الدورة البعثية الأولى التي كان عليها الذهاب إلى المحافظات العراقية الأخرى للعمل في النشاط المدرسي بصفتهما مدرسَي مسرح هناك، أجّلت الدولة سوقهما للخدمة مدة عام، وكان عليهما أن ينتظرا حتى ١ آب/ أغسطس ١٩٧٩ لكي يُساقا للخدمة. كانت السلطة البعثية بحاجة للآلاف من المدرّسين البعثيين، هذا ما جعلها تكرّر الأمر ذاته على مدى أربع سنوات. المشكلة هي أنه بعد قرابة سنة وسبعة أسابيع من بداية خدمة دورة الخريجين الأولى، في ٢٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٠ بالضبط، اندلعت الحرب العراقية الإيرانية. الحرب تعني إيقاف كل عمليات التسريح في الجيش، مما يعني أن الصديقين كان عليهما البقاء في الخدمة إلى



حين إصدار قرار من وزير الدفاع يستدعي تسريحهما، ولأن الحرب طالت وراحت تسوء يوماً بعد يوم، كان على الاثنين التنقل في الجبهة حسب حاجة الجيش وللقتال. هل أقول، إذن، لحسن حظي أنني لم أقبل في أكاديمية الفنون الجميلة في بغداد؟ أم أقول لسوء حظ الاثنين والمئات الآخرين من دورتهم، الذين لم يعرفوا أن يقولوا: لا؟؟؟

ماذا كتب صاحب **بناة العالم** النمساوي شتيفان تسفايغ في كتابه الباهر **عالم الأمس** (ص٢٠٨-٢٠٩، الطبعة الألمانية)، بعد ثلاث محاولات من الكتابة للمسرح، ورابعة ترجمة مسرحية للإيطالي لويجي بيرانديللو (لعرضها في فيينا)، وما إن يبدأ الممثلون (ممثلون كبار في زمانه) بالتدرب على القطع المسرحية حتى يمرضوا فجأة ويتوفوا قبل العرض المسرحي بأيام؟ "في ذلك الوقت شعرت بطبيعة الحال أنني مطارد من القدر، لأن المسرح يمنحني في البداية الإمكانية التي لم أحلم بها أبداً، أولاً يقدّمها لي بشكلٍ مغرٍ، لكي يأخذها مني في اللحظة الأخيرة بشكل وحشي. لكن فقط في سنوات الشباب تبدو الصدفة متماثلة بعلاقتها مع القدر. لاحقاً يعرف المرء أن سكة الحياة الأصلية تُقرَّر من الداخل؛ مهما بدا أن طريقنا يحيد عن رغبتنا بشكل مبلبل وبلا معنى، فإنه يقودنا رغم ذلك في النهاية إلى هدفنا غير المرئي". أنا الآخر شعرت أنها معاقبة القدر لي ألاّ أصعد إلى المسرح. كنت الأول في الامتحان العملي والنظري، حتى ظننت أن ما حلمت به أصبح في متناول اليد، دون أن أدري بالمفاجأة التي انتظرتني. لم أعرف أن ما حصل هو الصحيح، فمهما بدا مجحفاً وبلا معنى إلا أنه قادني، على الرغم من ذلك، في النهاية، إلى هدفي غير المرئي: أن أصبح كاتباً، ولكي أحقق ذلك كان لا بدّ من الذهاب إلى ألمانيا!



١٨

غريب في المدينة الغريبة وطالب الجامعة أنا

أول ما تعلمته في بداية دراستي في كلية الآداب في جامعة بغداد، أن هناك صنفين من الطلاب يدرسون معي في فرع الأدب الألماني، الصنف الأول هم الطلاب من طالبي العلم الطبيعيين الذين انتهوا إلى الفرع الدراسي هذا، إما بسبب درجة معدلاتهم مثلي أو جاؤوا لدراسة الأدب الألماني ولتعلم اللغة الألمانية برغبة منهم. كانت تلك السنوات سنوات البناء الصناعي التي بدأت للتو في البلاد، أو ما أُطلق عليه في حينه رسمياً مرحلة التنمية الانفجارية أو مرحلة الثورة الوطنية الديموقراطية، التي كان أحد معالمها مجيء العديد من الشركات الأجنبية للعمل في العراق، من بينها الشركات الألمانية طبعاً. العمل مترجماً لإحدى الشركات هذه يمنح الكثير من الامتيازات، من رواتب ومخصصات ومنح سفر إلى ألمانيا. ففي مدينة العمارة وحدها عملت ثلاث شركات ألمانية، الأولى في معمل صناعة الورق، والثانية في معمل قصب السكر، وقد عملتا في قضاء المجر الكبير التابع للمدينة، والثالثة تخصصت ببناء معمل للبيرة في منطقة حي المعلمين، سلفاً وأنا في العمارة أخبرني بذلك صديق وجار لي، اسمه خالد، كان قد درس قبلي بسنة واحدة الأدب الألماني واللغة الألمانية في كلية الآداب – جامعة بغداد (بالفعل عمل خالد بعد تخرجه مترجماً في الشركة الألمانية العاملة في معمل قصب السكر).

الصنف الثاني من الطلاب هم من الطلاب غير الطبيعيين، في الحقيقة أعداء للعلم والتعلم، جاؤوا للدراسة الجامعية لأنهم حملوا رتباً عسكرية أصلاً، ضباط مخابرات،



تعلّمهم للغة يتيح لهم العمل لاحقاً إما في السلك الدبلوماسي كضباط مخابرات أو كمترجمين ومرافقين لرجال المخابرات الألمان الذين يطلق عليهم الألمان "خبراء في عمليات البناء"، رغم أن عملهم تركّز في بناء أجهزة المخابرات العراقية وجعلها تعمل بطرق أكثر حرفية، وفي هذه الحالة تساوى رجال الألمانيتين، القادمين من شرق ألمانيا مع القادمين من غربها. ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية كانتا مختلفتين أو متعاديتين يفصلهما جدار، لكنها، حتى قبل الوحدة الألماني، كانتا موحدتين في أمر واحد: في بناء الأجهزة الأمنية في العالم "الثالث" وفي تحديث وسائل وأجهزة التعذيب هناك! أجهزة حزب البعث التي عُرفت بوحشيتها كانت إحدى تلك الأجهزة التي استفادت من الخبرة الألمانية في تحديث وسائل التحقيق والتعذيب.

طبعاً الدرس هذا فتح عيني على الفروع الدراسية في الكليات الأخرى. رجال الأمن والمخابرات نافسوا الطلاب على مقاعدهم الدراسية. لا ننسى أن صدام حسين نفسه كان طالباً، أو كان على الأقل مسجّلاً بتلك الصفة هناك، في كلية القانون في بغداد. كل مدراء الأجهزة الأمنية ومعهم لاحقاً عندما كبروا أبناء الديكتاتور ووزرائه درسوا في الكلية نفسها. أن يدرس ضباط المخابرات في كلية الآداب – قسم اللغات الأوربية أمر



نجم والي (جلوساً، الأول إلى يسار الصورة) الأيام الأولى من الدراسة في فرع اللغة الألمانية، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1974.



يُمكن فهمه، لكن أن يدرسوا القانون في كلية القانون، وهم وليس غيرهم مَن أطلقوا النار على القانون بمسدساتهم، أمر يدخل في باب السوريالية "المبتذلة" العراقية. بعد سنتين من دراستي في كلية الآداب ستستحدث الجامعة فرعاً "لغوياً" كاملاً لأسباب مخابراتية. فبعد تطور علاقات التعاون مع ديكتاتوريات أميركا اللاتينية، وعمليات تبادل الخبرات العسكرية والأمنية في مكافحة المعارضة وإبادتها، خاصةً مع جنرالات الأرجنتين ومع الجنرال التشيلي بينوشيه، تأسّس فرع اللغة الإسبانية الذي ستحتل صفوفه الدراسية بعد سنتين من تأسيسه، عام ١٩٧٧، كل غرف الطابق الأول في كلية الآداب.

لم أعرف ذلك في الأيام الأولى من دراستي الجامعية طبعاً. لم يلفت نظري لا منظر سحنات ضباط المخابرات هؤلاء الذين جاؤوا جميعهم من مناطق غرب العراق، والذين بدوا كأنهم يعرفون بعضهم بعضاً قبل مجيئهم للدراسة معنا. كل ذلك عرفت به مع مرور الأيام. مرةً أخبرتني به زميلة رائعة، اسمها معالي، كانت في المنظمة الطلابية البعثية "الاتحاد الوطني لطلبة العراق"، لكنها لم تخفِ تعاطفها معي أبداً، وهي تحذّرني من ارتكاب أي خطأ بالتصرف أو التفوّه بكلمة "نابية"، لأنهم يخطّطون لفصلي من الكلية. وفي المرة الثانية عن طريق الخطأ من أستاذ التحق بفرع الأدب الألماني للتو بعد انتهاء بعثته الدراسية وحصوله على درجة الدكتوراه من جامعة لايبزغ، اسمه الدكتور عماد، والذي أرسل بطلبي في اليوم الأول من التحاقه لكي يتشاور معي بصفتي مسؤولاً عن الضباط الذين يدرسون في فرعنا، من أجل وضع خطة للحدّ من تحركات الطالب المعارض "نجم". في البداية ظننت أنه يمزح و لم أعرف ماذا أقول، وكان عليّ في تلك اللحظة أن أتذكر كل تلك النكات العنصرية ضد الأكراد، وكيف أنهم يصنعون المقالب لأنفسهم، لأن الدكتور عماد هذا كان كرديّ الأصل، لكنني لم أجد غير أن أقول له "سأعمل كل ما في وسعي" وأخرج مصعوقاً من المفاجأة.

كنت أعرف أنني مراقب من قبل الطلاب البعثيين، لكنني بشكل عام كنت أنظر للأمر كونه أمراً طبيعياً، يخضع له كل شخص غير منتم للحزب الحاكم. أما أن يدرس معي ضباط مخابرات، اثنان منهم سيعملان لاحقاً في الدائرة الأمنية للسفارة العراقية في برلين، وآخر (ش) سيعمل في سويسرا سكرتيراً لبرزان التكريتي، الأخ غير الشقيق لصدام حسين، الذي أُعدم عام ٢٠٠٨، فهذا ما لم يخطر على بالي يوماً. الأدب الألماني

كان بالنسبة لي غوته وشيلّر وهاينريش فون كلايست وراينر ماريا ريلكة وهيرمان هيسّه وتوماس مان وأريش ماريا ريمارك وبرتولد بريشت وبيتر فايس أيضاً، وليس ضباط مخابرات وسلك دبلوماسي! بهذا الشعور البريء، لكي لا أقول الساذج، بدأت العام الدراسي ١٩٧٣–١٩٧٤، بدأت الدراسة في جامعة بغداد – كلية الآداب – قسم اللغات الأوربية – فرع الأدب الألماني. كنت فرحاً بأنني انتهيت إلى دراسة الأدب الألماني؛ أدب كنت أصلاً أميل إليه. صحيح أنني لم أفكر يوماً بدراسته أو دراسة أي أدب آخر، لأنني كنت على قناعة بأن الأدب لا يُدرس في جامعة، الأدب ندرسه في الحياة، عن طريق الكتب التي نقرأها، لكن أن أنتهي إلى دراسة أدب كان قريباً لي قدّم لي عزاءً على عدم قبولي في أكاديمية الفنون الجميلة، إن لم يفرحني بالفعل. علاقتي بالأدب الألماني قديمة، ولا أتحدث هنا عن البوستكارد الذي نفّذه مصور ألماني لجامع الخلفاء في بغداد، ففي ذلك الوقت كنت قد نسيت البطاقة البريدية هذه تماماً، بل أعني اكتشافي الأول للأدب الألماني ولي من العمر خمسة أو ستة عشر عاماً، والذي حدث صدفةً عن طريق تصفحي لكتاب جديد عرضته المكتبة العصرية في العمارة، لفت نظري بسبب عنوانه، "مراثي دوينو، "أي عنوان غريب!" قلت لنفسي، لكنني ما إن تصفّحت الكتاب وبدأت أقرأ حتى وجدت الكلمات المكتوبة هناك تتحدث عني، اشتريت الكتاب بمصروف الجيب، وفقط لاحقاً عرفت أن المراثي تلك كتبها شاعر ألماني اسمه ريلكه. بهذا الشكل بدأت رحلتي مع الأدب الألماني التي تعمّقت أكثر بعد مجيء مخرج مسرحي لمدرستنا لكي نمثّل مسرحية بيتر فايس **أنشودة أنغولا**.

مع هذا الشعور بدأت الدراسة في فرع الأدب الألماني، ولم يهمّني أن معظم الأساتذة كانوا قادمين من ألمانيا الشرقية، لماذا كان عليّ أن أرتاب كأن أتساءل مثلاً: لماذا ليس هناك أحد من ألمانيا الغربية أو من النمسا؟ فنحن ندرس في النهاية الأدب الألماني، وليس أدب ألمانيا. ثم ماذا عن الأدب المكتوب بالألمانية في سويسرا؟ تلك أسئلة لم تدر في رأسي أبداً، خاصةً وأن الأساتذة القادمون من ألمانيا الشرقية كانوا ودودين كلهم، من الأستاذ لانغ القصير القامة، على عكس اسمه الذي يعني "طويل"، والأستاذ كيزر والدكتورة "فراو (السيدة) مرعب" (هل يُمكن تخيّل الكنية؟ كانت متزوجة من عراقي!) إلى الأستاذة ريتا (لم تحصل على الدكتوراه أو ما شابه، تعيّنت بسبب زوجها،



د. نصر، الذي كان يدرّسنا هو الآخر، قبل أن تختفي ذات يوم وتهرب مع طفلها طارق!)، إلى الدكتورة فراو نصيف (أجمل وألطف سيدة في الفرع). السنة الأولى على الأقل مرّت بسلام، لم يكن فيها ما يبعث على الريبة، كانت بشكل أو بآخر بداية حقيقية بالنسبة لي؛ بداية تناسب حياتي الجديدة في عدني الذي وصلت إليه أخيراً: بغداد. كنت فرحاً، و لم أفكر أن الفرحة هذه يمكن أن تنتهي ذات يوم، عندما ستُدمج المجموعتان من الطلاب اللتان درستا في السنة الأولى صفين منفصلين، ونصبح صفاً واحداً. من طرفي حاولت بكل ما في وسعي من وسائل ألاّ أدخل في عداوات مع المحيطين بي، أن أتجنّب كل ما يمكن أن يعكّر صفو إقامتي الجديدة، خاصةً مع أولئك الذين يدرسون



نجم والي مع الدكتورة الألمانية الشرقية ريتا والطالبة الزميلة مفيدة
في فرع اللغة الألمانية، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1974.



معي. كنت أتحدث مع جميع زملائي في المرحلة الدراسية بالتساوي وبودّ، حتى مع الطلاب الجدد الذين انضموا إلى مجموعتنا، والذين كانوا، باستثناء فتاتين أو ثلاث فتيات، جميعهم من الذكور، على عكس مجموعتنا من السنة الأولى التي ازدحمت بالبنات باستثناء ثلاثة طلاب (أنا وطالب اسمه عبد الرضا من الكوت والطالب نمير الذي التصق بي!).

كان من السهل معرفة أن هدف الطلاب هؤلاء الذين دُمجوا معنا يختلف عن هدفنا بالدراسة تماماً. كانوا جميعهم بعثيين، لكن معرفتي تلك لم تمنعني من نسيان ذلك، والنظر إليهم بصفتهم زملاء دراسة، أتجنّب الدخول معهم في نقاش أيديولوجي. تصوّر ساذج. أعرف. لكن ذلك ما فكرت به في ذلك الوقت، نسيت أن السياسة هي الغشاء الذي يغلّف الفضاء في العراق. السياسة هي قدر العراقي شاء أم أبى. حتى الصمت تهمة في العراق. صحيح أن المناخ السياسي والاجتماعي العام في البلاد في تلك السنوات كان يوحي بالعكس من ذلك، يمنح الانطباع بأن البلاد تسير باتجاه الحرية والتقدم، انفتاح على اليسار والغرب، لكن نظرة عامة إلى العمق، نظرة إلى التناقضات التي كانت تحدث بين ما يُلقى على الناس من دعاية سياسية رسمياً وبين



نجم والي (جلوساً، الثاني إلى يسار الصورة)، الصف الثاني لفرع اللغة الألمانية، كلية الآداب، جامعة بغداد، مع الدكتور الألماني الشرقي لانغ (وقوفاً، الرجل القصير في الوسط) عام 1975.



ما يحدث في الواقع من اغتيالات فردية للمعارضين واعتقالات، نظرة متفحصة مثل هذه تقول إننا مقبلين على كارثة لا محال. كان حزب البعث الحاكم قد دخل للتو بحلف مع الحزب الشيوعي العراقي الذي كان حتى ذلك الوقت يعمل بسرية وله قوة في الشارع، خاصةً في مدن الجنوب. "الجبهة الوطنية والقومية التقدمية"، كان الاسم الذي أُطلق على ذلك الحلف، وكان صدام حسين لا يزال نائباً لرئيس الجمهورية ومجلس قيادة الثورة، رغم أن الجميع يعرف أن السلطات كلها تركزت بيديه، لكن صدام في ذلك الوقت أظهر وجهاً مختلفاً (يسارياً)، ليس في علاقته مع الشيوعيين والاتحاد السوفييتي وحسب، بل كان هو وراء الاعتراف بجمهورية ألمانيا الديموقراطية أيضاً. العراق كان أول بلد، من غير بلدان حلف وارسو، اعترف ببرلين الشرقية وأقام معها علاقات دبلوماسية. في تلك السنوات كان الفكر اليساري هو الموضة وكان رديفاً للتقدمية والمعاصرة وتأثيره كان واضحاً للعيان.

من يرَ صور تلك السنوات، عندما كانت "بغداد أقرب من باريس"، كما وصفتها بلمحة ذكية الصحفية الألمانية سونيا زكري في ريبورتاج زيارة لها لبغداد في سبتمبر/ أيلول ٢٠١١، في صحيفة **زودويتشه تزايتونغ** الألمانية، لن يُصدّق عينيه، كما فعلت



نجم والي (وقوفاً، الثاني إلى يسار الصورة)، الأيام الأولى للدراسة في فرع اللغة الألمانية، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1974.



الصحفية ذاتها. فتيات بتسريحات شعر حديثة، يلبسن تنورات قصيرة (ميني جوب)، وتنورات أقصر منها (ميكري جوب)، إذا لم يلبسن بنطلونات ضيقة في الأعلى وعريضة في الأسفل (تشارلستون)، وحتى أولئك اللواتي اضطررن للبس العباءة السوداء لبسن تحتها تنورات من النادر ألاّ تكون قصيرة، صدورهن مفتوحة عند التقاء الثديين. أما الطلاب فلبس أغلبهم بنطلونات التشارلستون ذاتها، شعورهم طويلة، و لم يغيّر من ذلك حملة "منع التزلّف والتخنّث" التي بدأت في الفترة التي تربّع فيها على عرش محافظة بغداد خير الله طلفاح، خال صدام حسين من ناحية أمه ووالد زوجته الأولى ساجدة. خير الله طلفاح، الذي سُئل عن معنى اسمه في لقاء تلفزيوني ذات مرة، فقال: "معناه خير من الله طلّ وفاح"؛ خير الله طلفاح، الذي سخرنا من تفسيره ذلك وحوّرناه وقلنا: كلا، إن معنى اسمه هو في الحقيقة "خراء من الله طلّ وفاح"؛ خير الله طلفاح، العسكري السابق، أو حرامي بغداد كما أطلق عليه أهالي بغداد، لأن ليست هناك قطعة أرض أعجبته و لم يصادرها من مالكها؛ خير الله طلفاح العنصري بامتياز الذي أجبرت السلطة كل موظفي الدولة على شراء كُتيب تافه له بعنوان **ثلاثة كان على الله ألاّ يخلقهم: اليهود والفرس والذباب**؛ خير الله طلفاح هذا، خال صدام حسين، والاستثنائي بكل ما

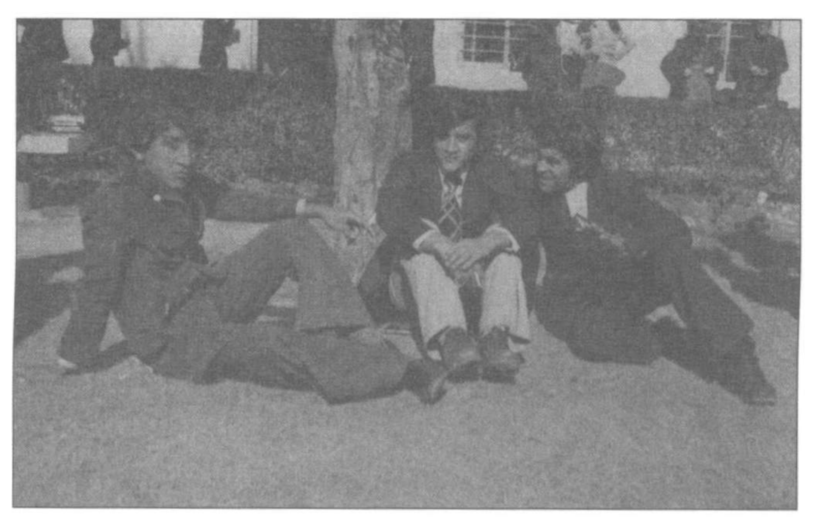


نجم والي مع زميلتين من فرع اللغة الألمانية، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1974.



له علاقة بالتخلف والبداوة الخراب، أسّس في فترته شرطة فريدة من نوعها في تاريخ العراق، "شرطة الآداب" سيئة الصيت، التي أطلقها – على طريقة ما قام به العسكر في سانتياغو دي تشيلي بعد انقلابهم الدموي المشهور ضد حكومة الوحدة الشعبية للرئيس المنتخب سلفادور الليندي (للأسف لم يُكتب اسمه صحيحاً بالعربية كما هو في الإسبانية: آيندي، بل تُرجم عن الفرنسية!) – تطارد الطالبات والموظفات والطبيبات والمعلّمات وغيرهن من النساء السافرات في بغداد، وتعتدي عليهن بالضرب وتمزق ثيابهن وتلطّخ سيقاهن بالأصباغ بحجة الدفاع عن القيم والعادات والتقاليد الأصيلة.

لكن حتى الحملة هذه التي مرّت على عجل، والتي قيل إن نائباً آخر لرئيس الجمهورية، عسكري اسمه صالح مهدي عماش، كانت عنده ابنة سافرة، هو الذي أوقفها، خاصةً بعد تلقيه قصيدة من الشاعر العراقي الكبير محمد مهدي الجواهري من مكان إقامته آنذاك في براغ يحثّه على التدخل، حتى الحملة هذه لم توقف الرغبة بالتحدي، بالإصرار على الحرية عند الشباب. الحرية كانت "الأوكسجين" الذي تنفّسناه في هواء بغداد، وذلك ما عرفه صدام حسين والتقطه على عجل. فلكي يكسب الشباب إلى صفه أولاً، قبل أن يبدأ بحملات البطش على المعارضين لسياسته، وقبل أن



مع الزميلين عطا عيسى ونمير إلياس في حديقة كلية الآداب، قسم اللغات الأوروبية، جامعة بغداد، 1976.



يملأ شوارع بغداد بصوره بصفته "السيد النائب" وصور الذي كان حتى ذلك الوقت رئيساً للجمهورية – على الأقل ظاهرياً – أحمد حسن البكر، كان لا بدّ له أن يظهر بمظهر الشخصية المعاصرة، الأنيقة، الذي يستبدل البدلات وأربطة العنق يومياً، أن يقول للناس: أنا حامل شعلة المعاصرة، فقط معي تحققون ما تصبون إليه، وأن ما حدث في فترة خالي، محافظ بغداد، سحابة عابرة، لا مكان لها في العراق. ألم يقل صدام حسين جملته المشهورة تلك التي نطقها في أول يوم بعد الانقلاب الدموي في تشيلي: "لا مكان لأنتي اللندي في العراق. أنتي اللندي ندفنه عند الحدود"، ومثلما صفق الشيوعيون لتلك الجملة التي نطقها، حسب قولهم، "اليساري" صدام، صفّق الشباب لمن ظنّوه حامل شعلة المعاصرة، "الأنيق" صدام. (في ٢٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٠ سيذهب الملايين من الشباب هؤلاء بكامل أناقتهم إلى الجبهة للقتال ضد إيران).

كان ذلك هو الجو الذي عاشته بغداد في تلك السنوات. كان الجميع مخدّرين بكرنفال "البعث" الزائف، غير منتبهين للشرك الذي أوقعتهم السلطة فيه، فمن ينتبه لصوت يغرّد خارج سرب القطيع؟ من ينتبه لصوت يهمس في أذانهم أن ما تعيشونه هو "عدن" مؤقتة، حرية "مغشوشة"، طالما أن الحرية التي تفتخرون بها مرهونة بحزب واحد اسمه البعث، يتحكم بها شخص واحد اسمه صدام حسين؟ الحرية تؤخذ ولا



نجم والي في حفلة مع زملاء طلاب وأساتذة فرع الأدب الألماني في كافتيريا كلية الآداب، بغداد، 1977.



تُعطى، ومَن يمنحك شيئاً يستطيع أن يصادره منك في اليوم الثاني. تلك حكمة قديمة، من يجرؤ على قولها في ذلك الوقت سترفسه الجماهير "الثورية"، ستقطّعه إرباً إرباً في العراء، وسعيد الحظ من يظلّ على قيد الحياة. ماذا يقول المثل: "الأبطال تحت التراب، والجبناء أحياء يتجولون"، ذلك هو الشعار الذي كان على المرحلة أن ترفعه، وليس شعار "كل مواطن بعثي، وإن لم ينتم" الذي ازدحمت به شوارع العاصمة والدوائر الرسمية، إن لم يغلّف سماء البلاد، قبل أن يُسخمها سخام البارود!

١٩

أماكن للعيش متنقلة

لم أحصل في السنة الأولى من دراستي الجامعية على غرفة مجانية في الأقسام الداخلية للطلاب. قيل لي إنني قدمت إلى الكلية في وقت متأخر (لم يقولوا لي إنني لا أنتمي للحزب الحاكم)، كأنهم أرادوا معاقبتي مرتين: مرة بعدم القبول في أكاديمية الفنون الجميلة، والثانية بعدم منحي سريراً في الأقسام الداخلية، رغم أن الأمر هذا لم يزعجني أبداً، على العكس. بغداد كانت تعني العيش بحرية، بعيداً عن سلطة العائلة وعن رقابة المجتمع العماري الصغير، حتى إنني ما كدت أصدق أنني أدرس أخيراً في مدينة كبيرة مثلها. الإقامة في الأقسام الداخلية للطلاب تعني الحصول على سرير هناك، وليس غرفة، تعني تقاسم الغرفة مع أشخاص آخرين، يُمكن أن يكونوا ثلاثة في حال محالفة الحظ، أو سبعة في أسوأ الأحوال، كما هي الحال في الأقسام الداخلية الحديثة! نتيجة ذلك فوضى وتدخل في حياة الآخرين، إذا لا يكون في كل غرفة طالب يكتب تقارير عن الطلاب الآخرين لحزب البعث أو لدائرة الأمن. سعيد الحظ من يكون في غرفة لا عسس أمن فيها أو بعثيين. كما حصل لي في السنة الثانية من دراستي الجامعية، عندما حصلت على غرفة في بيت قديم في منطقة العيواضية القديمة، المنطقة التي اشتهرت بفيلاتها القديمة الواقعة على نهر دجلة، حيث تقاسمت الغرفة مع طالبين شيوعيين من أهالي الحلّة، إن لم ينجح الشيوعيون بجلب كل ذلك القسم الداخلي الصغير تحت سيطرتهم. على عكس ما حصل لي في السنة الثالثة، عندما سكنت في الوزيرية في غرفة مع ستة طلاب آخرين،



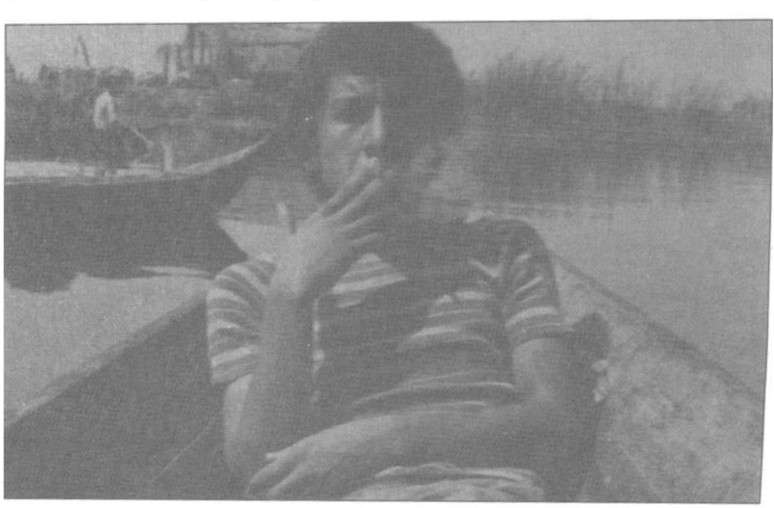
كانوا جميعهم أكراد (كانت تلك هي المرة الأولى التي شعرت فيها أنني عربي!)، أو في السنة الرابعة، حيث سكنت في القسم الداخلي الواقع في شارع الرشيد، فوق حمّام الحيدري ومقهى الأعيان، حيث تقاسمت غرفة مع سبعة طلاب، ستة من أهالي النجف، جميعهم بعثيون، وطالب تونسي، كان مدمناً على النوم وسماع أشرطة جنسية ناطقة باللغة الألمانية، أتعبني بسؤاله الملح عن كلمة "مُشي" كلما وصل الشريط إلى النقطة التي تسأل فيها المرأة الرجل، وهما يجلسان في السيارة أو لاحقاً وهما تحت الدوش، "غيفيلت ديرماينه مُشي؟"، فيسألني: "ماذا تعني المرأة؟"، وأنا، الذي لم أعرف معنى الكلمة في حينه، لأنني لم أقرأها لا عند غوته ولا عند شيلّر، بل ولا حتى عند بريشت، أجيبه متحذلقاً: تعني بيت، لأنها مشتقة من كلمة جامع. "مُشي" و"موشيه". "كس" و"جامع". أي جمع سوريالي في بلاد السورياليين!

البحث عن غرفة وتأجيرها لم يكن بالأمر السهل لأن، أولاً، في كل مدن العراق يصعب على الرجل العازب الحصول على غرفة أو مكان للسكن في بيت، إذا لم يشأ الإقامة في فندق. ثانياً، الإيجارات مكلفة خاصةً بالنسبة للطلاب القادمين من عائلات دخلها محدود أو عائلات فقيرة، في هذه الحالة عليه أن يعمل. التوفيق بين العمل والدراسة أمر مستحيل في بغداد. الدراسة المسائية مسموح بها في الجامعة المستنصرية فقط. الدراسة في المستنصرية كانت مكلفة، كما أنها لا تملك كل الفروع الدراسية.

رغم كل الصعوبات تلك، كنت فرحاً بعدم حصولي على غرفة أو سرير في الاقسام الداخلية لأنني فقط بهذا الشكل سأنظّم حياتي لوحدي، سأكتشف عدني الموعودة: بغداد. في العراق، وفي المجتمعات العربية عامةً، يعيش الفرد للجماعة. الفردية تهمة ومرض. الطفل الذي يحصّن نفسه في غرفته، أو ينزوي في الغرفة لكي يلعب وحده، ينظر إليه أفراد عائلته بريبة. "لا بدّ أن شيئاً حصل له؟" يتساءل الأبوان. الطفل يجب أن يكون دائماً هناك، حيث العائلة وحيث الأطفال الآخرون. الفردية حلم وشرط للإبداع. عرفت ذلك مبكراً، ما كنت أعوزه الفرصة المناسبة لتحقيق الاستقلالية تلك. وعندما ضُربتُ وسُحبتُ على الأرض في ساحة مدرسة إعدادية العمارة للبنين من قبل الطلاب البعثيين، أمام جمهور الطلاب والأساتذة الذين خرجوا على صوت صراخي من الصفوف، لم أفكر بشيء آخر غير الهروب من المدينة. فكرت أن الوقت حان لكي

يكون لي عذري للانتقال إلى البصرة، ليس لأنني عشقت المدينة الميناء منذ طفولتي، بل قبل كل شيء للعيش بعيداً عن سلطة العائلة وسلطة مجتمع مدينة العمارة الصغير. من غير المهم أنني سأكون في بيت جدي من ناحية أمي. سنة كاملة، من النصف الثاني للعام الدراسي في الصف الرابع الثانوي (العاشر) حتى النصف الأول من العام الدراسي في الصف السادس الإعدادي (الثاني عشر)، درست في البصرة.

كان جدي، مفتش التمور في الشركة العراقية للتمور، صارماً في تربيته أو في علاقته بخالي نوري الذي كان يكبرني بست سنوات فقط، وكان ابنه الوحيد، بعد زواج ابنتيه، أمي وخالتي ملكية. خالي نوري لم يستطع تجاوز مرحلة الدراسة المتوسطة، رسب خمس أو ست مرات في الصف الثالث (التاسع)، حتى أصبحت امتحانات البكالوريا والمدرسة بمثابة كابوس يعذّبه، خالي الدونجوان هذا، الذي كان يهمّه مطاردة البنات أكثر من الاهتمام بدروسه، لم يجد في مقاومة سلطة أبيه غير الانتماء لحزب البعث ولمليشياته، رغم أنه حتى في هذا لم يرعب أباه ويثنيه عن معاملته مثل طفل. كان عمره ٢٢ سنة عندما انتقلتُ إلى البصرة، وكنت بمثابة هدية نزلت من السماء عليه. فهو، حتى قدومي للإقامة معهم، كان عليه النوم على سرير في نفس الغرفة التي ينام فيها والداه، ولا يهم أن الغرفة الثانية من البيت ظلت فارغة أو تحولت إلى مخزن فائض عن الحاجة. لا أدري



نجم والي في رحلة عبر أهوار الصحين في العمارة عام 1976.



كيف لا يكون مصاباً بعقدة أوديب، وكيف لا يدخل في معارك حامية مع أبيه؟ وكانت حجة جدي، كلما قال الآخرون له كيف ينام نوري معكما في الغرفة وقد أصبح رجلاً في سنّ الزواج، يجيب أنه فقط بهذا الشكل يُخضعه لرقابته، لا غرفة ينام فيها لوحده لكي يجلب إليها النساء في الليل. جدي الذي كان يخاف من الدولة ويخشى المشاكل إلى حد التطرف، والذي كان ينتقل من بيت إلى بيت، ولا يهم مدة إقامته هناك، كلما عرف أو كلما وشت له زوجته، جدتي صبرية الحاج عويد، بخبر وقوع ابنه في علاقة حب جديدة مع فتاة، جدي الصارم هذا كان عليه أن يستسلم هذه المرة أمام إصرار حفيده، ابن ابنته الكبرى، لأن ينام في غرفة أخرى، لا بأس أن يتقاسمها معه خاله، و لم يغيّر من الأمر عثوره على رسالة حب في جيبي، كتبتها لليلى، ابنة جار لهم. فحسبما عرفت، ذهب بالرسالة إلى أبي، قطع مئة واثنين وثمانين كيلومتراً شمالاً لكي يخبر أبي بأنه من الممكن أن يقبل بنشاط ابنه السياسي، أن يقرأ لينين وماركس وسارتر، بل إنه يقبل بتأثيري "المفسد" على خالي، لكنه لا يقبل أن أجلب له المشاكل مع جيرانه بسبب علاقاتي الغرامية ببناتهم.

سنة ونصف تقاسمنا أنا وخالي الغرفة في بيت جدي في محلة التميمية في البصرة، لقّنته فيها درساً في الفردية، فقط في أمر واحد لم أنجح: إقناعه بترك حزب البعث. وعندما أخبرته بنيتي بالعودة إلى العمارة، لم يفهم خالي الأمر، قال لي: لماذا تعود وأنت لا تزال مطلوباً ومطارداً هناك؟ و لم يعرف أنني فقط بهذا الشكل أستطيع التقديم على جامعة بغداد، لأن بقائي في البصرة حتى نهاية العام وتقديم الامتحانات هناك يعني أنني سأكون ملزماً بالتقديم لجامعة البصرة. أمر لم يهمه، لأنه عرف أن مغادرتي البصرة تعني مغادرته الغرفة. هذا ما حصل له بالفعل، رغم أن درس الفردية الذي تعلّمه مني جعله هذه المرة يترك بيت أبيه ويذهب للإقامة في فندق في ساحة أم البروم.

الفردية تلك شعرت بها أكثر في بغداد، خاصةً في السنة الأولى من دراستي بين عامي ١٩٧٤ و١٩٧٥. صحيح أنني لم أتوقف يومياً عن كوني نصيراً كبيراً من أنصار الشعور الجماعي والتضامن، إلا أنني كنت أعي أنني لا يمكن أن أصبح هكذا من دون المحافظة على فرديتي. قرأت في علم النفس أن الطفل يجد نفسه في الآخرين الذين حوله، إلغاء الآخر هو إلغاء للمرآة التي نرى فيها أنفسنا، أمر يعني في النهاية إلغاء للنفس.



الفردية توجد بوجود الآخرين، الجماعة، والجماعة توجد بوجود الفرد. المحافظة على هذه المعادلة في العراق، وفي مجتمع بطريركي ذكوري، صعبة. المشكلة ليست في السياسة، لأن ما تفعله السياسة في النهاية هو تطبيق لما يفكّر به المجتمع بشكل عام. الميل للعزلة والتصرف ليس كما يريد الذوق العام، أمر يبعث إلى الريبة. الفرد مراقب في العائلة، في المدرسة، في الشارع، في كل مكان. ليس من الغريب أن تنشأ عندنا الأنظمة الديكتاتورية، الكل يشارك في هذا "البروسيس".

ولمقاومة السلطة الديكتاتورية تلك، أو لمقاومة مجتمع يصرّ على البقاء في علاقاته البدوية، لا بدّ من اكتشاف، أو اختراع، وسائل خاصة، حتى وإن كانت صغيرة، المهم أن يقول المرء إنني أنا أحقق نفسي، ولا يهم المتاعب التي تنشأ عن ذلك. عدم الحصول على غرفة أو سرير أو مكان في القسم الداخلي هو نوع من الاستفزاز في النهاية، قبل أن يكون مدعاةً للشكوى والنحيب!

أغلبية الطلاب الذين لم يحصلوا على غرفة في الأقسام الداخلية لم يكونوا بعثيين. الانتماء لحزب السلطة يأتي في المقام الأول، ثم تأتي المنطقة في المرتبة الثانية. والمناطق في العراق مقسّمة تقريباً: الجنوب يسكنه الشيعة، الغربية يسكنها السُنّة، الشمال يسكنه الأكراد. طبعاً هناك بعض المناطق متداخلة، لكنها استثنائية وقليلة، إن لم تكن لأسباب تاريخية كما في امتداد العائلات السُنيّة في البصرة إلى قبائل نجد التي هاجرت منها إلى البصرة في فترات الجفاف التي تعرضت لها على مرّ التاريخ، أو لأسباب خارجة عن سلطة الواقع والناس، كعمليات التهجير القسري، كما حدث للأكراد الذين هُجّروا من كركوك إلى جنوب العراق، أو الهجرة الطوعية، كما حدث للعرب الذين انتقلوا إلى كركوك مقابل الحصول على وظيفة وقطعة أرض وسيارة وخمسة آلاف دينار في وقت كان الدينار يعادل ٣ دولارات، أو بسبب هجرة الأيادي العاملة كما حصل لبعض سكان الجنوب الذين عملوا في معامل في مناطق الغربية، أو عوائل الشخلية والنجادة والجبور والموامرة الذين قدموا للعمل في جنوب العراق في بدايات القرت العشرين، خاصةً في مدن حدودية مثل العمارة والبصرة الميناء. أما الأقليات الإثنية والدينية التي لا تُحصى، مثل الصابئة المندائيين والمسيحيين واليزيديين والشَبَك، وحتى اليهود حتى هجرتهم أو تهجيرهم في بداية الخمسينيات، فهي الأخرى توزّعت على سجادة العراق



حسب تاريخها وتقاليدها وطقوسها وأيضاً حسب حاجتها للعمل. عدا ذلك، التقسيم السكاني والجغرافي موجود، ولا يتركّز في العقوبات التي يتعرّض لها المرء بسبب ذلك، خاصةً فيما تعلّق بأكراد من سكان الشمال والشيعة "الشروكية" من سكان الجنوب. السلطة الحاكمة هي عربية سُنيّة من تكريت ومن قبيلة البوناصر (قبيلة صدام)، و"البقايا من الناس عبيد" (كما خاطب شاعر، يتبوّأ اليوم وظيفة كبيرة في الدولة، الديكتاتور صدام حسين ذات يوم، رغم أن الديكتاتور هذا أعدم أباه!)، وهي ترحم وتذلّ كما تشاء. الأقسام الداخلية هي واحدة من عقوبات أخرى يتعرض لها البعض، خاصةً مَن يجتمع عنده الاثنان في نفس الوقت: عندما يكون قادماً من الجنوب، وغير منتمٍ للبعث – المصيبة في هذه الحالة كبيرة.

لكن التقسيم المناطقي كان ولا يزال موجوداً في رؤوس الناس. أتذكّر طالبة بغدادية معنا، اسمها ميسون، من عائلة ثرية كانت تسكن مدينة المنصور، ألقي بها معدّلها، مثل أغلب الطلاب من غير الضباط، في دراسة الأدب الألماني، سألتني أكثر من مرة وبفضول ما إذا كنا نتنقل في العمارة بـ"بلم" أو "مشحوف" من بيت إلى بيت، وإذا كانت السيارات دخلت المدينة. "سيارة ما عندكم"، قالت لي بقناعة التي تسأل لكن التي عندها الجواب مسبقاً، "تتنقلون ببلم، نـچم"، وكانت تلفظ الباء پاء. أية فكرة رومانسية! ميسون التي اختفت قبل نهاية العام الدراسي الأول بقليل، قيل إنها تزوجت شاباً من عائلة ثرية أخرى، مثلما قيل إنها هاجرت إلى أميركا، كانت جزءاً من تربية سكان بغداد الأثرياء الذين كانوا يسكنون منطقة المنصور، الذين كوّنوا صوراً عن الجنوب "الشروگي"، صور أقرب للخيال منها للواقع، رغم أنها تظل بأسئلتها مؤدبة، دمثة وودودة، لم تحمل في داخلها نوايا شريرة، بل كانت تسأل ببراءة، مثلما وجدت في أجوبتي "الخيالية" لها نوعاً من السلوى الرومانتيكية. وبدل أن ألقي عليها محاضرة جديدة، كأن أقول لها إن في العمارة، في المدينة، طبقة وسطى واسعة، متعلمة، وأن ما تقصده في حديثها هو الأقضية والنواحي والقرى والأرياف التابعة للعمارة، بدل ذلك فضّلت أن أكذب عليها، أن أخترع لها حكايات عن المشاحيف والأبلام التي امتلكناها، وكيف أنني كنت أنتظر صديقتي الطالبة أن تنتهي من دوامها في المدرسة نكي آخذها إلى بيتها بالمشحوف. "يعني المشحوف مثل المرسيديس عندنا" قالت لي،

هي التي كانت تقود سيارة مرسيديس، وأقول لها: "كلا، إنه أجمل"، وأروح أصف لها صوراً، عرفتها أصلاً من السينما، لكي أزوّد خيالها بكل ما تحتاجه من إسقاطات على الجنوب، فتقول لي: "لكن ما تصفه يا نجم هو مدينة البندقية الإيطالية"، فأقول لها: "نعم، وأحلى". وكم حزنت عندما اختفت ميسون ذات يوم، لأنها كانت زادي باختراع الحكايات، إن لم تكن الدرع الذي حماني من هجوم الأشرار. ففي وقت الاستراحة، الفرص بين درس وآخر، كنت أحرص على أن أكون معها في ساحة الكلية، أحدّثها عن الجنوب، وهي تصغي، وعندما اختفت لم يعد أمامي غير الحديث مع الآخرين، خاصةً الأشرار الذين بدأوا بهجومهم عليّ.

الأشرار المرئيون تمثّلوا بثلاثة أنواع:

الأول: كان معي في الوجبة الأولى التي درست في الصف الأول، طالب بغدادي قصير القامة أبيض البشرة، اسمه نمير، التصق بي، خاصةً بعد اختفاء ميسون، لم يفارقني حتى في التقاطنا للصور، دائماً إلى يميني أو إلى يساري، بذل كل جهده كي يقنعني بأفكاره الماركسية، وأنه يبحث عن شخص يكسبه للحزب الشيوعي، رغم أنه يعرف أنني لم أشكّ يوماً بأنه ضابط في المخابرات بلباس مدني!

الثاني: الدكتور عماد، أستاذ الأدب الذي جاءنا للتو من لايبزج. فهو ومنذ اكتشافه الخطأ الذي وقع فيه، عندما أرسل بطلبي بصفتي مسؤول المنظمة الطلابية البعثية في فرع الأدب الألماني، لم يفوّت فرصة إلا وأرسل فيها بطلبي إلى مكتبه، لكي يُلقي عليّ محاضرة عن قوة الحزب والثورة. وقد جنَّ عندما اكتشف أنني تعمّدت الرسوب في السنة الدراسية الثالثة في بعض دورس الامتحانات الفصلية لأن الناجحين العشرة الأوائل من الصف، والذين كنت الأول فيهم في بداية السنة الدراسية، سيذهبون في بعثة للدراسة والعمل في مصانع ألمانيا الديموقراطية في العطلة الصيفية، الأمر الذي رفضته لسببين:

ألف – لأنني لم أشأ الذهاب إلى ألمانيا الديموقراطية، لأنها شكّلت بالنسبة لي نظاماً ديكتاتورياً شبيهاً بنظام سلطة البعث، وكان يكفي أن أرى الأساتذة الذين درّسونا الأدب الألماني في جامعة بغداد. كانوا كلهم أعضاء في الحزب الاشتراكي الموحّد الحاكم في برلين الشرقية، وكان الأدب بالنسبة لهم يخضع للمقياس الأيديولوجي: الماركسية اللينينية. أدب تقدمي (واقعية اشتراكية) وأدب رجعي (كل الاتجاهات الأدبية



الأخرى من سوريالية ودادائية ووجودية... إلخ هي أدب بورجوازي!)، لهذا السبب لم ندرس كافكا أو توماس مان أو هيرمان هيسّه. الأدب الحديث انحصر بقائمة الكتّاب الكلاسيكيين الذين فُسّروا على الطريقة الماركسية، والكتّاب المعاصرين لكن الذين عاشوا في ألمانيا الديموقراطية. ليس من الغريب أنني سمعت في القسم بهيرمان كانت وماكس فون برون قبل قدومي إلى ألمانيا، و لم أسمع بأسماء ماكس فريش أو روبرت موزيل.

باء – لأن الطلاب العشرة الأوائل، الذي يذهبون إلى ألمانيا الشرقية، ملتزمون بالانتماء للمنظمة الطلابية البعثية، كما عليهم توقيع تعهدات بأنهم سيقومون بنقل صورة حسنة عن "الإنجازات الثورية للحزب والثورة".

الثالث: هي طالبة من المجموعة الجديدة التي انضمّت إلينا، اسمها أماني، قادمة من الحلّة. كانت طويلة القامة، سمراء، في صوتها خنّة بسيطة، وكانت معروفة بميولها السحاقية بين الطالبات. أماني هذه، أُرسلت للتقرب مني ومصادقتي، لكنها كلما حاولت لعب دور الأنثى أمامي كلما رأيت اكفهرار وجهها. وأكثر ما أغضبها هو ملاحظتها لتعاطفي معها. قالت لي يوماً إنها ستكون سعيدة عندما تراني معتقلاً!

لكن ماذا عن الأشرار غير المرئيين؟ الذين بدونهم ما كنت انتبهت، من فترة إلى أخرى، إلى أنني قد ارتكبت جنحة. كما في حالة وضعي شريطاً موسيقياً لفرقة "بوني إم" اشتريته من السوق من محل مشهور لبيع الأشرطة. ففي نهار مشمس، وتحت نشوة فصل الربيع، وضعت الشريط في المسجّل الموجود في غرفة الرياضة، وكان مسموحاً للطلاب استخدامه في حالة تواجدهم في ساحة الرياضة. أنا وصديق لي كنا نجلس على مدرجات ساحة الرياضة، وكان يجلس معنا طلاب البعثة القادمين من كوريا الشمالية لدراسة اللغة العربية، عندما ظهر أحد الطلاب البعثيين ذو سحنة بدوية وسأل: "لمن هذا الشريط؟". لم أفهم سبب سؤاله، وعندما أجبته بنعم طلب أن أصطحبه إلى غرفة أمن الكلية بسبب سماعي أغاني صهيونية، و لم أفهم، إلا عندما انتبهت إلى نص الأغنية الذي يقول: "على أنهار بابل جلسنا وبكينا، ثم تذكرنا صهيون"، فقلت له: "الشريط يُباع في محل بيع أشرطة رسمي"، ثم أريته الختم الموجود على الكاسيت. دقائق عديدة ظلّ يتصارع بينه وبين نفسه، هل يعتقلني رغم ذلك أم أن ذلك سيكون فضيحة، خاصةً

وأن مجموعة من الطلاب الكوريين الشماليين كانوا حاضرين الحوار الذي دار بيننا وكانوا معجبين بالموسيقى. في النهاية استسلم واكتفى بمصادرة الشريط على أمل فحصه!

لكن بغضّ النظر عن لعبة الكر والفرّ، عن لعبة القط والفأر، وما حملته من خطورة، إلا أنها حوت أيضاً طابعاً روتينياً. العيش تحت مطرقة الديكتاتورية يطوّر عند من يرفضها أشكالاً من العيش، أساليب من المواجهة، يبدو الحديث عنها هنا أقرب للخيال منه للحقيقة. إنه "جماليات (استيتيك) المقاومة"، إذا استعرنا عنوان رواية لبيتر فايس. ولكن، من الناحية الأخرى، يجب الاعتراف أن البعثيين كانوا في بداية مسيرتهم للاستحواذ على الحياة، الأمر الذي ساعد على منح مجال للتحرك بحرية وإن كانت تلك الحرية مشروطة معروفة الحدود، على الأقل كان الوضع بهذا الشكل حتى منتصف عام ١٩٧٧م، عندما بدأت المطاردات والملاحقات والحرب ضد المعارضين أو ضد كل ما هو ليس بعثياً، والذي تتوّج في ربيع عام ١٩٧٨م، بالضبط في الواحد والثلاثين من مارس/آذار من ذلك العام، بإعدام ٣١ مواطناً، نصفهم عسكريون ونصفهم مدنيون، بتهمة تشكيل خلايا شيوعية في الجيش، الأمر الذي كانت تعاقب عليه السلطة بالإعدام. كانت تلك أيضاً الشعرة التي قصمت ظهر البعير، كما يقول المثل عندنا، ليس انفراط عقد ما أُطلق عليه الجبهة الوطنية والقومية التقدمية وحسب، بل بداية تثبيت سلطة الديكتاتور صدام حسين، الذي كان يشغل حينها منصب نائب الرئيس.



٢٠

الغرفة الخاصة وسعادة الكتابة والصداقات

بعد فترة قصيرة من إقامتي في بغداد اكتشفت أنني سأبدأ حياة الكاتب الذي أريد أن أكون عليه بالذات الآن. وأقول اكتشاف وليس اختراع، لأن النظام الذي فكّرت أن أضعه لنفسي ، كما يبدو، لم يكن غريباً عليّ، كأنني عرفته مسبقاً: فلكي يصبح المرء كاتباً عليه المثابرة، الموهبة تأتي في الأول، لا تتطور بدون بذل الجهد من أجل ذلك. لا بدّ من تدريبها، إن ليس يومياً فعلى الأقل من حين إلى آخر، بدون فوارق زمنية كبيرة. أغلب الكتّاب العراقيين الذين عرفتهم أو الذين سأعرفهم، خاصةً من جيلي، نشروا عملاً واحداً ثم توقفوا، ولأنني لا أريد أن أعيش على مجد قديم كان لا بدّ من كسر القاعدة تلك، أن أكون الكاتب الذي ينتظر القرّاء منه كتاباً جديداً، أو ألاّ أكون كاتباً وحسب، بل كاتب صاحب مشروع.

الحصول على غرفة في منطقة الحيدرخانة كان الخطوة الأولى في هذا الاتجاه. صحيح أنني تقاسمت الغرفة تلك مع طالبين آخرين، خالد وعلاء، شابين قادمين من العمارة، درسا في معهد الإدارة، لكن مساحة الغرفة، ثم سفرهما ببعثة من الحزب الشيوعي العراقي إلى العاصمة المقدونية سكوبيا في يوغسلافيا السابقة، ساعدا على تنمية ذلك الشعور عندي، بأنني منذ الآن مقبل على حياة جديدة. فحتى ذلك الوقت لم يكن لي مكاني الخاص؛ غرفتي. فرجينيا وولف تتحدث عن غرفة الكاتبة والدور الحاسم الذي تلعبه في حياتها. في زمنها، حيث سادت العلاقات الذكورية بشكل فاضح، كان امتلاك



غرفة خاصة بامرأة أمر يدخل في باب المستحيل، على هذا الأساس اشترطت وجود غرفة للكاتبة بصورة خاصة. بدون أن تملك جوها الخاص وحريتها على الأقل بالتحرك هناك، تصعب عليها الكتابة. واحد مثلي، نشأ في مجتمع بطريركي، لا يسعه إلا أن يدعم نظرية صاحبة **الأمواج** ومسز **دالloway**، بالتأكيد ما كان لها أن تكتب لا عمليها ذينك ولا الأعمال الأخرى بدون الغرفة الخاصة بها.

نجم والي مع صديقة في حديقة أكاديمية الفنون الجميلة في بغداد عام 1975.

أنا الآخر ما قُدِّر لي أن أواصل الكتابة دون الغرفة تلك. ربما يبدو الأمر مضحكاً لزميل أوروبي، الأطفال ينمون ويحصلون على غرفة خاصة بهم مبكراً، الطفل في أوروبا، وألمانيا بالذات، يعيش مع أشيائه الخاصة المحيطة به، لعبه، دفاتره وعدته المدرسية، ملابسه وكل ما يحتاجه حتى في غرفة الحمام، اليوم لكل واحد منهم تلفزيونه وموبايله وكومبيوتره. أول ضمير شخصي يتعلمه الطفل في قواعد لغته هو ضمير التملك المفرد، يقول: فراشي، فرشاتي، لعبي، موبايلي... إلخ، فيما يحتاج أحدنا في الشرق سنوات طويلة لكي يتحدث عن ضمير التملك المفرد بقناعة، دون رقابة داخلية أو خجل من محيطه. لم أملك في بيت أهلي غرفة خاصة بي. أخواتي الثلاث كنّ ينمن في الغرفة ذاتها التي تقاسمها معنا جدي وجدتي، إذا لم نكن نحن الذين حللنا عليهم ضيوفاً. في بغداد أولاً أستطيع أن أقول: أصبحت لي غرفة، لأن القضية لا تتعلق بوجود مكان، مجال خاص وحسب، بل لها علاقة بأن المجال هذا يعود للشخص الذي يقيم فيه. في البصرة مثلاً، في بيت جدّي، ورغم فرضي عليهما العيش في الغرفة الأخرى المتروكة، لم يكن عندي الشعور الذي امتلكته في بغداد. ليس بسبب تقاسم خالي الغرفة معي، بل لأنني لم أشعر بأنني أقيم في مكانٍ يعود لي، أدفع ثمن السكن فيه، أرتّبه كما أشاء، أضع فيه الأثاث الذي أريد، أدخله وأخرج منه حسب حاجتي وهواي. ضمير التملك يصبح حقيقةً للمرة الأولى: تلك هي غرفتي التي أدفع أجرتها شهرياً، ستة دنانير (٢٠ دولاراً في ذلك الوقت) على ما أتذكر، ذلك هو سريري. الآن أستطيع أن أشتري ما يعجبني من الكتب. الآن أستطيع دعوة الصديق الذي أشاء. العديد من الأصدقاء زاروني، جلسوا أو ناموا في الغرفة تلك. حتى أبي زارني فيها، نام على سريري، فيما افترشت أنا الأرض على أحد الفِراشين اللذين تركهما لي زميلا غرفتي السابقَين.

الغرفة تلك، التي كانت جزءاً من خانٍ كبير سكنه جيشٌ من العزّاب قادمون من مختلف مدن البلاد، بعضهم طلاب، بعضهم الآخر موظفون أو جنود، كان يقع في زقاق صغير خلف مطعم جميلة المواجه لتمثال الشاعر معروف الرصافي، الغرفة التي تقدمت ساحة البيت، إلى اليمين مباشرةً بعد الدخول، كانت الخطوة الأولى التي سيقطعها الكاتب الذي أصبحت عليه، ليس لأنها منحتني بحبوحةً صغيرة من الاستقلالية، ذكّرتني بحياة أولئك الكتّاب العالميين من الجيل الأميركي المفقود، الذين قرأت عن

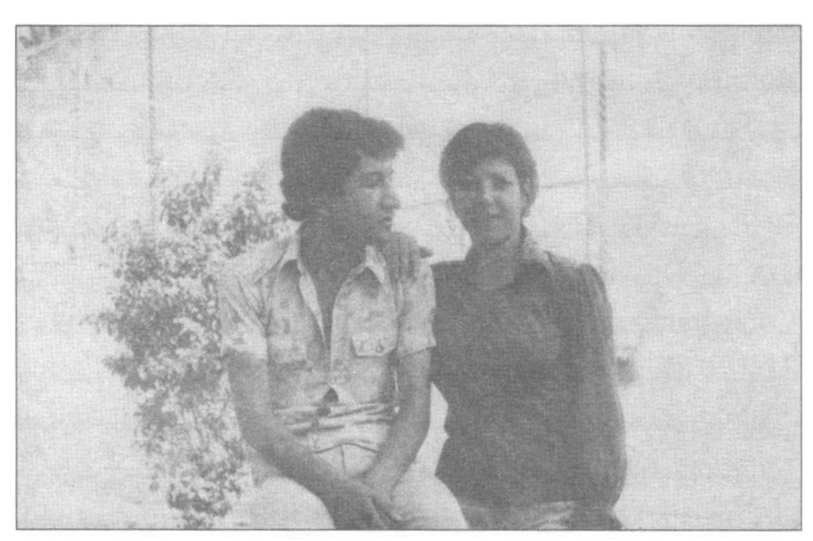
حياتهم الكثير، كيف عاش هؤلاء حياتهم في باريس، أدرك اليوم أنه تصور رومانسي، يبدو بعيداً عن الواقعية، لكن شاباً في مثل سنّي يريد أن يصبح كاتباً ويأتي إلى بغداد ذلك الوقت، بغداد سنوات السبعينيات الضاحكة تلك، رغم عدم خلوّها من نكد، سيفعل كل ما في وسعه لكي يغذّي تصوراته الرومانسية تلك، لكي يقول أنا أحد الـ"لوست جينيريشن" العراقيين. ها أنا أسير على خطى الأسطوات أولئك في بغداد، أعرف أنهم، ورغم ضياعهم الذي أدمنوا عليه في باريس، أوجدوا نظاماً لأنفسهم. أرنست همنغواي مثلاً كانت له غرفة في باريس في صحن خلفي من شارع "نوتره دامه ده شامب ١١٣"، فوق معمل لنشارة الخشب، يهبط كل صباح من شقته إلى مقهى "لا كروسيري ده ليلاس" في بداية شارع مونبرناس، يجلس هناك، يكتب ويشرب قهوته ويدخن سيجارته حتى الساعة الثانية بعد الظهر، ليصعد بعدها إلى شقته ويتناول وجبة الغداء مع زوجته الأولى آنذاك إليزابيث هدلي ريشاردسون. نفس الشيء فعله عندما أقام قبلها في شقة في نهاية شارع رو كاردينال ليمونه عند ساحة ده بلاس كونتريسكاربه، عندما واظب على الذهاب كل صباح للكتابة في مقهى هادئ عند ساحة سانت ميشيل. أما في أوقات العصر أو المساء فيقوم بجولة في الأسواق المجاورة، في الحانات، إذا لا يلتقي بزملائه الآخرين، سكوت فيتزجرالد أو ترومان كابوتي، أو يزور غرترود شتاين في الأتيليه في شارع "رو فلور رقم ٥٧"، أو سيلفيا بيج صاحبة مكتبة شكسبير وشركاؤه في شارع لوديون ١٢، أو عزرا باوند. وأنا؟ فلأن عليّ الذهاب إلى الكلية صباحاً، ولا أعود قبل الثانية ظهراً، لا بدّ لي من عمل العكس: أن أكتب في الليل. ثم إن الخان يهدأ ليلاً، كل واحد في غرفته. حتى في ليالي الصيف الحارة، حيث ينام الجميع في صحن الخان، يسيطر على المكان الهدوء التام. في ساعات العصر لا بدّ من التجول في المناطق والأحياء المحيطة في الخان، في حي الحيدرخانة التي يعدّ الخان جزءاً منها، أو في منطقة الفضل وأبو سيفين أو في أسواق الشورجة. في كل الأزقة الضيقة التي اشتهرت بها تلك الأحياء يحتاج المرء أن يرمي حجراً فقط حتى يقع على قصة، كل مكان قصة، كل إنسان قصة، نحن نلتقي الناس ولا ندري أن وجوههم مثل لحاء شجرٍ قديم حفر الزمن عليه القصص الكثيرة. غالباً ما نقرأ القصة الوحيدة التي نراها أمامنا في الوجه، لكن اذهب إلى السوق وتطلّع في الوجوه المارة بك، ستسمع بالتأكيد العشرات



من القصص، ذلك ما تعملته من جولاتي تلك.

اليوم أجلس أكتب منذ ساعات الصباح الأولى حتى الثالثة بعد الظهر، باستثناء عطلة نهاية الأسبوع، في غرفتي في بغداد ذلك الوقت. كنت أبدأ بالكتابة ليلاً وأنا أسند ظهري للمخدة على عارضة السرير، يومياً حتى الساعة الواحدة ليلاً، باستثناء مساء يوم الثلاثاء الذي خصصته للذهاب إلى اتحاد الأدباء في ساحة الأندلس، قبل أن تدخل على أجندتي نوادٍ وحاناتٌ أخرى. وإذا كانت الغرفة هي الخطوة الأولى في رحلة الكاتب الذي أردت الوصول إليه، فإن نادي اتحاد الأدباء هو الخطوة الثانية، لاغير.

كان الإنكليز هم الذين أدخلوا تقاليد النوادي في سنوات العشرينيات، والتي كان أغلبها من تصميم الميجر ويلسن، وهو معماري بريطاني كان يتمتع بثقافة عالية في التصميم. نادي العلوية الواقع على نهر دجلة مثلاً، حيث سكن الإنكليزي، والذي صممه ويلسن عام ١٩٢٤م، بطلب من "مس غرترود بيل"، المصممة الأولى للعراق كما نعرفه في خريطته الحالية، لكن المصممة الفاشلة أيضاً، ليس هو أرقى النوادي التي انتشرت في بغداد آنذاك وحسب، بل هو أول النوادي التي بُنيت في بغداد، أما آخرها فهو المبنى الصغير الذي يحوي حتى اليوم مبنى وحديقة نادي اتحاد الأدباء في العراق



نجم والي مع صديقة في حديقة أكاديمية الفنون الجميلة في بغداد عام 1975.



الذي لا يبعد كثيراً عن النادي الأول.

المبنى الصغير هذا، لكن اللافت للنظر بجماله أيضاً، الذي بُني على شكل سرادق أنشأه الإنكليز على الطراز البريطاني، هو خليط من البناء المعماري لناد أرستقراطي بريطاني، مثل كل تلك النوادي التي ازدحمت بها العاصمة بغداد أو البصرة الميناء، والبناء المعماري لفندق أقرب، في الحقيقة، إلى شكل موتيل يقع على طريق زراعي متفرع عن الطريق السريع، حيث امتدت أمام البناية الرئيسية ساحة صغيرة، بمثابة موقف خاص للسيارات، فيما تقدمت البناية صالة كبيرة يدخلها المرء مباشرةً، توزعت في جوانبها أكثر من صوفا تسع كل واحدة منها من ثلاثة إلى أربعة أشخاص، بالإضافة إلى طاولة استعلامات قديماً كان يجلس عندها موظف استعلامات، بمثابة شرطي أمن، اسمه جلال على ما أتذكر، قبل أن يُستبدل بعد سنوات من دخولي إلى هناك بأديب بعثي تسلّم دور الشرطي الذي راح ينظّم دخول الزوار (أشهر بعثي جلس هنا هو القاص لطيف ناصر حسين، الذي توفّي بتشمّع في الكبد أو بسكتة قلبية في التسعينيات). إلى يمين وشمال صالة الاستقبال توزعت غرف صغيرة هي مكاتب لاجتماع الهيئة الإدارية للاتحاد ولمجلته الفصلية **الأديب المعاصر**، كما كان بعضها مخازن للكتب والمجلات. وإذا سار المرء مباشرةً إلى الأمام فإنه سينتهي، أولاً، إلى شرفة صغيرة يفصلها زجاج عن الصالة الرئيسية، مساحتها لا بأس بها، ربما اتّسعت سبع أو ثماني طاولات. تنتهي الشرفة تلك إلى حديقة واسعة نسبياً، ارتفعت على أرضها بضعة أشجار، أشجار النارنج مثلاً، فيما توزّعت على جانبيها أرائك عديدة مختلفة الأحجام وطاولات منخفضة الارتفاع. أما البار فينفتح على الشرفة وعلى الحديقة، ويقع على الجانب الأيسر من النادي.

كانت الصالة الصغيرة مليئة بالضيوف، وكان يجب أن يكون فصل الشتاء، عندما دخلتها للمرة الأولى مع القاص والروائي أحمد خلف، الذي بالإضافة إلى إعجابي بالقصص التي نشرها في ذلك الحين فإنني سبق وأن تعرفت إليه في زيارة سابقة له للعمارة جاء إليها بصحبة مثقف عماري عرّفني إليه، اسمه حسين عجة، يسكن اليوم في باريس. طبعاً أشكر أحمد خلف على دخولي نادي اتحاد الأدباء، ليس لأنني حتى لم أملك في حينه بطاقة عضوية للاتحاد تسمح لي بالدخول، بل لأنني، باستثناء أحمد، لم أكن أعرف أديباً آخر في بغداد. حتى حسين عجة الذي كان موجوداً في تلك الليلة



في النادي أراد مغادرتي النادي بأسرع وقت، ربما ظن أنني ما زلت صغيراً على النادي، وإلا لا أعرف سبباً آخر، على عكس أحمد الذي كان فرحاً بمصاحبتي إلى هناك، و لم يهمّه فارق السنّ الذي بيننا. أحمد خلف من مواليد ١٩٤٣، وأنا من مواليد ١٩٥٦، وهذا يعني، عندما دخلنا نادي اتحاد الأدباء في تلك الليلة، كان له من العمر ٣١ عاماً، فيما دخلت أنا للتو التاسعة عشرة من عمري. كنت سعيداً وفخوراً بمصاحبتي لأحمد خلف، كان بالنسبة لي أكثر كتّاب القصة القصيرة العراقيين حداثةً، وكنت أقرأ قصصه القصيرة مثلما أقرأ نصوصاً عالمية. أتذكر كم بهرتني قصة "المحطة" التي نشرها في مجلة **الأقلام** في بداية السبعينيات، قصة سارت على خطى صاموئيل بيكيت، أو قصة "ليل القتلة" بكل ما حملته من كابوس كافكوي وإدانة للسلطة آنذاك، القصة نشرتها مجلة **الطريق** الشيوعية اللبنانية ضمن ملف عن القصة العراقية القصيرة أعدّه الناقد الشيوعي اللبناني محمد دكروب، بعد زيارته لمهرجان المربد الشعري الذي أُقيم في البصرة عام ١٩٧٠. أما مجموعة أحمد القصصية **نزهة في شوارع مهجورة**، التي حوت أغلب قصصها عوالم سوريالية، خاصةً القصة التي حملت المجموعة عنوانها، فتظل مجموعة قصصية استثنائية في تاريخ الأدب العراقي المعاصر. فكيف لا أفتخر، أنا الشاب الصغير، بدخول اتحاد الأدباء مع كاتب كانت رؤيته بالنسبة لي، ناهيك عن صحبته، أمنية كبيرة، وهي مفتاحي لدخول عالم الأدب في العاصمة بغداد.

في تلك الليلة كنّا قادمين من شارع السعدون، عند مدخل مكتبة حياوي. في الحقيقة لم يصدق أحمد أنه سيعثر عليّ هناك، ظنّ أنني لن أعثر على المكتبة، خاصةً وأنني جديد على المدينة ويمكنني أن أضيع. ربما لم يكن قلقه في غير محله. المدينة كانت مزدحمة بالمكتبات في ذلك الوقت، وكانت تفتح أبوابها حتى ساعات متأخرة من الليل، مشهد يمكن رؤيته في العاصمة الأرجنتينية بوينس آيريس فقط (على الأقل في هذا: لا تتقاسم المدينتان في تاريخهما العسكري فقط، بل تقليد قراءة وبيع الكتب أيضاً!). فبالإضافة إلى المكانين التقليديين في بغداد لبيع الكتب: شارع المتنبي وسوق السراي، أو بالإضافة إلى المكتبة البغدادية المشهورة، مكتبة مكنزي الواقعة في شارع الرشيد، انتشرت العديد من مكتبات بيع الكتب في بغداد، بعضها حديث نشأ في أوائل سنوات السبعينيات، كمكتبة عبود المشهورة في شارع الرشيد، مقابل بناية البريد المركزي، أو مكتبة علي

عند مدخل شارع السعدون إلى الجهة اليسرى، فيما كان بعضها الآخر قديماً نشأ في بداية سنوات الستينيات، كما هي حال مكتبة النهضة ومكتبة حياوي الواقعتين عند مدخل شارع السعدون إلى اليمين.

أغلب تلك المكتبات زرتها في مرات سابقة، مكتبة مكنزي مثلاً دخلتها وأنا طفل مع أبي، أما مكتبة حياوي فعرفتها من زيارتي الأولى لغاليري الأربعة في شارع السعدون. عند تلك المكتبة التقينا أنا وأحمد، اشترى هو كتابين، طبعاً كانت المكتبة مليئة بالكتب، خاصةً الكتب الجديدة التي استقرت بإغراء عند واجهتها الزجاجية، مئات الكتب التي شكّلت إغراءً بالنسبة لقارئ نهم مثلي قادم لتوه إلى بغداد، لكنني لم أملك لحظتها ما يكفي من مصروف لشراء كتاب، كأن أحمد عرف ذلك، لأن أحد الكتابين اللذين اشتراهما أهداه لي، كان على ما أتذكر، مجموعة قصصية للأميركي من أصل أرميني وليم ساروريان، **الفتى الجريء على الأرجوحة الطائرة**، التي حازت على جائزة البولتيزر عام ١٩٣٤. أما الكتاب الثاني فكان **العذراء والغجري** لـ د. هـ. لورنس، الذي حوى على قصتين، الأولى حملت عنوان الكتاب نفسه، والثانية حملت عنوان "المرأة التي جمحت"، هذا الكتاب سيهديه أحمد لزوجته. ما زلت أتذكر إهداءه الذي كتبه لها



نجم والي مع زميلات وزملاء من فرع اللغة الألمانية في سفرة سياحية إلى سدة الهندية جنوب بغداد عام 1976.



وصولي إلى بغداد، هم كائنات بشرية لا علاقة لهم بالأساطير، لكن أن يفكر المرء بشيء هو أمر وأن يعيشه هو أمر آخر. في مجلة **الأقلام** الشهرية التي كانت تصدر عن وزارة الثقافة والإعلام، أو في مجلة **الأديب المعاصر** الفصلية التي كان يصدرها اتحاد الأدباء، أو في مجلة **ألف باء** الأسبوعية، قرأت للعديد من الأسماء التي سكن أصحابها بغداد. كان النشر حكراً لهم، هم أدباء بغداد، إلا استثناءات قليلة طبعاً. بعضهم تعرّفت عليه في تلك الليلة، والبعض الآخر كان عليّ أن أنتظر زيارات ومناسبات أخرى لألتقيه. بعضهم أصبح صديقاً لي، وبعضهم الآخر ظلّ ينظر إلي بصفتي "أديب قادم من المحافظات"، أمر يعني أنني دون المستوى المطلوب. ومن لم أتعرف عليه في تلك الليلة، في صالة اتحاد الأدباء، تعرفت عليه في مكان آخر، كما حدث في تلك الليلة، عندما اقترح أحمد تكملة سهرتنا في نادي الإعلام في شارع أبي نؤاس لأتعرّف على أدباء آخرين هناك: الشاعر فوزي كريم الذي يقيم اليوم في لندن والقاص عبد الستار ناصر الذي توفّي قبل شهور في كندا.

يمكنني عمل قائمة طويلة بأسماء الأدباء الذين تعرفت عليهم وبسرعة منذ زيارتي الأولى تلك، والذين بعضهم مات وبعضهم الآخر توقف عن الكتابة أو هاجر إلى بلاد الشيطان الواسعة. لكن ليس ذلك ما أردت قوله الآن، كل ما أردت توضيحه هو أن الجو الأدبي الذي غلّف فضاء زيارتي الأولى تلك جعلني أصبح على وعيّ بأنني، لكي أكون كاتباً، عليّ أن أصنع الشخصية الخاصة بي. صحيح أنني لم أشأ مقارنة نفسي بالذين كانوا يترددون على الاتحاد، أو أن أنتهي إلى ما انتهى إليه أغلبهم، سواء أولئك الذين، ليأسٍ أو لإدمان، أصبحت قنينة الخمر أهم بالنسبة إليهم من إنجاز كتاب، أو سواء أولئك الذين بطاقة العضوية في الحزب الحاكم، حزب البعث، هي التي أدخلتهم عالم الأدب، دون أن يعني أنهم امتلكوا موهبةً أدبية ما. أقول إنني، وبغض النظر عن المجموعتين المذكورتين، بل وبغضّ النظر حتى عن المجموعة الثالثة التي ضمّت الأدباء الشيوعيين، حلفاء البعثيين في السنوات تلك، لم أجد في أحد من الجالسين هناك المثال الذي عليّ السير عليه. ربما شكّل أحمد خلف الاستثناء، ليس لأن القصص التي كتبها أعجبتني، بل أكثر لأنه هو الآخر كان همه الكتابة أكثر مما همّه التردد على اتحاد الأدباء كل ليلة. وأظن أن الذهاب إلى الاتحاد للدردشة مع

الأصدقاء في أماسي الثلاثاء وحسب طقس حمل الكثير من السعادة إلي، إن لم يكن مناسبة للحديث مع الأصدقاء عن الأدب وآخر القراءات. إلا أنني، ورغم الصداقات التي جمعتني مع بعض الأدباء، خاصةً مع الذين يكبرونني سناً وبدأوا بالكتابة قبلي، بذلت كل ما في وسعي لكي أحافظ على الشخصية التي لي، ألاّ أكون مثل أحد. الصداقة شيء ومشروع الكتابة شيء آخر. المعرفة تلك هي الدرس "الأدبي" الثاني الذي تعلمته في بغداد. فلكي يكون المرء كاتباً عليه أن يكون مختلفاً؛ أن يعرف أنه لا يشبه أحداً؛ أن يعرف أنه سيأتي بجديد. عشرات الروايات تُنشر يومياً، إذا ليس المئات أو الآلاف، لكن من يريد كتابة رواية جديدة عليه أن يفكر في بادىء الأمر: ما الذي ستأتي به روايتي من جديد.

تشكيل الشخصية الخاصة ليس هجوماً على أحد أو عدم احترام له. كلا، مطلقاً. فلا تزال عندي من صداقات تلك السنوات بقايا ما يحملني على الفخر بها حتى اليوم، ليس المهم عمل قائمة منها هنا بل المهم هو خلاصتها التي يمكن مقارنتها بما كتبه فيلسوف الوجودية الفرنسي جان بول سارتر وهو يفتتح مقالاً مؤثراً برثاء صديقه اللدود أو عدوه الحميم، شريكه لسنوات طويلة في تحرير مجلة **الأزمنة الحديثة**، ميرلو بونتي: "العديد من الأصدقاء فقدتهم وهم أحياء والذنب ليس ذنب أحد، إنما كانوا ما كانوا وكنت ما كنت". كلا. أعني بتشكيل الشخصية الخاصة المحافظة على مسافة من ومع الآخرين، حتى في الصداقات. التميّز هو المهم. كم كرهت، مثلاً، أن أُنسب إلى جيل، خاصةً في العراق، يعني المرء بالجيل عشر سنوات، وليس كما أفهم، كما يجب أن تكون عليه كلمة جيل بالمعنى الأدبي بالفعل، عندما يكون الحديث عنها هو الحديث عن مرحلة، فترة حاسمة في المجتمع والتاريخ. لنأخذ، مثلاً، "الجيل المفقود"، الصفة التي أُطلقت على الكتّاب الأميركان الذين عاشوا في باريس في الثلاثينيات، ولا يهم فارق السنّ بينهم، لا يهم إذا كانوا نساءً أو رجالاً، أو اختلفوا في طريقتهم بالكتابة. كانوا موحّدين في إقامتهم في باريس، في هروبهم من الولايات المتحدة الأميركية في سنوات الأزمة الاقتصادية التي عصفت بها آنذاك، في ردود أفعالهم الأدبية. الغضب والجنون، المغامرة والرغبة بالتجديد، تلك هي الصفات التي جمعتهم. عدا عن ذلك، امتلك كل واحد منهم طريقته بالكتابة. ماذا جمع أسلوب هنري ميلر الفاضح إلى



أسلوب همنغواي المتقشّف "البرقي"؟ أو ماذا جمع أسلوب سكوت فيتزجرالد في الكتابة إلى أسلوب ترومان كابوتي؟

أطلقوا علينا، على كل المجموعة التي شاركتني في السنّ أو بدأت في تلك السنوات بالكتابة والنشر، جيل السبعينيات، وكان من الأفضل تسميتنا جيل الجبهة الوطنية، وتلك ليست مزحة مني، فلسوء حظ ما أُطلق عليه "جيلي" أنه عاش الفترة التعيسة تلك (وهل هناك فترة غير تعيسة في العراق؟)، لأن المعركة الأيديولوجية بين الحليفين اللذين سيبدآن بتسميم حياتنا منذ ذلك الحين كانت على أشدّها، رغم محاولتهما إظهار جدية حلفهما "المقدس". فمن جهة قدّم الشيوعيون أدباءهم في صحافتهم، في جريدتهم الأسبوعية **الفكر الجديد** واليومية **طريق الشعب**، وعلى صفحات مجلتهم الشهرية **الثقافة الجديدة**، ولا يهم انفتاح الصحافة هذه من حين إلى آخر على بعض الأسماء غير الشيوعية لأن ذلك كان يدخل في تكتيك الشيوعيين لا غير؛ فيما قدّم من الناحية الأخرى البعثيون أدباءهم لكن بحلة مزيّنة وبالألوان، وفي هذا لم تَعُزْهم لا الصحف ولا المجلات، كلها كانت في أيديهم: المجلة الشهرية **الأقلام**، مجلاتهم الأسبوعية **ألف باء** و**مجلة الإذاعة والتلفزيون** ومجلة **حراس الوطن**؛ صحفهم اليومية **الثورة** و**الجمهورية** و**الراصد**. الطريف في القضية كلها أن الأدباء الذين تبارى بهما الحليفان كانوا جميعهم من الشعراء، وكأننا عدنا إلى الحرب البدوية القديمة بين القبائل. الشعراء بصفتهم ناطقين باسم القبيلة. المعركة كانت محسومة طبعاً هنا، لأن الغلبة لقبيلة صدام حسين، كانت عندهم الدولة والجيش والمؤسسات والأموال. على هامش هؤلاء عاش طرف ثالث خارج المعسكرين، طرف هاجمه الاثنان.

في السبعينيات كان من الصعب لمثقف أن يبقى مستقلاً، لأن الطرفين كانا ينظران إليه بعين الريبة. كان النشر صعباً بالنسبة لكاتب مستقل، خاصةً في المجالات غير الشعرية، كتابة القصة أو المقالة، عن أي موضوع تكتب وأية قصة تروي، وعيون العسس تحاصرك في كل مكان، والصحافة الحكومية تسبّح بحمد صدام. لهذا كنت، أنا مثلاً، مقلاً في النشر، فطوال إقامتي في بغداد، التي استمرت ست سنوات، لم أنشر غير أربع قصص قصيرة، واحدة في **طريق الشعب**، الثانية في مجلة **ألف باء**، الثالثة في مجلة **الطليعة** الأدبية الشهرية والرابعة في **الأديب المعاصر**، رغم أنني كنت حاضراً بقوة في المشهد الأدبي في

النقاشات التي دارت في تلك المرحلة، ومحسوباً على جيل السبعينيات. ومن لا يشغل نفسه بالأيديولوجيا سيتّهمه الطرفان المتحالفان بليبرالية التفكير، في زمن كانت الليبرالية فيه تهمة ويمكن أن تقود صاحبها إلى الإعدام، الأمر الذي يجعله محاصراً في النشر، كما في حالتي. لكن لا النشر ولا النجاح اليومي السريع شكّلا هاجساً بالنسبة لي. كان في ذهني مشروع واحد: أن أصبح كاتباً، أن أحقق مشروعي ذلك في الحياة. كأنني عرفت أنني سأنجح بتحقيق ذلك فقط إذا حافظت على استقلاليتي.

اليوم كلما تذكرت تلك الأيام، أو كلما تطلعت حولي، ثبت لي أن أغلب أدباء جيلي أضاعتهم الأيديولوجية. الحداثة التي تحدثوا عنها ضاعت: من جهة في المنفى، في مكاتب المنظمات الفلسطينية الفاسدة في "جمهورية" الفاكهاني في بيروت، حيث لجأ العديد من الشيوعيين منهم في نهاية السبعينيات، ومن الجهة الأخرى داخل العراق حيث بقيّ البعثيون أو الذين أصبحوا بعثيين منهم لاحقاً، ينشدون للديكتاتورية والحرب والقتل والعدوان. لا بدّ من الحديث عن ذلك وتذكّره لأن مشهداً شبيهاً يتكرر اليوم في بغداد: عاد شعراء القبيلة الذين يدافعون عن هذا الحزب أو ذاك، وبالذات أديب السلطة. في السبعينيات عندما تسلّط الشعراء البعثيون على المشهد سحبوا معهم العديد من الشباب الذين بدأوا بكتابة الشعر للتو، كانت المكافآت والوظائف مغرية، ولم يفلت من قبضة الإغراء إلا القليلون. وحدها كتابة ما أُطلق عليه في حينه "الصباحيات"، كل تلك الإنشاءات الدعائية المليئة بالبلاغة الفارغة التي كان يسمعها المواطنون في الراديو صباحاً وهي تحثّ "العامل والفلاح والكادحين في خدمة الثورة" ملأت الجيوب بالدنانير. عن كل ورقة فولسكاب ٤ دنانير بسطرين متباعدين يُدفع ديناران، أي ما يعادل ستة دولارات! فكيف لا ينتهي معظم الشباب من أبناء جيلي لهذا الإغراء، إلى كتابة الكلمات الغثّة كل صباح. الرغبة بامتلاك شقة وسيارة والدخول للمبغي، الرغبة بالحصول على وظيفة في الإذاعة والتلفزيون أو في مؤسسات وزارة الثقافة والإعلام كان (ولا يزال) حلم العشرات من الانتهازيين وعديمي الموهبة. من يقرأ صحافة الحكومة في بغداد اليوم سيرى أسماء تتكاثر مثل نبات الفطر، كما حدث سنوات السبعينيات.

المعركة الأيديولوجية اليوم في العراق تكرّر نفسها بلبوسٍ آخر، بلبوس الدين. فمن



جهة أدباء السلطة، ومن الناحية الأخرى أدباء الهامش. النتيجة معروفة دائماً، في كل العالم. سيغنى ويسمن أدباء السطة، لكنهم سيضيعون طيَّ النسيان. من يتذكّر اليوم في ألمانيا الأدباء الذين خدموا هتلر، وفي إسبانيا الأدباء الذين خدموا فرانكو؟ في النهاية لن يبقى غير الأدب الذي لا يُكتب في خدمة سلطة أو سلطان.

٢١

حديقة الأدب بين نصب الحرية لجواد سليم وجدارية السلام لفائق حسن

كان من الأفضل أن يطلقوا عليها منذ ذلك الحين اسم "حديقة الأدب"، بدل الاسم الذي تحمله حتى الآن: "حديقة الأمة". أو "حديقة السهارى". ليس بالنسبة لي وحسب، بل بالنسبة لجميع أفراد الشلّة الأدبية الشابة "العبثية" أو "الوجودية"، كان هذا الاسم أكثر لياقةً بها، ليس لأننا سرحنا ومرحنا حولها على راحتنا، أو "ضعنا" كما أطلق علينا أحد شيوخ الشعر من الشعراء في بغداد، بل لأنها المكان الذي نضجت على أرضه كل ما يحتاجه الأدب من قصص وروايات. حديقة الأمة، أرض البشر العراقيين، وليس فقط أرض البشر من سكان بغداد. بشر قادمون من كل الجهات، ويكفي أن يرمي أحد حجراً هناك حتى يقع الحجر على قصة. حديقة تطير فيها القصص في الهواء، سعيد الحظ من يقتنصها، يتنفسها دون عناء. حديقة الأدب إذن، وبامتياز. إذا لا تكون أقدم حديقة في بغداد وأحد أكثر أماكنها إصراراً على الحياة.

عام ١٩٣٧، افتتحها الملك غازي وسط مدينة بغداد، عند الباب الشرقي بالتحديد، المكان الذي كان أحد أبواب بغداد المشهورة التي نشأت لاحقاً في العهد العثماني وليس في زمن بنائها الأول. لأن الأبواب التاريخية، باب الشام، باب البصرة، باب خراسان وباب الكوفة، بوابات بغداد المدورة تلك التي بناها الخليفة أبو جعفر المنصور، والتي اندثرت مع مرور التاريخ، كان موقعها في جانب الكرخ من بغداد. أما الباب



الشرقي العثماني وحديقة الأمة فموقعهما في الرصافة، في مركز مدينة بغداد. الغريب أن الحديقة هذه، على عكس العديد من الأماكن والشواهد التاريخية في بغداد، لم يتغير اسمها إلا مرة واحدة، فهي منذ تغيير اسمها من حديقة غازي، وهو اسم ثاني ملك على العراق، إلى حديقة الأمة، بعد انقلاب العسكر وقيام الجمهورية العراقية في ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨، ما زالت تحمل نفس الاسم الأخير. ما زالت في المكان ذاته. صحيح أن الخراب أصابها، خاصةً بعد عام ٢٠٠٣، بسبب التفجيرات المتعددة بالسيارات المفخخة والعبوات الناسفة، ناهيك عن الإهمال الذي تعرضت له لفترات طويلة، إلا أنها ظلت مقاومة في مكانها، بل أجبرت المسؤولين في أمانة العاصمة على إعادة الحياة لها وافتتاحها من جديد وسط احتفال رسمي وشعبي.

الباب الشرقي الذي بُنيت عنده الحديقة، مثلاً، والذي كان يقع عند الجهة الشرقية من بغداد القديمة حتى منتهى شارع الرشيد، لم تحدث له تغييرات عديدة وحسب بل لم يعد هناك. صحيح أنه ظل محافظاً على اسمه منذ أن بناه العثمانيون، لكن الباب الذي كان على شكل برج لأحد أبواب سور بغداد تحوّل، أولاً، إلى كنيسة بعد الاحتلال البريطاني لبغداد عام ١٩١٧، قبل أن يهدمه لاحقاً الملك غازي ويحوّله إلى حديقة. استثناء ملفت للنظر حقيقةً. ليس ذلك وحسب، فالحديقة ومع مرور الزمن، بعد ١٩٥٨، أصبحت مركز بغداد التراثي والثقافي، بسبب محافظتها على الرموز التذكارية المشهورة ليس في بغداد وحسب بل في عموم البلاد، كنصب الحرية للفنان جواد سليم ولوحة السلام في ساحة الطيران، الجهة الخلفية من الحديقة، للفنان فائق حسن، وتمثال الأمومة لخالد الرحال. الصرحان الأولان خاصةً، لأنهما شكّلا واجهتي الحديقة، على عكس الثالث الذي اختفى في داخل الحديقة، يراه زوار الحديقة فقط.

في أواسط السبعينيات، وإذا جاز القول، أصبحت الحديقة مركزاً لكل ما له علاقة ببغداد، مركزاً للبشر قبل شيء، وبالضبط عند تلك المسافة الممتدة من مدخلها الرئيسي عند ساحة التحرير، في الباب الشرقي، أو بالضبط عند الفلكة (الساحة الدائرية، قبل أن يُبنى نفق ساحة التحرير في أواخر السبعينيات، بين نهاية شارع الجمهورية وبداية شارع السعدون، حتى المدخل الخلفي للحديقة في ساحة الطيران الواقعة بين منتهى شارع الشيخ عمر وبداية شارع النضال. الحديقة بصفتها بانوراما



المشهد الجديد في العاصمة بغداد:

أولاً، عند البوابة الأمامية المارة المستعجلون، العابرون بين شارع الجمهورية وشارع السعدون، على الأغلب عابرون متأنقون أو زوار قادمون للمدينة، إذا لا يكونون من الزوار المُخبرين، الذين كانوا يدورون بسيارتهم الألمانية الصنع الفولكس فاغن حول دائرة "فلكة" ساحة التحرير، بانتظار أن يلوح لهم الصيد المناسب الذي يبحثون عنه، والذي سيطلقون عليه النار من السيارة "الرگـة". ألم تبدأ الاغتيالات الفردية لمعارضي الجبهة الوطنية في ذلك الوقت؟ وهل هناك مكان أفضل للاغتيال أفضل من الاغتيال تحت نصب الحرية الذي ارتفع في المكان؟ الحرية والقمع في مواجهة دائماً في نفس المكان!

ثانياً، البوابة الخلفية، حيث جدارية فائق حسن الفريدة من نوعها في العراق. آلاف من قطع الموزاييك وضعها الفنان، الذي وُلد في السنة التي اندلعت فيها الحرب العالمية الأولى، في جداريته، وكأنه يعرف أن العالم الذي أراد تجسيده هناك سيكون بديلاً، أو حلماً بالأحرى للبشر الذين سيفترشون الأرض تحت جداريته. على لوحة الفنان العراقي بامتياز عالم آمن يسوده السلام والحرية والآمال، عالم يسوده الحمام. بلا شك تأثّر فائق حسن العائد إلى بغداد من البوزار في باريس بحمامة السلام لبيكاسو، مثلما تأثر زميله النحات جواد سليم، الذي رغم أنه درس فن النحت في روما، بلوحة بيكاسو جيرنيكا، التي ليس من الصعب رؤية أغلب الرموز التي حملتها، من الحصان المبقور (الثور عند بيكاسو) إلى المرأة الجامحة وهي تحمل الشعلة (كما عند بيكاسو) على ملحمته التي ارتفعت عند مدخل الحديقة. ولكن وجوه الناس التي تلاحمت في لوحة فائق حسن وهي تحمل الحمامات هي وجوه عراقية بامتياز، وجوه لا تختلف عن وجوه الذين كانوا يجلسون تحت الجدارية. الشاعر سعدي يوسف كاد ينجح بنقل صورة تقريبية عن المكان في قصيدته التي عنونها "تحت جدارية فائق حسن" لولا ثقل الأيديولوجي الذي أرهق القصيدة:

"تطير الحمامات في ساحة الطيران. البنادق تتبعها، وتطير الحمامات. تسقط دافئةً فوق أذرع من جلسوا في الرصيف يبيعون أذرعهم. للحمامة وجهان: وجه الصبي الذي يؤكل ميتاً، ووجه النبي الذي تتأكله خطوة في السماء الغريبة. وإذ يقف الناس



في ساحة الطيران جلوساً، يبيعون أذرعهم: سيدي قد بنيت العمارات... أعرفُ كل مداخلها، وصبغتُ الملاهي... أعرف ما يجذبُ الراقصينَ إليها. ورمّمت مستشفيات المدينة... لَمَ لا تشتري؟ إن كفّي غريبة. – أجسّ ذراعك؟ – يا سيدي جسَّها... – أمس... أين اشتغلتَ؟ تطير الحمامات في ساحة الطيران... وعينا المقاول تتجهان إلى الأذرع المستفزّة. يدخل شخصانِ سيارة النقل... ثم يدور المحركُ، ينفثُ في ساحةِ الطيران دخاناً ثقيلاً... ويتركُ بين الحمائم والشجر المتيبّسِ رائحةً من شواءٍ غريبةً... يقول المقاولُ: نرجع بعد الغروب. تقول الحمامة: أهجع بعد الغروب. يقول المغنّي: بلادي... لماذا يظل الغروب؟" إلى آخره من القصيدة، عندما سيقول سعدي: "يقول المقاول: جئنا لنبقى، تقول الحمامة: هل قال حقاً؟ يقول النقابي: إن السواعد أبقى" بإشارة منه إلى جملة من خطاب للرئيس العراقي آنذاك البعثي أحمد حسن البكر: "جئنا لنبقى"، وهو يعني سلطة حزب البعث. في نهاية القصيدة لا ينسى أن يكتب الشيوعي المتفائل جداً سعدي يوسف ما يلي: "يقول المناضلُ: إنّا سنبني المدينة. تقول الحمامة: لكنني في المدينة. تقول المسيرة: دربي إلى شرفات المدينة".

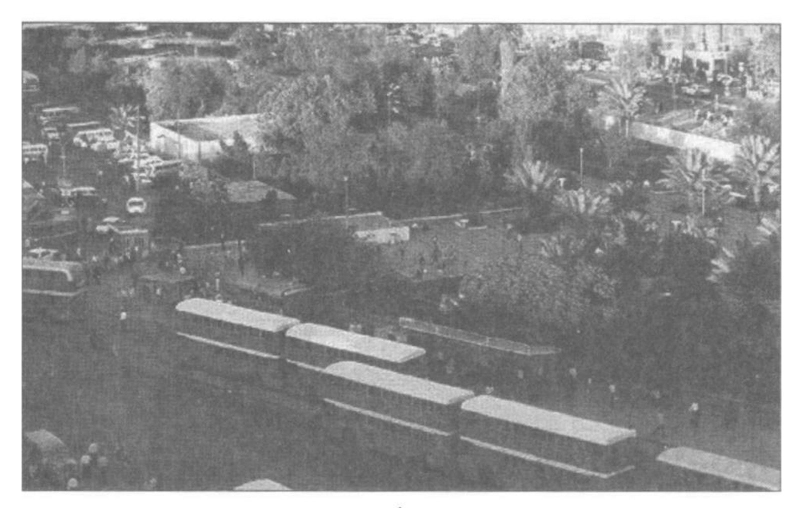
باختصار ضمّت حديقة الأمة (إذا استثنينا تمثال الأمومة الذي انتصب في وسطها بين المدخلين وبدا، حقيقةً، طارئاً عليها) ذراعي الأمة/ البلاد/ الشعب، الذراع الأول عند المدخل الرئيسي، هو الذراع التجريدي، الأنيق، الفخم. الذراع الثاني، في الخلف، هو الذراع الواقعي. أو بتعريف آخر: الرأس/ المدخل، والقاع/ الباب الخلفي. وهناك عند الباب الخلفي تجمّع الشعب/ القاع بالفعل. ليس عمال المسطر الذين اصطفوا هناك، يبيعون أذرعهم كما وصفهم سعدي يوسف وحسب، بل تجمّع كل بقية الشعب: الكسبة والجنود، بائعو السَكَنْد هاند (اللنـگـة) وعمال الخدمات، الشعب العامل بالأحرى. ساحة الطيران كانت المكان الوحيد الذي لا ينام في بغداد، مطاعم الأكل والباعة يفترشون الشارع. عمال الوجبات الليلية يتعشون هناك قبل ذهابهم إلى العمل، مثلما يفعل عمال الوجبات الصباحية، يفطرون في نفس المكان. دائماً هناك ما يكفي من الأكلات الشعبية السريعة، وما يستطيع أصحاب الدخول الواطئة دفعه. حتى المفلسون من شلّتنا "المتشائمة" آنذاك، البيض المقلي والعروق، سندويتش البيض المسلوق "بالعمبة" وسندويتش البطاطا مع الطماطم والطرشي والمخللات،

حتى الفلافل التي جاءت مع الفلسطينيين المهاجرين الأوائل، قبل أن تلحق بها أقراص الطعمية التي جلبها معهم العمال الضيوف من المصريين في أواخر سنوات السبعينيات. الشعب كله "بقضّه وقضيضه" يأكل هناك، أما الجنود فهم الزبائن الدائمون لساحة الطيران.

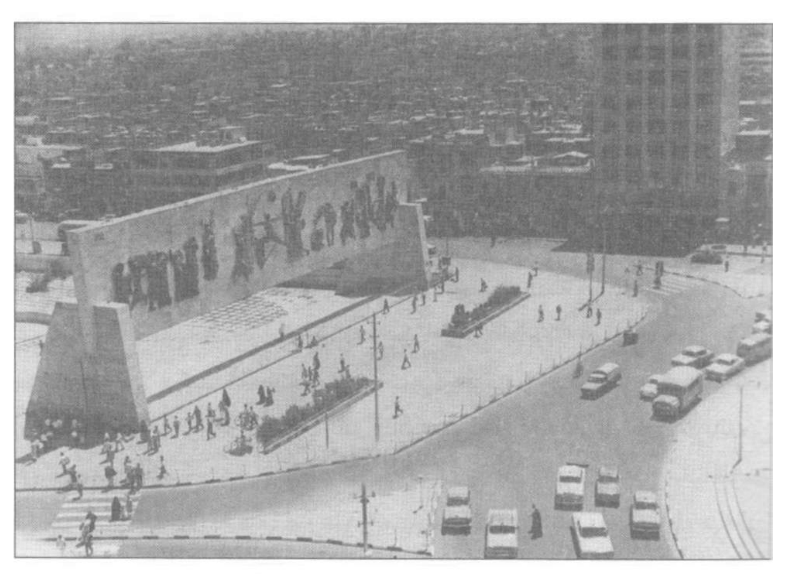
هناك كنت أفطر كل صباح قبل الذهاب إلى معسكري في المحاويل، حيث خدمت عاماً ونصف في كتيبة الإستمكان البطارية الرابعة رعيل الرادار من ربيع عام ١٩٧٩ إلى صيف ١٩٨٠. كان فندقي ملاصقاً لجهة الحديقة اليمنى، لم أشأ المبيت في معسكر المحاويل رغم أنني مثل أي جندي آخر ملكت سريراً ودولاباً هناك، كلا، فضّلت تأجير غرفة في فندق قريب من ساحة الطيران. ٦٠ كم تبعد المحاويل عن بغداد، ساعة ونصف في السيارة، لأن عليّ أولاً أن أذهب بسيارة نقل صغيرة إلى جانب بغداد الآخر، الكرخ، حيث كراج العلاّوي، من هناك آخذ سيارة الأيفا أو الكوستر، إلى المحاويل، عليّ أن أكون في الساعة الخامسة والنصف في ساحة العرضات (التمارين). هذا يعني، يجب الاستيقاظ في الساعة الثالثة صباحاً أو، كما فعلت أنا، الاكتفاء بالنوم عصراً، وفي الليل شرب العرق في اتحاد الأدباء أو أحد بارات شارع أبو نؤاس، بار سرجون أو صفوان أو ليالي السمر، ثم الذهاب إلى الفندق، لبس الملابس العسكرية والفطور في ساحة الطيران، سويةً مع الشعب العامل هناك: بالضبط تحت جدارية فائق حسن.

لم تكن الساحة غريبة عليّ، ليس بسبب جدارية فائق حسن، أو بسبب قصيدة سعدي يوسف التي قرأناها في جريدة **طريق الشعب** التابعة للحزب الشيوعي في نهاية تموز/ يوليو ١٩٧٣. سعدي كتب القصيدة في ١٧ تموز/ يوليو ١٩٧٣، وكأنه تعمّد استفزاز الحزب الحاكم. ألم يستولِ البعثيون على الحكم للمرة الثانية في العراق في ١٧ تموز/ يوليو ١٩٦٨؟بمناسبة الذكرى الخامسة لانقلابهم هذا الذي أطلقوا عليه "ثورة"، يفاجأهم سعدي يوسف بهذه القصيدة. لكنها الجبهة الوطنية والقومية التقدمية، كما أطلقوا على تحالف الحزب الشيوعي وحزب البعث، وسعدي يوسف بصفته عضواً في الحزب الشيوعي "الحليف" ما كان عليه استفزاز حليفه ورفاقه بهذا الشكل. لم يُعتقل سعدي بسبب القصيدة، لكنه أُبعد من وظيفته، من مستشار في وزارة الثقافة (رئيس تحرير **مجلة التراث الشعبي**) إلى موظف في أسالة الماء، عقوبة مخففة مقارنةً بآخرين كان





ساحة الطيران وحديقة الأمة في بغداد السبعينيات.



ساحة التحرير ونصب الحرية لجواد سليم في بغداد عام 1961.



من الممكن أن يتعرّضوا للإعدام بسبب قصيدة مثل هذه. لكن في النهاية، رغم أن سعدي يوسف شاعر شيوعي وقادم من البصرة التي كرهها صدام بقوة، إلا أنه ليس كردياً أو شيعيَّ الأصل. إنه من أصل سنّي. وبالنسبة للسلطة، عربي سنّي مثله مسموح له التمرد، لكن بحدود. فقط أولئك الذين تجاوزوا الحدود انتهوا: إما إلى أقبية المخابرات، كما حصل للقاص عبد الستار ناصر (مواليد ١٩٤٦ حي الطرطران بغداد) بسبب نشره "سيدنا الخليفة" في ربيع ١٩٧٦ في مجلة **الموقف الأدبي** السورية، قصة شتم فيها السلطة (بعد إطلاق سراحه تحوّل عبد الستار ناصر إلى كاتب بعثي من الدرجة الأولى!)، أو يُدسّ له السُمّ، كما حالة الشاعر البعثي ووزير الثقافة شفيق الكمالي لوقوفه ضد صعود صدام، أو يُعدم كما حصل لحسن مطلك، أديب اتُّهم بالمشاركة في مؤامرة انقلابية ومعه ضباط من عشيرته الجبور. سعدي يوسف كتب قصيدة فقط. لا تهمّ قوة نقدها للسلطة، لكن في النهاية كل قصيدة قابلة للتأويل!

بعيداً عن ذلك وما حصل لسعدي يوسف، أقول: مهما كانت قوة قصيدته "جدارية فائق حسن" على جيلنا، والتي ستحلّ محلها لاحقاً قصيدة "وجودية" هي **اعترافات مالك بن الريب** لشاعر بغدادي مسيحي، يوسف الصائغ، الذي هو من أطلق على شلتنا لقب "المتطيّرين"، لم أعرف ساحة الطيران من قصيدته، بل عرفتها من تجربتي الخاصة، حتى قبل أن أواظب على الفطور في الساحة تقريباً كل يوم في نصف السنة الأخيرة من خدمتي العسكرية في معسكر المحاويل/ بابل، حتى أصبحت رؤيتها أمراً روتينياً بالنسبة لي. نعم، كنت أعرفها، بسبب ترددنا عليها، أنا وتلك الشلة التي أطلقوا عليها اسم "المُتَطيِّرين" سيراً على خطى مُطلقها علينا يوسف الصائغ، الشاعر الذي كان شيوعياً يومئذٍ، قبل أن يتحول لاحقاً (مع عشرات من الشعراء) تحولوا مثله، إلى شاعر بعثي بامتياز، لا يكتب القصائد لصدام حسين وحروبه وحسب، بل يكتب بيانات الحب للديكتاتور. يوسف الصائغ، الذي كان صدر له في حينه ديوان **اعترافات مالك بن الريب**، والذي أصبح، خاصةً القصيدة التي حملت عنوان الديوان، إنجيلاً آخر بالنسبة لنا، ربما أساءه تفسيرنا لشعره، أو ربما شخصية الواعظ التي اختفت في داخله هي التي جعلته يشتمنا بالطريقة تلك، وهو يلعب بكلمة "الطيران". فالمُتطيِّر هو المتشائم الذي يتوقع الأسوأ، ربما قصدنا بهذا اللقب لعدم رضانا عن الواقع أو تشاؤمنا ممن يقودون



البلاد. أمر تحقق بالفعل مع الزمن! ولا أدري لماذا ظننا الصائغ بهذا الشكل، مجرد صبيان هوايتهم التشاؤم؟ فنحن لم نفعل سوى أن لبّينا نداء الحواس!

كنا شباباً، في بداية العشرين من العمر، وقصيدة "مالك بن الريب" حملت من الشك الوجودي الكثير والمناسب لسنّنا تلك، ربما حمّلنا القصيدة أكثر مما يجب، ربما أغاظه تحميلنا ذلك، من يدري؟ يوسف الصائغ مسيحي، ومعظم قصائد الديوان حملت لغة الكتاب المقدس، إن لم تحمل الروح التي حملها الكتابان، العهد القديم أو الجديد. لكن يوسف الصائغ شيوعي أيضاً، ومن هو شيوعي يجد في كل ما هو متمرد وليبرالي عملاً من صنع "الإمبريالية والصهيونية والرجعية العربية"، جملة محببة ردّدها الشيوعيون عقوداً طويلة مثل علكة سمجة على لسانهم. على أية حال، لا أدري من أين وصل خبر جولاتنا الليلية في ساحة الطيران إلى صاحب "مالك بن الريب"! كنا في الليالي التي نسكر فيها في اتحاد الأدباء، نذهب في الليل لكي نتعشى في ساحة الطيران، سويةً مع الشعب "العامل" الذي ناضل الصائغ أصلاً له، أو الذي شتمنا الصائغ باسمه. أطلق علينا لقب "مُتَطيِّرين"، رغم أننا كنا مجموعة صغيرة ضمّت ثلاثة شعراء، بينهم أنا القاص الوحيد. ليس ذلك وحسب، بل كان الثلاثة الآخرون شيوعيين أيضاً، وبينهم أنا الليبرالي. شتيمة الصائغِ التصقت بنا حتى انهيار الجبهة الوطنية، لأن المتطيّرين في غُرف السلطة تطيّروا وشكلوا خطراً على الجبهة الكارتونية تلك. المتطيّرون ساحوا ليالي عديدة في ساحة الطيران في منتصف السبعينيات، والوحيد الذي عرف منهم الساحة عصراً أو نهاراً هو المتطيّر أنا، ليس لأنني عدت إليها هذه المرة، أجّرت غرفة في فندق ملاصقٍ لها، بل لأن زملائي الثلاثة الآخرين كانت عوائلهم تسكن في ضواحي بغداد، واحد في مدينة الثورة والاثنان الآخران في مدينة بغداد الجديدة، وكانوا يزورون الساحة فجراً وحسب.

كان لا بدّ أن أمرّ بالساحة يومياً، عندما أنزل من الفندق، خصوصاً في يوم الجمعة أو عصر الخميس. هناك كنت أمرّ ببشر آخرين. الرجال الواقفون عند سور الحديقة، بالضبط بين المدخلين، أثاروا غالباً عندي الفضول. العديد منهم أصبحوا أبطالاً في قصصي. العديد منهم سمعت قصصهم. فهؤلاء، وعلى عكس الشعبين اللذين احتلا المدخل الرئيسي والمدخل الخلفي، لم يكونوا تجريديين ولا واقعيين، لا عابرين ولا عارضين،



كقوة عاملة. كانوا مقيمين، ثابتين مثل الحديقة في أماكنهم، هذا فيما يتعلق بالمكان، لكنهم كانوا غائبين فيما يتعلق بالحياة، مكان إقامتهم الدائمة كان الأوهام وحسب؛ أوهام حياةٍ ضاعت، وأخرى متخيلة. أوهام واقع ألقى بهم في خريف عمرهم إلى جدران حديقة الأمة، وأوهام خيال وأمنيات لم تتحقق. ذلك ما كانت تقوله وجوههم، ملامحهم التي انحفرت تجاعيد الزمن فيها. ربما تجاهلتهم في البداية، لكنني مع مروي المتكرر من هناك رحت أقترب منهم شيئاً فشيئاً، مثل طفل يتعلم السباحة للتو ويخشى الأمواج أو الغرق، كان من الصعب عليّ تجاهلهم، وشكراً لتعرفي صدفةً على والد زميلة لي في كلية الآداب، درست في فرع الأدب الفرنسي، رباب. أظن أنها هي الأخرى فوجئت بأبيها هناك. هذا ما رأيته على وجهها الحزين الذي امتزج فيه شيء من الشفقة.

حلقة الرجال التي التفّت حول والد زميلتي رباب، ورغم أن أغلبهم كبره بالعمر، على الأقل بخمس سنوات، كانوا لا يختلفون عنه لا في ملامحه الشخصية ولا في الهندام ولا في السلوك، وحتى إذا اختلفوا، فإنهم بذلوا كل ما ملكوه من جهد لئلا يختلفوا. حتى في الحكايات التي كانوا يروونها، لم يكن أحدهم يقول للآخر إن ما رواه ادّعاء من صنع خياله بلا شك، بل كان يحرص على المحافظة على نبرة صوته المؤدّبة، يمنح الآخر الانطباع بأنه يريد فقط تكملة القصة التي بدأها الآخر. الرجال الذين تراوحت أعمارهم بين الستين والسبعين من العمر، وهذا ما قالته لي التجاعيد التي حفرت في وجوههم ما يشبه الأخاديد، إذا لم تقله لي أطراف أصابعهم البنية اللون من التدخين المفرط وأسنانهم المتساقطة، أو الباقية المنخورة منها، ليست هناك لحظة وقفت معهم، وسمعتهم يتحدثون، و لم أشمّ رائحة الخمرة، العرق وليس أي خمرة أخرى، تتطاير من أفواههم. وغالباً رائحة ماركة عرق واحدة: عرق مسيَّح، أو الأسود كما أطلقوا عليه، ونادراً ما شممت رائحة العرق الأخفّ من الأولى من ماركة عرق العصريّة، أو الأبيض كما أطلقوا عليهم. ماركة عرق واحدة اختفت من قاموسهم: عرق الزحلاوي، الماركتان الأوليتان كلاهما كان يُطلق عليهما حليب سباع (أسود)، عرق لا يختلط فيه الماء، لونه أشبه بلون السبيرتو، طعمه قوي وحاد، فيما الثالث، الذي عند اختلاط الماء معه يتحول إلى لون الحليب، هو عرق نسوان (نساء) في قاموس رجال حديقة الأمة الطيبين. كان قد مرّ زمن طويل و لم أشرب خمرة العرق الأسود. لا أدري لماذا اختفى

من السوق فجأةً حتى أصبح الحصول عليه امتياز خاص. منذ زمن ونحن، خاصةً إذا كان الحديث عن شلّتي "المتطيّرة"، نشرب العرق ماركة الزحلاوي، عرق النسوان بالأحرى. وأمام الرجال "الأشاوس" هؤلاء ليس من اللائق حتى مجرد ذكر اسم عرق النسوان، أو الادّعاء بشربه، فكيف إذا أراد المرء شربه في حضرتهم؟ خاصةً وأنهم (ولا أعرف كيف ومن أين يحصلون على حليب السِباع هذا!؟) كان دائماً عندهم ما يكفيهم من عرقهم الخاص.

والد رباب، الذي التقيته صدفةً في إحدى نزهاتنا الأسبوعية أنا ورباب، كان في قمة نشوته "الخمرية" عندما رأيناه يفتح زجاجة ربع عرق جديدة. هذا يعني أنه يملك خزينة خاصة، ذلك ما أقلق رباب أيضاً. فعلى عكسه الذي فرح لرؤية ابنته الكبرى، التي لا يبدو أنه رآها في الوقت هذا من قبل، إذ كان يعود للبيت كل ليلة مخموراً تماماً. على عكس الأب، زمّت رباب حاجبيها وعاتبته بحب: "عفية بابا، لا تشرب هواي، وارجع للبيت مبكراً"، لأنها بالتأكيد عرفت أن يومه لن ينتهي دون أن يكون أكمل أكثر من قنينة. لكنه ليس في ذلك وحده، هذا ما قاله لابنته، التي قدّمها إلى زملائه مفتخراً، دون أن ينسى تقديمي أنا الآخر لهم بالصفة التي قدّمتني بها رباب إليه، زميلها في الكلية. منذ وفاة أمها التي ماتت في وقت مبكر وتركت له بنتين (رباب الكبيرة وأخت أخرى صغيرة) وهو يشرب بقوة، قالت لي رباب ونحن في طريقنا إلى سينما غرناطة لكي نشاهد مدام بوفاري، الفيلم المعروض في ذلك اليوم. لم تخفِ رباب قلقها عليه، لولا معرفتها أن زملاءه من رواد حديقة الأمة يمكن الاعتماد عليهم، "رجال موثوقين" كما قالت لي مؤكدة، لأن حتى في تلك الأيام التي يشرب فيها حتى الثمالة ويسقط فاقداً وعيه، يتطوع أحدهم وينقله إلى بيته. "إنهم عصبة أخوة تشترك بالعذاب". بالفعل، إنهم عصبة أخوة تشترك بالعذاب. أخوة جمعتها الخسارات، قبل أن يجمعها العرق مسيَّح من ماركة حليب السِباع. سِباع هرمة بالأحرى. وعن ذلك الفقدان كانت تدور قصصهم، سواء الشخصية منها أو تلك التي خصّت شخصيات أخرى أو خصّت مدينة بغداد. ليس هناك قصة رووها وليست بطلتها بغداد. المدينة هي المركز. الشخصيات تدور حولها، حول بغداد. والطريف أن أغلب قصص الخسارات التي رووها لي، سواء قصص الإفلاسات التي تعرضت لها "بغداد" أو قصص الخسارات

في "الريسز" (مراهنات سباق الخيل)، وحتى قصص الطفولة التي جاءت على لسان بعضهم، تحدثت عنها كأنها أكبر سنوات الخسارات. طبعاً مرت على بغداد أزمات لها علاقة بالإفلاسات التجارية. هل هناك مدينة في العالم أو مجتمع لم يعش ذلك؟ لكن أن تظل القصص تلك هي أول ما يتذكّر الرجال هؤلاء هو أمر ملفت للنظر، إذا لا يكون دليل على خسارتهم الكبيرة في الحياة.

كانوا يتبارون في رواية قصص الإفلاسات التي تعرضت لها بغداد مثلاً، وكأنهم ضحاياها، أو كأنهم أرادوا القول: لم يحدث لنا نحن فقط. حتى العائلات البغدادية الكبيرة تعرضت للإفلاس. الفئة الأكبر منهم عمراً كانت تتحدث عن الأزمة التجارية الأولى التي حصلت في بداية العشرينيات من القرن الماضي، أما الفئة الثانية فكانت تتحدث عن الأزمة التي حصلت في نهاية العشرينيات وفي بداية الثلاثينيات. ورغم أن الإفلاس التجاري نوعان: النوع الحقيقي والنوع الخيالي، إلا أنهم كانوا يروون القصص تلك كما لو كانت كلها خيالية. حتى في تصنيفهم للإفلاس، الذي هو بالنسبة لهم نوعان حيث يكون الأول إفلاس معلن بين الناس والتجار بسبب الخسائر التي لحقت بالتاجر في تجارته أو في مضاربة، أو في هبوط كبير في الأسعار العالمية، يومها – رووا لي – تقوم طائفة من التجار الخيّرين لجمع الدائنين بالمفلس وإجراء المصالحة بينهم مثل دفع مبالغ نقدية مقدماً ثم تقسيط الدين إلى مدد مختلفة، ولكن بعد أن تُحسم نسبة مئوية من مجموع الدين حيث يُعفى التاجر المفلس من دفعها مساعدةً له عن خسائره الحقيقية، ويعود التاجر بعدها لاعتباره وأعماله الاعتيادية، ويُقال إن التاجر "تساوى"، أي عمل التسوية. وهناك تجار محترمون أفلسوا ورفضوا إجراء التسوية وباعوا أموالهم وأملاكهم على أمل تسديد الديون، ولكنها لم تكفِ مما اضطرهم لإعلان إفلاسهم، مثل بيت الشيخلي وبيت الصندقجي وبيت الكفيشي، وهم ضحايا نهاية الحرب العالمية الأولى حين تذبذبت الأسعار وانهار النقد التركي والنمساوي والألماني، العملة التي ارتبط السوق العراقي بها. وهناك إفلاس غير معلن، كأن يلزم التاجر بيته ولا يذهب إلى السوق، وهذا إعلان عن توقفه عن الدفع لأسباب اضطرارية. وفي هذه الحالة يتعهد قسم من التجار الدائنين بعدم مطالبته بالديون ويتوقف عن المطالبة بها لمدة معينة. وحينذاك يلجأ التاجر إلى عمله. والإفلاس بلغة السوق، حيث كان التجار اليهود هم



المتنفذون، كما يقول لي الرجال السكارى، يُقال له "فلان شَبر" أو "الجماعة مُشَبَّرين" أو "مشباريم" باللغة العبرية. "احنة يعني يمكن أن تطلق علينا الجماعة مُشَبَّرين"، قال لي والد رباب والغريب بنبرة جادة، خالية من المزاح! قبل أن يُضيف أن إفلاس أغلب عائلاتهم حدث ضمن الإفلاسات الثانية التي حدثت في نهاية العشرينيات على أثر الأزمة الاقتصادية العالمية المعروفة، التي عمّت جميع أنحاء العالم وأصابت بغداد كما أصابت غيرها. صحيح أنها انتهت بعد ثلاث سنوات، حين تجاوز العالم هذه الأزمة وانتعش الوضع الاقتصادي، "لكن أثرها باقٍ في الضلوع"، قال لي رجل آخر، وهو يعلق على كلام والد رباب، قبل أن يأخذ جرعة من عرقه "مسيَّح" ويرجعه إلى جيب سترته الداخلي. فقط رجل واحد، كان احتفظ بربع عرقه هو الآخر في جيب السترة الداخلي وكان يخرجه ليأخذ جرعة من حين إلى آخر، ظل طوال الوقت صامتاً، لكنه لم يتوقف عن إلقاء نظرة من حين إلى آخر باتجاهي، حتى رأيته ذات يوم عند مطعم اللحم بالعجين الكائن عند مدخل شارع السعدون.

هذه المرة كنت مع صديقتي آنذاك س، التي كانت تدرس أيضاً الأدب الفرنسي. لم يحافظ الرجل على صمته، إذ قال لي، بعد إلقاء التحية عليّ والسؤال عن الحال، إن القصص التي سمعتها عن الإفلاسات كلها صحيحة لكن "الجماعة"، ويقصد شلة الرجال من "جماعة المُشَبَّرين"، أخفوا عليّ قصص الإفلاس الاحتيالي. وعندما سألته ماذا يعني بذلك، قال: "الإفلاس الاحتيالي كان ينتهي إما بالضرب والاعتداء على المفلس أو بالشكوى في المحكمة المختصة حيث يُطبَّق القانون التجاري. والمفلس احتيالاً لا يعود أبداً إلى السوق لممارسة التجارة"، ثم صمت وسحب آهةً عميقة، وقال قبل أن يودّعني: ""جماعة المُشَبَّرين"، كلنا ننتمي إلى الطائفة هذه: الإفلاس الاحتيالي هو ما قمنا به. صحيح أننا لم ندخل السجن أو نتعرض لعقوبة ما، لكن بربك هل هناك عقوبة أفضل من شرب السمّ هذا؟" قال ذلك وهو يخرج قنينة ربع العرق المسيّح من جيبه، يأخذ جرعة منها، لكن جرعة كبيرة، يُرجعها إلى مكانها وهو يزمّ شفتيه، يلعقهما بلسانه، يربت على كتفي ويختفي دون أن يروي لي قصته أو على الأقل قصص الإفلاس الاحتيالي الأخرى.

كان عليّ أن أنتظر والد رباب لكي أسمع قصة إفلاس الرجل الاحتيالي، ومعها

البعض من قصص زملائه من "جماعة المُشَبَّرين". وأين؟ في بار شعبي قريب من ساحة الطيران، على الجهة الأخرى من وقفتهم المعتادة، بالضبط في زقاق صغير بين الساحة وبين سينما غرناطة. كان اسم البار، على ما أتذكر، "ليالي الأنس"، ربما على عنوان الأغنية التي غنّتها أسمهان، "ليالي الأنس في فيينا"، لكن هذه المرة، ليالي الأنس في الباب الشرقي من بغداد، وكان والد رباب هو الذي أصرّ على أن نذهب إلى ذلك البار، مباشرةً بعد سلامي عليه وأنا أمرّ بمكان وقفتهم المعتاد. كان يوم عطلة على ما أظن، عندما لمحني والد رباب، أو لنقل تعمّد انتظاري في المكان الذي أمرّ به يومياً، وعبثاً حاولت مواصلة طريقي، كان مصراً على دعوتي في ذلك النهار، وكنت كذبت عليه لو قلت له إنني لا أشرب في النهار، فغالباً ما فعلت ذلك، خاصةً مع أحد الأصدقاء في الكلية، منعم الذي درس الأدب الإنكليزي، والذي في أيام مشمسة، مثل ذلك اليوم، كان يأخذنا، أنا ورباب التي ستصبح صديقته، في سيارته موديل "سكودا" إلى منطقة سلمان باك، جنوب شرق بغداد، لكي نجلس في حانة ومطعم هناك، لكن لنشرب البيرة وليس العرق، كما وعدني والد رباب، قال لي: "هناك ستشرب عرق مسيَّح، الذي باستثناء كرومي لم يعد يحصل عليه أحد بسهولة، ليس ذلك وحسب، "سيعجبك البار" وروداه، خاصةً وأن صاحب البار، كرومي، يعمل مزّة "باقلاء" لا ينافسه فيها أحد غيره". عبثاً حاولت إقناعه بأن لا داعي للكلفة، وأننا نستطيع أن نكتفي بلقائنا بشكل عابر عند سياج حديقة الأمة، لكن الرجل منذ أن رآني مع ابنته وضع عينه عليّ، حسب ما قاله لي، وانتظر فقط الفرصة السانحة. والفرصة السانحة، حسب عرفه، هو المزاج الرائق وحلول الربيع، ونحن الآن في الربيع. بالفعل، في اليوم الذي ذهبنا فيه إلى البار كانت الشمس مشرقة ودرجات الحرارة معتدلة. أظن أيضاً أن الرجل ظنني، منذ يوم رؤيتي مع ابنته، نسيباً مستقبلياً له، فأنا من سيتزوج ابنته. أما محاولتي توضيح ما ربطني بابنته بأنه مجرد زمالة دراسة، وهذا ما كان بالفعل، فنظر إليه على أنه تعبير مني عن عدم إحراجه، كما أنها دليل على سلوكي المؤدّب، كما أنه شرف عظيم له أن أرافقه إلى الحانة، تلك التي – حسب ما قاله لي – لم يجلس فيها منذ وقت طويل. نادر ما يذهب إلى هناك، فهو يُفضّل الشرب مع جماعته عند سياج حديقة الأمة. نعم، في أيام شبابه أدمن على المجيء إلى هنا، خاصةً في الأيام التي كان يأتي فيها من "الريسز".



ساحة سباق الخيل، حيث عمل أيضاً، قبل أن يجد نفسه مفلساً ومطروداً من العمل ذات يوم، كما روى لي، مباشرةً، بعد دخولنا الحانة.

"القصة بدأت معها"، قال لي وهو يحتسي قدحه، وكأنه أراد التأكيد أو منح الثقل لما سيحذرني منه لاحقاً: "النسوان". ولا يقصد بالنساء الزوجة "المخلصة"، كما سأعرف منه، بل العشيقة، المحبوبة، التي بسببها يهمل الرجل زوجته، عائلته، أطفاله، بل وحتى عمله. "هل شاهدت فيلم كارمن؟"، سألني وهو يسحب نفس سيجارته بعمق، "هنا عرضوه في سينما 'غرناطة'"، قال لي وهو يشير بيده اليمنى إلى السينما التي كانت على مسافة قريبة من الحانة التي جلسنا فيها. "في هذا الفيلم"، قال لي، "خسر شرطي الحدود، خوزيه وظيفته، كل شيء، حياته، بسبب الغجرية المرأة التي قادته إلى التهلكة تلك، كارمن". لم أقل له إنني شاهدت الفيلم المأخوذة قصته عن أوبّرا بيزيه، وأنه أعجبني جداً، وأن الاثنين اللذين مثّلا دوري الشخصيتين الرئيسيتين في الفيلم، فرانكو دي نيرو في دور خوزيه وتينا اومونت في دور كارمن، كانا رائعين في تمثيلهما، لكنني بدل ذلك هززت رأسي وقلت له: "ألا يقولون: الحب أعمى؟" لتسيطر علينا لحظة صمت قصيرة. في الحقيقة أردت أن أشكره في تلك اللحظة على "الباجلة"، الباقلاّء التي وضعها كرومي بعد ترحيبه بنا، ووضعه ربعَيّ عرق المسيّح والأقداح والماء، لكنني فكرت أنّ الحديث عن الباقلاء يبدو سخيفاً الآن بالمقارنة مع القصة التي سيرويها، أو التي بدأ بروايتها أصلاً لي، أنا "نسيبه" القادم كما ظن. قصة مشوقة طبعاً، ولو كنت أعرف أنه يعرف أنني أكتب القصص لاعتقدت أنه اخترع القصة من أجلي، ولكن لأنني سبق وأن عرفت قصة الإفلاس الاحتيالي من زميله "الأشيب"، لم أشعر بأن القصة التي رواها لي قصة متخيلة. إنها القصة الخلاصة للخسارات بامتياز.

"القصة بدأت معها"، تلك الجملة كرّرها أكثر من مرة، وكان يقصد بها إحدى السيدتين اللتين واظبتا على المجيء للريسز، ولكي لا أندهش من سماع ذلك أوضح لي كيف أن زيارة النساء العراقيات للريسز في ذلك الوقت لم تكن مألوفة، وإذا ذهبن إلى ساحات السباق فبدعوة من النساء الإنكليزيات وبأوقات نادرة. ولكن في سنوات الخمسينيات صارت تحضر إلى السباق بصورة دائمة سيدتان هما أم سلمان (مع المندل والمنقل والسكاير أم الزبانة) وفكتوريا أنطونيان الأرمنية، وكان لها جوادان في السباق،



واحد لها والثاني لأخيها سيمونيان الموظف في وزارة المالية. كانت فكتوريا في أواسط الثلاثين من عمرها، وهي آية من الجمال، ومن يرَها - قال لي وهو يحتسي جرعة قوية من عرقه - يُسلّم أسلحته كلها، سيصبح مثل صاحبنا خوزيه، ويجعلها تهرب عبر الحدود، في تلميح منه إلى الجندي خوزيه الذي كان يحرس الحدود المكسيكية، وكان وقوعه في حب كارمن، التي كان عليه حراستها، جعله يهمل واجبه، فتهرب. صحيح أنه كان أكثر شباباً من خوزيه، كان في بداية العشرين من عمره، لكن في بلاد مثل العراق يهرم الناس بسرعة، أليس كذلك؟ ثم إنه كان متزوجاً، وكان يعمل محاسباً في مكتب الريسز، مثلما كان معروفاً في نزاهته. هل تعرف - قال لي - أنني كنت أغادر مكتبي أحياناً لكي أراقب حركة الدلاّلين وعملهم رغم أن لا أحد طلب مني ذلك. كان موقع السباق يموج بالسماسرة الذين يدلّون الناس على الخيول الجيدة المؤهلة للفوز، وأغلب هؤلاء مرتزقة محتالون، غير صادقين في تكهناتهم، كنت أعرفهم واحداً واحداً، قال لي. وكما روى لي، كان إما يطردهم أو يتحدث مع رواد الريسز يحثّهم على عدم تصديق ما يقترحه هؤلاء عليهم، على الأقل حتى رؤيته فكتوريا أنطونيان الأرمنية. كيف يصفها لي؟ امرأة رشيقة، طويلة القامة، لها عنق ظبية، بيضاء البشرة، تفوق القمر جمالاً، أما عيناها العسليتان فهما نهرا عسل يموجان ضوءاً في المكان. "بكلمة واحدة، جننت بها"، قال لي وهو يعبّ العرق بسرعة عجيبة هذه المرة، حتى أنهى نصف القنينة في الوقت الذي لم أنه أنا القدح الأول الذي "عمَّره" هو لي. ألست "نسيبه" القادم؟ لا بدّ من مداراتي إذن! على أية حال، كان يوم رؤيته لفكتوريا هو البداية الجديدة، أو بداية النهاية التي انتهى إليها، وقادته أخيراً إلى سياج حديقة الأمة. فبعد أسبوعين أو أكثر، عندما راح حصانا فكتوريا يفوزان كل يوم، فيما رأى كيف أن الدلاّلين ينصحون الزبائن بالمراهنة على أحصنة أخرى، حاول إيقاف الأمر، لكنه لم يعرف أن خبر تدخّله وصل إلى فكتوريا، ومع الوقت ودون أن يشعر بدأ يقع في حبائل فكتوريا التي، كما يبدو، نصبت له كمين الحب. في المرة الأولى حاول تجنّبها، حتى عندما زارت المكتب ومزحت معه ومع بقية الموظفين، لم يشأ أن يذهب في تفسيره في محاولتها التقرب منه بعيداً، حاول أن يقنع نفسه أنها زبونة مثل بقية الزبائن، وغالباً ما يدخل أصحاب الخيول عليه إلى المكتب، لكن عندما تكررت لقاءاتهما وبالصدفة، دعته مرة لزيارتها، من وقت



إلى آخر ينظمون حفلات في بيتهم في منطقة الكرادة، خاصةً في تلك الحفلات التي تغنّي فيها عفيفة إسكندر، مطربته المفضلة.

ولا حاجة له أن يوضح لي أكثر، كما حرص في ذلك اليوم وهو يروي القصة، كان يمكنني تخيل ذلك، كيف أنّ فكتوريا مع مرور الوقت، ومع حضوره الحفلات، كفّت عن أن تكون مجرد زبونة تأتي إلى الريسز، وحلّت محلّها الصديقة التي حرص على ملازمتها كلما جاءت، مثلما حرص على استمالتها، حتى أنه لم يهمل عمله في جلوسه معها وحسب، بل راح يغضّ النظر عن الدلاّلين المحتالين. كيف يقدم على ما سيغيظ فكتوريا؟ وكانت هي لا تبخل من طرفها بسحبه إلى جانبها بكل ما ملكته من غنج ودلال، وعندما شكته مجموعة الدلالين من غير المحتالين، ومعهم بعض من أصحاب الخيول المشاركة في السباق، بتهمة الانحياز لجوادي فكتوريا، أنذرته إدارة الريسز، مرتين، في المرة الثالثة طردوه. وعندما ضاقت الدنيا في عينيه قالت له إن عليه ألاّ يقلق، يستطيع أن يعمل لحسابها. لم تقل له طبعاً إنها تنتظر منه تقديم قائمة بأسماء الخيول "الأيجات" الكبيرة السنّ غير القادرة على السباق، لكي تعرف خسارتها مسبقاً، مثلما لم يعرف أنها تملك شبكة كبيرة من سمسارة الخيول الذين يقررون أي حصان فائز سيكون، وأنهم يحتاجون فقط قائمة مسبقة بأسماء الخيول التي ستشارك في السباق القادم، لكي يرشوا أصحابها. وعندما عرف مكتب الريسز أنه قدّم لها أكثر من مرة القائمة هذه، شكوه عند السلطات. حُكم عليه بالسجن خمس سنوات، ومصادرة أملاكه المنقولة وغير المنقولة. في السجن لم تزره فكتوريا، بل لم تشأ أن تعرف من هو عندما زارها في بيتها بعد خروجه من السجن. قالت له، إذا لم يغادر بوابة بيتها في الحال فإنها ستجلب الشرطة مرة أخرى. كم حاول العودة للريسز، عبثاً، منذ ذلك الحين، وهو مارس المهن العديدة، لكن بالكاد لسدّ الرمق، وعندما مرضت زوجته بعد ولادة رباب، لم يستطع حتى دفع أجور الطبيب. ماتت المرأة التي أحبته وأحبها، ومنحته "أجمل بنيتن في العالم"، بسبب إهماله لها، بسبب واحدة أفضل ما يمكن أن يقول عنها إنها كارمن مزيفة، فهو حتى لم ينل ولو قبلة واحدة منها. "إذا أحببت إمرأة فعليك ألاّ تقع في حب واحدة أخرى"، ذلك هو الدرس الذي أراد أن يقوله لي في اليوم الربيعي المشمس ذلك، في حانة "ليالي الأنس".



ليست تلك هي القصة الوحيدة التي رواها لي. روى لي قصة الرجل، إرزوقي، الذي حدثني عن الإفلاس الاحتيالي، وكيف أنه كان يمتلك وظيفة مرموقة في مصرف الرافدين، لكن لا يُعرف كيف ركب عقله ذات يوم وأراد أن يقوم بمغامرة على طريقة أفلام جيمس بوند، ويتفق مع إخوانه الثلاثة بالسطو على المصرف. جاؤوا ملثّمين على طريقة الأفلام السينمائية، لكن الواقع طبعاً غير السينما، فبعد أن نجح الأخوة في تهديدهم للموظفين، ووصلوا إلى الخزنة (القاصّة)، وملؤوا كيسين بأيقونات الذهب والدنانير، أُغمي على أحد الأخوة الثلاثة حالما خرجوا إلى الشارع، ورأى سيارات الشرطة التي طوقت المكان. الأخوان بدل أن يهربا بالأموال، انشغلا بأخيهما، حتى نسيا أنهم قد سرقوا البنك، وراحا يولولان ويصرخان بالشرطة أن يجلبوا لهم سيارة إسعاف. "النهاية عليك تخيّلها"، قال لي، "كأنهم قلّدوا أباهم في ذلك". وعندما سألته ماذا يعنيه بذلك، روى لي كيف أن أباهم عمل مصرفياً أيضاً، في بنك الإسترن، وهو بنك اتخذه الإنكليز مصرفاً رسمياً لهم، وكان موقعه في محل قهوة الشط في شارع البنك، وهو أول بناية تُبنى ببلوك الإسمنت الكبير، وكان منظر البنك عجباً لأهل بغداد، و لم تزل أعمدته قائمة في شارع السموأل ثم اتّخذته الحكومة العراقية مصرفاً رسمياً لها. بعد حركة الكولونيل رشيد عالي الكيلاني، في أيار/ مايو ١٩٤١، هرّب البنك القسم الأعظم من أمواله، والقسم الباقي احتفظ به في مستودعات سرية لم يعرف بها غير والد إرزوقي. وعندما انتهز بنكو دي روما في ذلك الوقت فرصة اختفاء بنك الإيسترن وجلب الليرات الذهبية بالأكياس مع الوفد المرافق للهر غروبة، وزير ألمانيا المفوض الذي كان صديقاً للملك غازي ولحكومة رشيد عالي الكيلاني التي قامت بالانقلاب، وفتح محلّه في بداية شارع السموأل في محل مصرف الرافدين، زارهم والد إرزوقي وأخبرهم بأمر المستودعات السرية، ليستولوا على احتياطي الإيسترن. بعد فشل حركة مايو، ترك بنكو دي روما العراق وأخذ أمواله معه، وعليك أيضاً أن تتخيل ما حصل لوالد إرزوقي بعد أن عاد بنك الإسترن للعمل. كل ما عرفه الناس بعد ذلك هو ما نقله السجناء عنه، كيف أنه روى لهم أن كان، عندما يضيق به الأمر وتتلبّسه حالة من العصبية، يذهب إلى السرداب السري لبنك الإسترن، هناك يلجأ إلى صندوق خشبي من صنع الهند. ويفتحه، كان مليئاً بالليرات الذهبية، وعلى قمته ماعونان من الذهب الخالص، فيقذف



في أحدهما كومة من الليرات وينقلها إلى الماعون الآخر وهكذا دواليك من ماعون إلى آخر وهو يستمع إلى رنين الذهب المتساقط من الماعونين فيذهب ضيقه ويزول همه. غير ذلك لم يسمع عنه أحد. لا أحد عرف المصير الذي انتهى إليه إرزوقي.

القصص الأخرى قد تبدو بسيطة قياساً لقصة والد إرزوقي، مثل أخوين في شلّة حديقة الأمة، عملا سنوات طويلة بتجارة بيع الأوزان، وكانا يبيعان بعضها، تلك التي يتلاعبان بصحة وزنها، مقابل مبلغ كبير من المال، حتى ألقت السلطات عليهما القبض، ومُنعا من ممارسة التجارة مدى الحياة. ربما لأن والد رباب لاحظ أنه لم يروِ لي غير قصص الإفلاس الاحتيالي، قال لي في النهاية ونحن نغادر الحانة: "ولكن عليك أن تعرف أن هناك نوعاً من الإفلاس اسمه الإفلاس الاختياري، الطوعي"، ولكي أفهم ما يعنيه روى لي قصة عجوز لفت نظري بينهم، كان أكبرهم في السنّ. قال لي، أبو فياض البغدادي مثلاً، فسألته عن قصته، قال لي: "كان سائقاً عنده باص "نيرن" يعمل في نقل المسافرين على طريق بغداد دمشق، عندما هاجمته عصابة من قطاع الطرق وسرقوا أموال جميع الركاب وقتلوا ثلاثة منهم وسلبوا حتى ملابسه فطاردتهم السلطات وقبضت عليهم ثم أعدمتهم في ساحة المرجة في دمشق. أما أصحاب الذهب الذين كانوا ينتظرون أبو فياض فقد ماتوا هلعاً وبكوا أموالهم، وحين حضر الرجل بشّرهم أن أموالهم سالمة واستلموها لأنها كانت مخبئة في المحركات وأعطوه بعض المكافأة. لكن أبو فياض امتنع منذ ذلك الحين عن سياقة السيارات، وفتح كراجاً لتصليح السيارات في شارع الشيخ عمر، لكن الكراج سبّب له الإفلاس، ليس لأنه لم يكن ميكانيكياً جيداً وحسب، بل كان يصلّح على الحساب".

بعد لقائنا ذلك، عدت إلى الحانة أكثر من مرة، مرتين أو ثلاثة بصحبة أحد من شلتنا القديمة، لكن أغلب الأوقات في أيام العطل الرسمية والأعياد. في الليل الدخول إليها أو الحانات الشبيهة بها مغامرة يجب التفكير بها مراراً، ففي لليل تكتظ ليس بأصحاب الإفلاس الاحتيالي، ليس بأصحاب الإفلاس الاختياري، ليس بوالد رباب أو بإرزوقي أو بأبي فياض، كلا، فحتى كرومي صاحب الحانة نصحني ذات مرة، وقد بدأت الشمس بالغروب عند الجهة الأخرى من ساحة الطيران، بأن من الأفضل لشاب مثلي الذهاب إلى حانة أخرى، وليس من الجيد البقاء في حانته ليلاً، لأنها في



الليل تكتظ بزبائن من قاع المدينة فعلاً: شقاوات وجنسيون مثليون، مهربون ومدمنو ترياق، قوادون ومزورون، على عكس ساحة الطيران المجاورة لها. ليس لأن الساحة خالية من البارات، بل لأنها نقطة الترانزيت، العبور إلى عوالم أخرى. باختصار، ساحة الطيران، مثل حديقة الأمة، مكان يكتظ بالقصص، دون الحاجة لوجود نادل وقناني عرق، مكان ترانزيت بالأحرى، يصنعه الناس الذين يلجأون إليه في الليل ويحولونه إلى حكاية طائرة، إلى حديقة للأدب، كما فعلت ذات يوم شلتنا الملعونة: شلة "المتطيّرين" التي أدمنت الأدب.



٢٢

فتنة الحب الأول
بين مقبرة الإنكليز وقطار الملذّات
الذاهب حتى ساحة المتحف

لا يهم أننا كبرنا وغزا الشيب رؤوسنا، لا يهم أن البلاد التي تجولنا فيها حملت اسماً غير الاسم الذي هي عليه اليوم، لا يهم أن المدينة التي نشدنا الوصول إلى فردوسنا فيها تحولت إلى ذكرى تصرخ في وادي النسيان، لا يهم أننا سُجنّا وعُذِّبنا، طُردنا ونُفينا، تشردنا وأقمنا، ضعنا هنا أو تهنا هناك، لا يهم أننا أصبحنا مجرد ظلال تطارد نفسها وهي تجوب في آفاق أراضي الشيطان الواسعة، لا يهم ما حصل لنا أو حصل لأولئك الذين عرفناهم ذات يوم، لا يهم أن ممالك اندثرت وانهارت حكومات، لا يهم أن ننسى هذا أو نتذكر ذاك، إلا أن الأمر الوحيد الذي نظل أمناء له هو الوعد الذي قطعناه للحب الأول: أن نظل محتفظين به سراً في القلب. تمر السنوات، تتغير الأحوال ويتغير الناس، لكن يظل اسم الحب الأول الذي نقشناه على دروبنا عالقاً في الذاكرة، بكل الطراوة الأولى التي حملها، حتى إن البوح باسمه كمن يبوح بسرٍّ لا بدّ من الاحتفاظ به حتى الموت. يلتقي المحبون وهم يلبون نداء القلب لا غير، يتعاهدون دون ضغط أو إجبار على كتمان اسم المعشوق، مثلما تعاهد العشّاق في أساطير الزمن القديم.

أليس ذلك هو ما يجعل الحب الأول الفنار الذي نبحر إليه في رحلاتنا العاطفية القادمات؟ أعني الاستسلام لنداء الحواس؟ نتغير، وتتغير حياتنا، ويتغير أمامنا المحيط



الذي نعيش فيه. كل شيء يبوح بنفسه، باستثناء اسم المحبوب. من منا لم يكن عليه مواجهة هذا السؤال: ما لك تبدو فرحاً؟ هل وقعت في الحب؟ كم أحببنا وتزوجنا، ثم طلقنا ثم تزوجنا ثم أحببنا من جديد، وكل ما قمنا به هو في الحقيقة تنويعة على حبنا الأول، الحب الحسّي "الأساس" لا غير. أليس بهذا الشكل يصبح لاسم المحبوب الأول إيقاعاً آخر، صوتاً آخر، خاصاً بنا وحسب، لا علاقة له بتشكيلته "الحيادية" كاسم مركّب من أبجدية ونحو وصرف؟ بهذا الشكل أيضاً لا يعود المهم الاسم الذي حملهُ المعشوق. الأهم من ذلك هو الحب الأول بكل ما حواه من لوعة وشغف وهيام، حرارة عواطف وضربات نبض قلب ووله واشتياق.

اسم حبي "البغدادي" الأول له علاقة بالفتنة، فتنة الحب المفاجئ ودهشته، بلحظة الاكتشاف الأولى للفردوس: بغداد. هل هي مصادفة أن يرتبط اسم الفتاة التي أحببت



زميلة في الجامعة المستنصرية، بغداد، 1975.



بـ"فتنة النهار"، أقصد النبات ذلك من فصيلة الزنبقيات الذي له أزهار جميلة تتفتح خلال النهار وتنطبق في الليل؟ أتذكّر أنني قلت لها ذلك ذات مرة، بعد أن بحثت عن معنى اسمها في المنجد. قلت لها: سأتمتع معك بفتنة النهار، وإذا كان لا بد وأن تطبق النبتة هذه في الليل، فلتطبق علي قبل أن تنام. قالت لي وهي تضحك، ضحكتها تلك التي تجعل عينيها السوداوين تشعّان بريقاً غير مألوف بالنسبة لي، إنها تعرف ذلك، وإنها لا تخفي عليّ خوفها من قدوم الليل علينا نحن الاثنين، وهي لا تستطيع أن تعدني بأنها ستتركني أنام قبل أن تكون قد أطبقت عليّ كلياً! لا أتذكر أنني سألتها ماذا تعني بكلامها هذا، لكنني أتذكر أنها اقترحت علي بعد تلك الجملة، بدلال ومرح، ألاّ أبقى في المعنى الأكثر فتنةً من اسمها، وأن من الأفضل لي أن أبحث عن أحد المعاني الأخرى لاسمها وهي كثيرة. اسم عملي. فِتنة الصائغ الذهبَ مثلاً، والتي هي إذابتهُ بالبوتقة ليبين الجيد من الرديء! ظننت أنها تمزح. لم آخذ تحذيرها بجد. فمتى كان هناك ذهبٌ جيد وآخر رديء؟ الذهب هو الذهب. هكذا كانت هي بالنسبة لي، خالية من أي عيب وشرور. لكن أليس ذلك هو ديدنا دائماً؟ في الحب الأول ليس هناك تحذير أو إنذار. دائماً السير إلى الأمام. كان من الممكن التفكير بكل شيء، باستثناء أن يكون لاسمها معنى الصدّ أيضاً، رغم أن هذا بالذات ما فعلته معي في النهاية، صدّتني في حبها. توقفت أن تكون لي فِتنة النهار. ذهبت مع رجل آخر كان، بالنسبة لي في حينه، رجلاً تافهاً، ليس لأنه كان بعثياً ويعمل في بنك وحسب، بل لأن من تولّه في الحب الأول لا يجد تفسيراً لتحولّه من معشوق إلى مطرود. والغريب أنني، وفي كل السنوات التي لحقت وحتى اليوم، أنسى كل ما حصل لنا، أنسى هجرانها لي، أنسى ذهابها إلى رجل آخر (رغم أنها طردت الرجل هذا أيضاً بعد حين!)، أنسى زواجها اللاحق، بل أنسى حتى أنها هاجرت في النهاية مثلي، حتى كنّا ولمدة سنتين لا نبعد عن بعض عن أكثر من ٢٠٠ كم، لكنني كلما تذكرت علاقتي بها، أو بحثت عن تعريف لحبي الأول، تذكرت اللحظات تلك، اللحظات التي كانت هاربة في حينه، أو هكذا ظننت، لكنها اللحظات الأكثر خلوداً بالنسبة لي حتى اليوم، أقصد كل ما يسرقه العشاق وهم يكتشفون الرعشة الأولى للحب، ما يسرقونه من الزمن ومن المحيط وهم يستسلمون للحواس. الناس تهرم ولا تتعب من أن تنشد: وما الحب إلا للحبيب الأولِ!

كانت قد مرّت شهور قليلة على وصولي إلى بغداد، عندما أخذتني فتاة، من الأفضل ترك اسمها الآن، ولنسمِّها "فرح"، زميلة لي في فرع الأدب الفرنسي، إلى الجامعة المستنصرية. كنا شلة صغيرة لا أعرف ما الذي جمعنا إلى بعض، الدراسة أم قراءة الكتب، أم معارضتنا للبعثيين، أم انتماءاتنا الأولى للحركة الطلابية؟ الزميلة هذه فرح، تعرفت عليها عن طريق زميل لي، عطا عيسى، درس هو الآخر الأدب الفرنسي في كلية الآداب، لكنه غادر العراق وهو لم ينهِ السنة الثانية من دراسته (في خريف ١٩٧٦)، ويقيم الآن في بلجيكا على ما أظن. ولأن فرح كانت تحبني، (لاحظت ذلك بسرعة)، حرصت على تقديمي إلى صديقاتها الحميمات. حبي الأول، فتنة النهار، الفتاة البغدادية أيضاً، التي سكنت عائلتها في قلب باب بغداد، في باب الشيخ، والتي درست في الجامعة المستنصرية، كانت أكثر صديقات فرح حميمية. كأننا مثّلنا أدوارنا في أحد أفلام الأميركي وودي ألن حتى قبل أن أسمع باسمه أو أشاهد أحد أفلامه! لأننا، أنا وفتنة النهار، الفتاة الأنيقة والساحرة كانت بالنسبة لي، لكن أيضاً الصديقة الحميمة لفرح، سنقع في حب بعضنا منذ النظرة الأولى، وأن على فرح تحمّل ما حصل، هضمه على مضض كما في فيلم المخرج الأميركي وودي ألن حيث تتداخل علاقات الغرام.



نجم والي مع صديقات وأصدقاء في حدائق الجامعة المستنصرية، 1975.



علاقة الحب التي تشكّلت لبنتها الأولى من ذلك اللقاء، بين الفتى القادم من جنوب البلاد وبين الفتاة البغدادية من عائلة عاشت هناك على مدى أجيال، شكّل صدمة قوية لزميلتي فرح جعلتها تقطع علاقتها بصديقتها تماماً، رغم أنها لم تقطع علاقتها بي، لكنها خففت منها. لكن ماذا تعني الصداقات أمام نداء القلب؟ فأنا منذ ذلك اليوم رحت أتجنب اللقاء بزميلتي فرح، أو إذا ألتقيت بها كنت أتحدث معها عن كل شيء باستثناء أن أحدثها عن "فتنة النهار" وزيارتي لها في الجامعة المستنصرية، لأنني منذ ذلك اليوم، يوم وقوعي بالحب، حرصت على الذهاب وحدي إلى الجامعة المستنصرية، أما في المرات التي زارتني فيها "فتنة النهار" إلى كلية الآداب، فقد كنت أفعل كل ما في وسعي لكي لا نجلس في نادي الكلية طويلاً، وأحرص على مغادرة الكلية معها، خاصةً في وقت انتهاء الدوام في ساعات الظهر.

تُرى ماذا يفعل عاشقان بدءا للتو باكتشاف فردوس الحب، إن لم يكن البحث عن أماكن للقاء، خاصةً وأنا أسكن في خان خاص بسكنى العزاب وهي تسكن في بيت أهلها؟ ثم أن عليها أن تكون في البيت مبكراً، عند الساعة الرابعة عصراً على أكثر تقدير، إن لم يكون عليها التواجد في البيت في فترة الغذاء. لكنها، رغم ذلك، كانت بارعة في سرقة ساعتين أو ثلاث من الوقت اللازم لعودتها.

في البداية منحتنا أزقة ""أزقة الوزيرية خلوات كافية، خاصةً في أوقات الظهيرة من أيام الصيف، فكلما ابتعدنا عن مبنى الكلية، وبالذات بعد أن نترك مبنى كلية الآداب وراءنا ونمرق من تحت جسر الصرافيّة، وإلى يسارنا يمتد على ما أتذكر شارع كان اسمه صفي الدين الحلي، أو من غير المهم من أية جهة نأتي، سواء من جهة أكاديمية الفنون الجميلة، والشوارع الخلفية خلفها، أو من جهة بناية المكتبة المركزية العامة التابعة لجامعة بغداد والشوارع التي أمامها، بعد تجاوز البناية التي كان يحتلها اتحاد طلبة فلسطين، أو المرور بالسفارة التركية ومبنى أكاديمية الفنون الجميلة، المهم بالنسبة لنا هو التوغل في أزقة الوزيرية، وكلما قلّ عدد الناس كلما شعرنا أننا وحدنا نقطع الشوارع الخلفية، تسير معنا لذتنا المكتومة وحسب. كانت شوارع ضيقة، تعزلها بيوت أغنياء تقدمتها حدائق مسيّجة بجدران من الطابوق عالية، وبأشجار عالية هي الأخرى. سمعت من بعض الطلاب أن الشوارع هذه تتحول مع حلول المساء إلى شوارع للعشاق من أصحاب

السيارات. في هذه الشوارع ممكن أن تتوقف أية سيارة وتطفيء محرّكها، دون أن تكشف أضواء السيارات الأخرى الجالسين في داخلها، بل بإمكان رجل وامرأة يحبان المغامرة أن يمارسا عملية جنسية سريعة في المقعد الخلفي من السيارة. لكن لا أنا ولا فتاتي عندنا سيارة، لا يهم أنها من عائلة من طبقة متوسطة، فرغم التقدم الاجتماعي في ذلك الوقت. وتحرر النساء نسبياً، خاصةً فيما يتعلق بالمظهر من لبس السفور، بالبنطلون أو بتنورات الميني والميكرو جيب، إلا أن عدد سائقات السيارات لم يشكّل نسبة عالية، ربما ذلك له علاقة أكثر بغلاء أسعار السيارات.

في الأيام الأولى كنا نكتفي بالسير وقد تماسكت أيدينا، أو بسرقة قبلة لم تخلُ من وجل. وإذا تعبنا من السير جلسنا في حديقة السنتر البريطاني، حالنا حال العشاق الآخرين، هذا إذا وجدنا مكاناً هناك، فغالباً ما كانت الحديقة والممرات تمتلئ بالعشاق أو بحلقات كبيرة مختلطة من الأصدقاء، وغالباً ما ضحكنا. أقول لفِتنة النهار: ألا ترين الإنكليز وذكاءهم؟ فهل هناك لوبي أفضل يصنعونه لمستقبل علاقتهم بالعراق من لوبي من العشاق؟ رغم معرفتي أن الإنكليز يصنعون لهم لوبياً كبيراً بين الطلاب عن طريق أمور أخرى أيضاً، فالبريتيش كاونسيل (المعهد أو السنتر البريطاني) حوى أيضاً مكتبةً كبيرة للكتب وللموسيقى، وخاصةً فيما يتعلق بالموسيقى، كان من الممكن استعارة أغلب ما يبحث عنه المرء من الموسيقى الكلاسيكية، ليس من الموسيقيين الكلاسيكيين الإنكليز (وهل عندهم بعض من هؤلاء؟) بل كل الأسماء التي نعرفها من الموسيقيين الكلاسيكيين، ألمان ونمساويين وهنغار وفرنسيين وبولنديين وتشيك، سيمفونيات لبتهوفن وموزارت وهايدن وشوبيرت وشومان وشترواس ولِست وبيزيه وفوريه وشوبان ودوبراك وغيرهم استعرتها جميعها لاحقاً من السنتر البريطاني. صحيح أنني في زيارتي للبريتيش كاونسيل مع فتاتي كنت أرغب بأمر واحد فقط: التمتع بالجلوس معها في حديقة السنتر وحسب، لكنني لم أستطع في بعض الأحيان كتمان الرغبة حتى وأنا معها في زيارة المكتبة الموسيقية، بعض الأحيان بعذر الذهاب إلى التواليت. لأفاجئ فتاتي بعدها بإحدى الأسطوانات التي استعرتها من المكتبة، وعندما تسألني: أين سيمكنني سماعها؟ أقول لها: عند صديقي القاص أحمد خلف الذي كان متزوجاً حديثاً ويسكن مع زوجته أديبة في شقة صغيرة في كرادة مريم، وكان مولعاً بسماع



الموسيقى الكلاسيكية. أغلب الأحيان أزوره حاملاً معي أسطوانة جديدة، في مكتبته الصغيرة نجلس، نشرب القهوة ونصغي بصمت للموسيقى، طقس تمتعت به في حينه، أكثر من الكتابة أحياناً. أخبرتها كم بودي سماع الموسيقى تلك معها، فأنت لا تعرفين أية لذة تمنحها. سماعنا لها يأخذنا بعيداً، فنبدأ بالتخطيط للبيت الذي سنسكنه سوية بعد الزواج، نرسم غرفه وحديقته، نتخيل جهاز الأسطوانات الذي سنشتريه، وكيف أن مكتبة كبيرة ستشغل مساحة كبيرة من البيت.

العشاق يلتقون ويحلمون، لكنهم بقدر ما يكونون حالمين، هم واقعيون أيضاً. ففي تلك الأيام، وعندما بدأ الستر البريطاني يضيق إلى حدود الاختناق الداخلي، وإلحاح الرغبة المكتومة بضغط حاجات الجسد عندنا، بدأنا بالبحث عن أماكن بديلة لرومانسيتنا التي بدأت تفيض. العجيب أنني، وأنا أكتب عن ذلك بعد قرابة أربعة عقود، أكتشف كيف تصبح الحاجة للخلوة التي يحتاجها عاشقان في بلدان مثل بلداننا هي أم الاختراع. لم يعد الستر البريطاني يتّسع لحدود انفجارتنا، إذن لا بد من البحث عن مكان جديد. صحيح أننا لم نبح بذلك علناً، إلا أننا تحركنا بهذا الاتجاه كأننا كنا متفقين على ذلك بدون كلام. إذ ما أن نصل مكاننا المنشود حتى نعزف عن الدخول إليه، نكمل السير، نمنح لنفسنا الحرية بالسير، مرات إلى الأمام وفي مرات أخرى إلى ما حول، بهذا الشكل عرفنا أماكن أخرى، جديدة علينا، في بغداد.

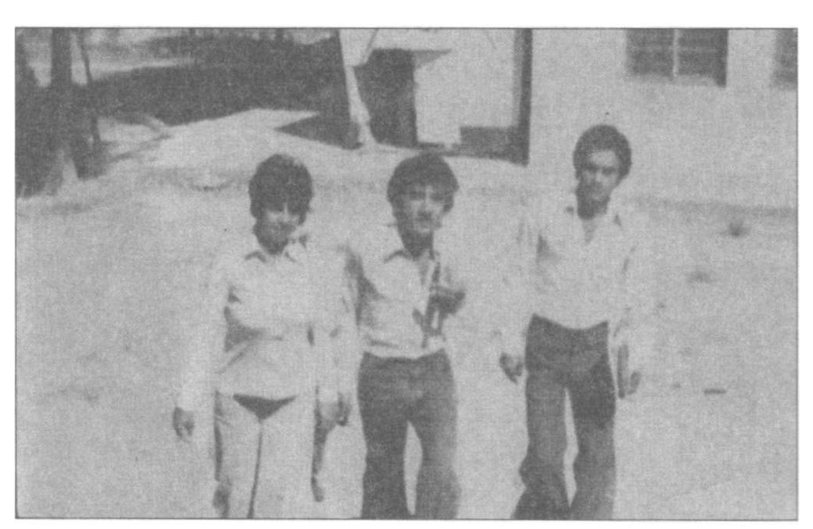
المكان الأول: كان مقبرة الإنكليز التي كانت تقع قبل الوصول إلى سكة حديد جسر الصرافية وأكاديمية الفنون الجميلة، بالضبط تحت السدة الترابية التي ارتفعت عليها السكة، في المساحة الدائرية المحصورة بين متحف الفنون المدرسية ومديرية العينة لوزارة الدفاع وبين كلية الآداب. لم يخلُ التجول بين القبور المندثرة هناك من المفارقة. في الحقيقة لم يبقَ من مقبرة الإنكليز غير الاسم فقط، فالبلاطات السوداء الصغيرة التي تقدمت القبور كشواهد لم يبقَ منها غير أحجار صغيرة تناثرت في كل مكان، ليس هناك ما يدل على وجود قبور، كأن الزمن ثأر من الجنود الذين سقطوا على الأرض الغريبة تلك، فيما حوّل العشب الذي نما بفوضى طليقاً على الأرض المقبرة إلى ما يشبه حديقة متوحشة أو إلى خلاء، ولو لم تكن المقبرة قريبة من مبانٍ وأحياء لظن المرء أنه في بستان صغير خارج المدينة.

كانت الأرض التي بُنيت عليها المقبرة في بداية القرن العشرين تقع خارج المدينة، فليس بعيداً عنها تقع ساحة الميدان وبناية وزارة الدفاع التي كانت أصلاً، على ما أظن، ثكنة عثمانية قبل أن تصبح معسكراً للجيش البريطاني الذي احتل بغداد في ١١ آذار/ مارس ١٩١٧، قبل انتهاء الحرب العالمية الأولى بثمانية شهور تقريباً. في ذلك التاريخ هُزم الأتراك وطُردوا من العراق تماماً، وفي بغداد خاطب قائد الجيش البريطاني المحتل الجنرال فريديريك ستانلي مود (١٨٦٤-١٩١٧) العراقيين بجملته المشهورة: "إن جيوشنا لم تدخل مدنكم وأراضيكم بمنزلة قاهرين أو أعداء بل محررين"... إلى آخره من الهراء. ولسوريالية التاريخ، أو لعدم رحمته، لم يتمتع الجنرال مود، الذي احتل تمثاله الساحة التي أُطلق عليها اسمه في وسط بغداد من ١٩٢٣ حتى ١٩٥٨، بانتصاراته العسكرية. الجنرال الذي وُلد في عام ١٨٦٤ من أسرة بريطانية عريقة، وكان أبوه جنرالاً في الجيش الإمبراطوري أيضاً، وأكمل دراسته العسكرية في كلية سانت هيرست العسكرية، كما خدم في مصر وأفريقيا وكندا وفرنسا ونال ميداليات كثيرة، واشتهر كضابط ممتاز قبل وخلال الحرب العالمية الأولى، فحتى عندما جُرح في المعارك جرحاً بليغاً في حزيران/ يونيو ١٩١٥، وأُرسل إلى لندن للعلاج، أصرّ على العودة مبكراً إلى جبهات الحرب، حتى قبل أن تنتهي فترة نقاهته. الجنرال هذا، الفخور بعسكريته وانتصاراته على كل الجبهات التي حارب فيها، أنهت عليه بغداد! (كأنه قلّد في موته قائد عسكري آخر وإن من عيار أكبر منه، الإسكندر المقدوني الذي أنهت عليه بغداد هو الأخر بعد صراعه مع المرض وبمسافة لا تبعد أكثر من ٤٠ كم عن المكان الذي مات فيه الجنرال مود!). وكما يبدو، لم يأتِ الجنرال مود إلى بغداد ليفتحها من أجل مجد عسكري، بل جاء ليموت فيها ويُدفن. ففي مساء يوم ١٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٧ حضر الجنرال مود حفلة في مدرسة الأليانس اليهودية، وتناول الحليب الملوّث، وبعد انتهاء الحفلة وعند عودته إلى بيته شعر بتوعّك في صحته، ثم اشتد عليه المرض، وبعد الفحص والمعالجة ظهر أنه مصاب بنوع حاد من الكوليرا، ليلفظ أنفاسه الأخيرة في ١٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٧ ويُدفن في نفس المقبرة التي هي في الحقيقة واحدة من مقابر بريطانية عديدة في العراق بناها البريطانيون. فسلفاً، والحرب العالمية الأولى لا تزال دائرة، بدأت بريطانيا ببناء مقابر خاصة لجنودها في العراق. صحيح أن الحرب



تنته، لكن البريطانيين، كما يبدو، كانوا واثقين من هزيمة الأتراك. وغالباً ما بنوا مقبرتين، واحدة للضحايا من الجنود من العِرق الإنكليزي، والثانية للجنود من العِرق الثاني، الدرجة الثانية، الضحايا من جنود الكِرْكَة. أعرف أغلبها: مقبرة الإنكليز في البصرة، أو تلك التي في الكوت، لكن خصوصاً مقبرة الإنكليز في العمارة، حيث عمل جدي بستانياً فيها منذ عام ١٩١٤، وحتى مرضه في بداية الستينيات. لكن مقبرة الإنكليز في بغداد أدخلها للمرة الأولى.

في كل جولاتنا تلك، أنا وفِتنة النهار، كنت، ونحن نسير بين القبور، مثل من يجرجر طفولته معه. لم نقطع المقبرة مرة دون أن أكون تذكّرت قصةً من قصص الطفولة، أو قصة من القصص التي عشتها هناك، وكانت فِتنة النهار تستمتع بكل ما أرويه لها من القصص تلك، كانت عالماً آخر بالنسبة لها، هي التي إذا عرفت أماكن أخرى غير باب الشيخ الذي سكنوا فيه فلا يتعدى حدود شارع الرشيد أو شارع النهر في بغداد، أو لا يتعدى الجامعة المستنصرية، بل لم تزر حتى بيت صديقتها "الحميمة" فرح الواقع في حي عدن (مدينة الشعب)، أحد الأحياء التي كانت تقع في ضواحي بغداد في حينه. يمكن القول إن الحدود الجغرافية التي تنقلت عليها بدأت بالتوسّع للمرة الأولى معي.



نجم والي مع صديقين عند مدخل كلية الآداب، بغداد، 1975.



حدثتها عن جدي الذي عمل قرابة نصف قرن بستانياً في مقبرة الإنكليز والمقبرة الثانية المواجهة لها، التي سُميت المقبرة الهندية، وكيف أنني رأيته منذ كنت طفلاً وهو يستيقظ في ساعات الفجر الأولى للعمل هناك، وكيف أنني - شكراً للمقبرة - عرفت ثماراً أخرى غير التمر، أصنافاً عديدة من ثمرة الكرز والتكي والدُبّيس وثماراً متوحشة أخرى. جدي روى لي أيضاً كيف أن الصاحب الإنكليزي، كما أطلقوا على المفتش البريطاني الذي كان يأتي أربع مرات في السنة إلى العراق لتفقد العمل في المقابر البريطانية وتسليمهم رواتب البستانية، وقع اختياره عليه وهو شاب صغير دخل سنّ البلوغ للتو، طلب منه أن يكون رئيساً للبستانية الآخرين، ولم يهمّه أن بعضهم كان أكبر منه في السن. لماذا؟ لقد أعجبه حماسي في العمل كفلاح، يقول جدي. في العمارة بُنيت المقبرتان، مقبرة الإنكليز ومقبرة الهنود، على أرض بستان بيت جاني إلى جوار مشروع إسالة تصفية الماء الذي بناه البريطانيون أيضاً، ربما لسقيّ حدائق موتاهم لا بسبب الأحياء من سكان المدينة، كما علّق شيوخ المدينة في أكثر من مناسبة. المقبرتان منفصلتان عن بعضهما البعض مثلما ينفصل الهنود عن البريطانيين، ربما لأن الناس تطور طرقاً خاصة بحياتها من دون أن يظهر لها معنى، وعند روايتنا لها تتلبّس معنىً آخر. أطلق الناس على المقبرتين المتقابلتين: مقبرة الإنكليز. إما لأن الناس، المُستَعْمَرين من قبل البريطانيين. كانوا ينظرون لسكان الكِرْگة نظرةً دونية، لم يعترفوا بوجودهم، غير معنيين بالموتى من غير الإنكليز، سادتهم، عند حديثهم عن المقبرتين، أو لأنهم أرادوا اختصار الاسمين باسم واحد. لكن ربما يظل السبب غير المعلن لتلك التسمية هو الكيفية التي نشأت بها المقبرتان. فالأولى، مقبرة الجنود الإنكليز، كانت الأكبر، نمت فيها أشجار النبق والتمر والتكي والدُبَيس بشكل كثيف، فضلاً عن شجيرات الياسمين والجوري وأنواع الورود الأخرى، مثلما حُفر في وسطها بئر صغيرة ارتفع إلى جوارها نصب ضخم لصليب صُنع من المرمر الأبيض، غير بعيد من الشاهدة الكبيرة التي امتدت على شكل جدار أسود ارتفع عالياً بصورة ملاصقة لسور المقبرة، نُقشت عليها أسماء الضحايا من العسكريين الإنكليز. أما عند الزاوية الأخرى فبُني البيت الحجري الذي سكنه من وقت إلى آخر بعض البستانية أو بعض المفتشين الذين أعجبهم النوم فيها. على عكس ذلك تماماً كانت مقبرة الهنود: كان منظرها بسيطاً، أرضها يابسة مجدبة، نمت فيها أشجار قليلة.



أما زاويتها الجنوبية، خلف قضبان سورها الحديدي الأسود، فقد تحولت إلى مكان تتجمع فيه الكلاب السائبة، قبل انطلاقها للبحث عن قوتها في المكان الذي تُرمى فيه قمامة المدينة. صحيح أن القبتين اللتين تقدمتا المقبرتين بدتا متشابهتين في طراز بنائهما عند النظر إليهما من الخارج، إلا أنهما تختلفان عند معاينتهما من الداخل. في المقبرة الهندية لا يعثر المرء على دكّات المرمر التي هي بمثابة المكان الذي يستريح فيه الزوار عند زيارتهم المقبرة. كانت مجرد جدران بيضاء مطلية بالجص الأبيض.

على عكس المقبرتين المذكورتين، هي مقبرة الإنكليز في بغداد. لا أشجار عالية ولا ثمار. بدت بمثابة خرابة بمقارنتها حتى مع المقبرة الهندية في العمارة. لكن ربما لأنها مهملة بهذا الشكل، تحولت إلى مكان سهل العثور على خلو فيه لعشاق مثلنا. من النادر ألا يعثر المرء هناك على زاوية تنمو فيها طحالب أو شجيرات برية واطئة، لكن علوها كان كافياً لتغطية عاشقين يجلسان تحتها. بعض الأحيان نتوقف قليلاً خلف أحدها، نقبّل بعضنا، أو يحضن بعضنا الآخر، مرات نجلس على العشب، لا يضايق خلوتنا أحد. نحدق ببعضنا، نصمت لبرهة، عيوننا وحدها التي تتحدث، إذا لا تضغط علينا الرغبة بضغطها فنحضن بعضنا بقوة، لكن دائماً ننفصل بسرعة خوفاً من مباغتة أحد لنا.

"كم هو غريب"، قلت لفتنة النهار ذات مرة وقد جلسنا خلف أدغال نمت عالياً بعض الشيء، تحتنا عشب يابس حوى بالتأكيد على بقايا شواهد قبور متفتتة، قلت لها: "كأن مهمتي في الحياة منذ الطفولة تحويل مقابر الإنكليز في العراق إلى أماكن تصلح لمهمات أخرى". ولكي أوضح لها ما أعني حدثتها كيف حوّلت مقبرة الإنكليز في العمارة إلى بار عندما كنت في الخامسة أو السادسة من عمري، عندما جئت ذات يوم إلى المقبرة مع صديق طفولة لي، حملنا بعض قناني السفن آب الذي دخل المدينة للتو، ظنّاً منا أننا سنسكر عند شربه، مقلّدين الرجال الكبار الذين يمرون كل يوم في ساعات المساء الأولى، في طريقهم إلى بستان الخس المجاور للمقبرة والواقع على نهر الكحلاء، حاملين عدتهم: قناني عرق ماركة "مسيَّح" وقطع ثلج كبيرة (بلوك) يحملونها في أيديهم أو في سطل صغير، وأقداح من البلاستيك، قبل جلوسهم على العشب، ويبدأون بشرب الخمرة ومعهم دائمًا راديو ترانزيستور، أما مزّتهم فكانت خَسّ البستان ونبق ورارنجي (وهو نوع نادر من الحمضيات ينمو بتطعيم شجر البرتقال مع الليمون،

موجود بشكل ملفت للنظر في حدائق الحمراء في غرناطة!)، كل ما يحصلون عليه من ثمار الأشجار التي انتشرت بمحاذاة السياج الفاصل بين المقبرة والبستان، وكيف أننا رحنا نتمايل مثل السكارى، حتى رآنا جدي. في البداية قلق من رؤيتنا بهذا الشكل. لكنه ما أن رأى قنينتين صغيرتين خضراوين بين أيدينا وعرف أننا كنا نشرب سفن آب حتى راح يضحك. في فترة الدراسة المتوسطة والإعدادية حولتُ المقبرة إلى غرفة للمطالعة ومراجعة الدروس قبل الامتحانات، خاصةً في فصل الصيف بسبب الظلال التي تمنحها تلك الأشجار. "والآن"، قالت لي وهي تضحك ضحكتها الساحرة لكن المليئة بالغنج هذه المرة، "تحول المقبرة هذه إلى غرفة لنومنا، ألا تخاف أن تزعل عليك بريطانيا؟" قالت لي ثم ضربتني بخفة على كتفي وهي تدفعني إلى الأرض.

ليست تلك هي المرة الأولى التي نفعل فيها ذلك. أحياناً نظل على هذا الوضع لدقائق معدودات، لأننا نعرف، مع مرور الأيام ومع شعورنا بالأمان، أن لا أحد سيقطع خلوتنا، نظل ممدين، نحضن بعضنا، فيما يرقد حولنا كل شيء ساكناً، سوى نسمات تحرك أطراف بعض شجيرات آس في أماكن متفرقة عند المقبرة. ربما يخفق جناح قُبَّرة. أو ربما يأتي نعيق غراب من بعيد، ربما نباح كلب أو نهيق حمار، ربما صياح ديك أو طنين فراشة، أو ربما صوت محرك سيارة. باستثناء ذلك، يخيّم عادةً هدوء مريب على المكان، تتخلله من حين إلى آخر وبإيقاع متناسق حركة أجسادنا، حفيف ثوبها، أو صوت همساتنا بكل ما حوته من لذة مكتومة. عدا ذلك، لا شيء.

أظن أنه كان وقت الظهر عندما سمعنا للمرة الأولى أحداً يصرخ بنا من أعالي السدة. فوق، رأيناه يغادر القطار. صحيح أن القطار يتوقف عادةً فوقنا على جسر الصرافية هناك، لكنه كان دائماً في تلك الساعة من النهار شبه فارغ، خاصةً وأنها ساعة تناول الغداء، لكن هذه المرة رأينا شاباً ينزل من المرتفع مهرولاً، يلوّح صارخاً بنا، لم نعرف إذا كان موبّخاً أو مازحاً؟ لحسن الحظ أنه لم يسر حتى النهاية باتجاهنا، غيّر وجهته قبل وصوله إلينا. سار ناحية دار الحرية للطباعة القريبة منا أيضاً، حيث مكاتب تحرير وطباعة مجلة **ألف باء** وجريدة **الجمهورية** الحكوميتين. في ذلك اليوم انفصلنا عن بعض، حدقنا ببعض، لم نتحدث عن الشاب، بل ضربنا بعضنا على الكتفين بغنج وخفة، كأننا فرحين باكتشافنا للمكان الذي سيتحول منذ ذلك اليوم إلى مكان خلوتنا الجديد:



أقصد القطار ذاته الذاهب من منطقة الصناعة في مدينة الثورة إلى منطقة المتحف، جهة الكرخ، والذي كان يتوقف عادةً عند نقطة جسر الصرافية المعلّق بالضبط بجوار أكاديمية الفنون الجميلة.

المكان الثاني: كان القطار الذاهب من منطقة كسرة وعطش عند تخوم مدينة الثورة إلى ساحة المتحف في جهة الكرخ. لذة اكتشافنا اختلطت فيها الصدفة أيضاً، لأننا في اليوم الثاني، وبالضبط عند المحطة التي نزل منها الشاب الذي قطع علينا خلوتنا، قررنا أن نصعد إلى القطار. كانت، في الحقيقة، تلك هي المحطة الوحيدة التي يتوقف فيها القطار قبل عبوره من فوق طريق دجلة في رحلتَي الذهاب والإياب. وعندما وصل القطار إلى ساحة المتحف في الجهة الأخرى من بغداد، في جهة الكرخ، وبعد أن عبر نهر دجلة من فوق جسر الصرافية، كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة والنصف ظهراً. كانت تلك المحطة الأولى بعد محطتنا التي صعدنا منها، لكنها المحطة الأخيرة أيضاً. ولأننا لم نشأ النزول في ساحة المتحف، أردنا تحويل القطار إلى مكان هادئ لنا، قررنا البقاء في القطار لكي نعود راجعين معه، حيث صعدنا. لم ندرِ أن جلستنا ستطول وتطول، إلى ساعتين تقريباً، وأن باب المحطة سيُغلق.



نجم والي مع صديقة عند مدخل كلية الآداب، بغداد، 1975.



في البداية لم نعلّق بشيء، استرخينا منتظرين قدوم المسافرين، كانت تجربتنا الأولى مع هذا القطار. بل أصلاً لم نعرف أن هناك قطارَ نقلٍ داخلي ينقل العمال بين مدينة الثورة حتى ساحة المتحف وكراج العلاوي، بالضبط حيث المكان أُريد له يوماً أن يكون المحطة العالمية التي يسافر منها المرء من بغداد باتجاه برلين. من أين لنا أن نعرف ذلك، وأن بغداد التي تحتاج منذ زمن إلى مترو نقل لا تملك وسيلة نقل غير الباصات وسيارات السرفيس والتاكسي؟ لكن أية صدفة جميلة! ها أنا مرة أخرى في طريقي إلى برلين، دون تخطيط مني، قلت لنفسي ولِفتنة النهار ساعتها، قبل أن نغرق في لحظة صمت قصيرة.

وعلى عكس ما فعلته في جولاتنا في مقبرة الإنكليز، لم أحدّثها هنا عن تاريخ المحطة العالمية، عن خط بغداد برلين، وكيف أن الخط هذا الذي أُريد له أن يصل حتى إلى البصرة، بل وحتى المدينة الإيرانية عبادان، شغل بال العشرات من عشاق الرحلات في العالم، وأن في النهاية بدل أن يتحقق بناء المشروع الذي فعل المستحيل القيصر الألماني فريدريش فيلهلم الثاني من أجل نجاحه، تحول إلى ذكرى تضرب في وادي النسيان. بدل خط بغداد - برلين، وصلت البيرة الألمانية من ماركة باتسينهوفر قبله. كلا، لم أحدثها عن كل ذلك، لم أذكر حتى اسم المعماري الإنكليزي جيمس موليسون ولسون (١٨٨٧-١٩٦٥) الذي بنى المحطة لاحقاً في نفس المكان الذي أُريد للمحطة الأصلية لخط بغداد برلين أن تنشأ عليه، والذي هو في الحقيقة مكان المحطة التي وقف قطارنا عنده، منطقة ساحة المتحف، كما سُمّيت على اسم المتحف الوطني العراقي القريب منها. أيضاً لم أصف المحطة بكل ما حوته من زخرفة جميلة على قبّتها. كلا، لم يكن عندي الوقت للحكايات هذه المرة. نحن في مكان مغلق تضيق فيه الحكايات. على عكسه، نحن في مكان يتّسع لألعاب الحب التي لا تعرف الحدود؛ ألعاب الحب التي يتوقف بسببها كل كلام. نحن منذ اليوم ذاك سجينين مع لذتنا. الأمر متروك لنا، ماذا وكيف؟ لكن لأن جلستنا طالت، قلقنا، حتى القبلات التي اختلسناها من بعض (خاصةً القبلة التي طبعتها على شفتيها وأنا أخبرها عن قدر برلين!) لم تخلُ من الارتباك، لأننا، وحتى صعود صبي صغير يبيع العلكة والسجائر إلى عربتنا صدفة، لم نعرف ماذا جرى. ربما كان الصبي الذي هو أحد أولئك الصبية من الباعة الجوالين الذين ازدحمت بهم شوارع مدينة بغداد، في الثامنة أو التاسعة من أعمارهم.



نصف ساعة مرت على جلستنا، وهذا الطفل هو الذي أخبرنا أن القطار يتوقف هنا وتبقى المحطة مغلقة لا يستطيع أحد الدخول إليها حتى حلول الساعة الثانية والربع بعد الظهر، وقت انتهاء الدوام الرسمي للعمال والموظفين، لكي يحمل المسافرين إلى النهاية الأخرى من بغداد. معلومة جديدة عن بغداد لم أعرف بها سابقاً. لم أسأله كيف دخل هو، سؤال عبثي بدا لي في حينه، لماذا لا يكون بقيّ في القطار مثلنا؟ ثم أن بائعاً جوالاً مثله عرف بالتأكيد أوضاعاً أصعب. بدل ذلك اشتريت منه علبة سجائر سومر وعلكة، ودفعت له درهماً إضافياً. فرح الصبي، ثم وكأنه فهم سبب جلستنا، من يدري، ربما عرف عشاقاً آخرين غيرنا، خاطبنا وقد احمرّ وجهه قليلاً بأنه سيذهب إلى مقدمة القطار، وما أن يرى المفتش (جابي القطار) قادماً حتى يأتي لتحذيرنا. ضحك. غمز لنا، ثم ذهب.

لا في ذلك اليوم ولا في الأيام القليلة الأخرى حدث لنا ما عكّر خلوتنا. ليس بسبب وجود الصبي، الذي هرول باتجاهنا في ذلك اليوم مباشرةً بعد فتح باب المحطة ودخول المسافرين بالعشرات، لأننا لم نره بعد ذلك اليوم مرةً أخرى، بل أكثر من ذلك، لأننا أصبحنا أصحاب خبرة. نصعد القطار في الوقت المحدد، هذه المرة نحمل معنا سندويتشات للأكل وعصيراً للشرب، حتى تحول فاركون القطار ومعه المكان القديم للمحطة العالمية بمثابة دار استراحة لعاشقين مثلنا. ليس ذلك وحسب، بل تحولنا إلى ما يشبه كلاب عالم الأعصاب الروسي بافلوف، الذي كان يُطعم كلابه على صوت الجرس، وعندما رنّ الجرس مرة و لم تجد الكلاب الأكل الذي اعتادت عليه في مثل هذا الوقت كل يوم، سال لعابها. نحن أيضاً، من غير المهم الوقت الذي استغرقه خلوتنا، من غير المهم ما فعلناه، كنا نتوقف أوتوماتيكياً، حتى دون أن نعاين الوقت في ساعتينا، نعرف وبدون أن ننتظر تحذير صبي بائع جوال، أو من صفارة كان يمكن أن يطلقها قطار، نعرف أن ساعة رجوعنا حانت، وأن علينا أن نعدّل من وضعنا، خاصةً هي، عليها أن تُرتب تنورتها، وتصفف شعرها، إذا لا تخرج مرآة صغيرة من حقيبتها وتبدأ بترتيب كل شيء، لكي نكون كما كنا حين صعودنا القطار. نعود إلى جلستنا السابقة. تلك هي متعتنا اليومية. فيها القليل من العذاب. لكن متى كانت هناك لذة بدون القليل من المعاناة؟



كم دامت رحلاتنا، رحلات الفتنة الأولى والقطار الذاهب بين منطقة الصناعة عند تخوم مدينة الثورة وساحة المتحف، القطار الذي يعبر من الرصافة إلى الكرخ، القطار الذي تعبر عليه لذتنا؟ ربما دامت أسبوعاً أو ربما ثمانية أو تسعة أيام. فكما يحدث في أفلام السطو والمطاردات، ربما انتبه أحد مفتشي القطار إلينا، ربما لأننا الطالبان الوحيدان اللذان راحا يصعدان كل يوم وفي نفس الوقت من الظهيرة، حاملين عدتهما، ربما لأننا كنا "موديرن" أكثر من بقية المسافرين، هي بتنورتها القصيرة وبلوزتها المفتوحة الصدر (لم تكن تلبس البنطلون في ذلك الوقت) وبتسريحة شعرها القصير، الأنيقة، وأنا ببنطلون الجينز التشارلستون كما كانت الموضة في حينه، وبقميص ضيّق مزود بـ"بنسات" كما أُطلق على خياطة القميص عند الظهر، بتسريحة شعري الذي فتحته وصففته بالسيشوار (مجفف الشعر). كل ذلك جلب الشك عند قاطع التذاكر أو مفتش القطار (الجابي) وجعله يراقبنا ويتحين الفرصة السانحة لصيدنا. فعادةً زبائنه جميعهم من العمال البسطاء في مظهرهم أو ملبسهم، بوجوههم المتعبة. ثم أن القطار يقف مرة واحدة في المحطة التي نصعد منها عند جسر الصرّافية، فعادةً لا يصعد إليه غير العمال المناوبين (شفتات) القادمين من الثورة. أو لماذا لا يكون أيضاً هو ذنبنا نحن، لأننا لم نصبر في ذلك اليوم حتى وصول القطار إلى ساحة المتحف؟ فلأن العربة التي جلسنا فيها في ذلك اليوم كانت فارغةً من غيرنا، كما هي العادة، بدأنا بالدخول في طقسنا المعتاد، و لم ننتبه إلى المفتش وهو يقف عند رأسينا قائلاً: عليكم أن تدفعوا الأجرة. في ذلك اليوم دفعنا أجرة القطار. نزلنا في ساحة المتحف مباشرةً. لم نصدق أن القطار سيصل إلى هناك. في البداية لم نتفوه بأية كلمة، وعندما أصبحنا خارج المحطة ضحكنا بملء أرواحنا، دون أن أدري طبعاً أن الضحكة تلك لن نضحك مثلها بعد ذلك. دون أن أدري أن قطار الملذات ذاك سيكون المكان الأخير لنزواتنا، وأن المحطة التي تركناها وراءنا، محطة ساحة المتحف، ستكون المحطة الأخيرة لجولات غرامنا. لأنّ لا في اليوم الثاني ولا في الأيام التي تلت رغبت فتنة النهار بالخروج معي في نزهاتنا التي ستصبح ماضية. دائماً كان هناك عذر ما. ودائماً، وكلما زرتها، كان صباح، الرجل الجديد، هناك معها، والذي لم يتردد هذه المرة عن جلب الحرس الجامعي، الذين هم رجال أمن في الحقيقة، لمنعي من دخول جامعة المستنصرية.



لم يدم حبنا طويلاً، بل لم يقاوم حتى نهاية العام الدراسي الأول لنا. فِتنة النهار أطبقت عليه مبكراً، وفي وضح النهار. وفقط في حينه فهمت مغزى كلامها عن الذهب الجيد والذهب الرديء. لا أدري، ولا أريد أن أدري، مدى الحزن الذي لفّني في دوامته حينها. لكن كل ما أدريه هو أنني معها تعرفت على بغداد أخرى؛ بغداد العشق؛ بغداد السرية بكل ما حوته من أماكن وفضاءات مختومة بالمسرات.



٢٣

مقاهٍ دخلت التاريخ

في كتابه الشامل والممتع عن العراق (ترجمة عفيف الزاز، مؤسسة الأبحاث، بيروت ١٩٩٢) يتحدث المؤرخ الأميركي الفلسطيني الأصل حنا بطاطو (١٩٢٦-٢٠٠٠) عن ولاءات العراقيين إلى انتماءاتهم المناطقية قبل كل شيء، ليعود ويصنّف كيف أن مناطق سكناهم تلك، التي أُطلق عليها "المحلات"، هي عبارة عن وحدات سكنية لتجمع عشائري أو مذهبي أو طبقي معين. بكلمة أخرى، كما يقول، "إن المجموعات التي كانت تنتمي في مدن العراق إلى عقائد دينية أو طوائف أو طبقات مختلفة، أو كانت من أصول إثنية (عرقية) أو عشائرية مختلفة، كانت تميل إلى أن تعيش في محلات منفصلة"، وكدليل على ذلك يذكر بطاطو البعض من الأمثلة (سأعود إليها في فصل أثرياء بغداد)، حتى أننا نادراً ما نعثر على محلات مختلطة، لدرجة أن دخول غريب إليها أصبح مثاراً للريبة، إن لم يستدعِ المشاكل بالنسبة له. يمكن رؤية ذلك بوضوح، خاصةً في أحياء أو محلات العاصمة بغداد. التصنيفات هذه التي تحدث عنها بطاطو يمكن تطبيقها وإلى حد بعيد على المقاهي المشهورة في بغداد أيضاً. طبعاً ليس المقصود هنا المقاهي التي أصبحت تجمعاً لأهالي مدينة معينة (مقهى أهالي الكوت، مثلاً، الواقع مباشرةً في ساحة الرصافي، عند تمثال الشاعر البغدادي معروف الرصافي الذي سُمّيت الساحة باسمه، والذي كان يقع إلى جوارها أحد أشهر محلات بيع الكاهي والقشطة للفطور في بغداد، أو مقهى أهالي الناصرية الواقع في الشارع

الذي يربط بين ساحة الرصافي بشارع الخلفاء، بالضبط مقابل مطعم جميلة) لأن الانتماء المناطقي يتّسع هنا ويصبح المدينة كلها، بكل طبقاتها وقبائلها وعوائلها. ما أعنيه هنا هو الحديث عن المقاهي تلك التي تحولت في المقام الأول إلى أماكن لاستراحة أصحاب حرفة أو مهنة معينة. ربما كان يجلس فيها زبائن آخرون، لكنهم يظلون طارئين، على عكس روادها الدائمين الذين تتكرر وجوههم وجلساتهم في نفس المكان على تخت المقهى كل يوم.

مقهى الشابندر مثلاً، الذي افتتح عام ١٩١٧، وكان بمثابة مقهى للتجار في حينه، قبل أن يتحول لاحقاً ولغاية اليوم إلى أشهر مقهى لتجمّع الأدباء والفنانين، والذي لم يسلم من التعرّض لتفجير إرهابي مروّع عام ٢٠٠٩، فقد فيه السيد محمد الخشالي صاحب المقهى منذ عام ١٩٣٧ أربعة من أبنائه وحفيداً، وما زال عدد آخر من أبنائه يعانون من جروحهم البليغة التي تعرضوا لها نتيجة الحادث الإجرامي، اليوم عُلّقت لافتة عند مدخله تقول إنه "مقهى الشهداء". أو مقهى الموظفين والعاملين في الإذاعة الواقع مباشرةً عند ساحة جمال عبد الناصر الملاصقة لبناية الإذاعة والتلفزيون (الطريف أن شاعراً صعلوكاً، قادماً من مدينة كركوك، جان دمو، الذي اشتهر بطرائفه أكثر من شهرته بكتابة الشعر حسب المزاج، اعتاد الجلوس في المقهى، حتى مغادرته العراق عام ١٩٩٢م إلى أستراليا وموته هناك، للعب الدومينو (لعبة الآزنيف) مع مطربي البرنامج الريفي في إذاعة **صوت الجماهير** - إذاعة القوات المسلحة في بدايتها - وكان يخسر مباشرةً كل ما قبضه للتو من مكافآت عن مساهمات إذاعية له من حسابات إذاعة بغداد)، أو مقهى سوق الغزل، الذي يجلس فيه كل أولئك الذين يتوافدون لسوق الغزل من أجل بيع الطيور وحيوانات أخرى، والذي تعرض مرات عديدة لتفجيرات إرهابية هو الآخر مع السوق كله. وحتى مقهى الأعيان (الذي أغلق بوقت مبكر، بعد مغادرتي العراق) في شارع الرشيد والملاصق لجامع الحيدرخانة، أو مقهى حسن عجمي الواقع في شارع الرشيد أيضاً لكن المقابل لجامع الحيدرخانة، أو مقهى الزهاوي في شارع الرشيد الواقع عند مدخل سوق الهرج، أو مقهى البلدية في ساحة الميدان، ومقهى الآداب في باب المعظم، ومقهى البيروتي في جانب الكرخ... أقول: حتى هذه المقاهي ظلت لسنوات طويلة أماكن للموظفين والمتقاعدين من الوظائف الحكومية

العالية، خاصةً من دوائر المحاكم والجمارك والعقار. الطبقة الطارئة الوحيدة التي تنقّلت من مكان إلى مكان وحسب الظروف السياسية والاجتماعية التي مرت بها البلاد هي طبقة الأدباء والفنانين، أو لنقل طبقة المثقفين عموماً.

وكما يبدو، مع بروز كل جيل أدبي وثقافي جديد يتحول أحد مقاهي بغداد إلى مركز للتجمع الجديد. في عشرينيات القرن الماضي وحتى نهاية سنوات الخمسينيات مثلاً توزّع المثقفون في بغداد على مقهيين:

١- مقهى الزهاوي، وهذا واضح من اسم المقهى الذي اتّخذ من اسم الشاعر العراقي البغدادي النشأة محمد صدقي الزهاوي. الزهاوي الذي اشتهر بقيادة الحملة الداعية لسفور المرأة، الأمر الذي همّه أكثر من الدفاع عن القضية الوطنية والكفاح ضد الاستعمار البريطاني كما فعل زميله ومنافسه اللدود الشاعر معروف الرصافي، كان دائم الجلوس في هذا المقهى مع معروف الرصافي، وإن لم يكنّا لبعضهما الحب. وحتى اليوم ما زال المقهى يحمل عبق الجو القديم من ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي. في بداية السبعينات اتّخذ الشعراء الشعبيون العراقيون المقهى مكاناً لهم، على الأقل في ساعات النهار حتى قدوم ساعات العصر، قبل أن ينتقلوا لاحقاً إلى مقهى الحاج ياسين عند بداية شارع أبي نؤاس من جهة الباب الشرقي، ربما بسبب التيراس (الشرفة) التي حوى عليها هذا المقهى، خاصةً في أوقات العصر، أو لأنه قريب من حانات شارع أبي نؤاس، حانة سرجون خاصةً، حيث اعتادوا احتساء العرق هناك. من تلفون المقهى، الذي كان يرقد مثل حيوان ضخم أسود على طاولة صاحب المقهى، اتّصلت مرات عديدة بعد ساعات نوم القيلولة بفتاتي: فِتنة النهار. في هذا المقهى لا أزال أتذكر ناقداً أعور اسمه كاظم على ما أظن، لم أعرف أحداً آخر غيره أكثر حماساً في نقد الشعر الشعبي.

٢- مقهى البرازيلية، الذي يقع في وسط شارع الرشيد باتجاه الباب الشرقي، على خطوات من مبنى أورزدي باك وقبالة سينما الزوراء في ساحة المربعة، والذي ظل أحد أكثر مقاهي بغداد عراقةً وأصالة مأوى للطبقة المثقفة، على الأقل حتى أواسط سنوات السبعينيات، عندما أخذت مكانها مقاه أخرى. ربما لأن السبعينيات كانت سنوات صعود اليسار، ومقهى البرازيلية، الذي كان أكثر مقاهي بغداد جمالاً، بدا أرستقراطياً، في الجو الذي حمله، وحدها الكراسي القديمة بمقاعدها المصنوعة من الجلد، والمرايا



التي توزعت على جدران المقهى، ومساحة المقهى الكبيرة، ثم نوعية القهوة البرازيلية التي كان يقدّمها بالحليب، وكان في ذلك متفرداً في بغداد، جعله يتفوق على المقاهي الشعبية الأخرى. طبعاً طلاب مثلي صعب عليهم الجلوس هناك ودفع ثمن القهوة. مقهى أرستقراطي بالفعل، وأنا أشكر صديقي ميثم عبد الجبار عبد الله، ابن عالم فيزياء الأنواء الجوية عبد الجبار عبد الله وأول عميد لجامعة بغداد بعد ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨م، الذي أخذني إلى ذلك المقهى (مثلما هو الذي قادني إلى مقهى الزهاوي أيضاً). فشاب مثله ترعرع في الولايات المتحدة الأميركية مع عائلته المنفية منذ عام ١٩٦٣م، وجاء للعراق بعد عودة العائلة عام ١٩٧٢م، وإسقاطها للجنسية الأميركية، ودخوله للدراسة في أكاديمية الفنون الجميلة – قسم الرسم، كان متلهفاً للتعرف على كل الأماكن الأصيلة في بغداد. أتذكر أننا كلما جلسنا شغل ميثم نفسه بالرسم بالحبر الصيني. في ذلك الوقت لم يكن يرتاد المقهى سوى أدباء قليلين، على عكس ما كان عليه في الماضي، عندما كان أيضاً مجمعاً لطلبة الكليات يلتقون في هذا المقهى ويتحلقون حول طاولات محددة لأدباء وسياسيين بعينهم ليتبادلوا آخر أخبار الأدب والثقافة والسياسة ولمدى عقود. في سنوات الخمسينيات مثلاً كان المقهى مكاناً لتجمع الجيل الخمسيني من الأدباء، منهم عبد الملك نوري، فؤاد التكرلي، غائب طعمة فرمان، نزار سليم، نزار عباس، أدمون صبري، أنور شاؤول، وغيرهم، قبل أن يتحول إلى مركز لرواد حركة الشعر في بداية الستينيات، من أمثال: بدر شاكر السياب، عند حضوره إلى بغداد قادماً من البصرة، وبلند الحيدري وعبد الرزاق عبد الواحد ورشيد ياسين وعبد الوهاب البياتي وحسين مردان.

في مقهى البرازيلية الأدباء يجلسون يرتشفون القهوة البرازيلية المشهورة التي يحضّرها (القهوجي) صاحب القهوة على البخار من مرجله الخاص بتحضير القهوة المستورد منذ أربعينيات القرن العشرين أو كوب الشاي (وليس أستكان الشاي المفضّل ارتشاف الشاي به في العراق). وفي هذا المقهى أيضاً افتُتح مسار الحركة التشكيلية على يدَي جواد سليم، صاحب نصب الحرية في ساحة التحرير في الباب الشرقي عند مدخل حديقة الأمة، وجماعته، فكتب في مذكراته بعد لقائه بالفنانين البولونيين، تلامذة الفرنسي بونار في ذلك المقهى: "الآن عرفتُ اللون. الآن عرفتُ الرسم". أليس من المفارقة أيضاً أنّ أغلب رواد المقهى هذا كانوا هم أغلب ساسة العراق في زمن الحكم

الملكي. قد لا يكون هناك طالب جامعي في تلك الحقبة الذهبية من تاريخ العراق لم يرتد ذلك المقهى للدراسة مع زملائه والاطّلاع على آخر أخبار السياسة والأدب والثقافة ومطالعة الصحف والمجلات التي توفرها المقهى.

بعد عقد الستينيات، وظهور ما أُطلق عليه من جيل الستينيين، بدأ الأفول الأدبي للمقهيين، ليحلّ محلهما مقهى صغير وقع في أول شارع ضيق صغير من جهة ساحة التحرير، يربط بين شارع السعدون وشارع أبي نؤاس، بالضبط مقابل مطعم نزار الذي كان مشهوراً في حينه في بغداد، هنا جلست أغلبية الأسماء الستينية من قصاصين وشعراء ورسامين ونحات.

٣- مقهى البرلمان: في بداية السبعينيات سيبرز مقهى جديد سيتحول إلى مركز لتجمع أدبي وثقافي جديد، إنه مقهى البرلمان، الواقع على يمين شارع الرشيد قبل الوصول إلى تمثال معروف الرصافي قادمين من جهة ساحة الميدان، في منطقة الحيدرخانة، حيث الأزقة الصغيرة المجاورة للمقهى، التي اشتهرت بيوتها بتأجير غرف للعزاب، ناهيك عن مطاعم الأكل الرخيصة (الفوكة)، حيث يُقدم صحن من الرز رُش فوقه المرق بدون لحم، التي انتشرت هناك، مكان أكل الطلاب والموظفين الصغار طبعاً. المقهى يقع أيضاً مقابل جامع الحيدرخانة الشهير. أية مفارقة؟ كان الجامع هذا هو دليلي، بوصلة الوصول الأولى إلى مقهى البرلمان الذي وصف لي مكانه أحد الأصدقاء.

أتذكر أنني عندما دخلت شارع الرشيد للمرة الأولى من جهة ساحة الميدان لمحت من البعيد قبته الزرقاء الجميلة التي جذبتني باتجاهها بقوة، وكأن وجهتي لم تكن مقهى البرلمان. أتذكر أنني أسرعت الخطى مارّاً بمطاعم وفنادق ومقاهٍ ومحلات بيع الحقائب ومحلات تسجيل الموسيقى، كانت هناك أيضاً محلات بيع عصير الفواكه، وأخرى لبيع الملابس الجاهزة، وأيضاً صيدليات. وعندما دخلت المقهى وجلست قريباً من زجاجه الفاصل بينه بين والشارع رأيت قبتين أخريين صغيرتين إلى جانب القبة الكبيرة. لم أعرف في حينه أن المكان الذي جلست فيه سيكون مكاني الدائم، مركز العالم بالنسبة لي، على الأقل إلى حين رحيلي عن العراق، أقصد سيكون "برلماني" الخاص الذي سيشاركني فيه أحبة سيضيعون بعد سنوات قليلة في متاهات عالم مجهول. لا أدري إذا كنت واصلت الجلوس في مقهى البرلمان بدون منظر جامع الحيدرخانة أمامي.



أعرف أن كل من أُطلق عليهم "جيل السبعينيات" من زملائي جلسوا هناك، وشربوا مثلي الشاي اللذيذ الذي صنعه جعفر، لكنني أعرف أن أغلبهم أبدى الحماس ذاته في تطلعه للقباب الجميلة تلك. خاصةً في أيام اشتداد المطاردات البولسية وازدحام المقهى برجال الأمن والمخابرات، كنت ومعي الشلة الضيقة من الأصدقاء غالباً ما نجلس عند مكان يُمكننا من التطلع إلى القبة الكبيرة، في حالة عدم جلوس أحدهم في المكان الذي اعتدت الجلوس فيه. خاصةً في أيام الشتاء المشمسة، كان يتلبّس القبة جمال غير عادي، إذ كانت الشمس تتلألأ بأشعتها فوق اللون الأزرق من قيشانها الذي كان غالباً لا يزال مبللاً بقطرات المطر الأخيرة التي لم تجف بعد. لا أعرف لماذا كنت أتصور الرسومات التي تركها القيشاني مثل حديقة كبيرة عامرة منقوشة فوق الموزاييك: هل هو الجدب الذي أحاطوا حياتنا به ما يحملني على تخيل ذلك؟ هل هي ميلانخوليا الشعور بالفقدان؟ الشعور بما ينتظرنا من فجائع وسجون وموت ونفي ودمار؟ "انظروا! ألا تعتقدون معي أن فوق القبة بساتين عامرة؟"، كنت أقول لأصدقائي الجالسين هناك فيرد عليّ بعضهم: "لست وحدك من يعتقد ذلك"، ثم يضيف: "انظر إلى جموع الطيور التي تُضلّلها رسوم النبات وتحطّ هناك بشكل جماعي". هم الآخرون بحثوا عن بساتينهم غير المزورة، بعضهم اعتُقلوا في المقهى، الشاعر نوري أبو رغيف مثلاً، الذي ربما تطلّع لحظة اعتقاله في الطيور المتساقطة فوق النقوش على القباب، أو ربما قرأ كعادته قصيدة من ديوان المتنبي الذي واظب على حمله في أيام استشراء وباء الطاعون الأخيرة؟ من يدري؟ بعضهم غادر، مثلاً، لاحقاً إلى بلاد الله الواسعة، وبعضهم دخل الحزب الحاكم، فيما بعضهم مات مبكراً قبل إكمال مسيرته الأدبية، كما هو الشاعر القادم من كربلاء، صاحب الشاهر، أو مات لاحقاً بعد نضوج تجربته، كما الشاعر رعد عبد القادر (رغم موته المبكر منذ عمله لعدي صدام حسين)، وبعضهم سيموت في المنفى مغموماً، كما الشاعر كمال سبتي الذي عُثر عليه ميتاً جالساً على كرسيه في شقته في أمستردام، وبعضهم ما زال يعيش، يكتب القصة أو الشعر، في العراق أو في خارجه.

في نهاية سنوات السبعينيات، ومع اشتداد الملاحقات والاعتقالات للمعارضين للسلطة والمستقلين عنها، بدأ بعضنا بتبديل مكان الجلوس، في البداية إلى مقهى الأعيان الواقع على الجهة اليسرى من شارع الرشيد، بجوار الحمام البغدادي المشهور، حمام



الحيدري، وبالضبط تحت القسم الداخلي الذي أسكنوني فيه عام ١٩٧٧. أتذكر الطرفة التي رواها صديق لنا ظريف، اسمه علي عبد الحسين، وهو يجيب أحداً سأله عنا في مقهى البرلمان، فقال: "الجماعة متخفّين، يرتادون مقهى الأعيان"، قال ذلك ساخراً وهو يشير إلى الجهة الأخرى من الشارع، لأن الأعيان لم يكن يبعد إلا أمتاراً قليلة عن البرلمان، ولمن أراد اعتقالنا، لا يحتاج إلى الكثير من العناء. لكن عندما تزداد المطاردات، عندما يزداد العسف، تضيق المجالات وتتحول حتى مدينة كبيرة مثل بغداد إلى جحر صغير. في تلك الأيام التي رحنا نبحث فيها عن ملاذات جديدة هرباً من ملاحقة رجال الأمن في مقهى البرلمان، كان من السهل لمن يريد العثور علينا، لاعتقالنا، تمشيط شارع الرشيد من جهة الميدان حتى ساحة التحرير، أو تمشيط شارع الجمهورية من الجزء الذي أطلقوا عليه في الثمانينيات اسم شارع الخلفاء وحتى ساحة التحرير، أو التفتيش علينا في كل المقاهي الشعبية أو الحانات حتى الرثّة منها والتي توزعت هناك، مقاهي وحانات الباب الشرقي مثلاً.

لكن في كل تنقلاتنا وجولاتنا تلك، لم نستطع كبح جماح الرغبة بالمرور ولو قليلاً في مقهانا، البرلمان. البعض ظل مصراً على جلوسه هناك حتى بعد اختفاء أغلبنا. في أواسط الثمانينيات، كما يبدو، تعبت السلطات نفسها من المقهى، أغلقته وحوّلته إلى مطعم لبيع الدجاج ومحلات أخرى لبيع الملابس والعُدد اليدوية، كأنها في فعلتها تكمل إنجازها الآخر. فجامع الحيدرخانة، الذي بُني بأمر من الوالي العثماني داود باشا عام ١٢٤٢م، كان أُغلق هو الآخر منذ سنوات، ما عاد أحد يتذكره، وأُغلقت معه ليس مدرسة القرآن التي احتواها وحسب بل المكتبة التي كانت تُعتبر من أهم مكتبات زمانها أيضاً. فأية مصادفة؟ كأن غلق الجامع مقدمة لغلق مقهانا "البرلمان"!





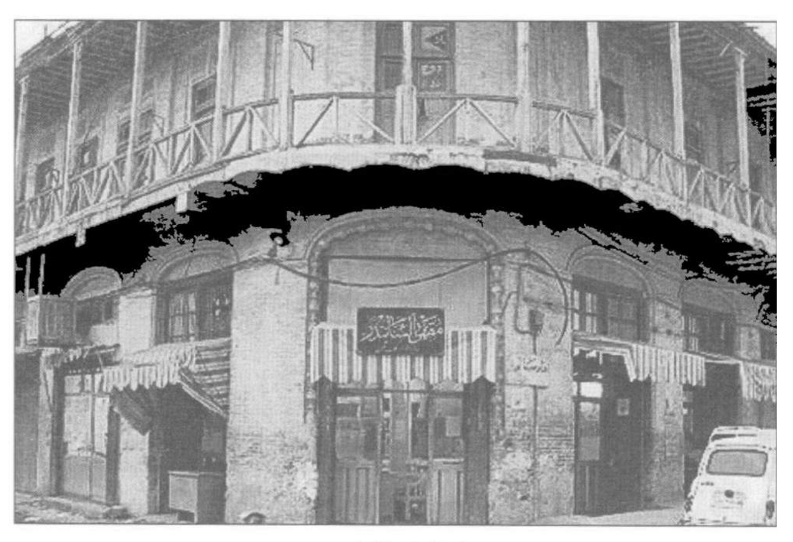
مقهى بغدادي في العشرينيات.



مقهى بغدادي في الأربعينيات.



مقهى الزهاوي من الداخل.



مقهى الشابندر قبل تفجيره.

٢٤

أماكن التمرد من الهنشاق والأرمني كيدور إلى العراقي الرحّال وشباب البرلمان

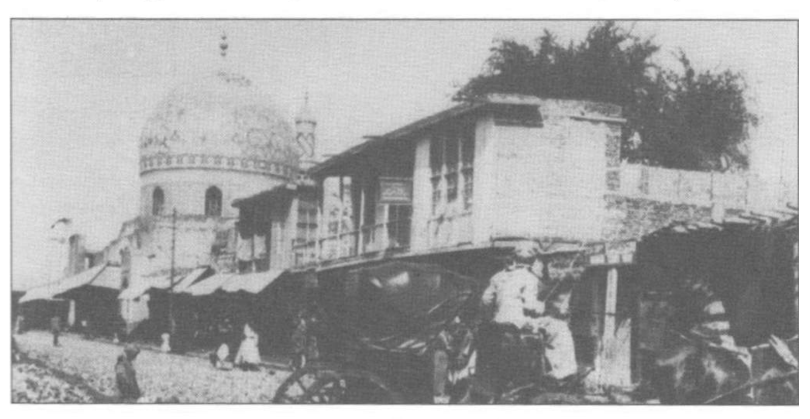
مقهى البرلمان جعلني أتساءل مرات عديدة: هل نحن الذين نخترع الأمكنة الخاصة بنا أم أن الأماكن هي التي تخترعنا، ترسم لنا حياتنا، دون إرادة مسبقة منا أو تخطيط؟ صحيح أن غلق مقهى البرلمان جذر ذلك السؤال عندي، لكن قبله، حتى في تلك الأيام التي جلست فيها عند زجاج المقهى، أتطلع إلى الجهة الأخرى من شارع الرشيد، أعاين جامع الحيدرخانة، كنت أتساءل: أية مصادفة؟ ففي المنطقة هذه التي أحاطت جامع الحيدرخانة، وحتى قبل أن يُبنى مقهى البرلمان، وقبل أن نحلّ عليها نحن شلة الطلاب أو شلة الأدباء المتمردة، نشأت كل الأفكار الثورية التي انطلقت ذات يوم في بغداد. إنها لمفارقة مدهشة أيضاً أن الجامع هذا، وليس غيره، لعب دوراً في نشر الأفكار العلمانية الأولى في العراق.

منذ بداية القرن العشرين والمنطقة هذه - منطقة الحيدرخانة - هي نقطة الانطلاق لحركات وأحداث ستترك بصماتها ليس في تاريخ بغداد وحسب بل في تاريخ العراق كله. ولا أقصد القصائد الثورية التي ألقاها الشاعر محمد مهدي الجواهري بعد سقوط أخيه جعفر صريعاً برصاص الشرطة في ٢٧ كانون الثاني/ يناير ١٩٤٨، في التظاهرات التي سارت في بغداد ضد معاهدة بورتسموث وإقامة حلف بغداد، وهو يُلهب الجماهير للانتفاض ضد السلطات البريطانية، ولا القصائد الأخرى التي ربما لم تقلّ عنها حماساً،



والتي ألقاها الشاعر معروف الرصافي الذي عُرف هو الآخر بعدائه للإنكليز. ليس هناك حدث ثوري في التاريخ الحديث لمدينة بغداد دون أن يكون جامع الحيدرخانة مركزاً أو ملتقى له، ودون أن يكون لذلك أية علاقة بالدين، فلا الرصافي ولا الجواهري ولا قادة التظاهرات الوطنية التي سارت من هناك ضد الإنكليز كانوا متدينين، لكن ما أردت الذهاب إليه أبعد، إلى تلك السنوات التي لم تكن فيها الأفكار الثورية "اليسارية" قد تبلورت بعد، عندما كانت الماركسية ومثلها الشيوعية مصطلحات غريبة لكل لسان، وكيف أن الجامع والمكان المحيط به كان حاضنة لانطلاق تلك الأفكار.

نحن نجلس في أواسط سنوات السبعينيات في مقهى البرلمان، حلقة صغيرة من شباب جمعتهم أفكار بالتحرر وعزيمة لمقاومة الديكتاتور، وقبل نصف قرن من جلساتنا تلك جلس شباب آخرون في المنطقة المحيطة بنا، فكروا هم الآخرون بتغيير العالم، بعضهم لم يتردد في حمل السلاح مثلاً، كما حدث قبل نصف قرن، عندما انطلقت في أحد الأزقة القريبة من الجامع، وفي مكان ليس بعيداً عنا، في شهر تموز/ يوليو ١٩٢٤، مجموعة مسلحة صغيرة في طريقها إلى مكاتب بعض كبار رجال الأعمال وهددتهم بالموت إن لم يدفعوا آلاف الروبيات. ولكي تبرر العمل الذي قامت به وجهت المجموعة هذه، التي كانت تابعة لجمعية سرية ضمّت أعضاءً غير معروفين أطلقت على نفسها "الحزب السري العراقي"، للرأي العام رسالة شرحت فيها أسباب تحركها ضد طبقة الأثرياء، قائلةً: "إننا لم نرَ حتى الآن أية أعمال مفيدة للبلاد قام بها الأغنياء مع أنهم يتمتعون



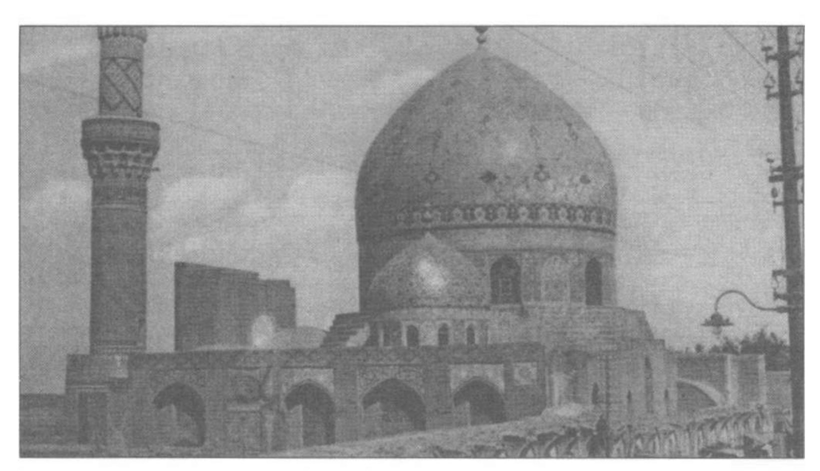
جامع الحيدرخانة، شارع الرشيد، بغداد، 1900.



بهذا الوطن البائس أكثر من الآخرين... ولقد أُعذر من أنذر". احتجاز أشخاص في بغداد ليس أمراً جديداً حقيقةً، لكن الجديد هو العقلنة التي أُعطيت لهذا الاحتجاز. صحيح أن الحدث كان صغيراً، لكنه في النتيجة أدى إلى خلخلة في روتين الحياة اليومية في بغداد، أما نتيجته الملموسة فكانت الهرب المؤقت لكبار الأثرياء العراقيين إلى لبنان.

الحدث العابر ذاك هو أيضاً فرصة للتذكير بأن ما حدث كان أيضاً إشارة إلى أن البذور الأولى للشيوعية، أو للأفكار الماركسية التي زرعتها الحركة الأرمنية الفتية للثوريين، التي كانت ناشطة سراً تحت اسم "الهنشاق" (الجرس) في مدن عثمانية مختلفة، قبل تلك الحادثة بأربعة عقود، وبصورة خاصة في بغداد تحت قيادة الأرمني آرسين كيدور، بدأت تعطي ثمارها. ليس ذلك وحسب، كأن تلك الحادثة "الثورية" التي حدثت في بداية القرن العشرين هي بداية لمسيرة "ثورية" حافلة لقرن كامل، كان على بغداد أن تعيشها، أو كأن بغداد، ومنطقة الحيدرخانة بالذات، حيث درّس معلم التاريخ آرسين كيدور، وحيث جلسنا نحن في برلمانـ"نا"، أرادت أن تثبت تقليداً خاصاً بها بصفتها مكاناً للحركات "الثورية" القادمة من وراء الحدود، لأن حركة الهنشاق هي بداية وحسب لحركات "ثورية" أخرى ستتبعها.

لنبدأ بالهنشاق أولاً: فاستناداً إلى الرسالة التي وجّهتها الشخصية الأسطورية آرسين كيدور، أحد نشاطائها الرئيسيين في بغداد، في ١٤ حزيران/يونيو ١٩٣٧، إلى مجموعة



جامع الحيدرخانة، شارع الرشيد، بغداد، 1945.



من الطلبة الأرمن في الجامعة الأميركية في بيروت، وحسب القصص التي رواها لي أحد المتعاطفين الأوائل مع المجموعة "الثورية"، الحاج رؤوف، شخصية بغدادية تعرفت عليها في مقهى البرلمان في أواسط السبعينيات، وما كتبه لاحقاً المفكر حنا بطاطو عن الحركة في كتابه العراق، لم يسهم إلاّ في تأييد ما رواه لي، فإن حركة "الهنشاق" تعود في أصولها إلى مبادرة عدد صغير من الطلاب الأرمن الذين بدأوا بنشر صحيفة بذلك الاسم في جنيف عام ١٨٧٧، الهدف منها توحيد كل الأرمن في دولة اشتراكية. مع انطلاقة القرن العشرين، وانتشار أفكار "الاشتراكية الديمقراطية" في العالم، عرّفت الحركة بنفسها بكونها منظمة "اشتراكية ديمقراطية"، وأنها تعاونت في القوقاز بشكل حميمي مع البلاشفة ضد "الفيدرالية الأرمنية" ذات الميول القومية والمسماة "طاشناقتزوتيان". كان الطلبة يشكّلون الأغلبية في المنظمة، وشكّل هؤلاء، عام ١٩١٠، تجمعاً فرعياً خاصاً بهم: "اتحاد الطلبة الاشتراكي الديمقراطي الهنشاقي"، وبدأوا في السنة التالية بنشر صحيفة غايدز (الشرارة) على خطى اسم إيسكرا، الصحيفة البلشفية التي أطلقها الروسي وقائد الثورة البلشفية فلاديمير إيلتش أوليانوف - لينين. التحول الكبير الذي حدث لحركة "الهنشاق" كان بعد معرفتهم بخطة مزعومة للحكومة التركية لنقل كل الأرمن من شرق الأناضول إلى مناطق أخرى من الإمبراطورية العثمانية. ولكي يُفشلوا ذلك أسّسوا مجموعة إرهابية وانضموا إلى "الائتلاف"، وهو حزب معارض، على أمل تدبير انقلاب بمعونة الحكومة الفرنسية. صحيح أن الانقلاب لم يحدث، لكن المجموعة الإرهابية نجحت باغتيال ثلاثة من رجال تركيا الأقوياء، هم جمال وطلعت وأنور. عملية الاغتيال تلك سارعت أيضاً بكشف الشرطة التركية لأمر المنظمة، وإلقاء القبض على نفر من أعضائها. عشرون منهم نُفّذت فيهم أحكام الإعدام شنقاً، فيما استطاع أحد قادتها، هو معلم التاريخ في المدرسة السلطانية في الحيدرخانة في بغداد والبالغ السادس والعشرين من العمر وابن البقال الموسر من بايزيد التركية، إنقاذ عنقه بإفلاته من السجن بمساعدة زميله المعلم رشيد عالي الكيلاني (الذين سيقود انقلاباً نازي الميول ضد بريطانيا ومؤيدي "الائتلاف" العراقيين في أيار/مايو ١٩٤١). وهو آرسين كيدور هذا، وليس غيره، الذي قُدّر له أن يلعب دوراً نشطاً في عشرينيات القرن الماضي في نشر الأفكار الثورية وتطوير الشيوعية في بغداد أولاً، وأين؟ في مكان قريب من مقهى

البرلمان وجامع الحيدرخانة.

حتى الحاج رؤوف لم يخفِ دهشته يوماً، كلما روى لي إحدى القصص القديمة. دائماً كان يهز رأسه، يُعدل من الشعرات القليلة التي بقيت على صلعته ثم يقول بصوته الرخيم وبابتسامته التي لا تفارق شفتيه، وهو يحرك يده التي تمسك سيجارة طال رمادها في الهواء عجباً، قبل أن يثبتها باتجاه واحد: "كل شيء انطلق من الأزقة هذه"، وهو يقصد من الحيدرخانة، إن لم يقصد أنه لولا المدرسة السلطانية القريبة من جلستنا، التي درس فيها معلم التاريخ آرسين كيدور، ما كان لحياة صبي بغدادي في الحادية عشرة من عمره، جلس فيها في عام ١٩١٤ بالذات، عام اندلاع الحرب العالمية الأولى، أن تصبح متقاطعة مع حياة معلمه في ظروف أكثر فوراناً؟ فاستناداً إلى القصص التي رواها البعض عن الصبي هذا، والبعض منهم ما زال على قيد الحياة، الحاج رؤوف مثلاً، زميله في المدرسة السلطانية، لكن ليس في الحلقات الماركسية الأولى، رغم تعاطفه مع الأفكار الثورية لحركة "الهنشاق"، فإن الصبي هذا كبر ليصبح أحد أبرز مفكري العراق المعاصر، وليس من المبالغة القول إنه كان أول ماركسي في العراق.

الصبي البغدادي هذا، الذي بالتأكيد نحن مدينون له في تطورنا الفكري اللاحق في العراق كثيراً، هو ليس غير حسين الرحّال. ولا يمكن الحديث عن بغداد المعاصرة، بغداد القرن العشرين، ولا عن الحركات الثورية أو الحداثية التي لحقت، من دعاوى تحرير المرأة، مروراً بتأسيس الحزب الشيوعي العراقي، إلى حركات الكفاح المسلح المحلية والعالمية التي اتّخذت بغداد مقراً لها، حركة بادر ماينهوف مثلاً، دون المرور أولاً على حياة الرجل هذا، الذي كانت سيرة حياته أقرب للخيال منها للواقع.

انحدر حسين الرحّال من أم تركمانية من عائلة النفطجي التي تمتعت لأجيال باحتكار منابع النفط في كركوك وأب عربي الأصل، جاء من الرحّالية في مناطق الدليم وكان ينتمي في القرن التاسع عشر إلى طبقة الجلبيين الذين كانوا تجاراً تمتعوا بمراكز اجتماعية رفيعة. وفي ذلك القرن ملك آل الرحّال أسطولاً كبيراً من السفن الشراعية تاجروا بواسطته عبر أنهار العراق وصولاً إلى الخليج والهند، لكنهم فقدوا ثروتهم في وقت لاحق، وكان أحد أسباب ذلك تعرض العديد من سفنهم، التي كانت تُبحر في أسطول، إلى الدمار خلال عاصفة بحرية. ودخل والد حسين الرحّال سلك الضباط

الأتراك وتقدم في القيادات العليا للمدفعية. وفي كل تنقلاته إلى أنحاد عديدة من العراق والإمبراطورية العثمانية، بسبب واجباته العسكرية، كان والد حسين الرحّال يأخذ ابنه معه، ما أعطاه الفرصة لمراقبة طرق عيش العراقيين وبمختلف طوائفهم وأعراقهم وطبقاتهم عن قرب. أمر غريب، فبدل أن ينمّي الصبي في نفسه الرغبة بدخول السلك العسكري، والسير على خطى أبيه على جبهات الحرب، اختار جبهةً أخرى: جبهة الأفكار.

في هذا المجال لعب الدور الكبير، كما يبدو، طرفان: أستاذه مدرّس التاريخ أولاً، ثم تجربته في برلين لاحقاً، عندما حملته السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الأولى إلى أوروبا، عندما رافق أباه الذي ذهب إلى ألمانيا في بعثة عسكرية. هناك، وطوال إقامته في العاصمة الألمانية برلين، لم يستطع الرحّال منع نفسه من المقارنة بين أحوال العراقيين وأحوال الأوروبيين المتقدمين، كما روى لاحقاً بنفسه عن الأحداث التي جرت في برلين، وأيّدت كل الأفكار التي تحدث عنها معلّمه: آرسين كيدور. ومثلما تعرف على الأرمني آرسين كيدور صدفةً، تعرّف الرحّال على عصبة سبارتاكوس البرلينية صدفة. ففي نهاية الحرب العالمية الأولى، وكان الرحّال الشاب لا يزال في العاصمة الألمانية



تشييع جثمان فرات الجواهري في شارع الرشيد في تظاهرة 1948 ضد معاهدة بورتسموث.

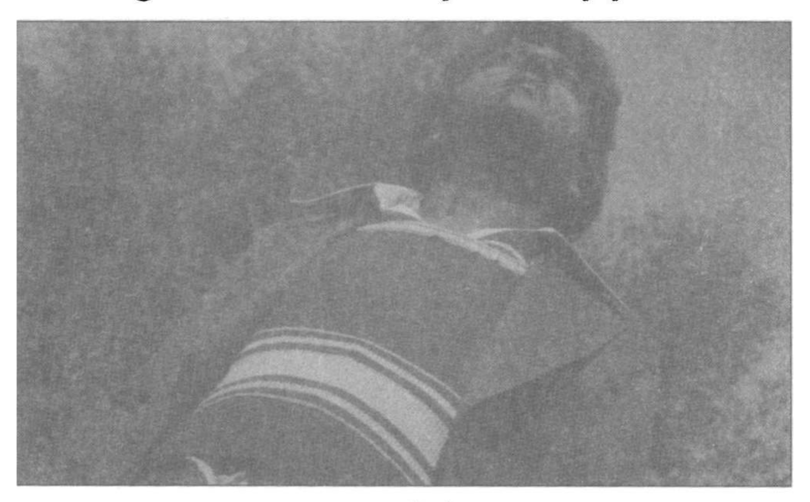


برلين يتلقى علومه في مدرسة ثانوية، دخل الرحّال دكان حلواني ليفاجَأ عند خروجه بشيوعيّي "سبارتكوس بوند" وهم يسدّون الطريق وكل شوارع المدينة (كانون الثاني/ يناير ١٩١٩). يومها، يقول الرحّال، توجّه إلى أحدهم وسأله عمّا يحصل، فقيل له إن العمال يريدون إقامة حكومة خاصة بهم، فتعجّب من أمر بهذه "الغرابة". لقد جرت في الأسابيع التالية نقاشات ساخنة حول الحدث، سواء مع أولاد بعض المشاركين في الانتفاضة، الذين كانوا طلاباً في مدرسته، أو سواء في الشارع. أما ما كانت تقوله الصحيفة الاشتراكية **دي فرايهايت (الحرية)**، فقد أسهم يومها في زيادة اهتمامه. وعلى العموم، فإنه سرعان ما عاد إلى مسقط رأسه بغداد ليجد مواطنيه "غارقين في انفعالات التململ والقلق"، كما كتب الرحّال نفسه، وكان هذا في عام ١٩٢٠م، "عام النكبة"، عندما لم يصدق الإنكليز بوعودهم بمنح الشعوب التي خضعت للسيطرة العثمانية استقلالها وحريتها، وحيث "أخذ المرجل العراقي بالغليان خلال أشهر قليلة".

حنا بطاطو الذي تحدث مع الرحّال عام ١٩٦٢، والذي ننقل عنه بعض القصص هنا التي لم يعرفها الحاج رؤوف، يذكر عاملاً آخر أثّر على التطور الأيديولوجي للرحّال، ألا وهو رحلته إلى الهند في العام ١٩٢١، التي حدثت هي الأخرى صدفة، لأنه لم يخطط لها أبداً. والواقع أنه أقنع أهله بإعادته إلى أوروبا لمتابعة دراسته، لكن ولأن المرور بسوريا لم يكن آمناً في ذلك الوقت، بسبب الغليان الذي جرى فيها بعد وقوعها في أيدي الفرنسيين، حسب اتفاقية سايكس - بيكو التي قسّمت البلدان التي كانت خاضعة للإمبراطورية العثمانية بين بريطانيا وفرنسا، غادر الرحّال العراق عبر البصرة، وتوجهت سفينته أولاً إلى كراتشي. وقد أدّى وقوعه في حب فتاة يهودية الأصل إلى حمله على مغادرة السفينة، ليبقى في الهند ما يزيد على السنة، وليس واضحاً ما فعله هناك بعد ذهاب الفتاة عنه مع عائلتها، وزواجها، رغم وجود إشارات متكررة في رواية **جلال خالد** التي كتبها صديقه، ورفيقه في الجلسات التي كانت تنعقد دورياً في مكتبة جامع الحيدرخانة، محمود أحمد السيد، إلى تبادل البطل (الذي هو شخصية حسين الرحّال إلى حدّ ما) في الهند للأفكار والمشاعر مع صحافي هندي "ثوري". في كل الأحوال، فبعد فترة قصيرة من عودته إلى بغداد أخذ الرحّال يطالع صحيفة "الشهرية العمالية **ذه ليبر مونثلي**"، كان ناشرها يومها بالم دات، وهو مفكر شاب هندي المولد

وعضو في الحزب الشيوعي لبريطانيا العظمى. وكما صرّح الرحّال في حديثه ذلك أمام حنا بطاطو، فإنه وقع على المجلة للمرة الأولى في مكتبة مكنزي وصار يلاحق أعدادها منذئذ وحتى ارتأت السلطات منعها من دخول العراق. ويقول الرحّال أن ما جذبه إليها هو أنها "خلافاً للمجلات الأخرى، كانت تهاجم الإمبريالية بعنف، وهو ما كان يلائم مزاج تلك الأيام".

وليس بالإمكان التأكد اليوم مما إذا كان سبيل الرحّال قد تقاطع ثانيةً مع سبيل معلّمه السابق، آرسين كيدور، قبل رحلته إلى الهند أم بعدها. ففي العام ١٩١٧، وبعد خروجه من مخبئه في النجف - ونذكر هنا أنه كان متورطاً في المؤامرة ضد جمال وطلعت وأنور - اتّصل آرسين كيدور بالقوات الروسية المتبلشفة والمحتلة لخانقين وبعقوبة العراقيتين والقريبتين من الحدود الإيرانية، بفضل عمله كمترجم للغة الروسية في الجيش البريطاني، وفي وقت لاحق غادر كيدور العراق إلى أرمينيا برفقة القوات الروسية، ثم ليعود عام ١٩٢٠، إلى بغداد بصفته قنصلاً لجمهورية أرمينيا المستقلة التي أعلنت عام ١٩١٨، لكنه استمر بممارسة مهماته كقنصل للجمهورية السوفييتية التي تلت أرمينيا المستقلة منذ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٠، كما أدار في الوقت نفسه محلاً لبيع الخمور في حي رأس القرية المسيحي في بغداد، وليلتقي طالبه السابق الرحّال الذي أصبح شاباً ذا خبرة

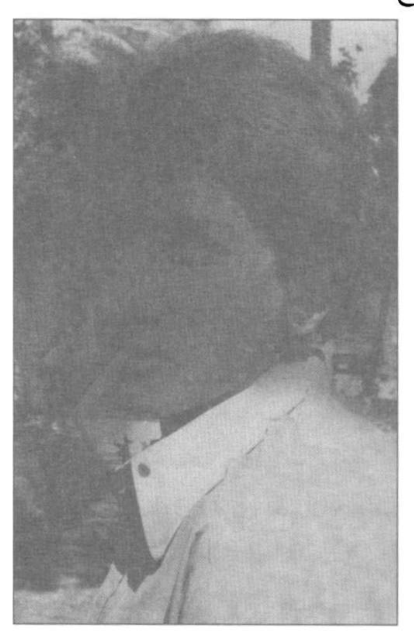


نجم والي، 1975.



وإن ليس بالحماس الثوري الذي امتلكه أستاذه.

ومن غير المهم إذا كان ما حصل بعد ذلك جاء بمبادرة شخصية منه نفسه أو تحت تأثير آرسين كيدور، أو بتأثير من الثوري الهندي المجهول، المهم هو أن حسين الرحّال، الذي أصبح في هذا الوقت طالباً في مدرسة الحقوق في بغداد، شكّل في العام ١٩٢٤ ما كان بالفعل أول حلقة دراسية "ماركسية" في العراق، أو أنه زرع – بالأحرى – أول البذور الماركسية في تفكير جماعة أدبية غير رسمية كانت موجودة قبل ذلك التاريخ. وربما لم يكن لمعظم الشباب الذين كانوا يختلون يومها بالرحّال في مناقشات مغلقة في غرفة داخلية، وأين؟ في مسجد الحيدرخانة ليس غير، أن يعرّفوا أنفسهم بكونهم ماركسيين، ولو سُئلوا لقالوا إنهم جماعة همّها دراسة "أفكار جديدة"، وكان الرحّال يشير إليهم، ببساطة، بقوله "جماعتي". ولكن إلقاء نظرة خاطفة على الجريدة الناطقة **الصحافة**، التي ظهرت في ١٩٢٤–١٩٢٥، ثم لفترة قصيرة في العام ١٩٢٧، كانت تكفي لكشف توجّههم الماركسي الواضح.



نجم والي، 1975.

وكان بين الأعضاء الأساسيين في الجماعة محمد سليم فتّاح، طالب الطب، ابن المسؤول السابق في الحكومة العثمانية وصهر الرحّال (زوج أخته أمينة الرحّال)، ومصطفى علي، وهو معلم مدرسة وابن نجار والرجل الذي أصبح في عهد الزعيم عبد الكريم قاسم وزيراً للعدل، وعبد الله جادو الموظف في دائرة البريد والبرق وابن متعهد ثياب، وعوني بكر صدقي، وهو معلّم صحافي وابن مسؤول صغير أصبح في أواخر الخمسينيات رئيس تحرير صوت الأحرار ذات الميول الشيوعية، ومحمود أحمد السيد الذي كان أبرز من في



الجماعة بفارق كبير، فهو ابن إمام جامع الحيدرخانة، وشكراً له، فقد استطاعت الحلقة اللقاء هناك. كل ذلك في الجهة المقابلة لمقهى البرلمان، في جامع الحيدرخانة. هل هي مصادفة إذن؟ ليس أن تنشأ أولى الحلقات الماركسية وحسب، والتي ستشكّل البذرة الأولى لتأسيس الحزب الشيوعي العراقي، الذي ستكون فيه أخت الرحّال وأول امرأة تخلع الحجاب في العراق، أمينة الرحّال، أول عضوة لجنة مركزية، بل أن يأتي من المكان نفسه أيضاً أول روائي في العراق: محمود أحمد السيد.

الجماعة "الماركسية" الجديدة عبّرت عن تبلورها عندما بدأت بنشر جريدة **الصحافة** بدءاً من ٢٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٤. وكانت الجريدة جديدة في نوعها، والأولى نوعياً في عراق العشرينيات. وخلافاً للصحف العراقية الأخرى، لم تَسعَ هذه إلى كسب الرزق بل إلى تغيير الناس. لم يكن همّها الأخبار بذاتها أو أنباء الفنانين، بل الأفكار. ركّزت على المشكلات الاجتماعية و لم تتعامل إلاّ هامشياً مع الموضوعات السياسية. ويبدو أن الرحّال وجماعته قللوا من أهمية خصومهم عندما ذهبوا إلى أبعد من ذلك بإعلانهم أنّ "العصر الذي كان الناس يؤمنون فيه بالتوجّه الإلهي لأحداث الطبيعة قد ولى"، وأن "ليس الدين هو الذي يحرّك الحياة الاجتماعية بل إن الحياة الاجتماعية هي التي تحرّك الدين"، وبكلمة أخرى، أنهم صرحوا بأنهم صاروا لا يعترفون إلا بالأوضاع الإنسانية والردود الإنسانية. وأثارت جرأتهم المتزايدة حتى التقليديين الذين لم يتأخروا في التكشير عن أنيابهم. وسرعان ما وجدت جماعة الرحّال الصغيرة نفسها محاطة بهيجان لم يتوقعوه، وراحت خطب أيام الجمعة في المساجد تصبّ اللعنة عليهم، واستنكرتهم المضابط الجماعية (جمع "مضبطة" وهي كلمة تركية بمعنى العريضة أو المعروض) على أساس كونهم دعاةً للكفر والإلحاد. وأُسكت صوت الجماعة، ولكنها عادت فسجّلت نقطة لحسابها.

والواقع أن الجماعة لم تخضع. فالرحّال ذاته لم يستكن خلال فترة انقطاع الجريدة، بل شنّ حربه بطرق أخرى بعد أن مُنع من الكتابة، وكان له دور أساسي في تأسيس "نادي التضامن" في أواسط العام ١٩٢٦، النادي الذي سرعان ما تورّط في أحداث شكّلت انعطافات بارزة في التاريخ الثوري للعراق. في ذلك الوقت وقع حادثان عاصفان لا يمكن محوهما من هذا السجّل، ولعب الرحّال ويوسف زينل (كان من



القوميين)، الذي عمل معه الرحّال، دوراً بارزاً في كليهما. الحادث الأول نجم عن قضية أنيس النصولي. وكان النصولي، وهو معلم في مدرسة بغداد الثانوية، قد نشر في كانون الثاني/ يناير ١٩٢٧ كتاباً عن تاريخ الأمويين، وبدا الإمام عليّ، ابن عم الرسول، في عدة فقرات من الكتاب في صورة غير لائقة، واحتجّ عدد من الشيعة الغاضبين على هذا الأمر لدى وزارة التعليم فطُلب من المؤلف شطب هذه الفقرات، ولكنه رفض، مما جعل الوزارة تطلب سحب النسخ التي وُزّعت على الطلاب. ولم يرضَ بعض الشيعة بذلك ومارسوا ضغوطاً في سبيل فرض عقوبة أكثر عملية على النصولي، وضجّت النجف وكربلاء بالحديث عن الكتاب ومؤلفه. وعندما انتشرت في ٣٠ كانون الثاني/ يناير١٩٢٧ إشاعة تقول إن الملك قرر طرد النصولي، قدّم ثلاثة من معلمي المدرسة الثانوية ومعهد تدريب المعلمين احتجاجاً مكتوباً إلى وزير التعليم ضد "كارثة حرية التفكير" الناجمة عن الموقف "المتعصّب" للوزارة. وجاء الرد الفوري على الاحتجاج بطرد المعلمين الثلاثة. وفي اليوم نفسه تحرك ٦٠٠ طالب في المدرسة الثانوية، بتحريض من نادي التضامن، وتدفقوا إلى الشوارع في مظاهرة غاضبة. واشترك في المظاهرة طلاب من الطائفتين السُنيّة والشيعية وأصدروا بياناً يوضحون للجمهور أن المظاهرة لم يُقصد بها، بشكل من الأشكال، المسّ بمشاعر الطوائف المختلفة، بل الحفاظ على حق حرية التفكير. وبالرغم من أن النتيجة الفورية كانت إغلاق المدرسة لعشرة أيام وطرد عدد من الطلاب، فإن هؤلاء أُعيدوا في وقت لاحق وكذلك المعلمون الثلاثة. وكانت الأهمية الحقيقية للحادث بأكمله تكمن في أن الطلاب بدأوا شكلاً جديداً من أشكال النشاط يحتوي في الواقع على مبادىء فن العصيان، إذ كانت هذه أول مظاهرة طلابية عرفها العراق. ومن ناحية أخرى، كانت الضربة الأولى التي يوجهها جيل الشباب مدافعين عن حرية التعبير. كما أن التظاهرة كانت نوعاً من التمرين على المظاهرات الصاخبة التي اندلعت في بغداد يوم ٨ شباط/ فبراير ١٩٢٨، ضد السير ألفريد موند الذي كان سبباً مباشراً للمظاهرة.

كان موند مؤيداً بحماسة للحركة الصهيونية، وكان يزور فلسطين، فقرر زيارة العراق "لدراسة أحواله الزراعية"، كما أُعلن يومها. وعشية وصوله عقد نادي التضامن اجتماعاً مستعجلاً توالى خلاله كلٌّ من حسين الرحّال ويوسف زنيل على إقناع زملائهم

بأن النية الحقيقية لموند هي إقامة مستوطنة صهيونية في العراق، واقترح الاثنان تنظيم مظاهرة، وتمت الموافقة على الاقتراح فوراً. وعندما بدأ الطلاب في اليوم التالي مسيرتهم عبر المدينة لحق بهم جمع كبير من الناس، وما كاد المتظاهرون يصلون إلى محطة السكك الحديدية حتى تضخّم عددهم ليفوق العشرين ألفاً. وكانت تنتظرهم هنالك قوة من رجال الشرطة بادرت إلى تهديدهم وإصدار الأوامر بالتفرق، وبدأ العراك عندما رفض المتظاهرون التزحزح من مكانهم، وشوهد حسين الرحّال وهو يستحث مشاعر المتظاهرين عند طريق جسر الخير حيث بلغ الهيجان ذروته. وهذه آخر صورة توفرت عن الرحّال كثوري، لأنه بعد حلّ نادي التضامن في أعقاب هذا الحادث، وباستثناء ما أفيد عن مراسلاته مع "العصبة المضادة للإمبريالية والقمع الاستعماري"، مال إلى الراحة واستسلم كلياً لحياة روتينية، على عكس ما فعلت أخته أمينة الرحال. فالمرأة التي كانت أول امرأة عراقية تتخلّى عن الحجاب في بغداد، لم تتوقف عن النضال تباعاً، حتى إنها أصبحت في الفترة ١٩٤١–١٩٤٥ عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي!

لكن يظل ما أردت أن أقوله هو أن الثورة والأدب وخلع الحجاب، ثلاثة أركان للحداثة في العراق، انطلقت من أروقة جامع الحيدرخانة هذا، في زمن لم تكن الجوامع مراكز دينية في المقام الأول بل مراكز لبثّ الفكر التنويري والليبرالي والثوري قبل كل شيء أيضاً. ففي هذا المكان المقابل لنا جلست حلقة شباب في نفس أعمارنا، أرادت هي الأخرى في زمانها محاربة الصخر من زجاج. كأن التاريخ يعيد دورته. في ذلك الوقت، في وقت حسين الرحّال ورفاقه، لم يكن المقهى موجوداً، لكن الجامع ومكتبته المغلقة بالذات كانت الملتقى الرئيسي لهؤلاء الشباب.



٢٥

الدين والأثرياء وقصورهم... وليلة حب في أحد تلك القصور

من يقرأ تحليلات المؤرخ الأميركي الفلسطيني الأصل حنا بطاطو في كتابه العراق سيثبت له أن الدين الإسلامي في العراق كان قوة فصل أكثر منه قوة دمج، أقام انشقاقاً حاداً بين العرب الشيعة والسُنّة، وكانوا حتى في المدن المختلطة يعيشون في أحياء منفصلة لكلٍّ منهم حياته، في الوقت الذي كانت فيه حكومة تلك الأيام، حكومة السلطان العثماني التي تقود المسلمين السُنّة، تُعتبر بالنسبة للشيعة المتشددين حكومة مغتصبة للسلطة، وفي رأي هؤلاء لم تكن هذه الحكومة تملك حتى مؤهلات تطبيق قوانين الإسلام، ولذلك فقد شعروا بالاغتراب عنها، وكان قليل منهم يبالي بخدمتها أو الذهاب إلى مدارسها.

الانقسام الشيعي - السنّي هذا الذي تحدث عنه بطاطو اتخذ شكلاً أكثر حدةً عندما ترافق مع نوع آخر من الانقسام الاجتماعي، ألا وهو الانقسام الطبقي. ولا حاجة لإعادة البحث المطول الذي قام به بطاطو عن الصلات المتبادلة بين الانقسامات الطائفية والطبقية، إنما تكفي الإشارة هنا إلى التأثير الذي يزيد من حدة المشاعر بين الطائفتين والقول بين قوسين إن وجود هذا العامل يوحي بأنه إذا كان التنافر المتبادل قد وجد لنفسه تعبيراً دينياً، فقد كانت أصوله، جزئياً على الأقل، ترجع إلى أسباب اقتصادية واجتماعية.

وحسب بطاطو، وجدت الانشقاقات الحضرية لنفسها تعبيراً في ظاهرة أخرى هي



ظاهرة "المحلّة" أو "الحي المديني"، وبكلمات أخرى فإن المجموعات التي كانت تنتمي في مدن العراق إلى عقائد دينية أو طوائف أو طبقات اجتماعية مختلفة، أو كانت من أصول إثنية (عرقية) أو عشائرية مختلفة، كانت تميل إلى أن تعيش في "محلات" منفصلة، وإن تطعّمت تلك الأحياء ببعض الطوائف الأخرى، لكن يظل عدد هذه قليلاً. فعلى سبيل المثال، في الضفة الرئيسية لبغداد، وهي الشرقية، عاش الشيعة في الدهانّة وصبابيغ الآل والقشل (كان اليهود يسكنون قسماً من هذا الحي). وعاش المسيحيون في عقد النصارى ورأس القرية (عاشت بعض العائلات المسلمة في هذه الأحياء، وعلى سبيل المثال كان الباجحيون يسكنون رأس القرية). أما السنّة فكانوا يشغلون حيزاً كبيراً من بقية أحياء القسم الشرقي من المدينة، ولكن هذا الجزء كان مقسماً على أسس أخرى، فكان الميدان موطناً للعسكريين الأتراك، والحيدرخانة موطناً للموظفين الأدنى حرفية، والقسم الداخلي من باب الشيخ موطناً للحرفيين (هنا كان يسكن عدد من العائلات الدينية المشهورة، مثل آل الكيلاني الذين سكنوا باب الشيخ لأن مقام القادرية الذي بُني لذكرى جدهم الشيخ عبد القادر الكيلاني كان موجوداً في هذا الحي). من جهة أخرى كانت الأطراف الخارجية من باب الشيخ موطناً لصغار الضباط البغداديين من ذوي الأصول المتواضعة ولعناصر أخرى، مثلاً شريحة كبيرة من الكسبة (الكسبة تعبير يُطلق على أناس ليس لهم عمل منظم ويكسبون عيشهم بالقيام بأعمال مختلفة طارئة) عاشت أيضاً في باب الشيخ ودكان شناوة كما عاش هؤلاء في مناطق أخرى كذلك.

الظاهرة نفسها ميزت ضواحي بغداد أيضاً، كما يثبت بطاطو، فالكاظمية التي تضم ضريحي الإمامين الشيعيين السابع والتاسع (موسى جعفر الكاظم ومحمد بن علي الجواد. وكان الأئمة يُعتبرون في نظر الشيعة الحكام الشرعيين الوحيدين وأصحاب المقامات الدينية الأعلى في الإسلام) لم تكن مسكونة إلا بالشيعة وكان فيها تمركز كبير للفرس، في حين أن الأعظمية التي تستمد وجودها من وجود ضريح "أبو حنيفة" المشرّع السنّي وعالم الدين الكبير، وتقع على الضفة المقابلة من دجلة مع ما فيها ذلك من رمزية، اقتصرت في سكانها على السُنّة، قطن معْظمها المنحدرون من عشيرة عبيد العربية. أيضاً أعضاء كل من الحرف المختلفة التي توزع عليها أصحاب المهن اليدوية، الذين كانوا منظمين بشكل ضعيف نسبياً ضمن تجمعات مهنية وأصناف يميلون أيضاً



إلى السكن معاً في شوارع مفردة لكل حرفة. وفي بعض المدن يبدو وكأن هذا كان في الأصل امتداداً لسكن عائلة واحدة أو تجمعات لقلة من العائلات، وكقاعدة عامة كان سكان المحلة يعيشون في عالم خاص بهم. وباستثناء عالم صغير جداً من المتعلمين كان هؤلاء السكان يغرقون في ضيق حياتهم ونادراً ما كانوا يفكرون - هذا إذا فعلوا أبداً - بالجماعة بشكل واسع أو بمصالحها ككل، أو كان لديهم أي فهم حقيقي لمفهوم مثل هذه الجماعة. وأكثر من ذلك، فإن الذين شكّلوا جزءاً من الملة (الملّة عبارة عن جماعة دينية كانت تحظى باعتراف رسمي) ما، كالمسيحيين واليهود، تمتعوا باستقلالية ذاتية في شؤونهم الشخصية والمليّة.

التقسيم هذا الذي تحدث عنه بطاطو ظل على حاله حتى عندما تأسست الدولة العراقية عام ١٩٢١ وتطورت، بل حتى بعد عقود طويلة من ذلك، عندما توسعت بغداد وكبرت. فمع العمران الجديد في الثمانينيات والتسعينيات، وبدفع من حكومة صدام حسين، ظهرت أحياء جديدة، حملت علناً أسماء عابرة للطوائف والملل والأديان، مثل حي الأطباء، الإعلام، التراث... إلخ، لكنها في جوهرها لم تكن تختلف عن طبيعة الأحياء في العهد العثماني. التقسيم الطبقي والمذهبي ظل ماثلاً يخفي خلفه حقيقةً أخرى: تطويق بغداد، التي ازدادت نسبة السكان الشيعة فيها، بأحزمة سنيّة. (أو حتى في قلب بغداد، عندما تم تهديم أحياء تراثية قديمة في منطقة الشواكة والكريمات وشق شارع جديد في أواسط الثمانينيات تحت اسم "شارع حيفا" بُنيت فيه عمارات سكنية حديثة وسكن أغلبه مواطنون عرب ومسؤولون بعثيون). ضواحي وأحياء تقترب في كبرها وفي عدد سكانها من المدن الكبيرة (رغم أنها ظلت ملحقة بغداد) سكنها الملايين من الشيعة، مثل مدينة الثورة، الشعلة، الحرية، لا بدّ من استحداث أحياء جديدة تطوقها، أو تجعل نسبة السكان السُنّة تزداد. في زمن صدام حسين والبعث كان يُمنع شراء قطعة أرض لكل من لم يكن مسجّلاً ولادته في بغداد حتى سجّل ١٩٥٧، لماذا ١٩٥٧؟ لأن تكريت (مكان ولادة صدام وحاشيته) التي كانت ناحية بسيطة، كانت تابعة إدارياً لقضاء سامراء التابع، هو الآخر، إدارياً لبغداد. بغداد امتلأت بالتكارتة، حتى وإن منعت الحكومة التداول بالألقاب، أو ربما لهذا السبب، لكي لا يتضح ذلك للعلن. رغم أن الدخول في سباق مع سكان الثورة الفقراء، الذين تجاوز عددهم المليونين، هو

معركة خاسرة سلفاً. حتى تبعيثهم لم ينفع، ولا تغيير اسم المدينة إلى مدينة "صدام"، ففي النهاية راح سواق سيارات السرفيس يصرخون في باب المعظم أو في الباب الشرقي أو في العلاوي أو في كراج النهضة وهو ينادون على الزبائن "صدام بدرهم"، أي أن سعر النفر الواحد درهم، رغم أن النداء يرمز لتحقير شخصية صدام.

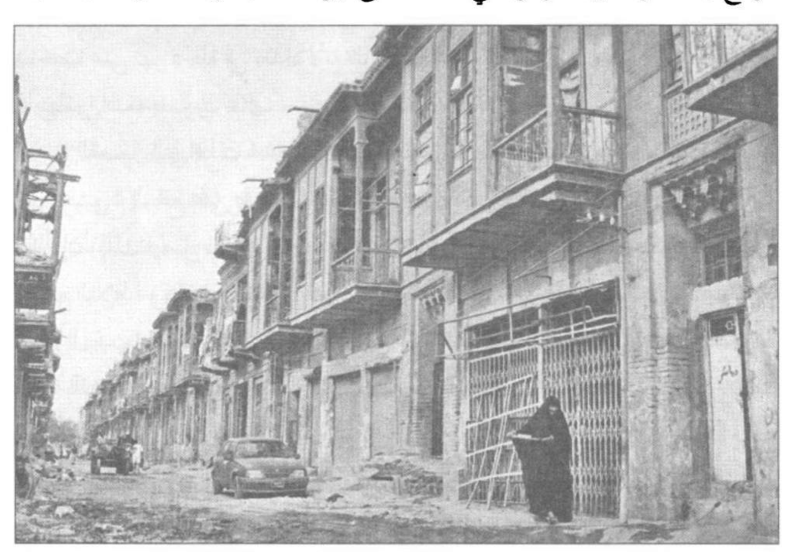
الأغنياء كانت لهم أحياؤهم منذ العهد العثماني وحتى اليوم، من غير المهم التغييرات التي طرأت على بغداد وعلى عاصمته على وجه الخصوص، لم تتغير خريطة تلك الأحياء إلا في النادر. فمنطقة السفينة في الأعظمية، مثلها مثل مناطق وأحياء أخرى كالوزيرية، كرادة مريم، الجادرية، وأحياء أخرى، ظلت لعقود طويلة مناطق محصورة بالأغنياء، اشتهرت أيضاً بقصورهم الواقعة على ضفاف نهر دجلة. لأن بالنسبة للبغّادة (وهذا ما يوثقه مؤرخ بغداد الأول عباس بغدادي) كان فقط البيت الكبير ذو الواجهة الفخمة الذي يطلّ على نهر دجلة يُسمّى قصراً. أما إذا كان داخل المدينة ومهما بلغت درجة فخامته فلا يُسمّى قصراً، إنما يُطلق عليه "بيت درياهي"، أو البيت الذي يُعزف له سلاه الأمراء احتراماً! عوائل ثرية عديدة امتلكت بيوتاً فخمة، لكن فقط بعضها امتلكت قصوراً، لا يزال سكان بغداد يشيرون إلى أماكنها. أغلب تلك القصور نشأت في أواخر العشرينيات، عندما بدأ بناء القصور على شاطئ المجيدية بعد توزيع الشاطئ المذكور على الوزراء والمتنفذين من قبل الحكومة. الأمر نفسه حدث في منطقة الوزيرية، حيث وزّع البلاط الملكي أراضيه على المحسوبين على البلاط، أو حيث بدأ بناء القصور من قبل الأثرياء المنتفعين من البلاط على شواطئ كرادة مريم (المنطقة الخضراء اليوم!)، مثل قصر الدكتور نجيب بابلك أو قصر عبد العزيز القصاب، والقصر الذي استأجره الملك علي.

ولكي نعرف حجم المدينة، وتغيّر الأحوال والناس، يكفي أن نعرف أن أغلبية تلك القصور الواقعة على نهر دجلة، وكما يتذكر سكان بغداد، كان يستأجرها يهود بغداد لقضاء فصل الصيف، يوم كانت الأعظمية، الحي ذو الأغلبية السنيّة من بغداد، مصيفاً لليهود قبل أن يهربوا منها في الثلاثينيات، بعد الخطب النارية المعادية لليهود التي كان يلقيها الواعظ الحاج نعمان الأعظمي. القصور هذه وأغلبية القصور الأخرى انقرضت أو رحل أصحابها من العراق، أما القصور التي لا تزال شاخصة، أو تلك التي كان من



الممكن رؤيتها و لم يحجب منظرها استحواذ مسؤول حكومي عليها أو نهّاب، فتتحدث عن نفسها وحدها. أتذكر كيف أنني، في فترة سنوات الدراسة الأولى، وجدت ما يشبه الهواية أن أذهب في نزهة مع بعض الزميلات والزملاء لمعاينة بعض القصور تلك، وكثيراً ما كنا نمزح قائلين: أي القصور من تلك سنختار لنا بعد نجاح الثورة الشيوعية. يمكنني عمل قائمة طويلة بأسماء القصور تلك.

من تلك القصور التي ظلت حاضرة بقوة قصر كاظم باشا، مثلاً، الذي كان أكبر وأضخم قصر في بغداد والذي اتُّخذ في النهاية مقراً للمندوب السامي البريطاني، ثم السفارة البريطانية حتى اليوم في محلّة الكريمات في الكرخ. وكاظم باشا هذا أصلاً، ولكي نعرف تأثير الدين، حصل على ثروته من تعيين العثمانيين له قائداً لأحد الفيالق العثمانية في بغداد، ولولا السلطة التي حصل عليها من العثمانيين لما حصل على بستان عامرة بأحسن أنواع الأشجار في منطقة الفحّامة قرب الصليخ، حيث توزعت مساحة البستان إلى بساتين صغيرة وقطع أرض سكنية. القصر الثاني الفخم هو قصر النقيب الواقع قبالة دائرة البريد المركزية في السنك على نهر دجلة مباشرة، القصر الحديث البناء



بقايا شناشيل بغدادية.



هذا والذي امتاز بالمسلاّت الواسعة وغرفه المفتوحة المطلة على النهر، حيث كان مقراً لسكنى نقيب الأشراف وإقامة الولائم الخاصة وحفلات لاستقبال غير الرسميين في العهد الملكي، القصر هذا لا يبعد عن قصر آخر، كان الحديث عن صاحبه في السبعينيات يشكّل خطراً على مَن يذكر اسمه، لأن القصر المبني بأكثر حداثةً من قصر النقيب، والذي يطل على نهر دجلة أيضاً، أو الذي لم يفقد في حينه الكثير من بهائه وفخامته رغم مرور أكثر من أربعة عقود على بنائه، يعود لأحد مؤسسي الدولة العراقية عام ١٩٢١، ساسون حسقيل، الشخصية اليهودية المعروفة، وأول وزير مالية في أول حكومة عراقية في عهد الملك فيصل، والتي بقي فيها مدة طويلة، وله يعود الفضل بإنقاذ العراق من الديون العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى بشراء سندات الدين من ياسين باشا الهاشمي، كما أنه هو الذي استقدم الخبراء الماليين البريطانيين، بيت "بيرينغ"، لأجل تنظيم ميزانية العراق وتثبيت أصول الحسابات فيها. ساسون حسقيل، ابن العائلة اليهودية الثرية بيت داوود ساسون، هو الذي كان وراء نشأة العملة العراقية الجديدة: من الفلس إلى الدينار. وشكراً لقصره الذي بناه الأُسطة سيد كاظم بن عارف، أحد أسطوات بغداد، بهذا الطراز الأنيق، وبشرفته العريضة الواسعة المساحة المطلة على النهر، والذي ظل شاخصاً على نهر دجلة في بغداد لأنه ظلّ يذكر الناس به وبإطراء، حتى اليوم، حتى إذا لم ينطقوا اسمه بصوت عال.

من القصور التي ظلت شاخصة حتى السبعينيات، والتي لا بدّ وأن آتي عليها ، قصر ابن شعشوع الواقع على طريق الأعظمية، والذي لم يكن قصراً واحداً بل ثلاثة قصور، يُقال إن الملك فيصل الأول اتّخذ أكبرها بلاطاً وألحق به من الجهة الجنوبية في عملية توسيع البلاط. وكان ابن شعشوع من تجار بغداد الأثرياء ومن وجهاء الطائفة اليهودية، ولا يزال بيت حفيده منشي شعشوع قائماً على شارع أبي نؤاس بجوار فندق السفراء. وهذا القصر هو القصر الوحيد الذي عرفته من الداخل، لأن معرفتي بالقصور ظلت مبهمة حتى ذلك الحين.

في الحقيقة لم أكتشف هذا القصر إلا بسبب فتاة مسيحية، هي أخت زوجة صديق لي كنت أزوره من حين إلى آخر في مدينة الدورة القريبة من مصافي نفط الدورة والتي سكنتها أغلبية مسيحية. كان الصديق المنحدر من عائلة شيعية، وقد تخرج قبلي بسنة



من قسم اللغة العربية في كلية الآداب جامعة بغداد، خدم جندياً في المطبخ في وحدة الصواريخ المضادة للطائرات التي تمركزت قريباً من الدورة أيضاً. الصديق هذا، الذي لا أعرف ماذا أصبح مصيره بعد كل هذه السنوات، كان متزوجاً من فتاة مسيحية كانت تعمل في البنك المركزي العراقي، وكانت لها أخت أصغر منها، أقامت معهما في البيت، ربما لكي تساعدهما بالعناية بابنتهما التي وُلدت للتو. الأخت هذه وقعت في غرامي بشكل مجنون. في كل الليالي التي زرتهم فيها، ظلت هي تنتظر في غرفتها المجاورة، يقظة، تتلصص أو تنتظر خروجي، متحينةً الفرصة السانحة، وما أن تراني أمرّ بغرفتها حتى تسرع وتضمّني إليها ثم تأخذ بتقبيلي بنهم. أتذكر أنني ذات ليلة جعلني العطش أفزّ من نومي، نهضت في ساعة متأخرة من الليل، ذهبت لشرب ماء بارد من الثلاجة في غرفة المطبخ، كانت آثار النعاس لا تزال على عينيّ، وهذا ما يفسّر فزعي عندما شعرت بيدين تطوقان ظهري مباشرةً بعد فتحي باب الثلاجة، تُديرانني إليهما، لأجدني بين ذراعي امرأة تأخذ بتقبيلي بما يشبه العضّ، وعندما فتحت عينيّ عرفت أنها هي التي راحت تحكّ أسفل بطنها بين فخذي. كان عليّ في تلك الليلة توضيح سبب انكباب الماء على فانيلتي لمضيفيّ. هذه الفتاة هي التي طلبت مني أن أزورها في اليوم الثاني في القصر هذا، الواقع في بداية شارع أبي نؤاس.

كان قصراً فخماً بسياج عالٍ وبباب ضخم. الفتاة حددت لي الساعة التي عليّ أن آتي فيها، وكيف أنها ستنتظِرني خلف الباب، وأن عليّ فقط دفع الباب الضخم، وهذا ما فعلته. كان الوقت مساءً على ما أتذكر، ليلة الخميس على الجمعة، لأنني في اليوم الثاني، على ما أتذكر، لم أجد أحداً في الشارع في ساعات الصباح. أيضاً لم يكن أحد هناك، عندما دخلت القصر. لا أزال أشعر بضربات قلبي القوية التي شعرت بها في اللحظة تلك، لأنني وحتى تلك اللحظة لم أصدق ما حدث، كأنني في فيلم، فيلم بدايته أن آتي في الموعد المحدد الذي حددته لي الفتاة، ونهايته أمر متعلّق بالغيب. ربما فكرت لحظة بالهروب، لكن انغلاق الباب ورائي أوتوماتيكياً أفهمني أنني وقعت في الفخ.

كانت سنوات السبعينيات، نهاية عام ١٩٧٧، على ما أتذكر، وكانت سنوات المطاردات والاعتقالات للمعارضين. الفتاة قالت لي إنها تعمل في البيت، تساعد امرأة عجوز تقيم هناك. لا أدري إذا كنت لم أصدقها أم أنني خفت من نزق تلك الفتاة.

وعندما رأيت النجمة السداسية منقوشة على واجهة البيت عرفت أن المصيبة تضاعفت، فأنا في داخل قصر يهودي، رغم أن النجمة هذه كانت تزيّن واجهات العديد من البيوت البغدادية القديمة، كما عرفها سكان بابل القدماء، لكن وجود شمعدان سباعي في صالون البيت أكّد لي حدسي بأنني في بيت يعود ليهود. طبعاً لاحقاً عرفت أن البيت هو ملك لشخصية يهودية، منشي شعشوع، غادرت العراق. لكن حدسي في تلك اللحظة قال لي إن بيتاً ليهودي لا بد وأن يكون مراقباً من الأمن. لا أدري إذا تعمدت الفتاة إثارة الرعب عندي أم أنها مجرد فكرة طائشة منها، في النهاية تعدت للتو سنّ السادسة عشرة من عمرها، وفتاة مراهقة مثلها لا تفكر في عواقب الأمور.

وقفت أولاً في وسط الممر، أتطلع حولي بالحديقة الكبيرة التي كانت بمثابة بستان، أشجار مثمرة متنوعة، شجرة ليمون، وأخرى شجرة نبق، ونخلة أو نخلتان. كان لا بدّ لي من متابعة المشوار. ناديت عليها لكن بصوت واطئ. لبرهة وجدتني أسير بأوتوماتيكية إلى داخل البيت. في صالون البيت الذي واجهني مباشرة، والذي سيطرت عليه ظلمة، باستثناء خيط ضعيف من ضوء شمس مساء اخترق ستائر قديمة لكن من قماش كان واضحاً أنه ثمين، إن لم يكن من حرير، قريباً من صوفا كبيرة، واحدة من ثلاث صوفات أخرى، وكراسي ضخمة، كلها من القسطور الأحمر، جلست امرأة عجوز على كرسي متحرك، كانت المرأة بكامل أناقتها، حتى شعرها بدا وكأنه سُرِّح للتو، لكن الصمت الذي استمر مطبقاً علينا للحظات جعلني أنتبه للمرأة جيداً، لأرى كيف أنها كانت شبه نائمة، سقط رأسها قليلاً على صدرها، فيما غرق جذعها السفلي في الكرسي المتحرك. وقبل أن أستمر في تفكيري طويلاً رأيت الفتاة، فتاتي، تهبط من سلّم ظهر من باب الصالة الذي يؤدي إلى داخل القصر، كانت هي الأخرى أنيقة، وكانت تلبس بنطلون جينز وبلوزة بيضاء، صدرها مفتوح قليلاً، فيما أرخت شعرها الأسود على كتفيها. تحركت الفتاة بسرعة نحوي، لكنها، وطوال طريقها، لم تبعد سبابة كفها اليمنى عن فمها، تطلب مني ألا أنبس بكلمة، وعندما أصبحت ملاصقة بي، قبلتني، لكن قبلة خاطفة هذه المرة، وسحبتني للحاق بها، وفقط عندما أصبحنا عند السلم الذي يقود إلى الطابق الأول من القصر قالت لي إن السيدة نائمة الآن ولن تستيقظ حتى ساعة متأخرة من الليل، بانتظار عودة ابنها الوحيد: منشي.



لا يهم ما روته لي الفتاة عن القصر وعن هجرة العائلة الاضطرارية من بغداد (رغم أنها لم تذكر الأسباب المباشرة لذلك بعد حملة الإعدامات التي طالت يهوداً وشيعة في بداية السبعينيات)، إلا أنني لم أركّز السمع، كان لا يزال بعض من الخوف مسيطراً عليّ. صحيح أنني قضيت ليلة في القصر هي أقرب للأسطورة منها للحقيقة، سواء أثناء تجولي في الطابق الأول من البيت أو خلال نومي والفتاة عارية إلى جانبي على الفراش الأسطوري، إلا أن استيقاظي في ساعة متأخرة من الصباح، وعدم وجود الفتاة إلى جانبي على الفراش، جعلني ألبس ملابسي بسرعة وأنزل إلى الصالون، حتى دون أن أغسل وجهي. وعندما لم أعثر لا على المرأة العجوز ولا على كرسيها المتحرك استحوذ الشك عليّ تماماً. هل من الممكن أنني حلمت بكل ذلك؟ فالليلة الماضية التي قضيتها بين التجول في غرف البيت لا تزال ذكراها عالقة في ذهني: غرف واسعة، سقوفها عالية، صوفات وكراسي من ستايل خمسينيات القرن، شمعدانات ضخمة، لكن أنيقة، ستائر من حرير، جدران مزينة بالموزاييك، أسرّة عريضة وأنيقة، رغم ما كساها من غبار، أما الحمّام فوحده احتل مساحة تقترب من مساحة بيت، حنفيات الماء المطلية بماء الذهب، في الصالون الداخلي من البيت جثم بيانو مجنّح من ماركة شترانسكي... كل ذلك لا بدّ وأن يكون حقيقة، ثم الفتاة وعريها "الواقعي"، قبلاتها "الحقيقية"، عناقها لي وتأوهاتها، ولا يهم أننا بقينا بحدود مداعبات المراهقة، لم يكن هناك اختراق بكارات ولا دخول لأعضاء جنسية، مداعبات من فوق وحسب، صحيح أنها امتلأت بالشبق وبالحرقة والآهات، لكنها لم تتعدَّ حدودها الخارجية، أو صحيح أننا نمنا عارين في تلك الليلة، لكننا نمنا إلى جانب بعضنا، ملتصقين ببعض، غير متداخلين. هل أنا في حلم أم في واقع؟ ثم هل تحمل القصور كلها النكهة هذه، التي نعرف أغلبها من الأفلام؟ لا أدري، ولا أتذكر أنني عثرت في اللحظة تلك على جواب، فقط ورقة صغيرة وجدتها على الطاولة، تخبرني أنني عند الخروج لا أحتاج إلاّ للضغط على زر كهربائي إلى يمين الباب، وأن الباب سيُغلق لوحده مباشرةً بعد خروجي، وأنها ستكون سعيدة برؤيتي في المرة القادمة في بيت أختها في الدورة.

لا أظن أنني التفتُّ عند مغادرتي القصر، لا أتذكر أنني فكرتُ بالعودة ثانيةً. كانت الساعة بين العاشرة والنصف والحادية عشرة على ما أتذكر. عدم وجود ناس في شارع

أبي نؤاس ضاعف القلق عندي. لم أذهب طبعاً إلى بيت أختها في الدورة. لا أدري إذا خفت من عواقب تلك الليلة، أن يفضح سلوكنا أنا والفتاة في حالة لقائنا من جديد، ستنفضح القصة أمام أختها، وربما ستزعل الأخت أو يزعل صديقي، أم أنني فكرت بضرورة أن تمر فترة على زيارة القصر تلك. لكن عندما سمعت باعتقال صديقي في سجن مديرية الاستخبارات العسكرية في وزارة الدفاع في بغداد عرفت أن زيارتي لهم في الدورة أصبحت أمراً مستحيلاً. قرابة تسعة شهور قبع الصديق في سجن الاستخبارات، وعندما خرج كنت أنا تخرجت من الجامعة وتمّ استدعائي للخدمة العسكرية. كأنني أنا والفتاة شخصيتان روائيتان رمانا المؤلف كل واحد في طريق. في نهاية السبعينيات كان من المستحيل أن يلتقي صديقان متهمان بتهمة المعارضة وهما في الجيش. لم ألتقِ بالصديق أبداً. لم ألتقِ بأخت زوجته. كأن لقائي بها وزيارتي للقصر أمر له علاقة بالأسطورة أكثر منه بالواقع. كأن الذكرى تلك تظل ذكرى بعيدة وحسب، مثلها مثل ذكرى هؤلاء الأثرياء الذين اندثروا في بغداد، واندثرت معهم كل القصور التي امتلكوها على ضفاف دجلة، هناك!



٢٦

ثلاثة كُتّاب، ظلت بغداد كل حياتهم

إذا كان هناك أحد كتب عن اندثار بغداد الحديثة تلك وبقوة فهم الكتّاب الثلاثة هؤلاء. للأسف، لا في سنّي المبكرة، عندما بدأ اهتمامي بالقراءة والكتب، ولا في بداية حياتي الأدبية، عندما بدأت بالكتابة والنشر، سمعت بهم. وكان يجب أن تمر سنوات طويلة لكي أعرف بوجود الروائيين اليهود الثلاثة، الذين عاشوا طفولتهم وشبابهم في بغداد، قبل أن يُطردوا أو يضطروا للهجرة مثلي إلى خارج البلاد. اثنان منهما، سامي ميخائيل الذي هو في الحقيقة أكثرهم شهرةً، وشمعون بلاص الذي يعيش بين باريس وتل أبيب، لا يزالان أحياء. فقط ثالثهم، سمير نقاش، وكان أصغرهم في السنّ، غادر الحياة. صحيح أن ثلاثتهم انتقلوا (مع موجة هجرة أو طرد اليهود التي حدثت في بداية الخمسينيات) للعيش في إسرائيل، لكن لا يهم عدد السنوات التي عاشوها في وطنهم الجديد، فإن من يقرأ كتبهم يكتشف صعوبة تأقلمهم مع محيطهم الجديد. مواضيع قصصهم، أشكال الروي، ظلت أغلبها تغرف من مكان ولادتهم الأول: بغداد.

الإشكال الوجودي هذا، التأرجح بين هويتين، وتبادل ظرفَي المكان، الـ"هنا" والـ"هناك"، يمكن العثور عليه بشكل واضح في رواياتهم. ليس من المبالغة القول إن الكتّاب الثلاثة هؤلاء على وجه الخصوص، من بين كل زملائهم الآخرين من الكتّاب اليهود من أصل عراقي، ما زالوا يحتفظون بصورة بغداد التي غادروها أو طُردوا منها في عام ١٩٥١، يبثّونها ليس في أعمالهم الأدبية وحسب بل حتى في أحاديثهم.



والأكثر غرابةً هو أن من يتابع أعمالهم المتأخرة يكتشف أن كبر السن لم يفعل غير تقريبهم أكثر من سنوات الطفولة التي ضاعت، سواء بالنسبة لهم أو بالنسبة للمدينة التي كانت عليها بغداد، قبل أن تطرد أهلها الأصليين وتتحول إلى مدينة يعبث بها العساكر المحليون والآخرون القادمون من وراء الحدود، كأنهم، وبالرغم من الهوية الجديدة التي اكتسبوها، سيصحون ذات يوم من خدر الحياة "الجديدة" التي أصبحت هي الأخرى وراءهم، أو كأنهم ما إن يشيخوا، ولا تعود فيهم بقايا طفولة، سيكتشفون أن الهوية القديمة التي أُريد لهم (أو ظنّوا هم) نسيانها ما زالت هناك، تظهر أمامهم، سواء عاشوا في حيفا (سامي ميخائيل وشمعون بلاص) أو في بتاح تكفا (سمير نقاش)، تومض مثل ضوء فنار في كل سطر يكتبونه، إذا لا تومض مثل شعلة في "ظلمة" خريف حياتهم التي تقارب على الانتهاء!

يمكن عمل قائمة طويلة هنا من أسماء الكتّاب اليهود العراقيين الذين بدأوا بالكتابة لاحقاً في إسرائيل، والذين دارت كتاباتهم عن العراق: نعيم قطان، مثلاً، الذي كتب عن العراق وأجواء العراق بالفرنسية وعنده رواية اسمها **وداعاً بابل**، أو إسحق بار موشيه الذي ظل يكتب حتى وفاته بالعربية فقط، والذي كانت أغلب شخصيات كتبه شخصيات يهودية عراقية، أو ساسون سوميخ الذي صحيح أنه لا يكتب روايات، بل أبحاثاً ودراسات نقدية وترجمة، لكنه كتب سيرة ذاتية يدور الجزء الأكبر منها في بغداد، أو إيلي عمير الذي كتب رواية **مطيرجي بغداد**، وغيرهم. لكن أغلبية هؤلاء الكتّاب الذين يمكن اعتبارهم من جيل واحد (وإن كبر أو صغر بعضهم عن بعض)، لأنهم جميعهم هاجروا أو اضطروا للهجرة عام ١٩٥١، عام الخروج اليهودي الكبير من العراق، أقول أغلبية هؤلاء كتبوا عن بغداد إما ضمن سياق معين، كما عند ساسون سوميخ في سياق الحديث عن سيرته، أو إرضاءً لذوق الكيتش الشرقي، كما في بعض القصص والروايات، أو أنهم لم يكونوا من مواليد بغداد، إيلي عمير مثلاً.

الكتاب البغّادة بامتياز يظلون هم كتّابنا الثلاثة: سامي ميخائيل وشمعون بلاص وسمير نقاش، ليس لأنهم كتبوا روايات دارت أحداثها في مدينتهم الأولى بغداد، بل لأن هؤلاء الثلاثة جسّدوا الصراع الوجودي هذا، التمزق بين هويتين، في حياتهم وفي أعمالهم، أكثر من بقية زملائهم الآخرين. الأمر بالنسبة لهم لا يتعلق بذكريات وفقدان



فردوس ضائع، حضارة ضائعة، وحسب. الأمر بالنسبة لهم أكبر، له علاقة بالمحنة الوجودية الكبرى للإنسان، بالسؤال الكبير: ماذا يعني الانتماء إلى هوية أو وطن؟

"أن يتجرد الإنسان من الأشياء التي ينتمي إليها فتلك مأساة، لكن أن يُسلب الإنسان نفسَه فتلك كارثة حقاً"، بتلك الكلمات عبّر الكاتب سمير نقاش عن محنته ذات مرة. لنتخيل أن نقّاش، المولود في بغداد عام ١٩٣٩، يقول تلك الكلمات على الرغم من أنه غادر بغداد وله من العمر ١٢ عاماً، فماذا يمكن أن يقوله الاثنان الآخران، اللذان وجدا نفسيهما مضطرين لمغادرة بغداد، سامي ميخائيل المولود عام ١٩٢٦ في بغداد، الذي كان في أواسط العشرين من عمره والذي كان في الأصل شيوعياً هارباً من بطش السلطة في العراق إلى إيران، قبل أن تقنعه وكالة الهجرة الصهيونية إلى إسرائيل في العاصمة الإيرانية طهران بإنقاذه عن طريق تهجيره إلى إسرائيل، وشمعون بلاص المولود في بغداد عام ١٩٣٠، الذي كان في الواحد من العشرين من العمر وكان شيوعياً هو الآخر، بالضبط في وقت تزايد خطورة وضع الشيوعيين في العراق، الأمر الذي جعله يقرر الهجرة إلى إسرائيل لإنقاذ رأسه؟

التمزق الوجودي هذا، الذي عاشه الكتّاب البغّادة الثلاثة هؤلاء، يجد مثاله أيضاً في ترددهم في المراحل الأولى من حياتهم الأدبية، باختيار اللغة التي عليهم الكتابة بها: اللغة العربية التي نشأوا وترعرعوا عليها أم اللغة الجديدة المكتسبة؟ ربما كان سامي ميخائيل الوحيد الذي حسم هذا السؤال مبكراً وبدأ بالكتابة باللغة العبرية، على عكس زميليه الآخرين. فإذا كانت اللغة العربية هي اللغة التي كتب بها شمعون بلاص روايته الأولى المعبرة في عام ١٩٦٤، قبل أن يقرر لاحقاً اختيار اللغة العبرية لغةً أدبية لأعماله اللاحقة (حتى رواية المعبرة نقلها بنفسه إلى اللغة العبرية)، فإن سمير نقاش، الذي هو في الحقيقة استثناء كبير من جيله، لأنه، ورغم تركه العراق وله من العمر ١٣ سنة، ظل حتى وفاته متعصباً للكتابة بالعربية، كما أبدى موهبةً استثنائية بإتقانه المحكية العراقية، كما أنه كان يحفظ عدداً كبيراً من الأمثال الشعبية العراقية التي يمكن ملاحظتها في قصصه ورواياته ومسرحياته، حتى أن بعضها حوت على هوامش وفهارس لشرح الأمثال والكلمات البغدادية الدارجة تلك.

التأرجح اللغوي، أو الانفصام هذا، يصفه شمعون بلاص في كتاب سيرته الذاتية



بـ"الضمير الأول"، إذ يروي كيف أنه لدى عودته ذات ليلة متأخراً من عمله في المطبعة، ومباشرةً بعد قراره اختيار الكتابة بالعبرية، حمل في يده قبل الصعود للنوم كتاباً لطه حسين لأجل فحص شيء ما لا يتذكره، ولكن بعد أن أطفأ النور هاجمه مدٌّ رهيب من الكلمات والجمل وأبيات الشعر بالعربية، مثل سدٌّ انهدم فجأةً، أطار النوم من عينه حتى الصباح. وكان ذلك إشارةً، بالنسبة إليه، لانتقام العربية منه، كما تعود على أن يقول لنفسه، العقاب المستحق له على ما يبدو لأنه أدار ظهره للغته الأم المحبوبة والحميمة، كما عبّر بنفسه. الانفصام اللغوي يمكن حلّه عن طريق الانحياز إلى لغة أدبية جديدة. لكن ماذا عن الانفصام بين حياتين؟ الحياة التي بدأت هناك في بغداد والحياة الجديدة التي كان عليهم الشروع بها وهم شباب يافعون؟

المشكلة بالنسبة للكتّاب الثلاثة لا تتعلق بالانحياز لواحدة من الحياتين، أو بأن الحياة هذه أو تلك هي الأحسن، وأن الأخرى يُمكن شطبها بسهولة. المشكلة، ببساطة، أنهم اختاروا الوظيفة اللعينة هذه، اختاروا أن يكونوا رواة. والروائي لا يستطيع أن يفعل الكثير، عليه أن يروي في المقام الأول، تلك هي وظيفته منذ بداية الخليقة حتى الآن: الروي، أو مثلما عبّر عن ذلك بعبقرية مايسترو الحكايات الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز، وهو يصف حياته، **عشت لأوري**، الراوي يعيش ليروي. لماذا يكتب عدد كبير من الكتّاب عن طفولتهم؟ لأنهم ببساطة لم يملكوا حياةً أخرى. كيف سيملكون هذه الحياة وهم يقضون بقية حياتهم بالكتابة؟ الطفولة والصبا، سنوات الحياة الأولى، هي الزمن الوحيد الذي عاشوا فيه، وهذا الزمن، وليس غيره، هو الذي يستحوذ على وقتهم، لأن الكتابة تستدعي الوقت مثلما تستدعي الحياكة الخيوط، والراوي لا يملك إلا خيطاً واحداً. وفي حالة روائيينا البغّادة الثلاثة، الخيط الوحيد الذي يملكونه لحياكة قصصهم هو حياتهم التي تركوها وراءهم في بغداد. ربما وعيهم لذلك هو ما يجعلهم يحاولون التخلص من "شَرَك" الحياة الأولى هذه، لكي يثبتوا لمحيطهم الجديد (أو ربما لأنفسهم) أنهم ينتمون إليه، أنهم وطنيون، يفكرون بوطنهم الجديد (كما حاول سامي ميخائيل وشمعون بلاص بكتابة روايات دارت في أماكن أخرى غير بغداد، شمعون بلاص ذهب إلى القاهرة مثلاً)، لكنها مسألة وقت حتى يكتشفوا أن ما كتبوه يخلو من الوجد، نتاج صنعة كتابة وحسب، لا روح فيه، لم يخرج من القلب. وهذا الشعور

بالذات هو الذي أفجعهم وجعلهم يعودون مرةً أخرى إلى الكتابة عن حياتهم الوحيدة التي عاشوها: عن بغداد! وإذا اشتد التمزق هذا، اللاقرار، لماذا لا يجرب أحدهم الهروب من إسرائيل، كما فعل سمير نقاش، الذي حاول الهروب في شبابه إلى لبنان فألقوا عليه القبض عند الحدود وأودعوه السجن، أو كما فعل شمعون بلاص، الذي يقضي معظم شهور السنة في شقته الصغيرة في باريس.

"إن ما عشته في بغداد هو كل حياتي"، كرّر سمير نقاش ذلك في أكثر من مقابلة معه. أما شمعون بلاص فقال: "يثيرني أن أرى ما حدث هناك. الكثير جداً مرّ بهذه المدينة، بغداد، وبهذا البلد، العراق. يثيرني أن أرى ما تبقّى من الماضي. كان هناك عندئذ النهر الذي كانت تظهر به الجزر في الصيف. تزورني صور من المقاهي والأزقة وأكواخ الاستحمام على شاطئ دجلة، حيث تركت ملابسي وخرجت للسباحة للضفة الثانية". أما سامي ميخائيل فلا يزال يتذكّر القبلة الأولى التي طبعها على شفتي حبيبته وهما يسيران على أحد جسور بغداد، فوق نهر دجلة.

الثلاثة رأيناهم في "أنس بغداد"، الفيلم الرائع الذي صنعه المخرج السينمائي نصف العراقي ونصف السويسري سمير جمال الدين. ثلاثتهم حدثونا عن حياتهم في عراق كان، مع بدايات وعيهم تحت الحكم الملكي وفي ظلّ الانتداب البريطاني، يعيش بدايات حداثته؛ وكيف كانوا، كيهود، منسجمين مع باقي السكان، وخاصةً مع الأكثرية المسلمة، إلى حدٍّ أن بعضهم أصبح يترك الحي اليهودي ليعيش في تلك الأحياء الجديدة المختلطة، حيث كانت تنتفي التفرقة الدينية، "لأن شعب العراق لم يكن يوماً متديناً (كما يلاحظ بطرافة سامي ميخائيل)، والنكات التي كانت تطال الحاخامات اليهود كانت نفسها تطال الكهنة المسيحيين ومشايخ الإسلام". الفترة تلك، التي تحدث عنها الثلاثة، كانت أيضاً امتداداً للتغييرات التي حصلت بعد نهاية الحرب العالمية الأولى وهزيمة الأتراك، واحتلال الإنكليز للعراق، وما حدث بعدها من انقلاب في المجتمع العراقي على كل مستويات الحياة في جميع الطوائف هناك وجعلها تنصهر جميعاً في بوتقة الدولة العراقية الجديدة، التي أسسها الإنكليز، خاصةً بعد أن أصبحت اللغة العربية الفصحى اللغة الرسمية لهذه الدولة. الفترة تلك غيّرت المفاهيم عند الطوائف بالتعامل مع بعضها. لم يكن من الضير بالنسبة لطفل يهودي أن يدرس في مدرسة غير

يهودية، مثلما لم يكن من الضير أن يكون المربّي أو المدرّس في المدرسة اليهودية من طائفة أخرى. حتى المدارس "الطائفية" أو شبه الخصوصية التي كانت الجالية اليهودية تملكها في بغداد، مدارس جمعية "الأليانس، مثلاً، التي أُنشئت أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، لم تكن تخلو من وجود مدرّسين من طوائف أخرى. مثلاً، في مدرسة "شماس" درّس محمد شرارة وحسين مروّة: معلمان لبنانيان من أصل شيعي. ويكفي أن نعرف أن أبا سمير نقاش كُلِّف بالنقش على قبة مرقد الإمام موسى الكاظم. من يتخيل ذلك اليوم؟ يهودي ينقش قبة مرقد إمام شيعي!

في الجو البغدادي، "الواقعي" بالنسبة للبعض و"المتخيل" بالنسبة للبعض الآخر، نشأ أدباؤنا الثلاثة، على الأقل قبل أن يجتاح بغداد طاعون العنصرية وتحدث هجمات الفرهود، عام ١٩٤١، عام أول اعتداءات تُسجَّل ضد اليهود، عندما استغلّ الغوغاء فراغ السلطة في الشارع، مباشرةً بعد القضاء على الانقلاب العسكري القومي النازي بقيادة رشيد عالي الكيلاني، الذي فرّ إلى برلين واستقبله هتلر هناك، لتعيش بغداد يومين داميين قُتل فيهما العديد من اليهود وسُرقت أموالهم ومحلاتهم. الملفت للنظر، وهذا ما يؤكّده الثلاثة في حواراتهم، أن الحوادث تلك، ورغم ما جرى فيها من ويلات، لم تؤثر على علاقة اليهود بالبلاد التي عاشوا فيها، كما لم تفكّ ارتباطهم بالمجتمع الذي عاشوا فيه، إذ تطورت حياتهم بديناميكية عالية وكأن أمراً لم يحدث، وواصلوا أعمالهم التجارية وأسسوا الشركات الجديدة. واللافت للنظر أن بعض هذه الشركات كانت شركات مشتركة مع رجال أعمال مسلمين، ومن أشهر تلك الشركات "شركة بغداد الجديدة" التي بنت مدينة "بغداد الجديدة". وحتى عندما سمحت الحكومة العراقية، التي رأسها آنذاك توفيق السويدي، بالهجرة طوعياً، بعد أن سنّت قانون الهجرة وتسقيط الجنسية الشهير عام ١٩٥١، الذي سمح لليهود الذين أسقطوا الجنسية العراقية بالهجرة إلى إسرائيل، ترددت أغلبية الطائفة بتقديم طلب بتسقيط الجنسية. كان أمر الهجرة غامضاً بالنسبة لها، لم يكن على أجندتها، خصوصاً بالنسبة للطبقة الوسطى من اليهود التي شكّلت قرابة ثلث الطائفة في ذلك الوقت. الهجرة كانت تعني بالنسبة لهؤلاء التنازل عن حياتهم التي بنوها بعد سنوات من الكفاح والعناء والذهاب إلى مكان جديد، حيث ينتظرهم مصير غامض. ليس هناك أفضل من كلمات البروفيسور

ساسون سوميخ التي كتبها في سيرته وهو يصف تعقيدات الوضع الذي عاشته الطائفة اليهودية في العراق آنذاك، عندما يقول: "يعتقد البعض هنا (في إسرائيل) وفي العراق أن التحريض المنفلت على اليهود، من فوق المنابر العديدة، لم يكن السبب الوحيد للهروب الجماعي، وأن التحرشات التي حفّزت حركة الهجرة كانت في بعض الأحيان من أعمال الصهيونيين بهدف زرع الرعب وخلق دوافع للهجرة بين المترددين، لتسريع التنازل عن مواطنتهم. نال هذا الموضوع اهتماماً كبيراً، وحتى النقاش حوله والنظر فيه هنا في إسرائيل، خلال العقود الأخيرة، وتضاربت فيه الآراء. أنا شخصياً أستصعب إبداء الرأي في هذا الصدد، لأنني كنت خارج حلبة الأحداث و لم تصل إلى يدي دلائل أو قرائن موثوقة في هذا الموضوع".

الأمر الوحيد الثابت هو أن سنوات ١٩٤٧ حتى عام ١٩٥١ كانت من أحلك الفترات المظلمة بالنسبة للعراق، عندما قرر اليهود، الذين شكّل قسم كبير منهم النخبة في العراق، الهجرة من بلاد وادي الرافدين. الهجرة كانت أيضاً امتحاناً صعباً للطوائف الأخرى أيضاً، التي وقفت موقف المتفرج و لم تفعل ما يمكن أن يوقف تقوّض واضمحلال "جالية" يهود بغداد أو جالية بابل إن شئتم، أقدم جالية يهودية في العالم، في بداية ١٩٥١. ففي سنة بداية الهجرة الجماعية المنظمة لوحدها انتقل إلى إسرائيل ١٢٠ ألفاً من يهود العراق، واختفت معهم معا لم كافة جاليات المدن العراقية كلياً، و لم تُبقِ موجة الهجرة هذه (التي سُمّيت "عملية عزرا ونحميا" التي أشرفت عليها منظمة الهاغاناه سابقاً، والموساد لاحقاً) في بغداد على أكثر من عشرة آلاف يهودي، حتى هؤلاء غادروا بغداد في العقود الثلاثة التالية في موجات متقطعة. مجمل الأمر أنه بعد إعلان قانون تسقيط الجنسية، الذي أتاح ليهود العراق مغادرة العراق بدون رجعة، وجد معظم اليهود أنفسهم ممزقين، مرتبكين، متخبطين، ترتّب عليهم أن يحسموا مصيرهم ومستقبلهم فجأةً، وفي النهاية هاجرت الأغلبية الساحقة من أبناء الجالية إلى إسرائيل بين عامي ١٩٥٠- ١٩٥١.

الحياة الغائبة، الحياة تلك بكل ما حوته من تقرير مصائر وتعقيدات، وجدت تجسيدها في روايات الكتّاب البغّادة الثلاثة هؤلاء بصورة واضحة، بل ظلت هي المادة، الخلفية، التي اعتمدت عليها كل كتبهم اللاحقة. من يقرأ رواياتهم التي دارت أحداثها في بغداد



تلك الفترة لن يشك أنها روايات عراقية بامتياز، لا يهم أنها كُتبت بالعبرية كما هي روايات شمعون بلاص وسامي ميخائيل.

بغداد حاضرة بقوة في العديد من روايات وقصص شمعون بلاص: في المعبرة، المنشورة عام ١٩٦٤، وفي رواية وهو آخر، المنشورة عام ١٩٩١، التي تحكي قصة أحمد نسيم سوسة، اليهودي الذي أسلم في الثلاثينيات وأصبح إحدى الشخصيات المركزية في مؤسسات السلطة، بل حتى في روايتيه المكتوبتين للأطفال أشعب من بغداد وطنبوري.

أما في قصص وروايات سمير نقاش فتحضر بغداد منذ عنوانها، لأن عناوين رواياته ظلت تستخدم اللهجة البغدادية الصرفة، كما في رواية فُوّة يا دم، التي تدور أحداثها في بغداد أواخر ثلاثينيات القرن العشرين حول ثلاثة رجال من عامة الشعب البسطاء، يجابه كل منهم ذات صباح يوم أحد مشهود تجربة غيبية رهيبة مروعة، فيأتي الثلاثة إلى دكان شاي خليف ليستفتوا أخاه سَفاني، الثائر المتمرد على أخطاء الكون، عرّافهم الأكبر وكاهنهم الأعظم، فيما عانوه وشاهدوه، لكنهم عوضاً عن أن يلتقوا بسفاني تطالعهم كفّ دموية مبصومة على طاولة الدكان، فيتوقف بهم الزمن عند يوم الأحد ذاك (كأن نقاش أراد أن يقول إن الزمن توقّف عنده أيضاً في بغداد، في ذلك اليوم الذي غادرها وهو صبي). وعنوان الرواية هو استعارة صيغت على شكل نداء من نداءات الباعة، والفوّة نبات أحمر السيقان يُستعمل في الصباغة، أما الدم فسلعة يُنادى عليها في الأسواق تشبيهاً بهذه النبتة الحمراء للترغيب به وعليه. أو في رواية نزولة والشيطان، التي تستخدم كلمة "نزولة" التي كانت تعني المستأجرين في اللهجة البغدادية، جيران الأحياء الشعبية في بغداد التي اندثر أغلبها، أو كاد. كانت البيوت في تلك الأحياء شرقية الطراز أصيلة، في كل بيت يوجد حوش (صحن البيت)، إيوان، سرداب، بيتونة، كافشكان وشناشيل، أما الغرف فهي من حول الحوش (الصحن)، تتكون من طابق أول وطابق ثان. في كل غرفة تقيم عائلة، أحياناً للميسورين غرفتان. في المنزل الواحد تنزل عوائل عدة، أو أفراد. لم يكن من غير الطبيعي ألاّ تقطن المنزل الواحد أسرٌ مسلمة ويهودية (كما حدث في هذه الرواية)، الكل هم بمثابة أخوة للبعض، "نْزولَه في بيت". أما نسيج العنكبوت فهو "خيط الشيطان"، العنكبوت يتحدى الإنسان وينسج شراكه،



وعندما ينسج خيوطه ينسجها ليصطاد الحشرات، ولكن من نكد الطالع أن الإنسان أيضاً لا يفلت أحياناً من هذا الصيد. ورواية **نزولة الشيطان**، كما وصفها سمير نقاش بنفسه، هي "أحداث دائرة ضمن زمن سائب يرسو أخيراً في مطلع خمسينات القرن العشرين، من حيث بدأ نزوح يهود بغداد عنها".

أما سامي ميخائيل، الذي هو أشهرهم، وكتبه تُرجمت إلى لغات عديدة، والذي هو – لحسن الحظ – الوحيد منهم الذي التقيت به، فهو أكثر واحد منهم يعنيني. لا أزال أتذكر الدهشة التي سيطرت عليّ عندما قرأت روايته **فكتوريا**. الدهشة هذه هي التي تسمح لي بالحديث عنها أكثر من حديثي عن الروايات "البغدادية" الأخرى له أو لزملائه.

صحيح أن بغداد حضرت في روايات عديدة لسامي ميخائيل، روايته الأخيرة **عائدة** مثلاً، التي صدرت عام ٢٠١٠، والتي تتحدث عن يهودي ظل مصراً على البقاء في بغداد، بل يصبح مصوراً لصدام حسين، إلا أن **فكتوريا** تظل بالنسبة لي أقوى رواية كُتبت عن بغداد الفترة تلك، وحملتني، سواء شئت أم أبيت، وبضربة واحدة، إلى المدينة التي هربت منها بعد قرابة ثلاثين عاماً من هروب فكتوريا، لأتعرف على بغداد من جديد، أتجول مع فكتوريا في بدايات القرن العشرين عبر أزقة بغداد وحاراتها، عبر البتاوين والباب الشرقي، عبر شارع الرشيد والحيدرخانة، عبر سوق الشورجة والأورزدي باك، عبر أحياء الفضل وأبي سيفين، حيثما أرادت فكتوريا، أرسم معها خرائط جديدة لبغداد، غير تلك التي عرفتها وتركتها ورائي، أو غير تلك التي نسجتها وأنا طفل صيفاً وشتاءاً، وأنا أتخيل نجم الآخر الذي يرافق أباه في نزهاته عبر أزقة وشوارع بغداد، خرائط مختلفة حتى عن تلك التي ارتسمت تحت قدميّ وأنا أتجول في بغداد. في المرة هذه أرى بغداد عن طريق عيني امرأة.

منذ القدم، وقبل أن يخلّد لنا الأدب اليوناني نساءً مثل ميديا وألكترا وأنتيغون وهيلينا، قدّم لنا أجدادنا البابليون صاحبة الحانة في **ملحمة جلجامش**، التي عبرت صورتها كل العصور. فكتوريا هي الأخرى امرأة ستعبر صورتها كل العصور، منذ أن تذكّرها سامي ميخائيل، ليس لأنها امرأة "عراقية" من نمط خاص، بل لأن سيرتها ضمّت من بين ما ضمّته سيرة مدينة بغداد، بكل ما حوته من بشر وملل ونحل وقوميات. تلك هي

قوتها. رواية فكتوريا أكثر من ملحمة عائلية، إنها ملحمة عالم كامل، عالم سيظل مجهولاً لكل أولئك الذين لم يحصلوا على شرف التعرف عليه حتى الآن. ظاهرياً يروي سامي ميخائيل قصة عائلات عراقية عاشت في حي يهودي في بغداد قبل الحرب العالمية الأولى، لكنه في العمق وعن طريق وضعه فكتوريا في محور القصة، المحور الذي يدور حوله الصراع بين العائلات هذه، روى سامي تاريخ العائلات العراقية التي عاشت جنباً إلى جنب، تاريخها البعيد والقريب بكل ما حمله من صعود وهبوط. وشكراً لفكتوريا في النهاية، سيكتشف القارئ نفسه تاريخه الشخصي الاجتماعي مثلما ستتشكل أمامه سيرة مدينة كاملة، بغداد في ذلك الوقت، ومعها سيرة بلاد كاملة.

"لم تتحرك قبل الآن بعيداً عن البيت بدون صحبة رجل"، بتلك الجملة يبدأ سامي ميخائيل روايته. فكتوريا ابنة رئيس العائلة "إشوري"، التي عاشت في زمن كان فيه من غير المسموح للنساء الخروج للشارع، السير أو التنزّه وحدهن، هي في المحصلة إحدى البطلات التراجيديات التي عن طريقها يُقدّم أطراف الصراع. وهي لا تفعل ذلك في حركتها خارج البيت، في الشارع وحسب، كما نراها على الصفحة الأولى من الرواية، بل حتى وهي تجلس في داخل البيت. الصورة التي يقدمها سامي ميخائيل عن الصحن الداخلي للبيوت البغدادية هي العقدة الأولى للسجادة التي سيحيكها لنا مع فكتوريا. الصحن الداخلي في البيوت البغدادية هو مسرح الحياة الذي تدور عليه حياة عائلة كثيرة الأفراد، كل شيء يدور هناك، هنا تطبخ ربات البيوت وتُغسل الملابس، هنا تجلس العائلة مع بعضها، تتحدث، أو تسهر في ليالي الصيف المقمرة. ولكن هنا أيضاً تنشط أقدم طريقة لنشر الأخبار، فمن فم إلى آخر تدور الإشاعات وتُنقل بسرعة البرق. هنا أيضاً تسخن الأمزجة بسرعة وتفور. كل إهانة، كل ولادة جديدة، كل نزاع، كل نظرة حب، كل لمسة، تُلفت النظر بسرعة. السجادة الجميلة البغدادية التي فرشها لنا سامي تحولت إلى بساط ساحر، ليس بسبب جمال النسيج وأصالته الذي حاك قصته منه وحسب بل – أكثر من ذلك – بسبب كل التفاصيل الصغيرة التي وضعها بعضها إلى جانب بعض: تلك هي قوة رواية فكتوريا.

"السماء تضيء بالنجوم الصغيرة أيضاً"، أعتقد أنه الألماني برتولد بريشت كتب ذلك. في سماء بغداد التي يصفها سامي ميخائيل بدقة، ولولا الضوء الذي زوّدتنا به



التفاصيل الصغيرة هذه، حياة العائلات التي لا يترك سامي ميخائيل صغيرة أو كبيرة من يومياتها ولا يصفها، بنظافتها وبقذارتها، بسموّها وهبوطها، بتعاليها وذلّها، لولا تفاصيل "بورصة" حياة العائلات اليومية هذه، لما تعرفنا على الضوء الآخر الذي انتشر في سماء بغداد آنذاك، لما عرفنا التفاصيل الكبيرة التي دارت خارج ساحات البيوت البغدادية التقليدية، خارج الحوش. سامي ميخائيل يروي قصة فكتوريا وأمام عينيه بانوراما حدث تاريخي كبير: انهيار الإمبراطورية العثمانية، دخول الجيش البريطاني واحتلال بغداد، تأسيس الدولة العراقية الجديدة، وبعدها: تأسيس دولة إسرائيل. كل ذلك يتجلي أمامنا في علاقته المباشرة وغير المباشرة مع القضية "الكبرى" التي أخذتها فكتوريا على عاتقها. فكتوريا التي عاشت كل تلك الأحداث كانت معنية بقضية واحدة قبل كل شيء، قضية واحدة تخصّها فقط، قصة حبها لابن عمها "رافائيل"، رافائيل الذي يشعر بالاختناق في عالم العائلة الضيق فيتمرد عليه ويقرر الانطلاق إلى العالم الحديث. تلك هي معضلته (معضلة فكتوريا أيضاً)، يطلب من فكتوريا أن تظل سجينة في عالم العائلة الضيق، أن تظل مخلصة لتقاليد وعادات عائلتها. ربما وافقت فكتوريا على مضض في المرحلة الأولى من عيشها مع رافائيل بسبب حبها له، أو أكثر بسبب أملها، أن تتغير الحياة ويتغير هو معها أيضاً، لكن عندما يهاجر رافائيل ويتركها مع أطفالها، تكافح الجوع والبؤس، تبدأ فكتوريا بالكفاح لانتزاع خصوصيتها، استقلالها، ذاتيتها.

هجرة فكتوريا مع عائلتها إلى إسرائيل كانت بالنسبة لها بداية الانطلاق لتأسيس عالمها الخاص، فمهما قيل عن هجرة اليهود إلى إسرائيل، إلا أن أمراً واحداً يظل ثابتاً: بقدر ما جاءت تلك الهجرة بسبب بواعث مصيرية جماعية، بقدر ما كانت بالنسبة لعدد كبير من المهاجرين أيضاً قضية لها علاقة بالحرية، بالبحث عن ملاذ جديد لتأسيس عالم خاص. فكتوريا هي أحد هؤلاء: العالم مشغول بالأمور الكبيرة من أمامها، وهي مشغولة بالقضية الخاصة بها. وهل هناك قضية أكبر من قضية القلب وشؤونه؟

الآن، وأنا أكتب عن الروائيين البغّادة الثلاثة هؤلاء، أكتشف كم أنا مدين لهم بالعرفان. تعرفي عليهم، على أعمالهم، على حياتهم، الأولى التي عاشوها في بغداد، والثانية التي عاشوها في بلدهم الجديد، جعلني أتعرف على كل التفاصيل الصغيرة



المندثرة التي ما كان من السهل معرفتها لواحد مثلي نما في بلاد حرصت على محو كل ما له علاقة بوقوع الكارثة التي حلّت علينا جميعاً من ذاكرتها، جعلني أعرف بغداد؛ بغداد التي كانت، وبغداد التي ما كان يجب أن تصل إليه. من غير المهم أن كل واحد منهم اخترع بغداد"ه" الواقعية على طريقته، على هواه، ففي النهاية، ألا أفعل أنا ذلك أيضاً؟ ألست أنا مثلهم، وأنا أقوم باختراع بغداد"ي" الخاصة بي، بغداد التي أحضنها في بؤبؤ عينيّ أينما حللت؟



٢٧

جون دوس باسوس
المهم هو الطريق إلى بغداد

عندما وصل الكاتب الأميركي جون دوس باسوس، المولود في شيكاغو من زواج غير شرعي في ١٤ شباط/ يناير ١٨٩٦، إلى بغداد، كان له من العمر خمسة وعشرين عاماً، وكان لا يزال في بداية حياته الأدبية، لأنه سيشتهر لاحقاً، في عام ١٩٢٥، بعد نشره **تحويلة مانهاتن**، وأكثر في أعوام ١٩٣٠-١٩٣٦، بعد نشره الثلاثية الأميركية. لكن رغم سنه الصغيرة، ورغم أنه حتى ذلك الوقت لم يكتب أكثر من روايتين، رواية **مشروع رجل واحد** ورواية **ثلاثة جنود**، إلا أن ما كتبه دوس باسوس في كتابه المعنون **قطار الشرق السريع**، والذي يصف فيه رحلته إلى تركيا والقوقاز والشرق، عبّر عن قدرة الكاتب الذي سيصبح أحد عمالقة الرواية في العالم، كما عبّر عن اطّلاع واسع، سواء فيما خص بانطباعاته المتعلقة بالرحلة كلها، مشاهداته مثلاً في اسطنبول التي وصلها في تموز/ يوليو ١٩٢١م، والتي كانت، كما وصفها، مركزاً لوكالات التجسس القادمة من مختلف العالم، حتى إن عدد الغرباء فيها فاق عدد سكانها، أو سواء في التفاصيل التي يقدّمها عن المذهب الشيعي، حتى إنه يروي واقعة الطفّ المشهورة وقصة مقتل الإمام الحسين وعلاقتها برحلة الحجاج الشيعة القادمين من بلاد فارس ومن كل العالم الشيعي، وهو يصاحبهم صدفةً على طول الطريق من مدينة همدان الإيرانية حتى مرقد الإمام الكاظم في بغداد.

ربما هي زيارته الأولى التي سبق له وأن قام بها مع أمه إلى وادي النيل في مصر وحتى

الحدود السودانية، وله من العمر ستة عشر عاماً، التي جعلته يملك خبرة مسبقة، ولو قليلة، عن الشرق. أما تطوعه على الجبهة أيام الحرب العالمية الأولى، أثناء إقامته الطويلة في إسبانيا، حيث فاجأه خبر وفاة أبيه، فقد أمدّه بخبرة قوية لمواجه الصعاب، وإن كان تطوعه ليس كجندي بل كممرض صحي. وإلا من الصعب تخيل الشجاعة التي تحلّى بها هذا الأميركي المثقف الذي اختار هذا الطريق المتعرج لرحلة تبدو شبه مستحيلة في زمانها، من اسطنبول، ثم قطع البحر الأسود في باخرة عبر ترابزون وباطوم، ثم السفر بسيارة فورد قديمة من العاصمة الجورجية تبليسي، مروراً بمدن عديدة، ألكسندرينوبل، يريفان، ناخشيجفان، جُلفا، تبريز، باسميش، شيبلي، ميناه، زندخان، كافين، طهران، قصر شيرين، خانقين ثم بغداد. ولا يهم عدد المدن التي سبقت بغداد، مثلما لا يهم المدن التي ستليها في الرحلة. من يقرأ يوميات دوس باسوس في رحلته "الجهنمية" تلك، التي سجّلها في كتابه أورينت إكسبريس (دار نشر هاربيرس وإخوانه، نيويورك ١٩٢٧)، فإنه سيعثر على اسم مدينة واحدة من أسماء كل المدن تلك، كأن الرحلة هي مقدمات وتنويعات لمدينة واحدة، كأن هدف الرحلة هو الوصول في النهاية إلى مدينة واحدة لا غير: بغداد.

بالنسبة لجون دوس باسوس كان ذلك واضحاً، وقبل أن يصل بغداد. فذات صباح، وفي صحن أحد الخانات التي اشتهرت في ذلك الوقت كمكان ينام فيه الحجاج والمسافرون في طريقهم من إيران إلى بغداد، في مكان قريب من قصر شيرين الحدودية، يستيقظ كمسافر. الخان فارغ. جميع الحجاج غادروا، وكان عليه هو وسائقه أن يقطعا في ذلك اليوم ممراً جبلياً ضخماً يرتفع ١٣٠٠ متر قبل أن ينحدر بتعرجاته باتجاه وادي الرافدين. في الطريق إلى الممر يستحوذ عليه، وللمرة الأولى طوال رحلته، شعور غريب. "كنت مضطرباً ومتضايقاً. أسماء المدن التي لم أزرها كلها تطنّ حول أذني مثل البعوض، كابول، حرّات، خراسان، أصفهان، شيراز. على عكس بغداد التي لا يمكن مساواتها بذلك أبداً. بغداد فيها نغمة ألمانية، تُذكّر بمقالة عن الشرق الأوسط في صحيفة الوطن (ناسيون) وبـ'الحدائق الشتوية'". "آخ، هذه الليالي العربية الملونة بلون البونبون"، يكتب دوس باسوس واصفاً بغداد، ثم يستشهد بمقطع شعري، لا يشير إلى مصدره، "والسيدات في الحريم كنّ يعرفن ما يلبسن في بغداد الشرق في الماضي".

ولكن من أين تأتي تلك القوة التي يملكها مكان كان قد احتل منذ سنوات أهميةً خاصة في برلين ولندن ونيويورك؟ لماذا التوجّه إلى بغداد التي دخلت الخطط السرية لأركان الجيش الألمانية؟ لماذا كان جون دوس باسوس، وهو في ذلك ليس الأول، مصراً على رمي نفسه عند ضفاف دجلة الذي يقطع المدينة في المنتصف؟ ولماذا يتحمل واحد مثله عناء الرحلة "الجهنمية" تلك، في شهر آب/ أغسطس، الذي هو حار أصلاً، لكن في النصف الثاني منه، زمن الرحلة، تصل درجات الحرارة إلى حدها الأعلى، حيث يطلق المرء عليها هناك "طبّاخات الرُّطَب"، وقت نضوج التمر؟ هل يكفي أن يغامر المرء بكل ذلك لأن قريباً من بغداد، جنوبها بكيلومترات قريبة، عند ضفاف النهرين دجلة والفرات، تُعرض على السواح خرائب جنة عدن، وشجرة التين التي أخذ من ورقها آدم وحواء الورقتين اللتين غطيا بهما عورتيهما؟

ربما الاضطراب الذي تحدث عنه دوس باسوس له علاقة بجرعة من الشك استحوذت عليه، أن يرى بغداد أخرى غير تلك التي شكّل صورتها قبل زيارتها. كانت المنطقة كلها في تغيّر. كان عام ١٩٢١، العام الذي قام به في رحلته هو عام التحولات وتشكّل الخرائط الجديدة في الشرق الأوسط. كانت مرت سبع سنوات على نهاية الحرب العالمية الأولى التي انتهت بهزيمة الدولة العثمانية وحلفائها، الألمان والروس. وكان تقسيم أراضي الرجل المريض على البوسفور بين الحلفاء ما زال غير منته. أما الدولة العراقية التي سيزور عاصمتها فقد تأسست للتو، وإن شكلياً. فالملك الذي نصبه الإنكليز، الملك فيصل الأول، غير عراقي، جلبته بريطانيا من شبه الجزيرة العربية ليحكم العراق. الحاكم الفعلي في بغداد هو البريطاني سير بيرسي كوكس. المنطقة كلها في غليان، لأن الإنكليز الذين وعدوا العرب بدولة عربية مستقلة، مقابل مساعدتهم في طرد الأتراك من الأراضي العربية، لم يفوا بوعودهم. ثورات في كل مكان. العراقيون سبق وأن ثاروا عام ١٩٢٠ ضد الإنكليز. ثورتهم انتهت إلى الفشل، لكن المعارضة للإنكليز لا تزال موجودة. المنطقة هذه، وبالذات بلاد وادي الرافدين، لم تعرف الهدوء يوماً. على مر تاريخها عاشت الاضطرابات والتحولات. كل ذلك عرفه الشاب دوس باسوس قبل دخوله بغداد.

سلفاً، وعلى الحدود الإيرانية العراقية، سجّل دوس باسوس كيف أن طريق همدان،



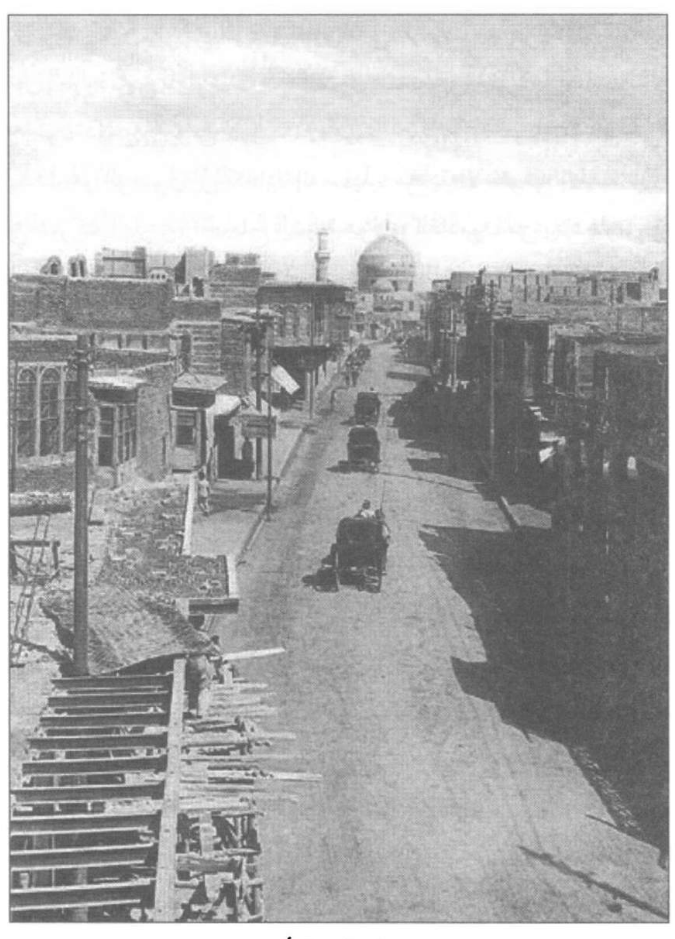
الذي هو ليس سوى سلّم حجري ضخم يقود إلى العراق، هو أحد الشوارع التي سارت عليها كل الجيوش الكبيرة في التاريخ. حجرها بالٍ ومتآكل من خطوات أجيال لا تُحصى من الجنود والحيوانات. في كل مكان على جدران الصخور خلّد الناس أنفسهم. ثقل تاريخي مميّز يجثم على الوديان والصخور هذه، على مجاري الأنهار الحجرية. في الكهوف المرددة للصدى هذه يتحدث الناس عن سماعهم صيحات العيلاميين وجنود الملك العظيم داريوش، ملك الملوك، تتخللها لعنات التوميس (البريطانيين) وحوافز خيول جنود الخيّالة الروس. ليس ذلك وحسب، بل حتى ما حدث في السنوات الأخيرة من تاريخ المنطقة هذه، عندما عادت بلوى الماضي مرات عديدة، هذه المرة على شكل هيئة ثلاثة جيوش لا تعرف الرحمة. فخلال الحرب العالمية الأولى قاتل في البداية الأتراك والروس ضد بعضهم بعضاً هنا، ثم جاء البريطانيون عام ١٩١٨، في حملتهم المعروفة من أجل الاستحواذ على منابع النفط، وعبّدوا الطريق، بكلمة واحدة بالضبط، جدّدوها. والمفارقة، هذا ما قاله طبعاً، ألاّ يجد المرء في طريقه خاناً أو قرية، وأن تفترس الصحراء، ساحة غزوات التاريخ الكبيرة، كل الأراضي الزراعية، وأنّ المرء خلال رحلة يوم كامل في سيارة فورد مهلهلة لا يعثر على شيء، باستثناء (وبكثير من الحظ) طاسة من حليب حامض في خيمة أكراد بدو.

أية رحلة تلك إذن، والشاب دوس باسوس لا يستسلم، لا يهدّه عناء الطريق. رحلاته الأخرى كانت فندق خمس نجوم مقارنةً برحلته هذه. كان قد عاد بالتأكيد لو حصلت متاعب في طريقه إلى مدينة أخرى، لكنه هنا، في طريقه إلى بغداد، لا تهمّه المخاطر، لا يهمّه الجوع وعناء الطريق، لا يهمه حر شهر آب اللاهب؛ آب اللّهاب الذي يحرق المسمار بالباب؛ آب طبّاخات الرُّطَب (مثلان شعبيان عراقيان)، كل شيء يهون في سبيل الوصول إلى بغداد، الجنة الموعودة، التي تحتل صورتها الرأس؟

"الشرق والغرب والشمال والجنوب هي حضورات قوية وبلا جسم، مثل الروح التي يتخيلها المرء خلف الستارة في أيام الطفولة. الاتجاهات الأربعة للسماء كانت وسائل تعذيب، حفرت بأحدهم مثل سيوف الماتير المؤلمة. لماذا الشرق مختلف عن الغرب؟ لماذا المرء سعيد في الجنوب وبائس في الشمال؟" كل تلك التأملات والأفكار تأتي جون باسوس في طريقه إلى بغداد، كأن الشرق الذي يتحدث عنه للمرة الأولى



مركزه بغداد، أو كأن الطريق الذي قطعه كله هو في النهاية تنويعة للطريق الذي يقطعه الحجاج الشيعة؛ الجموع التي تمشي على الطريق باتجاه مراقدها المقدسة في العراق. وهو، دوس باسوس، الذي يجلس في سيارة فورد مهلهلة مع سائقه الأرمني، باتجاه مكانه المقدس أيضاً: بغداد.



شارع الرشيد قديماً

عدد لا يُحصى من الذين استهواهم الشرق، من الرحّالة والكتّاب والرسامين الغربيين، كانوا يبدأون فعلاً رحلتهم إلى هذا الشرق، لكن ما أن تواجههم بعض الصعوبات، أو تستهويهم بعض الأمور، حتى تنتهي تلك الرحلات، عملياً، في الموانئ، رغم أن الكتابة عن الشرق في مذكراتهم لا تتوقف. لكن أغلب ما سيُكتب في النهاية لا يأتي نتيجة التجربة أو المشاهدة، إنما هو في النهاية ليس أكثر من كلمات مبعثرة التُقطت من أفواه السكارى والدجّالين، أو من أفواه بسطاء الناس، ليعود أحد هؤلاء الرحالة والكتّاب والرسامين "بثروة" من المعلومات عن "الشرق الغامض، الخطر، المتعصب الذي رآه".

لكن جون دوس باسوس لا يستسلم مهما اصطدم بصعوبات. كل شيء يهون طالما الهدف هو الوصول إلى بغداد. إنه سعيد. سعادته لا تفوقها إلا سعادة الجموع هذه التي شاركته الطريق، الحجاج الشيعة هؤلاء، القادمون من بلاد فارس ومن كل العالم الشيعي. إنهم مثله، وكلما راقبهم، كلما تطلع بوجوههم، كلما وجد نفسه فيهم. "إنه وقت جيد للسفر"، كما يقول، رغم أن درجة الحرارة قاربت الخمس والأربعين درجة مئوية، "الأنهر جافة، الممرات الجبلية لم تُقطع، والسهل العراقي سيُبَرِّد تدريجياً". ورغم أنه لا يعرف من أين يغذّون أنفسهم، لأنه يستطيع هو ومرافقه الأرمني أن يقطعا الطريق بسيارتهما الفضية، ويمكنهما الحديث عن الحظ، إذا حصلا على وجبة غذاء واحدة في اليوم. "العوائل المغبرّة والسعيدة هذه هي في طريقها سيراً على الأقدام لزيارة مراقدهم المقدسة في العراق، في الكاظمية وسامراء والنجف وكربلاء، لقبور الأئمة، رجال لا غبار عليهم، أرواحهم تعود لله. الأغنياء يركبون الخيول والبغال، النساء على حدبات الجمال، فيما ركب الفقراء على الحمير أو ساروا على الأقدام، قوافل بتوابيت بيضاء، فيها موتى، لدفنها في الأراضي المقدسة". طوال اليوم يمران بهم بسيارتهما الفورد ويلطخونهما بالوحل أو يعطونهما الغبار لكي يأكلوه. لكن لا أحد منهم يشكو. إنهم سعداء. والمشهد هذا بالذات يجعله يتذكر سعادته. فهو الآخر حاج في طريقه إلى مرقده المقدس: بغداد. إنه مثلهم. الهدف هو المهم، وليس ما سيكون عليه. وهذا ما يسفر، في رأيي، أن دوس باسوس، الذي كان كريماً بالحديث عن انطباعاته، في وصفه الأشياء والناس، وخاصةً في وصفه كل التفاصيل الصغيرة وجمعه للقصص، مهما كانت صغيرة، أن دوس باسوس هذا



سيكون بخيلاً، أسلوبه مبتسر، حالما يدخل بغداد؟ إذ لا يعرف عن بغداد هنا غير:

أولاً، البار الأميركي الذي جلس عنده الكاتب على ضفاف دجلة، يأكل البطاطا المقلية ويشرب – حسب قوله – بيرة يابانية المثلجة، ويتحدث مع أجانب آخرين، أحدهم تاجر أميركي بدين الجثة قادم من أليونيز من أجل تجارة المصارين، ثم من وقت إلى آخر يقطع الجلسة تلك صفير تحويلة ترام أو طقطقة عربات حمولة عند النهر، فيهتفون "سكة بغداد برلين"، ليسخروا من مشروع ألمانيا الذي أراد ربط "شاه ملاي وليم خان باشا" (سخرية من فيلهلم الثاني) مع أراضيه في الشرق والذي انتهى إلى الفشل! "ما زالت حتى اليوم تراود الذهن الرؤية الجهنمية هذه لعجلات مشتعلة تربط الهند بالقسطنطينية، فيينا، زيوريخ، برلين... مثل ملاك شرس وجبار فوق الرؤوس، بينما نجلس عند نهر دجلة في الظلام، نشرب البيرة اليابانية المثلجة ونأكل البطاطا المقلية التي يقليها عربي على نار من عذوق النخيل".

ثانياً، زيارة إلى بابل الواقعة ٩٠ كيلومتراً جنوب بغداد، حيث وصلت البيرة الألمانية قبل أن يصل خط "بغداد برلين"، وحيث يشعر دوس باسوس، بعد شربه قنينتين من البيرة البافارية، ماركة "ميونيخ للتصدير"، كيف أن فتيات الإلهة البابلية عشتار الجميلات ينشدن جميعاً تحت النخيل، "دويتشلاند، ديوتشلاند، أوبير آل" ("ألمانيا، ألمانيا، فوق الجميع")! "حسناً، إذا كان الأمل فقط بوصول سكة بغداد برلين هو الذي وراء ذلك، بأن تجري بيرة ميونيخ على التلال المتربة لبابل.. لكن ذلك مصدره نبي عبري"، يكتب دوس باسوس الذي لم يخفِ من سخريته من ألمانيا أكثر من مرة في الكتاب!

ثالثاً، لقاء "الشيخ الفلاني" في بغداد وبصورة سرية، والذي سيحمّل دوس باسوس ما يشبه بيان إعلان الاستقلال، بعد أن يمدح "شيخ واشنطن" والاستقلال الأميركي. "الشيخ الأميركي الكبير واشنطن كتب قبل سنوات كتاباً أعلن فيه استقلال أميركا عن الإنكليز"، قال له الشيخ العراقي وهو يحيّي هذا الكتاب ويتمنى أن يحصل العرب (ليس العراق وحده) على استقلالهم، لأن "مستر ويلسون" الإنكليزي، الذي هو "شيخ كبير" أيضاً، كان قد صرّح قبل الحرب في باريس، ومن ضمن إعلانه نقاطه الأربع عشرة، أنّ كل الأمم حرة، مستقلة، ومتساوية. "الأمة العربية، أمة المؤمنين من بغداد حتى دمشق، التي ساعدت الإنكليز والفرنسيين في طرد المستبد العثماني، تريد

وحسب كلمات ويلسن السلام مع كل العالم جميعاً. رغم ذلك لم يتصرف الحلفاء وفقاً لأقوال مستر ويلسون ولا طبقاً للمبادئ التي قالها مستر واشنطن، وهذا ليس أمر جيد. الفرنسيون ألقوا الوطنيين العرب في سجون دمشق، والإنكليز لم يفوا بكلمتهم، وهم الآن مشغولون باستعباد العراقيين. الإنكليز يعتقدون أنهم يستطيعون حكم العرب من بغداد إلى دمشق مثلما عاملوا الهند. سيعترفون بأنفسهم بأن العرب مصقولون من خشب صلب. إنهم حاولوا من خلال تثبيت ما يُسمّى بالملكيات خداع الشعب، ولا يعلمون أن أبسط حمّال في السوق يعرف أنّ فيصل وعبد الله وحتى ملك الحجاز نفسه، رغم أن المراقد المقدسة تحت عهدته، يعتمدون فقط على السلاح الإنكليزي. الأميركي يجب أن يخبر مواطنيه أنّ شعب العراق سيواصل كفاحه من أجل حريته ومن أجل المبادئ التي سبق وأن أعلنها شيخ واشنطن ومستر ويلسون. الثورة الأخيرة فشلت لأنها كانت سيئة التحضير. المرة القادمة...»، هنا يكتب دوس باسوس كيف أن صوت الشيخ أصبح أقوى.

بغداد التي سيختصرها دوس باسوس بصفتها "ملاك من العجلات"، هي غير بغداد التي تغنّى بها طوال الرحلة، كأنّ ما همه في المقام الأول هو الطريق إليها. قبل زيارته للشيخ الفلاني في بغداد، في طريقه إليه وهو يسير في الأزقة القديمة والضيقة، متثائباً، يسير أمامه دليله، أحد مساعدي الشيخ المعني بالزيارة، يكتب دوس باسوس: "في بغداد، كما في روما، تُنظَّم الزيارات في ساعات الصباح الأولى".

إذن تلك هي بغداد، في النتيجة. ماذا قيل قديماً؟ كل الطرق تؤدي إلى روما. بالنسبة للشاب الأميركي جون دوس باسوس كانت كل الطرق تؤدي إلى بغداد، وإلاّ لما قام برحلته الطويلة والمتعرجة تلك!



٢٨

آنه ماري شفارتزينباخ
رحلات بين الأفيون و... بغداد

على عكس الرحالة الآخرين، الكاتبة والمصورة السويسرية، التي كانت قد بلغت آنذاك للتو الخامسة والعشرين من عمرها، آنه ماري شفارتزينباخ، لم ترَ في بغداد غير محطة عابرة، مكان لا يصلح للإقامة الدائمة، على عكس طهران. صحيح أن الرحيل والعيش مثل مهاجرة حول العالم سحرها منذ نعومة أظفارها، إلا أن الشرق بأجمعه، ربما بصورة طريق الحرير الذي بالتأكيد تخيّلته منذ أن وعت العالم ورأت أباها يملك أحد أكبر مصانع الحرير في العالم، كان قبلتها الأولى، قبل أن يُختصر عندها لاحقاً ويتحول فقط إلى طهران. الوجد، عشق الشرق هذا، أو عشقها اللاحق لطهران، كان وراء رحلات عديدة قامت بها. كلما عادت من رحلة لها، لا تشعر بالراحة إلا بالرحيل من جديد.

الرحلة الأولى التي خططت لها إلى آسيا الصغرى وبلاد فارس (كما أُطلق على إيران حتى عام ١٩٣٤) عام ١٩٣٢، مع أصدقائها الحميمين، كلاوس وأريكا مان اللذين عرفتهما من أيام دراساتها في زيوريخ، والرسام ريكي هالغارتن، لم يوقفها غير انتحار الأخير بإطلاق النار على نفسه قبل يوم واحد من الرحلة! كان يجب أن يمر بعض الوقت على موت هالغارتن لكي يعاود الأصدقاء التفكير بالرحلة مجدداً. تسلّم هتلر السلطة في ٣٠ يناير/ كانون الثاني ١٩٣٣، والذي ستعيشه آنه ماري شفارتزينباخ وهي على فراش المرض، سيربك الحياة العامة والمشهد الأدبي بشكل خاص. كلاوس وأريكا مان



مثلاً شغلهما أمر صعود النازية أكثر من التفكير بالرحيل باتجاه الشرق. وحدها آنه ماري شفارتزينباخ، التي لم تكن في حينه قد نشرت غير روايتين، **أصدقاء حول برنارد** و**الرواية القصيرة الشعرية**، إذا لا نتحدث عن أطروحة الدكتوراة التي انتهت من مناقشتها، وحدها بقيت مخلصة لفكرتها الأولى: الرحيل باتجاه الشرق. كل شيء يشير إلى أن صعود النازيين للسلطة، والمشاكل الشخصية التي واجهتها مع أمها وعائلتها الغنية التي وقفت إلى صف النازيين، عجّلا باتخاذها القرار، بالشروع في رحلتها الأولى إلى الشرق، عدّتها هي بعض الأدبيات التي قرأتها عن الشرق وزيارات لمتاحف في برلين، رحلة ستكون مقدمة لرحلات أخرى باتجاه أفريقيا وأميركا. كأنها عرفت أن البقاء في أوروبا، أو في سويسرا حيث أهلها، سيعني الموت "إبداعياً"، بدل أن يكون موتاً فيزيولوجياً، بالنسبة لها. لا ننسى أن أمها رينه شفارتزينباخ فيلده، التي هي ابنة الجنرال أولريش فيلده الذي خدم في الحرب العالمية الأولى وكلارا بسمارك (ابنة بسمارك وليس غيره!)، وأبوها الذي هو صناعي كبير، وقفا ضدها منذ البداية، ووجدا في نمط الحياة الذي سارت عليه، خاصةً في تعاطيها المخدرات، ما يشكّل وصمة عار بالنسبة للعائلة الفخورة بألمانيتها ونازيتها! هذا يعني أنّ على آنه ماري شفارتزينباخ الكفاح على جبهتين: في الشارع ضد النازيين، وفي البيت ضد العائلة/ الذراع المكمّل للنازيين. استفزاز كبير للفتاة الجميلة والحساسة، في حينه، التي كان عليها الدخول في مواجهات أصلاً حتى مع المحيط الاجتماعي حولها، بسبب ميولها الجنسية المثلية، وهي، مثلما كانت مغامرة وجريئة في رحلاتها، كانت شجاعة بإعلان سحاقيتها على الملأ، الأمر الذي أغضب العائلة تماماً. ربما وجدوا في رحيلها حلاً لهم، لكن حتى في رحيلها لم تكف الفتاة المتمردة عن دسّ أنفها في ما يحدث حولها. سواء عن طريق دعمها صديقيها كلاوس وأريكا مان في تأسيس **التجمع** (ساملونغ)، مجلة مقاومة للفاشية، في فترة إقامتهما منفيين في أمستردام، المجلة لم يصدر منها غير أعداد قليلة، أو سواء عن طريق نشرها المقالات العديدة، التي لم تخلُ من النقد الاجتماعي، أو التلميح لما يحدث في أوروبا من كوارث بسبب صعود النازيين وإعلانهم الحرب على شعوب أوروبا والعالم جميعاً.

عام ونصف تقريباً استمرت رحلتها الأولى، من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٣ حتى نيسان/ أبريل ١٩٣٤. أما الطريق الذي سارت عليه فقد مرّ بتركيا، سوريا، لبنان،



فلسطين، العراق، حتى بلاد فارس، حيث سافرت من هناك إلى العاصمة الأذربيجانية باكو لكي تعود منها إلى أوروبا، ثم لتبدأ بكتابة كتاب رحلتها **شتاء في آسيا الأدنى - يوميات رحلة** الذي سيصدر في خريف العام نفسه عن دار نشر راخير السويسرية. في آب/ أغسطس ١٩٣٤ تستغل رحلتها بصحبة كلاوس مان لحضور مؤتمر الكتاب السوفييت في موسكو، وتذهب من هناك في شهر أيلول/ سبتمبر إلى طهران، حيث ستعقد خطبتها على الدبلوماسي الفرنسي كلود كلاراك الذي شغل منصب السكرتير الثاني للقنصلية الفرنسية في طهران. بعد مشاركتها في أعمال الحفريات الأثرية لبعثة أميركية قريباً من طهران، تعود آنه ماري شفارتزينباخ في كانون الأول/ ديسمبر إلى سويسرا، لتكتشف أنها لا تستطيع البقاء مع عائلتها، خاصةً بعد فضيحة "مطاحن الفلفل"، كما أُطلق على الاعتداء الذي تعرضت له أريكا مان، عندما هاجمتها مجموعة من اليمين المتطرف، بدعم من عائلة آنه ماري شفارتزينباخ، وهي تقدم إحدى حفلاتها اللاذعة على المسرح. العائلة لم تسامح الأخوين مان، خاصةً والدة آنه ماري شفارتزينباخ لم تتوقف لحظة عن الاعتقاد أن كلاوس وأريكا مان هما وراء موقف ابنتهما المعادي للفاشية، مثلما هما السبب في مثليتها الجنسية وتعاطيها المخدرات. لم تترك آنه ماري شفارتزينباخ صديقتها المعادية للفاشية لوحدها، بل كتبت في الصحافة السويسرية متضامنةً معها ومهاجمةً عائلتها بشكل صريح، الأمر الذي جعل علاقتها تتوتر أكثر مع العائلة. وبعد إقامة في المستشفى دامت ثلاثة شهور للشفاء من الإدمان على المخدرات، لم تجد الراحة للبقاء في سويسرا. لا بدّ من الرحيل إذن! لكن إلى أين؟ إذن لتكن الرحلة باتجاه الشرق، وباتجاه طهران بالتحديد!

إنها رحلتها الثالثة إلى طهران. في نيسان/ أبريل ١٩٣٥ تشرع في رحلتها لتصل طهران في ٢١ أيار/ مايو. السبب المعلن للرحلة: الزواج من كلود كلاراك، رغم أن الاثنين، هي وكلود، عُرفا بميولهما الجنسية المثلية. زواج صوري يُمكن القول. نوع من التضامن من قبل كلود كلاراك لكي تستطيع البقاء في طهران التي احتلت قلبها قبل أية مدينة أخرى، أو ربما لكي تستطيع العيش سوية بسلام مع النساء اللواتي أحبتهن في إيران، إذا لم يكن لكي تتحول بهذا الشكل وبصورة أوتوماتيكية إلى مواطنة فرنسية! في صيف هذا العام، حيث تشارك في بعثة أثرية في وادي لار الذي يرتفع ٢٥٠٠ متراً،

ليس بعيداً عن طهران، تكتب أحد أهم وأجمل كتبها، **الوادي السعيد**، الذي تنشد فيه وحدتها وجمال الطبيعة في إيران.

في نهاية عام ١٩٣٥ تعود آنه ماري شفارتزينباخ إلى سويسرا. دائماً تعود، كأنها في صراع مع نفسها، بين المكانين: الهنا والهناك، رغم أن ظرفي المكان هذين يتبادلان المواقع عندها، حتى يختلط عليها الأمر فلا تعرف إذا كان وطنها في هجرتها، في رحيلها الدائم، وإذا كان منفاها الاختياري هو الإقامة حيث العائلة والقوانين والمحيط. بين العيش متضامنةً مع الطبيعة، وبين العيش وسط القلق والواجبات؛ بين تسليم النفس للأفيون، نبتة الشرق الساحرة، وبين تسليم النفس للعقاقير "المخدّرة" في مستشفيات الحضارة، بهدف الشفاء من المخدرات... الدوامة تلك كما يبدو لم تعثر آنه ماري شفارتزينباخ لها على جواب غير مواصلة التأرجح بين المكانين: هنا وهناك. في الشرق/ طهران الأفيون/ الطبيعة، وفي الغرب/ سويسرا العقاقير/ المخدرات. فها هي مرة أخرى، وبعد عودتها مباشرةً، تدخل مصحة برانغينس لكي تشفى من الإدمان. هذه المرة تكاد تنجح، على الأقل بالنسبة لمحيطها. لا مخدرات. لا شرق. كأن المخدرات ارتبطت عندها بالشرق، وليس أنها بدأت بتعاطيها في بداية الثلاثينيات أولاً في برلين، عندما اختارت العيش هناك حتى سفرها إلى الشرق. لا يهم أن المخدر هو مورفين، وليس أفيوناً. وهذه التجربة هي التي جعلتها لا تستطيع التحرر من المخدرات لاحقاً، رغم دخولها المصحات مرات عديدة، لمعالجة الإدمان. أو محاولاتها لمقاومة الرغبة بتعاطي المخدرات عن طريق السفر، ليس إلى الشرق طبعاً، كما فعلت بعد عام ١٩٣٦. ثلاث سنوات تقريباً. لا شرق. هذه المرة رحلات باتجاه أوروبا، إقامة صغيرة على جزيرة مايوركا الإسبانية مع كلاوس وأريكا مان، رحلة إلى أميركا، إلى نيويورك، رحلة إلى ألمانيا، بولندا، وبلدان البلطيق، حيث ستذهب إلى بلاد القوقاز للبحث عن آثار متسلّق الجبال لوريمتز سالادين الذي مات في حادثة تسلّق جبال، لكتابة سيرة حياته، رحلة أخرى إلى جنوب الولايات المتحدة الأميركية. ثلاث سنوات ثرية بكتابة الريبورتاجات والمقالات والكتب، بالتوازي من ذلك، محاولات دائمة للجوء إلى المصح لعلاج نفسها من بقايا المخدرات، كأنها أرادت علاج نفسها من رغبتها التي تلحّ عليها بالذهاب مجدداً باتجاه الشرق، باتجاه طهران، باتجاه الأفيون. هذه المرة تدخل مصح إيفيردون،



حيث ستنتهي من كتابة روايتها الرائعة **موت في بلاد فارس**. وفي المصح هذا بالذات تزورها، من ضمن من زارها، إيلا مايلارت. مع إيلا ستستيقظ عندها الرغبة المشتعلة أبداً عندها: الذهاب إلى الشرق.

مرة أخرى ستعاود المغامرة التي لا تستريح، آنه ماري شفارتزينباخ في رحلة عجيبة هذه المرة باتجاه الشرق، بصحبة كاتبة الرحلات السويسرية إيلا مايلارت، وبسيارة جديدة مزودة بمحرّك قوته ١٨ حصاناً، بسيارة موديل فورد رودستير القوية ستبدأ المرأتان مغامرتهما في ٦ حزيران/ يونيو ١٩٣٩ من مدينة جنيف حتى وصولهما إلى العاصمة الأفغانية كابول في نهاية آب/ أغسطس من نفس العام طبعاً. قد تكون الخلافات والشجارات التي جرت بين رفيقتي الرحلة هي التي عجّلت بعودة آنه ماري شفارتزينباخ إلى سويسرا في نهاية عام ١٩٣٩، لأن إيلا مايلارت لم تخفِ خيبتها من رفيقتها بسبب تعاطيها المخدرات. الرحلة أصلاً ما كانت لتتم لو لم تعد آنه ماري شفارتزينباخ زميلتها بأنها ستمتنع عن تعاطي الأفيون أو أي مخدر آخر. المسافرتان تنفصلان عن بعضهما في شهر تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٩ في أفغانستان، آنه ماري شفارتزينباخ ستذهب للمشاركة في بعثة بحث عن الآثار تحت قيادة الفرنسي جوزيف هاكين عند الحدود الأفغانية التركمانية، فترة غنية حقيقةً من حياتها، العديد من الريبورتاجات والمقالات التي نشرتها في الصحافة نشأت في هذه الفترة. في نهاية كانون الأول/ ديسمبر تغادر أفغانستان، لتلتقي في الهند بإيلا مايلارت. وبسبب اندلاع الحرب العالمية الثانية، التي بدأت في ١ أيلول/ سبتمبر ١٩٣٩ بالهجوم على بولندا واحتلالها من قبل ألمانيا، كان عليها أن تقطع طريقاً معقداً وطويلاً بالعودة، من أفغانستان إلى الهند، ومن هناك بالباخرة إلى عدن جنوب اليمن، ثم عن طريق قناة السويس عادت إلى أوروبا. في رسالة إلى ألفريد كوبلير مؤرخة في ١٩٣٩/١١/٢١ كتبت آنه ماريشفارتزينباخ: "أزمان السلام – الحياة الجانبية... انتهت. أريد أن أعود إلى سويسرا، ليس لكي أدفن نفسي، إنما لكي أساهم بكل ما نسمّيه حياتنا". صحيح أنها كتبت ذلك، لكن من الصعب الاعتقاد أن التحول الدراماتيكي الذي عاشته أوروبا بعد اندلاع الحرب، وسيطرة النازية والفاشية على الجزء الأكبر منها، كان سبباً حاسماً لعودتها. أولاً، لو صحّ ذلك لما سافرت في أيار/ مايو ١٩٤٠ إلى الولايات المتحدة

الأميركية، لكانت بقيت في سويسرا وساهمت على طريقتها بالكفاح ضد الفاشية. صحيح أنها فعلت ذلك في كتابها سويسرا، **البلاد التي لم تأتِ لإطلاق طلقة** (لم يُنشر إلا عام ١٩٨٩) أو كتابة بعض المقالات المتناثرة هنا وهناك، إلا أنها سرعان ما ستتوقف عن ذلك وتبدأ ثانيةً بتعاطي المخدرات، لتمرّ بفترة من الكآبة، أيضاً بتأثير موت الأب في تشرين الثاني/ نوفمبر من ذلك العام. محاولة جديدة للانتحار، تلحقها إقامة في مصحات شفاء في أميركا، حتى إبعادها من هناك. الضغط الذي تتعرض له من الأم بعد عودتها إلى سويسرا من أميركا جعلها تغادر مرةً ثانية، هذه المرة تحاول المساهمة بحصتها بالكفاح ضد النازية والفاشية، على الأقل تظن هي ذلك، ربما كانت جادة بالفعل، خاصةً عندما ذهبت إلى الكونغو البلجيكية في أفريقيا للالتحاق بوحدات جيش الجنرال الفرنسي شارل ديغول المستقلة، ولم تثنِها عن ذلك سوى المصاعب التي واجهتها (كما تصف ذلك في **ساحل الكونغو**، كتابها الذي نُشر أولاً عام ٢٠٠٥)، لكنها، هذه المرة، لا تعود من أفريقيا باتجاه سويسرا، بل ستغادر في آذار/ مارس ١٩٤٢ القارة السوداء باتجاه لشبونة، وتنتقل من هناك إلى مدريد، ثم إلى المغرب، حيث ستلتقي مرة أخرى بزوجها "الجنسي المثلي" كلود كلاراك، في وسط العام تعود إلى سويسرا. وباستثناء الإقامة القصيرة تلك في المغرب، لم تطأ قدما آنه ماري شفارتزينباخ، في السنوات القليلة التي بقيت لها من الحياة، أرض الشرق من جديد، حتى موتها عام ١٩٤٢. كأنها عرفت بأن العودة إلى سويسرا والعيش فيها يعني لها الموت. فها هو الموت يخطفها في مدينتها الصغيرة سيلس، وليس في بلاد فارس أو أفغانستان أو بلاد الأناضول أو في بغداد. حادث بسيط ذلك الذي تعرضت له بالأحرى. لكن لأن كل شيء في حياتها يميل إلى الدراما، فسيسبب وقوعها عن الدراجة في ٦ أيلول/ سبتمبر ١٩٤٢ دخولها في الغيبوبة. أما الطبيب الذي عالجها فلم يفعل غير مضاعفة تلك الدراما، فبدل أن يشفيها من غيوبتها راح يعالجها عن طريق الصدمات الكهربائية، بسبب تقرير قديم خاطئ من طفولتها يقول إنها مصابة بالشيزوفرينيا. أي موت عبثي! لم تمت آنه ماري شفارتزينباخ بسبب تعاطي الأفيون، النبتة الطبيعية الساحرة، ماتت بسبب صدمات كهربائية "حضارية" أعطاها لها طبيب. طهران/ الأفيون/ الحياة. سويسرا/ الصدمات الكهربائية الحضارية/ الموت.

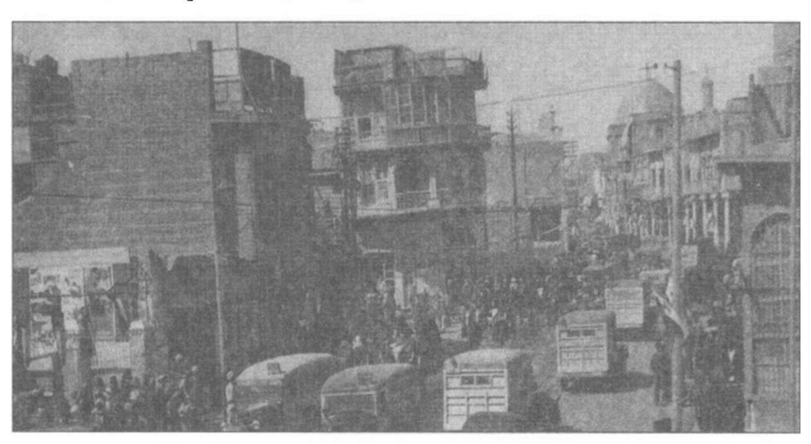


من يتأمل حياة آنه ماري شفارتزينباخ سيجدها رحلة متواصلة، بدايتها الشرق ونهايتها الغرب. صحيح أنها بعد عام ١٩٤٠ قامت برحلات أخرى في أوروبا وأفريقيا وأميركا، إلا أن رحلاتها إلى الشرق شكّلت نقطة الانطلاق لشخصية الكاتبة والإنسانة آنه ماري شفارتزينباخ، التي وصلت إليها خلال السنوات السبع التي دامت فيها رحلاتها إلى الشرق. منذ عام ١٩٣٤ وحتى ١٩٤١ وهي لم تعرف غير الشرق، تذهب إليه ثم تعود منه، ثم لترحل إليه من جديد. كأنها تجرب وتجرب، بإقناع نفسها أنها تنتمي إلى هناك: إلى الشرق، إلى طهران، حيث "الوادي السعيد"! لكي تشعر أنها لا تنتمي إلى أوروبا، أو إلى سويسرا بالذات. وهي حتى إذا كانت اعتادت "ترك الحياة الاعتيادية بصورة مزاجية عند نقطة ما، دون أن تعطي سبباً عقلانياً لذلك"، كما كتبت هي عن نفسها، إلا أن رحلاتها المتعددة والطويلة غالباً، والريبورتاجات والمقالات الخاصة بأدب الرحلات التي ستؤلّفها في رحلاتها تلك، تشكّل علامة فارقة في حياتها، مثلما تمنحنا صورة عن علاقتها أو نظرتها لما تعتقد أنه يوتوبيا، أو أنه واقع ملموس! وإذا كانت هناك أمثلة واضحة، فسنجد الأمثلة هذه في علاقتها ببغداد!

"في نهار اليوم الثاني، قبل الظهيرة، قضيت الوقت في الجامعة العبرية وفي المتحف. أتذكر الحجج التي تفسر العودة إلى فلسطين بصفتها وهماً رومانتيكياً صهيونياً، والتي من الناحية العملية والواقعية لا تملك نقطة صلبة تستند عليها. لكن أي إنسان متحضر يُمكنه أن يرمي نفسه دون تردد في بلد، لنسميه البرازيل، لا تربطه به أية ذكريات، أي أصل، أية ثقافة، أي تاريخ أو أية أساطير، وأية علامة لاسم أو للغة؟"، كتبت آنه ماري شفارتزينباخ في رحلة لها إلى فلسطين، وهي تتحدث عن القضية اليهودية **(شتاء في آسيا الأدنى**، لينوس فيرلاغ ٢٠٠٨، ص٨٢). لكن ألا ينطبق ذلك الكلام عليها؟ ألا تتحدث هنا عن نفسها؟ أليست عوداتها المتكررة إلى الشرق بأجمعه، وطهران بصورة خاصة، هي ليست غير محاولات منها لكي تملك نقطة صلبة تستند عليها، ذكريات، أسطورة، خرافة (ولتكن خرافتها) لكي تشعر بأنها تنتمي إلى هناك؟ ثم ألا يشابه تأرجُحها هذا بين الشرق وأوروبا تأرجَحها بين طهران وبغداد؟ وماذا عن تأرجحها الدائم بين الوهم/ الأفيون وبين الواقع/ الشفاء؟ لأننا إذا استثنينا طهران، قبلتها "الرومانتيكية" (كما وهم العودة اليهودي إلى فلسطين)، فإنها لم تُقم مدة أطول في مدينة ما و لم تكتب عنها بهذه

القوة، وتذكرها في مختلف المناسبات، مثلما أقامت في بغداد وكتبت عنها. في عام ١٩٣٤ بقيت في العراق من ٢٩ كانون الثاني/ يناير حتى بداية آذار/ مارس ١٩٣٤، القسم الأعظم منذ ذلك الوقت قضته في بغداد. أما في مجموعتها القصصية **عند هذا المطر** فتظهر بغداد في خمس قصص قصيرة من مجموع عشر قصص من المجموعة؛ في "المهاجر" و"بنو زينب" و"في الطريق للوطن" و"صبر كثير جداً" و"امرأة وحيدة". وأيضاً في **الوادي السعيد** لا تنسى تذكّر بغداد وهي في خيمتها مع فرقة تنقيب الآثار الفرنسية على أطراف طهران. في الحياة الواقعية، عادت آنه ماري شفارتزينباخ دائماً إلى طهران. في الكتابة، في النصوص، عادت غالباً إلى بغداد. كأن المحطة "العابرة" هذه، بغداد، نافست هدفها المنشود الذي أصبح خلاصة الشرق لها: طهران. لكن، وذلك هو المهم، في كل الأماكن التي جاءت فيها بغداد نعثر على مدينة واقعية لا علاقة لها بوهم أو خيال، وذلك هو الحاسم!

من يقرأ مقالاتها وريبورتاجاتها في رحلاتها للشرق بتمعّن سيكتشف كيف أن عاشقة الشرق هذه حاولت في كل ما كتبته عن بغداد ألاّ تمنح الانطباع يوماً أن بغداد شكّلت لها هاجساً بالفعل! أمر غريب، أليس كذلك؟ فحتى الآن لا نعرف رحّالة أو شخصاً تعلّق بالشرق و لم تشكّل له بغداد المحور الذي تدور عليه أحلامه. ماذا كتب جون دوس باسوس؟ "أسماء المدن التي لم أزرها كلها تطنّ حول أذني مثل البعوض، كابول، حرّات، خراسان، أصفهان، شيراز. على عكس بغداد التي لا يمكن مساواتها



شارع الرشيد، باب الآغا، عام 1937.



بذلك أبداً"، ثم "آخ، هذه الليالي العربية الملونة بلون البونبون... والسيدات في الحريم كانت تعرف ما تلبس في بغداد الشرق في الماضي"، وحدها آنه ماري شفارتزنباخ لا شيء من ذلك، بغداد مجرد محطة عابرة، لا تختلف في أهميتها عن مدن الشرق الأخرى. ولكي تمنح هذا الانطباع، لكي تستطيع إبعاد بغداد "السحر" عنها، تلجأ للمبالغة في وصف "واقعية" بغداد، تركّز على اليومي منها.

في رحلتها الأولى مثلاً، وفي مقالها المنشور في الصحيفة السويسرية **ناسيونال تزايتوغ** بتاريخ ٢ أيار/ مايو ١٩٣٤، تكتفي بوصف الشارع الجديد من المدينة (شارع الرشيد)، وضواحي المدينة، لا شيء شخصي، لا انطباعات شخصية جداً ولا تهويمات. تحدثنا المؤلفة مثلاً عن تاريخ شارع الرشيد، كيف أن الأتراك هم الذين وضعوا الحجر الأساس له خلال الحرب العالمية الأولى، وكيف أنه "اليوم مبلّط - قبل سنوات قليلة كان من الممكن أن يتحول وتحت مطر غزير إلى فراش طيني بلا قرار كما هي أغلبية شوارع بغداد اليوم". ثم تروي بعض الطرائف التي يتداولها الناس عن الشارع، كيف "أن عربة كاملة يجرها حصانان اختفت تماماً ذات يوم ودون أن تترك أي أثر في شارع من هذا الطراز"! ثم تصف المحلات والأزقة في هذا الشارع الذي، بالنسبة لها، لا يملك أي شبه مع شارع رئيسي ما آخر، تعرفه. "محل يزاحم محلاً، دار تزاحم داراً، وعند زوايا الشوارع يجلس طباخون جوالون، يوقدون بعناية ناراً من الفحم، يبيعون للمارة قطع لحم، بيضاً مطبوخاً وشوندراً أحمر. رجال الشرطة يعتمرون قبعات ويضعون مناديل رقبة ويقفون تحت مظلات دائرية بسبب الشمس". المترو غير موجود في بغداد، "لكن باصات صغيرة لا تُحصى، والتي هي عبارة عن عربات رجراجة من معدن وخشب". الباصات هذه تسير على خطوط معينة، لكن إذا امتلك المرء الرغبة للذهاب إلى مكان معين فسيقول السائق "زين" - هذا يعني "جيد" -، ويغيّر طريقه، حتى لو كان المكان يقع في النهاية الأخرى من المدينة. "بعض الأحيان يلاحظ ذلك المسافرون الآخرون"، فيقفزون من مقاعدهم ويصيحون: "ماذا جرى؟ نحن نريد إلى الباب الجنوبي..." لكن لبرهة ويتفق المرء على "الطريق الملتوي الصغير" و"الناس يهدأون مجدداً. إنهم يملكون طوال اليوم الوقت". صورة واقعية لبساطة الحياة في بغداد تلك التي تنقلها آنه ماري شفارتزنباخ. ولكي تمنح ريبورتاجها واقعية تستخدم بعض الكلمات العراقية الدارجة،

كما في حديثها عن العربات الصغيرة التي تستند على عجلتين مشدودتين وتُدفع بعجالة عبر أزقة المدينة من الصباح حتى المساء، "عَرَبانات" هكذا تترك الكلمة على حالها. الأمر ذاته فعلته مع كلمة "حمّال"، أولئك الأشخاص الذين ينقلون البضاعة على ظهورهم في البازار. لنقرأ وصفها للبازار: "توقف القرون يسيطر طبعاً قبل كل شيء في السوق وفي كل حي من أحياء البازار. الأسواق مظلمة وباردة، والمرء يضيع فيها كما لو أنه يسير في متاهة. تجار الصوف، تجار الحرير، تجار الفرو يحصلون على بضاعتهم من بلاد فارس، حيث لا يزال المرء يصيد النمور والفهود، تجار الحرير يمدحون خامهم القادم من اليابان بأسعار زهيدة جداً. عند أطراف البازار تجد أزقة الحرفيين (الصناع اليدويون): زقاق الخياطين، زقاق لتجار الجلد، زقاق لصياغ الفضة. الخياطون جميعهم تقريباً هنود، صاغة الفضة هم يهود أو مسيحيون من نواحي الموصل. يوجد أيضاً 'شارع بنوك' حيث مكاتب البنك الأنغلوفارسي والبنك العثماني، وحيث الصرافون اليهود يجلسون على الرصيف ويقلبون عملتهم الفضية. المقاهي في هذا الشارع هي مكان بورصة بغداد - هنا يلتقي الفرس بمظلاتهم السوداء ومعاطفهم الصفراء المصنوعة من صوف الأغنام، والأرمن واليهود، الشباب العرب 'الأفندية' في بدلات أوروبية سيئة، و، مفتخرين بمعاطف طويلة وكوفيات بيضاء، يختلط معهم في المقايضة العالية الضجيج بعض من البدو الأغنياء. الصراخ في هذا الشارع أمر مرعب، وكم يودّ المرء أن ينقذ نفسه عن طريق أحد الأزقة الجانبية الضيقة عند ضفاف النهر، حيث ترسو قوارب الحمولة الكبيرة وحيث كَرَفانات الحمير الصغيرة تجلب الحمولة من المدينة. هنا يجلس عتّالو السفن والحمّالون على أرض رطبة، عند نار منقلة تشوي أسياخ لحم خروف على النار. الحمالون هم حمالو الأثقال في بغداد، أغلبهم أكراد، أكثر سكان بغداد فقراً. شعرهم نصف طويل، ويصبغونه مثل البدو بالحنّاء، ليس لديهم ملابس أخرى غير قميص قصير وعباءة ممزقة، ويجرون على سروج حمولتهم والتي ثقلها أصلاً لثلاثة. المرء يلتقي بهم في الشوارع: بالسيقان الملتوية، الجسم العلوي تقريباً مرمي إلى الأمام، وبشريط من الصوف على الجبهة، يساعد على توزيع الثقل - هكذا يهرولون سابحين بالعرق، بصورة عمياء، ودائماً في خطر، بأن يدهسوا من الباصات الصغيرة ومن العربات".

صورة واقعية لبساطة الحياة في بغداد تلك التي تنقلها، لا شيء يغري في البقاء،



ليس في ريبورتاجها هذا وحسب، بل نجد الصورة نفسها في **شتاء في آسيا الأدنى**، الذي هو كتاب يوميات لإحدى رحلاتها إلى الشرق. طبعاً تعرف هي تاريخ بغداد، "المدينة القديمة بغداد، التي بناها الخليفة المنصور، كانت مدورة مثل حصن، وفي وسطها يقع قصر خليفة العباسيين"، وكيف أنها تحطمت في القرن الثالث عشر على يد المغولي هولاكو، وكيف أن حتى المدينة التي بُنيت على أنقاضها أُحرقت "في اجتياح منغولي ثانٍ من قبل تيمورلنك"، و"خُرِّبت السدود والقنوات الخاصة بنظام الري السائد في ذلك الوقت – كل محيط المدينة، حدائقها المدهشة، الحقول وبساتين الفواكه تحولت إلى صحراء". أما المدينة اللاحقة بغداد فكانت "مدينة فقيرة، حروب كثيرة، تخريب من قبل الفرس والأتراك، وأخيراً الحرب العالمية، فعلوا كل ما في وسعهم لكي لا تتعافى المدينة وألا تستعيد فخامتها السابقة مرة أخرى". وحتى عندما تأتي على الإنكليز الذين أصبحوا سادة المدينة لا تخفي خيبتها، "على عكس ما توقع المرء، لم يغيّر الإنكليز أيضاً إلا القليل في بغداد. بلا شك فعلوا الكثير للمدينة، إلا أنهم لم يأخذوا شيئاً من طرازها الشرقي – ومنذ موت فيصل لم يعودوا يظهرون إلى الواجهة، أقل مما كانوا يفعلونه حتى الآن. طبعاً عندهم 'نواديـ'هم، أماكن لعبهم للغولف، وقطيع صغير – إنهم يركبون خيولهم كل يوم سبت للصيد 'رقصـ'هم – لكنهم يفعلون كل ذلك فيما بينهم. – دمشق وبيروت مليئة بوحدات الجيش الفرنسي – في بغداد لا يلتقي المرء بأي جندي إنكليزي، عدا الآشوريين الذين يقفون حراسة أمام بيت آمر 'القوة الجوية'. أكبر معسكر للطيران الإنكليزي يقع خارجاً في الهندية، ستة أميال عن بغداد – في وقت قصير سيُنقل إلى الصحراء خارجاً، حيث يكون أقل لفتاً للنظر"، خيبة وراء خيبة، دائماً الصورة ذاتها عن بغداد، فقط خرائب، ترامويات مليئة بالذكور، ضواحٍ قذرة، بؤس الوضع، فقر المدينة وقبحها. بل وحتى عندما تأتي على سكانها، لا تنسى أن تخفي خيبتها، ليس فقط من الشيعة الذين شكلوا الأغلبية من سكان العراق "في العراق يوجد شيعة أكثر من السنّة، مليون ونصف حقيقة"، وهم "أعداء التقدم، ويكرهون ليس كل ما هو أوروبي وحسب إنما كل شيء، كل ما يشير إلى التغيير والحركة، لأن دينهم يطلب العودة الأبدية للماضي، الشكوى غير المثمرة ووضع العداء والانغلاق"، حتى إنها تلاحظ أنْ "ليس هناك في دين الشيعة المكفهرّ يوم واحد للفرح، لكن بالمقابل مناسبات لا تحصى

للتكفير عن الإثم وشهر محرم المرعب بألعاب معاناته ومواكبه المنتشية جداً. اليوم يدور مؤمنون تعساء ويضربون أنفسهم بالزناجيل حتى إسالة الدماء". ليس الشيعة وحدهم أعداء للتقدم بالنسبة لها، بل "اليوم بغداد هي مكان ملكي، لكن الدولة العراقية لا تملك الوسائل لتحويلها إلى عاصمة غربية، كما فعل الأتراك مع أنقرة. ربما لا يملك المرء الرغبة - إنجازات الحضارة الغربية لا تحتل هنا مكانة عالية كما في تركيا، ويعتقد أصحاب الرأي أن تكيفاً مفاجئاً على كل المستويات سيكون ظاهرياً فقط سيجلب الأضرار للشعب. عندما وصل إلى علم الناس أن الملك فيصل لبس في رحلته الأخيرة الملابس الأوربية وغطى رأسه بغطاء أوروبي، قالوا في السوق إنه وقع تحت تأثير الإنكليز"، كما كتبت في ريبورتاجها للناسيونال **تزايتونغ** عن بغداد.

تلك الأمثلة وغيرها كثير تبيّن نظرة آنه ماري شفارتزينباخ للعراق، ولبغداد خاصة. وهي في كل ما كتبته في وصف الحياة والطبيعة والناس هناك بدت كما لو أنها بحثت، تأييداً للمعاناة، لما نوت عليه: نزع الأسطورة عن بغداد، لذلك اصطادت زمنها اللحظوي وحسب. وإذا حدث ووقعت في حبائل "سحر" بغداد، فإن الأمر لن يدوم طويلاً. لنقرأ ما كتبته مرة: "كنا قد وصلنا الفرات المتلألئ، لنقفز باتجاه فيضانات دجلة المتعكرة، الطائرة تميل إلى جانب، هناك في العمق قبتا الكاظمين في شمس الصباح... أسماء ساحرة، نظرات ساحرة، آلاف المعجزات (السحر)..."، لحظة "ساحرة"، استثنائية بالأحرى، لا تتكرر في علاقتها ببغداد، أمر مدهش أن تثير فيها المدينة كل هذا الوجد، ربما لأنها رأتها من جلستها في الطائرة المحلقة بها، من فوق، لكن حتى هنا تصحو آنه ماري شفارتزينباخ "الواقعية"، لتقفز مثلما قفزت الطائرة في تحليقها من نهر الفرات إلى نهر دجلة، تقفز باتجاه جبال إيران. تكتب، مباشرةً بعد وصفها قبتَي الكاظمين المتمعتين تحت شمس الصباح، كيف أنها صعدت على قمة معبر سلسلة جبال بياتاك، سلسلة جبال ضخمة ومعتمة، بداية بلاد فارس/ إيران" (**الوادي السعيد،** لينوس ٢٠٠٦، ص٥٧).

السؤال الذي يواجهنا هو: إذا كانت بغداد فقدت سحرها عندها، لماذا زارتها أصلاً؟ هل بحثت عن تأييد؟ دائماً تأتي من جديد. ثلاث مرات زارت فيها بغداد، مرة أقامت فيها خمسة أسابيع. تصل بغداد في شهر كانون الثاني/ يناير وتغادرها (باتجاه



طهران طبعاً) في ٤ آذار/ مارس ١٩٣٤، لكن حتى في هذه المرة، التي ربما حاولت فيها إجبار نفسها على البقاء، غادرت المدينة بسرعة باتجاه طهران، مثل من يلبّي نداءً داخلياً لا يستطيع منه فكاكاً. نداء داخلي؟ وماذا سيكون في حالتها غير أن يكون نداء الأفيون؟ آنه ماري شفارتزينباخ بحثت عن اليوتوبيا، وبدل أن تعثر عليها في أماكن الشرق عثرت عليها في الأفيون؛ في أفيون طهران بالأحرى، قبل أن ينافسه لاحقاً، ولو لمرة واحدة، أفيون أفغانستان. بغداد هي الواقع. أما الأسطورة، **ألف ليلة وليلة**، فانزاحت باتجاه طهران. ليس طهران المدينة طبعاً، بل طهران الأفيون!

٢٩

ماكس فريش
عندما تكون المدينة بديلاً عن النساء

حتى الآن كانت بالنسبة له النساء هي الملاذ الذي يهرب إليه. فلماذا لا يغيّر البوصلة هذه المرة؟ لماذا لا تكون في المرة هذه بغداد؟ لا أظن أن ماكس فريش، الكاتب السويسري المولود في ١٥ أيار/ مايو ١٩١١م، في زيوريخ، كان قد قرأ **قطار الشرق السريع** لجون دوس باسوس، الصادر بالإنكليزية عام ١٩٢٧، في لندن ونيويورك، لكي يقوم، وبعد ثلاثة عقود من رحلة الروائي الأميركي الشاب، برحلة هي الأخرى طويلة ومتعرجة، قبل أن يصل إلى هدفه المنشود: بغداد. لكن متى كان ذلك ضرورياً؟ الكتّاب هم أصلاً جوّالو آفاق، مثلما هم جوّالو كلمات. فريش نفسه يعرف ذلك، "إنه في النهاية قدر مهنتي، أنني أستطيع أن أكون متشرداً"، كما كتب على بطاقة لأمه أرسلها لها في الطريق.

كان عمر فريش، الروائي والمسرحي السويسري، ٤٦ عاماً، وكان قد انتهى للتو من كتابة ما سيصبح أحد أشهر كتبه، **هومو فابر**، عندما قرر الذهاب إلى بغداد. في ٣١ تموز/ يوليو ١٩٥٧ كتب فريش إلى صديقه وناشره، بيتر سوركامب، يخبره كيف أنه عاش أسبوعين شاقين جداً، بسبب الموعد المحدد لتسليم الرواية هذه، وليس غيرها، التي ستجعله يحتل مكاناً مرموقاً في الأدب العالمي، لكن ليس ذلك هو المهم، إنما المهم بالنسبة له هو أن يخبره أن طبيباً نمساوياً، يدير مستشفىً للأطفال في بغداد، طلب منه



أن يذهب معه إلى بغداد. "لقد وافقت على الفور. هروب؟"، يكتب فريش لصديقه سوركامب متسائلاً.

من يتابع حياة ماكس فريش لن يستغرب أنه كتب ذلك. حياته كلها هروب، على الأقل حتى الآن، أو خاصةً بعد انفصاله عن زوجته ومعها أطفالهما الثلاثة قبل ثلاث سنوات من رحلته تلك. سواء في فترة زواجه تلك، أم في الفترة التي لحقت، لم يستقر فريش في علاقة ثابتة. علاقات عابرة. ما أن يدخل في علاقة حتى يهرب منها إلى علاقة جديدة. جملته المشهورة التي كتبها لصديقته، وله من العمر ثلاثة وعشرون عاماً، تقول: "أنا أؤمن بقوة الحب وعدم الإخلاص". صحيح أن عدم الإخلاص للنساء يوازيه عدم إخلاص للمكان أيضاً. ففي النهاية، باستثناء شريكته في المواطنة آنه ماري شفارتزينباخ، لا أظن أن هناك كاتباً فاق فريش في تنقلاته، لكن الشرق أو بغداد اسمان ظهرا فجأةً في قاموس فريش: مع كتابة روايته **هومو فابر** أولاً. ثم إنه، وعلى عكس العديد من الكتّاب في العالم، لم يذهب إلى الشرق في عمر الشباب. لنقارن: جون دوس باسوس كان لا يزال شاباً، في السادسة والعشرين من العمر، عندما بدأ رحلته الطويلة عبر الشرق والقوقاز ثم إلى بغداد، أما شريكته بالمواطنة، آنه ماري شفارتزينباخ، فكانت في الخامسة والعشرين من عمرها عندما بدأت أول رحلة لها إلى الشرق، على عكس ماكس فريش، الذي كان دخل السادسة والأربعين من عمره عندما قادته بوصلة الروح باتجاه الشرق.

قد يبدو اليوم ذلك ليس مهماً، لكننا نتحدث عن عام ١٩٥٧، عندما كان الشرق لا يزال عالماً غامضاً، يعرفه الأوروبيون من قصص **ألف ليلة وليلة فقط**، إذا لا نتحدث عن مغامرة السفر بسيارة، كما فعل فريش، رغم أن الطرق كانت غير معبّدة مثلما هي الحال عليه اليوم. السفر بالسيارة كيلومترات طويلة هو مغامرة بحدّ ذاته. ذلك ما يُفسّر ردّ فعل صديقه وناشره سوركامب. "أنا مستغرب ومرتعب"، كتب له وهو لا يخفي قلقه وعدم راحته لقرار فريش. ولو كان سوركامب قرأ مسبقاً المخطوطة التي سلّمها له فريش لما أثارت الرحلة عنده الاستغراب. فالتر، أو هومو فابر، بطل رواية فريش، يهرب من صديقته هانه، أيضاً إلى بغداد، بحجة تكليف شركة "أشير ويس" السويسرية المختصة ببناء المكائن والمحركات له بالذهاب إلى هناك. فابر يهرب من مسؤوليته إزاء هانه، التي حملت منه، رغم أن مسؤوليته الأخلاقية حتّمت عليه الزواج منها، على الأقل لأنها نصف يهودية،

ألمانية هاربة من بطش النازيين، لجأت إلى زيوريخ، مصيرها غير معروف، بلا إقامة ووظيفة وحامل، والزواج من سويسري مثله كان الحل الأمثل لترتيب وضعها. بدل ذلك يذهب إلى بغداد. فلماذا لا يسير على خطاه مدمن الهروب، فريش؟

طبعاً لا يستطيع سوركامب ثني فريش عن الرحلة، مثلما لم تستطع هانه ثني صديقها فابر عن الرحلة، لكنه على الأقل يتساءل: لماذا بغداد؟ نعم، يعرف توق كاتبه وصديقه للحرية ولمعرفة ناس آخرين، لكن لماذا هذا القرار المفاجئ وبشكل بارد؟ لماذا هذه اللامبالاة، عدم الشعور بالمسؤولية، تجاه الآخرين؟ إن ليس تجاه صديقه وناشره، فعلى الأقل تجاه أمه التي لم تخفِ قلقها عليه منذ أن فقد أباه الذي توفي مبكراً؟ حتى الآن تنقل من مكان إلى آخر. ثم إن كل تلك الأماكن هي أماكن إقامة بديلة، حتى إذا كانت إقامة مؤقتة. لكن حتى ذلك التاريخ لم يكن فريش قد قام برحلة شبيهه في حياته: لا قبلها، ولا بعدها.

في ٢٢ آب/ أغسطس ١٩٥٧ تبدأ الرحلة الجديدة والفريدة من نوعها في حياة فريش، من بلينزونا في سويسرا، حيث يلتقي فريش الطبيب وزوجته، رفيقَي الرحلة، اللذين نعرف أنهما سيقودان السيارة، لأن فريش لم يكن يملك في حينه إجازة قيادة. لا يبوح فريش باسميهما الصريحين، يكتفي بالرمز لأحدهما، الزوج، بحرف (ب). الطريق الذي ستسلكه الرحلة، والانطباعات التي سيمرّ بها فريش، والأحاديث التي دارت بينه وبين رفيقيه اللذين لا نعرف أيضاً أية علاقة جمعتهما بفريش غير الإشارة إلى أن الطبيب صديقه، كل ذلك سنعثر على أغلبه في البطاقات البريدية التي بعثها إلى أمه وهو في الطريق. الباقي في دفتر ملاحظات صغير يحمل عنوان "رحلة إلى بغداد" يمكن العثور عليه في أرشيف فريش في زيوريخ.

هكذا نعرف أنهم قطعوا آلاف الكيلومترات، مروا في شوارع سيئة، ناموا في الطريق، كان عليهم تبديل إطارات السيارة أو تصليحها في بعض الأحيان، سوء الجو داخل السيارة بين رفاق الرحلة، ب يلجأ للصمت، حتى الآن محادثات قليلة، أمر يزعج فريش جداً، لكنه رغم ذلك يواصل الرحلة. كانوا لا يزالون في نيش، في يوغسلافيا، وكان بإمكانه أن يقول لصديقه ب وداعاً، أن يعود أدراجه، إذا كان أزعجه الجو السائد في السيارة، خاصةً وأنه يعرف أن أمامهم ما زالت آلاف الكيلومترات، وطريق صعب، غير مريح، لكنه لم يفعل ذلك، كأن عليه مواصلة الرحلة، أو كأن الصعوبات تلك هي



تأكيد للمغامرة التي بدأ بها. التغلب على الصعاب يجعله يشعر بالراحة أكثر. ها هم يقطعون جبال صربيا ومقدونيا، ويرون فضاءً واسعاً أمامهم، الريف اليوناني ببيوته البيضاء وأبوابها المطلية بلون اللازورد. بعد سالونيكي، المدينة الحدودية لتركيا، وبعد الاستحمام في البحر، يشعر رفاق الرحلة جميعهم بالراحة، التوتر ينتهي، حتى أنهم يبدأون بمخاطبة بعضهم بدون ضمير المخاطبة الجمع ("حضرتكم" في اللغة العربية)، بعد ذلك تأخذ الرحلة إيقاعاً آخراً، كل شيء يجري بسرعة، فها هم في الشرق، وها هم يقتربون من هدفهم بغداد. والغريب أنهم بدل أن يسيروا في سيارتهم باتجاه الحدود العراقية، باتجاه بغداد، قرروا اختيار طريق آخر يقطعون به تركيا. ساروا باتجاه الحدود السورية. وحتى في سوريا لم يقرروا الذهاب شرقاً أو جنوب شرق باتجاه بغداد، بل قرروا الذهاب جنوب غرب، باتجاه العاصمة اللبنانية بيروت، ومنها إلى دمشق، ثم إلى عمان، من هناك إلى القدس، ثم العودة من جديد إلى عمّان، ليسيروا هذه المرة، وبعد تصليح السيارة بسبب عطل في الفرامل، مباشرةً إلى بغداد.

باستثناء القدس ربما، والتي سيبقون فيها أطول من باقي إقامتهم في المحطات الأخرى، لم تجد أغلب المدن التي مرّوا بها طريقها إلى دفتر ملاحظات فريش. وهو يعترف لصديقه وناشره سوركامب كيف أن القدس (اليوم) تركت عنده الانطباع الأقوى، عكس بيروت، "باريس الشرق الأوسط"، التي لم تترك عنده ولو القليل من الانطباع. كل ما كتبه عنها أنهم بعد رحلة جميلة على الطريق الساحلي وصلوا أخيراً إلى بيروت، وأنهم تناولوا وجبة العشاء مع النبيذ، وكيف أنه سيمرض في اليوم الثاني، في المعدة. ذلك كل ما نعرفه من تجربة الرحلة تلك، كأنه ظل أميناً لنفسه قبل أن يكون أميناً لأمه التي عندما سألته عن حاله، في برقية بعثها لها من القدس، أخبرها أنه سيكتب لها مفصلاً عندما يصلون إلى بغداد.

كل شيء سيتغير عندما يصلون إلى بغداد. هكذا ظن فريش، وهذا ما بدأ يشعر به مباشرةً حتى قبل عبورهم الحدود العراقية ودخولهم العراق. ٨٠٠ كيلومتر هي المسافة بين عمّان وبغداد، أغلبها صحراء مشتعلة باتجاه العراق. درجة حرارة بحرارة الجمر، الجو المسيطر في السيارة لا يختلف عن الجو في الشارع. عند استراحة على الطريق ووسط الحر يلمس فريش معدن السيارة. إنه يحترق تحت لهيب الشمس. لكن لا حرارة

حارقة تزعج؛ لا غبار. كيف سيكون ذلك والطريق ينبسط أكثر أمامهم ليقول لهم: ها أنتم على أبواب وادي الرافدين، ميزوبوتاميا، الأرض الواقعة بين دجلة والفرات، ها هي بغداد أخيراً تلوح في الأفق، ها هي المدينة التي كانت مدينة الخلافة ذات يوم، مدينة ألف ليلة وليلة، وهدف الرحلة المنشود. ومباشرةً ما إن يصلوا هناك، لا يكادون يصدقون ذلك، كأنهم قاموا برحلة عابرة للتاريخ، لا بدّ وأن يتم كل شيء بسرعة، تناولهم العشاء، ثم ذهابهم المبكر إلى الفراش، هذه المرة النوم على سطح الفندق. تجربة أولى له، لكن التجربة الأقوى منها: هي النهوض مبكراً والذهاب عبر شوارع وأزقة وأسواق بغداد. فريش نفسه لا يصدق ذلك، بأنه أخيراً وصل إلى هناك! الغريب أنه، بدل أن يتجول في اليوم الثاني في بغداد، يذهب ومعه رفيقاه ٩٠ كيلومتراً جنوب غرب بغداد، إلى بابل. كأنه حتى وهو في بغداد يؤجّل لقائه بها، مثل عاشق يحمل في جيبه رسالة حب ولا يريد أن يفتحها، لكي لا يصبح ما سيقرأه من كلمات جزءاً من الماضي.

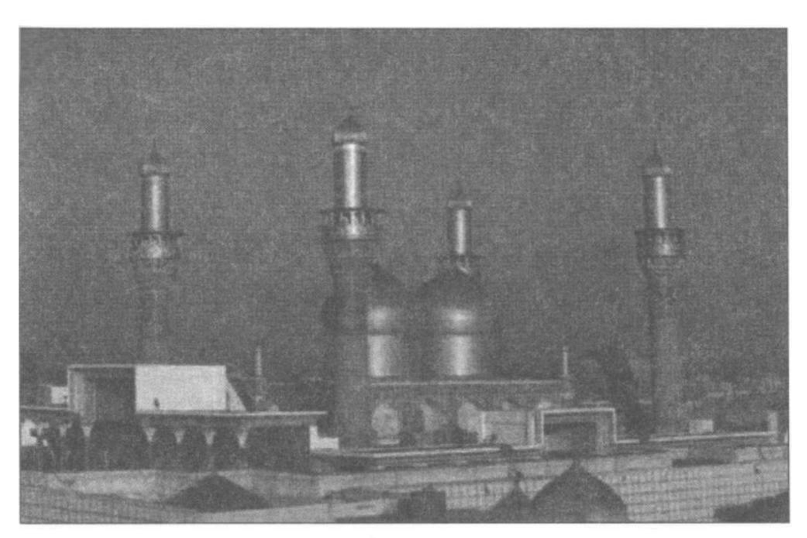
حتى بابل لا تجد طريقها بما تستحقه في دفتر ملاحظاته. فالمدينة التي وصفها المؤرّخ الإغريقي هيرودوت بأنها ليست "أشهر وأقوى مدينة، إنما هي أيضاً أجمل مدينة بين كل المدن التي نعرفها"؛ أو المدينة التي أراد البشر فيها بناء برج يلامس السماء، "برج بابل"، لكي يكونوا بموازاة الإله؛ المدينة التي رمزت في العهد القديم بصفتها مدينة الإثم والتكبّر، لكن أيضاً المدينة التي بُنيت على أرضها الجنائن المعلّقة، إحدى عجائب العالم السبع التي خلّدها التاريخ، المدينة الأسطورية هذه التي هرب إليها فريش في اليوم الثاني من وصوله بغداد، لم تترك انطباعاً قوياً عنده، كل ما نعرفه: "ويسكي على ضفاف الفرات، القمر، نخل، نواعير سقي تديرها خيول، النهر، سفينة، واحة". لا شيء من بابل الأسطورية تلك!

لكن ماذا عن بغداد؟ فبعد العودة من بابل، لم يعد هناك مفرّ أمام فريش. لا بدّ من مواجهة المكان الذي "هرب" إليه: بغداد. ولا ندري إذا كان السبب هو درجات الحرارة المرتفعة في ذلك الفصل من السنة، والتي تصل حتى الخمسين درجة مئوية، أم هي الخيبة التي استحوذت على "الهارب" فريش وجعلته أشبه بمشلول عن الحركة؟ "كل يوم هذه الحرارة العالية، الظهيرة الحارة، النوم حتى التصبب عرقاً..."، يكتب فريش، دون أن يقول لنا لماذا اختار الذهاب إلى بغداد في فصل الصيف، بل وفي أشد أيامه حرارةً؟ كما أن بغداد ليست المتحف العراقي فقط، الذي سيزوره فريش ورفيقاه،

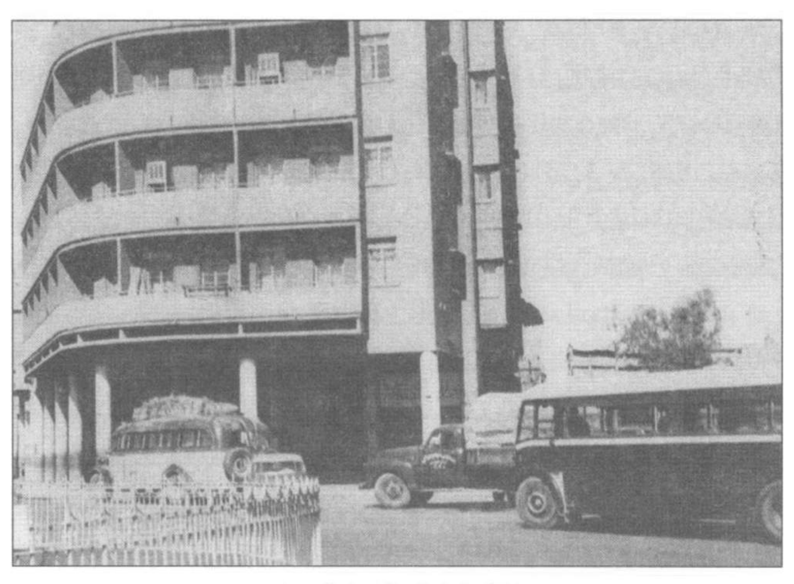


وحيث سيرى بنفسه "المخطوطات الأولى في تاريخ البشرية"، والحلي والأختام، كما كتب فريش في دفتر ملاحظاته، مثلما هي ليست فقط مسجد الكاظمين، الذي يصفه فريش في دفتر ملاحظاته بـ"المسجد الذهبي" بكل ما للكلمة من معنى، يلمع بقببه ومناراته التي تشعّ ذهباً. صحيح أن المتحف الوطني يحوي على كل ما يؤرّخ لتاريخ الحضارة الإنسانية التي بدأت في وادي الرافدين، ابتداءً من الألواح الطينية التي يعود تاريخها إلى ٣٥٠٠ قبل الميلاد، والتي كتب الناس عليها النصوص اللغوية الأولى على شكل صور وإشارات، وانتهاءً بالأختام التي رأى فيها فريش أنها بمثابة "كتاب صور قديم": أسطوانات حجرية يحوي أغلبها على نصوص منقوشة بمهارة فنية، أريد منها أن تكون أختاماً في المعاملات الرسمية أو للاستهلاك فقط. نقول: صحيح أن المتحف الوطني لفت نظر فريش، مثلما فعل جامع الكاظمين، لكن بغداد التاريخية، بغداد التي كانت ذات يوم العاصمة التاريخية للعالم الإسلامي، خاصةً في زمن هارون الرشيد، الذي يعرفه الغربيون من **ألف ليلة وليلة**، ومن العلاقة الدبلوماسية والتجارية والصداقية التي ربطته بالملك شارلمان (كارل الكبير، وكان حينها في مدينة آخن الألمانية)، حتى إنه أهداه، عام ٩٠٢م، فيلاً تعبيراً عن تفاهمهما، "الخليفة والقيصر عمودان للعالم" رغم اختلافهما في الدين، بغداد التاريخية في القرن التاسع الميلادي، التي ازدهرت فيها العلوم والفلسفة والفنون، بغداد هذه، كما يبدو، لم تهمّ ماكس فريش كثيراً. ، خاصةً وأنها حوت في ذلك الوقت على ما يكفي من الآثار القديمة، بل لم يهمّه حتى التساؤل عمّا لم يعد موجوداً من تلك الآثار، أو من بقايا البهاء التاريخي القديم. وحسب دفتر ملاحظاته - اعتمدنا عليه هنا - لا نكتشف أي عطش عنده للتعرّف على بغداد التي جاء إليها، بعد تحمّل المغامرة تلك، بعد آلاف الكيلومترات التي قطعها. حسناً، زيارة مستشفى للمعوقين من الأطفال هي قضية إنسانية، وما كان فريش قام بذلك لو لم يكن ذلك المستشفى يعود للطبيب النمساوي، عرّاب الرحلة. أما منح الحيز الأكبر من الملاحظات للكتابة عن بغداد، كمكان للحفلات وسهرات شرب الكوكتيل، فيجب ألاّ يكون سبباً لتحمّل رحلة بكل هذا العناء! لنلاحظ: بعد زيارة مسجد الكاظمين مباشرةً يكتب فريش عن حفلة عند جوس... ويسكي ومشروبات أخرى وسهرة حتى ساعات متأخرة من الليل.





القباب الذهبية في الكاظمية.



ساحة الرصافي في شارع الرشيد في الخمسينيات.



إحدى أولى الروايات التي قرأتها في اللغة الألمانية بعد وصولي هامبورغ كانت رواية **شتيلير** لماكس فريش، وكان ذلك عام ١٩٨٢. على ما أتذكر، سحرتني الرواية، وأذهلني فيها، في المقام الأول، هذا الإصرار العجيب عند بطله شتيلير على الهروب. الهروب ليس من المكان وحسب، بل من نفسه أيضاً. ولو كنت قرأت قبل هذه الرواية رواية فريش الأخرى، **هومو فابر**، التي للأسف لم أقرأها إلا لاحقاً، لما أذهلتني فكرة الهروب التي حوتها، لأن الهروب ولاحقاً الخوف هما العمودان اللذان بنا عليهما فريش رواياته ومسرحياته. كل ما يحدث في العالم الخارجي هو من أجل خدمة هذين الاثنين؛ هو محاولة لمواجهتهما. وكلما كبر الموضوع الذي هرب إليه فريش، كلما شعر بخوف قليل، إن لم يشعر أنه فقط بهذا الشكل يعيش. من يقرأ دفتر ملاحظات فريش عن "رحلة إلى بغداد" سيخيب ظنه بالتأكيد، لأن ما تركه فريش من ملاحظات لا يرقى إلى مستوى المغامرة التي قام بها. والأكثر غرابةً من ذلك أنه، وعلى عكس العديد من الكتّاب الذين ذهبوا إلى الشرق، لم ينشر أو يترك كتاباً وراءه عن تلك الرحلة.

في روايته **هومو فابر** يتحدث فريش عن الخوف الذي يلاحق بطله و"يصطاده من مكان إلى آخر". هومو فابر، البطل العقلاني في رواية فريش، تسحقه الأحداث غير العقلانية في حياته، حتى تجعله ينهار. وفريش؟ ألم يجرب الهروب، مثل بطله، العديد من المرات؟ أليست تلك الوسيلة الوحيدة لتجنب الانهيار، إن لم تكن الوحيدة لتجنب الانتحار؟ حتى الآن كانت النساء هي الملاذ الذي يهرب إليه، فلماذا لا يغير هذه المرة البوصلة؟ لماذا لا تكون ملاذه هذه المرة بغداد؟ ٧ مرات تُذكر بغداد في رواية **هومو فابر**. المرة الأخيرة في الصفحة ٢٠١ (الصفحة قبل الأخيرة). كأن المهندس المعماري سابقاً، والروائي لاحقاً، ماكس فريش القادم أيضاً مثل بطله من زيوريخ، هيّأ نفسه، بالتماثل مع شبيهه، المهندس الميكانيكي فالتر فابر، للذهاب إلى بغداد! وهم جديد حقيقةً، لا يختلف عن وهم الهروب إلى النساء!

٣٠

بغداد والشعراء والصور من أبي نوٴاس وابن زريق البغدادي حتى سعدي يوسف

بغداد والشعراء والصور. ليس المقصود بذلك القصيدة التي كتبها اللبنانيان الأخوان رحباني وغنتها اللبنانية فيروز في حفلاتها الثلاث في قاعة الخلد في بغداد عام ١٩٧٦، والتي تبدأ بالكلمات الثلاث تلك: "بغداد والشعراء والصور ذهب الزمان وضوعه العطر، يا ألف ليلة يا مكملة الأعراس يغسل وجهك القمر"، وتنتهي بـ"عيناك يا بغداد أغنية يغنى بها الوجود ويختصر"، لأن القصيدة هذه، إذا جرّدناها من المقطعين المذكورين، تتحدث عن فيروز نفسها أكثر مما تتحدث عن بغداد، كلا، بل لأن المقصود بتلك الكلمات الثلاث هو المدينة بغداد، بصفتها آلهة الإلهام لعدد لا يحصى من الشعراء على مر التاريخ، منذ نشأتها حقيقةً حتى الآن، سواء الشعراء الذين وُلدوا فيها، من غير المهم أنهم عاشوا حياتهم فيها حتى موتهم أو غادروها منفيين أو طلباً للرزق، أو سواء أولئك الذين جاؤوها من مدن أخرى، كانت هي الأخرى حواضر يُشار لها بالبنان، لكنهم فضّلوا عليها بغداد. من يقرأ ما أنشده هؤلاء فيها سيُحار بالصورة التي عليه صناعتها عن المدينة، لأن الصورة هذه، وتلك هي ميزتها الأساسية، هي خليط من انطباعات وصور متنوعة ارتبطت بعلاقات الشعراء هؤلاء بها، بالحالة التي مروا بها، بالزمن المعاش.



أبو نؤاس مثلاً، المولود في الأهواز في إيران عام ٧٦٢ ميلادية، عام بناء بغداد، والذي عاش في بلاط الخليفة الذي وُلد بعده بسنة، الخليفة الأسطوري هارون الرشيد، أبو نؤاس شاعر الحسية والذهاب بالنشوة، باللذة إلى حدودها القصوى، لذة جنسية كانت أو خمرية، أبو نؤاس هذا وضع الصورة الأولى لمدينة لا فعل لها غير المجون، شرب الخمر وممارسة الجنس، مع النساء ومع الغلمان، أبو نؤاس شاعر المجون دون منازع، الجنس والخمر هما موضوعا شعره الرئيسيان، وفيهما تجلّت عبقريته التي رفعته فوق السابقين واللاحقين، خاصةً الخمرة، عروس شعره الحاضرة دائماً، بدونها لا تأتي حسيته.

أَثنِ عَلى الخَمرِ بِآلائِها وَسَمِّها أَحسَنَ أَسمائِها
لا تَجعَلِ الماءَ لَها قاهِراً وَلا تُسَلِّطها عَلى مائِها

أو:

الشُربُ في ظُلَّةِ خَمّارِ عِندي مِنَ اللَذّاتِ يا جاري
لا سِيَّما عِندَ يَهودِيَّةٍ حَوراءَ مِثلَ القَمَرِ الساري
تَسقيكَ مِن كَفٍّ لَها رَطبَةٍ كَأَنَّها فِلقَةُ جُمّارِ
حَتّى إِذا السُكرُ تَمَشّى بِها صارَ لَها صَولَةُ جَبّارِ

أو:

دعِ المساجدَ للعُبّادِ تسكنُها وطُفْ بنا حول خمّارٍ ليسقينا
ما قال ربُّك ويلٌ للذين سكروا بل قال ويلٌ للمُصلّينا

تلك أمثلة بسيطة لما أنشدته قريحة الشاعر. كأنّ أبا نؤاس أراد أن يكون أميناً للفترة الزمنية تلك التي عاشتها المدينة، كأنّ اللهو واللذة والنشوة مكمّلون للعلم والمعرفة. ولو تحدثنا في لغة عصرنا هذه لقلنا إن أبا نؤاس هو مثل مدير فني لوكالة دعاية لبغداد في زمن هارون الرشيد. فمن جهة، الخليفة الذي تربطه علاقة بملك الإفرنج شارلمان الكبير (كارل الأول)، الإمبراطور الذي يجلس وبتفويض من روما (ممثلة الرب!) على عرش الديار المسيحية كلها، ومن الجهة الأخرى، خليفة المسلمين هارون الرشيد،

الإمبراطور الذي يجلس وبتفويض من علماء الدين على عرش الدولة الإسلامية، الخليفة المسلم والإمبراطور المسيحي زعيمان لعالمين مختلفين، متعايشين، لكن متنافسين، ولكي يكون التنافس "السلمي" متعادلاً بين العالمين، لا يكفي أن يهدي الخليفة المسلم فيلاً لخليفة الإفرنج، مثلما لا يكفي أن يجيب هذا بهدية ساعة من الرمل، بل لا بدّ وأن يبيّن الشاعر، صوت الخليفة، ووزير إعلامه إذا شئنا، أن مجتمع الخليفة المسلم لا يفرق عن مجتمع الإمبراطور المسيحي، فلا الدين ولا العلم منعا البغّادة عن اللهو وحب الحياة. الخمرة والغناء واللذة أمور مباحة إلى جانب العلم. إنها لمفارقة أيضاً أن قصائد أبي نؤاس نشأت بالتوازي مع قصص **ألف ليلة وليلة** التي روتها شهرزاد عن بغداد. اختراع بغداد "النثري"، الذي بدأت به شهرزاد، هو ليس غير البناء الموازي لاختراع بغداد "الشعري" على يد أبي نؤاس.

الفترة التي عاش فيها أبو نؤاس هي فترة ازدهار بالنسبة للشعراء، خاصةً أولئك الذين جاؤوا إلى بغداد من أمصار بعيدة، بعضهم للارتزاق على يد خلفاء بني العباس، خاصةً وأن مدح السلاطين بضاعة "شعرية" رائجة وقتها، وبعضهم الآخر طلباً للعلم، إذا لم تكن عائلته قد انتقلت قبله للإقامة في عاصمة الخلافة الإسلامية، ووُلد هو هناك. للصنف الأول، الذي لا يهمنا حقيقةً، لأن شعراءه أنشدوا للخلفاء أكثر مما أنشدوا للمدينة، ينتمي، مثلاً، الشاعر أبو تمام المولود ٨٠٣ في جاسم (من قرى حوران بسورية) واستقدمه الخليفة المعتصم إلى بغداد وقدّمه على شعراء زمنه فأقام في العراق ووُلّي بريد الموصل ليتوفى هناك بعد سنتين فيها (٨٤٥ ميلادية)، أو البحتري المولود في منبج (إحدى قرى حلب) عام ٨٢٠ ميلادية واستقدمه الخليفة العباسي المتوكل وجعله شاعر القصر، ينشد الأشعار فتُغدق عليه الأموال الوافرة، ولمّا قُتل المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان راح البحتري يتقلب مع كل ذي سلطان مستجدياً، حتى عاد سريعاً إلى منبج يقضي فيها أيامه الأخيرة فأدركته الوفاة سنة ٨٩٧ ميلادية. البحتري حقيقةً هو أكثر الشعراء العرب ترزقاً. الصنف الثاني هو الذي يعنينا هنا أكثر، لأن أغلب شعرائه تغنّوا ببغداد، وإليه ينتمي، مثلاً، علي بن الجهم، المولود عام ٨٠٣ ميلادية، فالشاعر البدوي الأصل (عائلته قدمت من شبه الجزيرة العربية) أكسبه العيش في بغداد لمدة ستين عاماً، حتى وفاته عام ٨٠٣ ميلادية، ليونةً، وجعل شعره يفيض رقّةً وعذوبة، فها هو الشاعر



القادم من عمق الصحراء ينشد بغداد التي هي بالنسبة له بكرخها ورصافتها، هي بغداد الصبايا الفاتنات، والتي قال فيهن:

عُيونُ المَها بَينَ الرُصافَةِ وَالجِسرِ ... جَلَبنَ الهَوى مِن حَيثُ أَدري وَلا أَدري
أَعَدنَ لِيَ الشَوقَ القَديمَ وَلَم أَكُن ... سَلَوتُ وَلَكِن زِدنَ جَمراً عَلى جَمرِ

لكنّ بغداد "الشعرية" الواقعية يمكن العثور عليها عند شاعر آخر، هو على عكس أبي نوّاس تماماً. شاعر مات عام ١٠٢٩ ميلادية، بعد قرنين من وفاة أبي نوّاس الذي توفي عام ٨١٣ ميلادية. عند ابن زريق البغدادي، صاحب القصيدة اليتيمة "لا تعذليه"، فباستثناء قصيدته تلك، التي عُثر عليها بعد وفاته تحت وسادته، لا نعرف له قصيدةً أخرى. فابن زريق البغدادي، أو أبو الحسن علي أبو عبد الله بن زريق (كما هو اسمه الأصلي)، الكاتب البغدادي في القرنين الأخيرين من العصر العباسي، حيث خضعت الخلافة لحماية سلاطين البويهيين الذين قدموا من أعالي جبال الديلم (جنوب بحر الخزر)، عاش فقيراً في بغداد التي كان بدأ نجمها أصلاً بالأفول. وحسب القصة التي نعرف تفاصيلها من القصيدة، ارتحل ابن زريق البغدادي من موطنه الأصلي بغداد قاصداً بلاد الأندلس بسبب الفقر، علّه يجد فيها من لين العيش وسعة الرزق ما يعوّضه عن فقره، وهذا ما يقوله للمرأة التي تركها وراءه في بغداد وحيدةً، حبيبته التي يحبها وتحبه، والتي من أجلها يسافر ويغترب، لكي يجمع ثروةً بسيطة تسمح له بإعالة حبيبته وتوفير بيت كريم لهما، كما تقول لنا القصيدة:

لا تَعذَليه فَإِنَّ العَذلَ يُولِعُهُ ... قَد قُلتِ حَقاً وَلَكِن لَيسَ يَسمَعُهُ
جاوَزتِ في نصحه حَداً أَضَرَّ بِهِ ... مِن حَيثَ قَدرتِ أَنَّ النصح يَنفَعُهُ
فَاستَعمِلي الرفق في تَأنيبِهِ بَدَلاً ... مِن عَذلِهِ فَهُوَ مُضنى القَلبِ مُوجعُهُ
قَد كانَ مُضطَلَعاً بِالخَطبِ يَحمِلُهُ ... فَضُيِّقَت بِخُطوبِ الدهرِ أَضلُعُهُ
يَكفيهِ مِن لَوعَةِ التَشتيتِ أَنَّ لَهُ ... مِنَ النَوى كُلَّ يَومٍ ما يُروعُهُ
ما آبَ مِن سَفَرٍ إِلّا وَأَزعَجَهُ ... رَأيٌ إِلى سَفَرٍ بِالعَزمِ يَزمَعُهُ
كَأَنَّما هُوَ في حِلٍّ وَمُرتحلٍ ... مُوَكَّلٍ بِفَضاءِ اللَهِ يَذرَعُهُ

... إلى آخر القصيدة. ولكي تكتمل دراما قصة بن زريق، نعرف - كما تقول لنا



الروايات والأخبار المتناثرة – أن الحظ لم يحالف الشاعر، إذ سيمرض في الأندلس ويشتد به المرض لتكون نهايته في الغربة. ويُضيف الرواة بعداً جديداً للمآساة فيقولون إن القصيدة التي لا يُعرف له شعرٌ سواها وُجدت تحت وسادته عند وفاته في عام ١٠٢٩ ميلادية، أي بعد قرن من أناشيد أبي نوّاس المليئة بالترف والعبث والمجون. صورتان لبغداد. صورة مدينة الثروة والغنى التي اللهو جزء من حياتها. بالمقابل: صورة مدينة البؤس واليأس والموت، التي لا مكان فيها حتى لشاعر. لكن مدينة الحب في كل الأحوال. في زمن أبي نوّاس، لا إخلاص لحبيب أو حبيبة معينة. الشاعر يتنقل هنا من جسد إلى جسد، مثلما تتنقل شفتاه من كأس إلى آخر. في حالة ابن زريق البغدادي، حبيب يرتحل بعيداً من أجل إسعاد حبيبته، تحقيق الحلم بالعيش معها، زوجاً وزوجة. ففي كل القصيدة الطويلة التي تتكون من ٦٦ بيتاً شعرياً والتي يترك فيها خلاصة لتجربته مع الغربة والترحال، من أجل الرزق وكم هو نادم متصدع القلب من لوعة وأسى، حيث لا أنيس ولا رفيق ولا معين، لأنه لم يستمع إلى حبيبته التي نصحته بعدم الرحيل، تظهر بغداد في مقطع واحد، في علاقتها بالمرأة التي أكّد حبه لها حتى الرمق الأخير وحسب: "أستودِعُ اللهَ في بَغدادَ لي قَمَراً / بِالكَرخِ مِن فَلَكِ الأَزرارَ مَطلَعُهُ". بغداد ابن زريق البغدادي هي موجودة فقط لأن حبيبته تنثر شعاعها عليها. عكسه: لا وجود لبغداد! ليس لأن الشاعر شاء ذلك، بل واقع الحال. بغداد التي كانت لا تزال عباسية، أفل نجمها، من جهة تحكم مصيرها سلاطين بني بويه (الذين لا يتّفق المؤرخون على نسبهم، فبعضهم ينسبهم إلى بهرام جور، أحد ملوك ساسان، ويرفع آخرون نسبهم إلى آلهة المجوس، ويحطّ البعض نسبهم إلى دهماء الناس، بل هناك من ينسبهم إلى العرب، من بني ضبية. آخرون يقولون إنهم كانوا من أسرة ديلمية فقيرة، كان والدهم بويه يتعيش من صيد السمك!)، ومن الجهة الأخرى، دولة ضعيفة سيطر عليها الفساد والصراع على السلطة، كانت الفترة التي شهدت أيضاً امتداد نفوذ الفاطميين من تونس حتى مصر، وصعود نجم الأمويين في الأندلس، ليصبح العالم الإسلامي مقسّماً على ثلاثة خلفاء في آن واحد: في قرطبة (حيث الدولة الأموية في الأندلس) والقاهرة (الدولة الفاطمية) وبغداد، وكانت أضعفهم سلطة خليفة بغداد! صعوبة العيش والفقر، غياب الأمن والاضطرابات هي السمات التي دمغت حياة تلك الفترة في بغداد. الشاعر في



وصفه لضنك عيشه قدّم نموذجاً لعيش الناس في أيامه. ليس من الغريب، إذن، ألاّ يبقى له من بغداد غير حبيبته وحسب!

شاعر آخر كانت بغداد بالنسبة له حبيبته وحسب، هو الشاعر الخراساني الأصل، البصري الولادة، العباس بن الأحنف. لكن على الأقل لسبب آخر. فابن الأحنف شهد، كما أبو نؤاس، بغداد في مجد صعودها، عاصمة ثقافية واقتصادية للعالم، لكن قوة التابو الذي منعه من التقرب من حبيبته، أو التفكير بالزواج منها، جعله لم يفكر بموضوعة أخرى للشعر غير شعر الغزل، والأكثر من ذلك: الغزل "الشريف" كما أطلقوا عليه في حينه، والذي اقترب من الحب العذري. العباس بن الأحنف الذي عاش في بغداد واشتهر بعلاقته بالخليفة الأسطوري هارون الرشيد، كان من ندمائه المقربين، وكان يصحبه في رحلاته وأسفاره، خالف باقي الشعراء في استخدامهم الشعر كوسيلة للكسب والثراء بمدح الحكام وهجاء أعدائهم، رغم أن واحداً مثله، كان قريباً من بلاط القصر ومن حركة الحكام والولاة، كان من السهل عليه أن يفعل ذلك. ربما لهذا السبب تركز شعره في الغزل والوصف لا يتجاوزه إلى باقي الأغراض الشعرية، حتى أن شاعراً آخر، امتهن التكسب، البحتري، قال عنه إنه أغزل الناس. أما ابن مدينته البصرة، مؤسس النثر العربي الحديث، الجاحظ فقال: "لولا أن العباس بن الأحنف أحذق الناس وأشعرهم وأوسعهم كلاماً وخاطراً، ما قدر أن يكثر شعره في مذهب واحد لا يتجاوزه، لأنه لا يهجو ولا يمدح ولا يتكسب ولا يتصرف، وما نعلم شاعراً لزم فناً واحداً فأحسن فيه وأكثر"، وهو يقصد فن الغزل طبعاً.

كان غزل العباس بن الأحنف رقيقاً تركّز في وصف مشاعره تجاه امرأة واحدة وحسب، أطلق عليها "فوز". وإذا عرفنا أن المرأة هذه هي ليست سوى "علية بنت المهدي" أخت الخليفة هارون الرشيد، كما أثبتت عاتكة الخزرجي، الناقدة العراقية، بالأدلة والبراهين والنصوص الشعرية في رسالتها لنيل الدكتوراة، فإننا من ناحية نفهم لماذا اقترب في شعره من الشعراء العذريين الذين امتلأ شعرهم في محبوباتهم بالتسامي والتطهر والبعد عن كل ما يشين، فيه صدق العاطفة ونقاء التعبير، ليس لأن التي أحبها أميرة وليست من عامة الناس؛ حرة وليست جارية من جواري القصور، بل لأنها أخت الخليفة ولا يستطيع أن يسمح حتى ولو للقليل من الحسية التسلل إلى شعره، فالويل له



إذا وصل الأمر للخليفة، وهي هذه الحقيقة أيضاً التي جعلت العباس بن الأحنف لا يصرّح باسمها، ويكتفي بالإشارات والرموز، فديوانه يمتلئ بالحديث عن "فوز"، وهو اسم اتّخذه قناعاً يخفي به حقيقة المرأة التي أحبها، ولم يكن يستطيع البوح باسمها، واكتفى في شعره بإشارات وإيماءات لا تفصح ولا تبين:

كتمتُ اسمَها كتمانَ من صانَ عِرضَهُ ... وحاذَرَ أنْ يَفْشُو قَبيحُ التَّسَمُّعِ
فسمِّيتُها فوزاً ولو بُحتُ باسمها ... لَسُمّيتُ باسمٍ هائلِ الذّكرِ أشنَعِ

(يقصد الله طبعاً!)، كما قال، وإذا أراد أن يبعث بتحية إليها فستكون هي أهل بغداد كلهم:

بلغي يا ريح عنا أهل بغداد السلاما ... بأبي من أبعد النوم عن عيني وناما

كما يقول في قصيدته "أهل بغداد"، والتي لا نعرف قصيدة أخرى له جاءت بغداد فيها بدون العلاقة هذه بفوز!

جسر السنك، أحد الجسور السبعة على نهر دجلة في بغداد.

يظل أبو العلاء المعري (٩٧٣-١٠٥٧) (٣٦٣-٤٤٩) الشاعر الاستثناء، الذي لم يحمل بغداد أي تحميل رمزي. كانت بغداد هي المدينة التي أحبها، وامتلك علاقة وجدانية قوية معها. ومن يقرأ قصائده التي كتبها عن بغداد سيكتشف أنه غادر المدينة شبه مجبر. فلو تُرك الأمر له لبقي هناك، ومن لا يعرف مكان ولادته، وأسباب مجيئه لبغداد، لظن أنه شاعر بغدادي اضطر للذهاب إلى منفاه. مصاحبة بسيطة للشاعر في محطات حياته التي مرّ بها منذ ولادته في مدينة معرة النعمان، المدينة الشامية القريبة من حلب، عام ٩٧٣ مروراً برحلته لبغداد وهو شاب، وحتى مغادرته لها، تكشف لنا الفضول الذي غلف حياة هذا الشاعر وسعيه لطلب العلم، حتى وإن تطلّب ذلك منه السفر والطواف حول العالم. فالشاعر الذي لقّب نفسه برهين المحبسين، المحبس الأول فقد البصر والثاني ملازمته داره واعتزاله الناس، بدأ وهو صغير في تلقي العلم على يد أبيه، ثم ارتحل إلى حلب ليسمع اللغة والآداب من علمائها تلاميذ خالويه، وعلوم السُنّة على يد يحيى بن مسعر، من حلب إلى إنطاكية، التي كانت فيها مكتبة عامرة حوت على نفائس من الكتب، ثم سافر إلى طرابلس الشام (مرّ في طريقه باللاذقية) لدراسة النصرانية واليهودية، ثم ليعود إلى المعرّة، محطة استراحة قصيرة، قبل التوجّه هذه المرة إلى بغداد. من ملأه الفضول لمعرفة الأديان في تعايشها، أو من دأب الرحيل بحثاً عن المكتبات الاستثنائية، لا بدّ وأن ينتهي إلى شارع الورّاقين في بغداد؛ إلى بيت الحكمة، أكبر مكتبة في العالم في حينه، مكان المترجمين والعلماء من كل الأديان، ليس اليهودية والمسيحية والإسلام وحسب، بل الديانة الصابئية المندائية أيضاً!

كان ذكاء المعري ملفتاً للنظر، واستعداده للعلم عظيماً. روى المؤرخ الثعالبي عن أبي الحسن المصيص الشاعر قوله: "لقيت بمعرة النعمان عجباً من العجب، رأيت أعمى شاعراً ظريفاً يلعب الشطرنج والنرد ويدخل في كل فن من الجد والهزل يكنّى أبا العلاء، وسمعته يقول: أنا أحمد الله على العمى، كما يحمده غيري على البصر، فقد صنع لي وأحسن بي إذ كفاني رؤية الثقلاء البغضاء". ومن هو بهذه الدرجة من الذكاء، ومن هو حاد البصيرة، لا يجد صعوبة بالتنقل بين الجد والهزل، سيجد الكثير من الأعداء، وهذا ما حصل له في بغداد. كان التنافس على أشده في حينه

بين الشعراء والعلماء، وبعضهم وجدوا بالتأكيد في شخصية أبي العلاء المعري كل ما طمحوا إليه في دواخل أنفسهم، لكنهم لم يصلوا إليه. فرغم أن أبا العلاء كان فقير الحال، إلا أنه لم يتكسّب بالشعر، كما فعل عشرات الشعراء في عصره. فطرته السليمة ودراسته الفلسفية صانتاه من الابتذال وصوغ الأكاذيب في مديح الأمراء، وكما كتب في اللزوميات، الكذب عنده هو أمر بشع قبيح، ثم "إن المال المأخوذ عن طريق التكسّب مال حرام استحلّ ظلماً وأولى به شيخ كبير وعجوز فانية وأرملة مهيضة الجناح وأطفال زغب". حتى الثروة الضئيلة التي كانت في حوزته، والتي لم تتجاوز ثلاثين ديناراً، تنازل عن نصفها لخادمه. كان أبو العلاء زاهداً، فكيف لا يرتاب زملاؤه الشعراء، وهم الذين وجدوا في مديح السلاطين والأمراء وسيلةً للغنى، لم يستوعبوا أن شاعراً في زمنهم، كما أبي العلاء المعري، لم يأتِ إلى بغداد للتكسب، "أنبئكم أني على العهد سالم، ووجهي لما يبتذل، وأني تيممت العراق لغير ما، تيمّمه غيلان عند بلال"، أو لطلب الشهرة، بل حتى وليس لطلب العلم، لأنه وكما يقول عن نفسه، "ومنذ فارقت العشرين من العمر ما حدثت نفسي باجتداء العلم من عراقي ولا شامي، وانصرفت وماء وجهي في سقاء غير سرب، لم أرق قطرة منه في طلب أدب ولا مال"، بل جاءها ببساطة قاصداً دار الكتب فيها، وكما سمّاها في رسائله، دار العلم.

كان عمر أبي العلاء المعري ٣٦ عاماً عندما وصل بغداد، و لم يبقَ فيها أكثر من سنة واحدة، بعد أن أصبحت حياته مهددة، عندما تعرض له بعض فقهاء بغداد، متّهمينه بالإلحاد. ورجع إلى مدينته المعرة ولزم منزله، لا يخرج منه، سجين عزلته، لا يأكل اللحوم والبيض والألبان، ولا يتزوج، وكان يكتفي بما يخرج من الأرض من بقل وفاكهة، ولمدة ٤٩ عاماً حتى وفاته.

فلا تأكلنَّ ما أخرج الماء ظلماً ... ولا تبغ قوتاً من غريض الذبائح
ولا تفجعنَّ الطير وهي غوافل ... بما وضعت فالظلم شرّ القبائح
ودع ضرب النحل الذي بكرت له ... كواسب من أزهار نبت صحائح

أبو العلاء المعري النباتي الوحيد في تاريخ الشعر العربي، وعندما مات طلب أن يكتبوا على قبره: "هذا جناه أبي عليّ، وما جنيت على أحد".



لكن عزلته تلك، التي منعته عن روٴية الناس، لم تمنعه من البوح عن عاطفته تجاه بغداد، عندما كتب فيها تائيته المشهورة:

يا عارضاً راح تحدوهُ بوارقهُ   للكرخ سلمت من غيثٍ ونجيتا
لنا ببغداد من نهوى تحيته   فإن تحملتها عنّا فحييتا
يا ابن المحسن ما أنسيت مكرمةً   فاذكر مودتنا إن كنت أنسيتا
سقياً لدجلة والدنيـــا مفرقةٌ   حتى يعود اجتماع النجم تشتيتا

أما في قصيدة أخرى فيذهب في حبه إلى بغداد إلى درجة قوله:

متى سألت بغداد عني وأهلها   فأني عن أهل العواصم سآل

ربما كان أبو العلاء المعري هو آخر شاعر أنشد في بغداد قبل سقوطها ثم اندثارها على يد المغول، فبيت الحكمة، أو دار العلم كما سماها، احترقت كلها ونُهبت ومُزقت، حتى يُقال إن حبر الكتب اختلط في ماء دجلة مع الدم، وكان يجب أن تمر قرون عديدة لكي تستعيد المدينة عافيتها، ولكي يستعيد النهر الذي غفت عليه عافيته، لكي ينشد المدينة ونهرها شعراء جدد.

قائمة الشعراء الذين عاشوا في بغداد منذ تأسيس الدولة العراقية عام ١٩٢١، ومنذ انطلاق بغداد عاصمةً جديدةً تبحث مكاناً لها في عواصم الحداثة الجديدة، سواء أولئك الذين نشأوا فيها أو أولئك الذين قدموا من مدن أخرى من البلاد، وفضّلوا الإقامة فيها، قائمة الشعراء طويلة، من محمد صدقي الزهاوي إلى معروف الرصافي، مروراً بمحمد مهدي الجواهري وبدر شاكر السياب ونازك الملائكة وعبد الوهاب البياتي، وانتهاءً بيوسف الصائغ وسعدي يوسف، لكن في كل القصائد التي كتبها هؤلاء حضرت بغداد أو النهر الذي غفت على ضفافه، إلى رمزين سياسيين، مرة للعطاء ومرة للثورة ضد الطغاة.

الشاعر محمد مهدي الجواهري، النجفي الأصل، لكن الذي عاش وعمل في بغداد، حتى ذهابه إلى المنفى في نهاية السبعينيات وتنقله من مدينة إلى أخرى حتى وفاته في دمشق عام ١٩٩٧، هو خير مثال لذلك ربما. فبغداد بالنسبة له مرة النهر الذي نشأت عليه، نهر دجلة، "دجلة الخير"، كما هو عنوان قصيدته التي خاطب



فيها النهر ومدينته من مكان نفييه:

حييت سفحك عن بعد فحييني ... يا دجلة الخير يا أم البساتين
حييت سفحك ضمآناً ألوذ به ... لوذ الحمائم بين الماء والطين

أو هي مدينةٌ

يهفو الدوار برأس من يشتاقها ... ويُصاب وهو يخافها بدوار
عشرون قرناً وهي تسحب نفسها ... بدم ذيول مواكب الأحرار

كما كتب في قصيدة "بغداد"، أو هي المكان الذي سيغضب له ذات يوم، كما كتب يخاطب بغداد مباشرةً من منفاه في براغ، في قصيدته الأكثر من رائعة "غريب الدار": "يا غريب الدار لم تكفل له الأوطان دارا / يا لبغداد من التاريخ هزءاً واحتقارا / عندما يُرفع عن ضيم أنالته الستارا... إلخ".

بغداد والشعراء والصور. نعم، كُتب وقيل الكثير عن بغداد، وإذا لم يجد شاعر ما يقوله فيها، لخوف أو لجبن أو لعجز، أو ربما لعوزه القدرة الشعرية والصدق ليرثيها، فليستعر أبياتاً من شاعر آخر، حتى إذا عنت مدينة أخرى. أتذكر أنني، وفي زيارة لمكتب سعدي يوسف في المركز الفولكلوري حيث عمل سكرتيراً لتحرير مجلة التراث الشعبي، رأيت قطعة أطّرها بعناية، علّقها على الحائط بمواجهة الزوار الذين جلسوا على الصوفا قبالته:

لَمْ آتها من أيّ وجه جئتها ... إلاَّ حسبتُ بيوتَهَا أَجْدَاثَا
بَلَدُ الفلاَحَة لَوْ أَتاهَا جَرْوَلٌ ... أَعْني الحُطَيْئَةَ لاعْتَدَى حَرَّاثَا
تَصْدا بِهَا الأَفْهَامُ بَعْدَ صِقَالِهَا ... وَتَرُدُّ ذُكْرَانَ العُقُول إِنَاثَا
أرضٌ خلعتُ اللهوَ خلعي خاتمي ... فيها وطلقتُ السرورَ ثلاثا

لا بد للزائر أن يبتسم عند رؤيته تلك الأبيات المكتوبة بخط كبير، فالقصيدة التي كتبها أبو تمام في القرن التاسع في مديح مالك بن طوق، مقصود فيها "قبراثا"، قرية من نواحي بقعاء الموصل. سعدي حذف مقطع سبقها يقول: "والكامخية لم تكن لي منزلاً / فمقابر اللذات من قبراثا" لكي يبدو لقارئها أن المقصود بها بغداد. أتذكر أن



الشاعر فوزي كريم الذي صحبني في تلك الزيارة، في أيام الجبهة الوطنية، سأل سعدي وهو يبتسم: "من كل أبي تمام، أخذت هذه المقاطع فقط!"، لأن حسب ما أشيع عنه أنه لا يحب شعر أبي تمام، كان شاعر صنعة بالنسبة له. "نعم"، أجاب سعدي.

بغداد والشعراء والصور. أنشد الشعراء كثيراً لبغداد. أنشدوا عظمتها وأفول نجمها، صعودها واندثارها، ولا أظن أن سعدي يوسف في تعليقه القصيدة تلك ببغداد جانب الصواب تماماً، خاصةً وأنه شخصياً لقيَ بعض الحيف من السلطة في حينه، رغم أن البعثيين كانوا حلفائه. (بعد جلستنا بفترة نُقل بسبب كتابته قصيدة "جدارية فائق حسن" إلى منصب "نائب مساعد أمين مكتبة" في دائرة ملحقة في وزارة الري، هناك في المكتبة القديمة التي تعود أصولها إلى الاحتلال البريطاني، وكانت في سابق مجدها إصطبلاً لخيول العثمانيين، كان مكلفاً بمتابعة ترسّب الطين في أنهار العراق وجداوله وتقديم تقارير رسمية إلى جهات رسمية عن هذا الترسب!). أقول إن شاعراً مثل سعدي يوسف لم يحصل على المكانة التي ظن أنه سيحصل عليها، كان لا بد أن يخترع بغداده على صورة المدينة التي بيوتها تشبه الجثامين، عقولها المصقولة المعدن تصدأ، مفكروها وعلماؤها ومثقفوها غير المرتزقين يتحولون إلى حراثين إذا لا يُطردون أو يُشتمون من قبل مثقفين مرتزقة وأميين، وصل الأمر ببعضهم بالدعوة لهدم تمثال أبي نؤاس، مؤسس صورتها "الشعرية" الأولى، بتهمة المجوسية (كما فعل شاعر سبعيني "شيعي" من جيلي في مقالات عديدة له في جريدة الثورة البعثية. الآن تتكرر الدعوات ذاتها!)، مدينة مثل هذه، لا بد وأن يُطلّق فيها الفرح بالثلاث. كأن ما هو مكتوب على القطعة المعلقة هو تنبؤ بالكارثة التي ستطبق على المدينة، عندما سيكسو سماءها سخام الحروب ويجلس على رقاب أبنائها القتلة واللصوص.

بغداد والشعراء والصور. أنشد الشعراء كثيراً لبغداد، وسينشدون. لكن دائماً كانت الصورتان هناك، بمواجهة بعض. الصورة "الشعرية" لبغداد كما ثبتها أبو نؤاس ونوّع عليها شعراء آخرون، العباس بن الأحنف مثلاً، أو الجواهري وآخرون، والصورة "الواقعية"، بكل تنويعاتها، كما جاءت عند بن زريق البغدادي وقبله عند أبي العلاء المعري، أو كما ذهب بها بعيداً شاعر مُهان مثل سعدي يوسف، مرة تميل الكفة للأولى، في المرة الأخرى للثانية، وفي الثالثة تتعادل الكفتان. كأن بغداد لا تستطيع العيش بدون

هاتين الصورتين. في أواسط السبعينيات، ومنذ زيارتي تلك لسعدي يوسف، عرفت أن الكفة بدأت تميل هذه المرة لصورة بغداد الواقعية، وبأبعد من الصورة التي ذهب إليها الغاضب سعدي يوسف، في استعارته كلاماً لأبي تمام، كان من الصعب تجاهل ذلك الخراب أحاط بنا، والسجن والنفي والموت بدأوا بالدقّ على الأبواب. لكن مهما طغت الصورة الواقعية" تلك، مهما كان حجم الخراب الذي ستجلبه الصورة هذه معها، يظل العزاء الوحيد هو أن الصورة "الشعرية" لبغداد ما زالت مقاومة هناك، فأبو نؤاس ما زال مقيماً في بغداد، وإن جلس عند كورنيش دجلة، الكأس بيده، على شكل تمثال وحسب!



٣١

سمراء وفريدة

بغداد مدينة الانقلابات العسكرية. لكنها أيضاً مكان الانقلابات الحياتية. خاصةً إذا تحدثت عن نفسي، وعن علاقة الحب الجديدة التي دخلتها في السنة الأخيرة من دراستي الجامعية. هذه المرة مع طالبة في فرع علم الأحياء، في كلية التربية. ولأننا لا نزال نسير على خطى العشاق الكتومين القدماء، لا بدّ لنا أن نكتم اسم الفتاة هذه أيضاً، رغم أن ليس هناك أحداً، لا من أصدقائي ولا من جيلي، لا من مرتادي مقهى البرلمان ومقاهٍ أخرى ولا من مرتادي اتحاد الأدباء، لا من الشرطة السرية ولا من المُخبرين الطلاب، أو الشرطة العلنية ولا من رجال البعث، ولا من الشيوعيين، بكلمة واحدة: ليس هناك أحد لم يعرفها، و لم يعرف بعلاقتنا التي اقتربت من الجنون، بكل ما حوته من مغامرة وخيال في الأيام العاصفة تلك أصلاً.

إذن لنطلق على اسم الفتاة "فريدة"، لأنها بالفعل فريدة من نوعها، سواء بالغربة عن محيطها في تلك الأيام، خاصةً وأنها كانت الطالبة الشيوعية، أو الوحيدة التي بقيت شيوعية، في كلية أصبحت الدراسة فيها، مثلها مثل الدراسة في أكاديمية الفنون الجميلة وفي كلية التربية الرياضية، مغلقة، للبعثيين فقط، أو سواء في جمالها. كأنها أرادت بهذا الشكل أن تكون صالحة للاسم الذي سأطلقه عليها بعد قرابة أربعة عقود. كانت حتى في اسمها الفعلي اسماً على مسمّى. فهي لم تكن فريدة في إصرارها "الشيوعي" وحسب، بل كانت أيضاً ملفتة النظر بجمال سمرتها البرونزية المشعة وأناقتها. أما القبعة



البنميّة التي كانت تضعها على شعرها الأسود القصير، ونظارتها بعدستيها المدورتين، فكانت تضيف لشخصيتها أبّهةً وفخامة.

تعرفت على فريدة صدفة في ساعات العصر، أمام مدخل بناية كلية الآداب، كانت هي قادمة من قسمها الداخلي، فيما كنت أنا على موعد مع صديقين، كانا مخطوبين للتو، لم أعرف أن الاثنين القادمين من مدينتها الضائعة بين جنوب ووسط العراق يعرفانها. في ذلك اللقاء دعوتها أن تأتي في مساء اليوم نفسه وترى معي فلم "آنّا كارينينا" الذي كان يُعرض في حدائق أكاديمية الفنون الجميلة. صحيح أن علاقتنا انتهت إلى غير النهاية التي انتهت إليها "آنّا كارينينا"، فلا هي ألقت نفسها تحت عجلات القطار ولا أنا ذهبت مثل تولستوي لأموت في سيباستوبول، محطة مهجورة في أعالي القوقاز، إلا أنها، وبشكل ما، ذهبت إلى اتجاهات دراماتيكية فيها من القوة ما يكفي لكتابة قصص وروايات. ففريدة الشيوعية، المميزة بلا تنافس، فريدة التي كان عليها تحمّل الضغط الواقع عليها في الكلية وفي الحياة، لم تشأ الاستسلام لروتين الحياة اليومية. رغم أنها كانت محظوظة إلى حدٍّ ما، لأنها حصلت على وظيفة صغيرة، مراقبة في القسم الداخلي الذي سكنت فيه، والذي كان مجاوراً لبناية كلية الآداب، كليتي التي درست فيها، إلا أن الجانب المتمرد فيها لم يجعلها تشعر بالراحة، في إقامتها هناك، أسوةً ببقية الطالبات الساكنات في الأقسام الداخلية. ففي الساعة السادسة مساءً، كان على الطالبات التواجد في غرفهن. ومن تغيب، ستتعرض للاستجواب. بعد ثلاثة غيابات يتم استدعاء الأهل. ولأن أماسينا، وخاصةً في فصل الربيع والصيف، تبدأ في هذا الوقت أولاً، كان على فريدة أن تتصرف بطريقة معينة، لكي تتجنّب معرفة الأهل بغياباتها، ولأن الصدفة خدمتنا، بسبب معرفة أبيها بابن خال لأمي يعيش في نفس مدينتهم، أطلقت عليه أنا جزافاً خالي (ربما لأنه بعمر أمي)، الأمر الذي جعل عائلتها تثق بي، أقنعت فريدة أباها بأن يُسجلني بصفتي أحد أفراد العائلة ومسؤولاً عنها، في حالة حدوث مشكلة في القسم الداخلي، يعني أنني سأكون المسؤول عنها أمام مسؤولات القسم الداخلي في حالة الغيابات، ولأننا لم نشأ الاكتفاء بذلك، أن نسهر ونبيت كل مرة عند أحد الأصدقاء، ولأننا كنا على قناعة أننا مختلفين عن بقية جيلنا، قررنا العيش مع بعض في شقة واحدة. لكن لكي يعيش رجل وامرأة سويةً في العراق، عليهما أن



يكونا متزوجين. لكن كيف سنتزوج بدون علم أهلينا، ثم أنهم سيرفصون هذا الزواج بالتأكيد، بسبب أننا ما زلنا طلاباً؟

إحدى الروايات التي سحرتني قراءتها في ذلك الوقت هي رواية الألماني أريش ماريا ريمارك **للحياة وقت... للموت وقت**، أو **للحب وقت وللحياة وقت** كما ترجمها المترجم المصري سمير التنداوي، التي تدور أحداثها في المرحلة الأخيرة من الحرب العالمية الثانية قبل سقوط برلين بأيام. كانت الناس مشغولة بقصف الروس لبرلين والإذاعة الألمانية تبثّ المارشات وهتلر يرسل فتيانه للقتال. وحده الجندي أرنست غريبير، بطل الرواية القادم من الجبهة بإجازة، مشغول بأمر واحد: قضية زواجه من إليزابيث، حبيبته. لم يهمه لا سقوط برلين ولا هزيمة ألمانيا. كان يهمه أمر واحد: الزواج من إليزابيث، حبيبته، والاحتفال بتلك الليلة حتى إذا تهدم البيت. وهل هناك قضية أكبر من قضية القلب وشؤونه؟ آلاف المقالات وآلاف الكتب كُتبت عن تحرير ألمانيا من القبضة النازية، من يتذكرها؟ لكن هل هناك أحد قرأ تلك الرواية ونسي أرنست غريبير، بطل ريمارك، أو هل هناك أحد يتذكره ولا يشرب معه نخب الحياة؟ لهذا السبب عرف النازيون مبكراً قوة روايات ريمارك. أول رواية أحرقها النازيون في جريمة حرقهم للكتب، في ١٠ أيار/ مايو ١٩٣٣، كانت الرواية الأولى لريمارك **كل شيء هادئ في الميدان الغربي**، رواية مضادة للحرب. ليس من الغريب أيضاً أن يكون أيريش ماريا ريمارك هو أول كاتب ألماني غادر ألمانيا مباشرةً بعد تسلّم هتلر السلطة عام ١٩٣٣.

في رغبتنا بالزواج، أنا وفريدة، لم نكن نفعل غير السير على خطى محارب "القلب" هذا. بغداد تصبح غريبة عنا. بغداد لا تسع حدود الانفجار في أنفسنا، ونحن نحاول سحبها إلينا. تأسيس سعادتنا، لا يهم الثمن الذي ندفعه. ثم لماذا نفكر بالخطوة التالية؟ ألم يخسر بطل شتيفان تسفايغ لعبة الشطرنج لهذا السبب؟ لأنه فكر بالخطة التالية و لم يركز على اللعبة التي لعبها، لنلعب لعبة الزواج، خاصةً وأننا امتلكنا دخلاً لا بأس به، هي من عملها مشرفةً في القسم الداخلي، وأنا من عملي حارساً ليلاً (رغم أني نادراً ما نمت في المدرسة، كنت أعطي الفرّاش شهرياً ٥ دنانير لكي لا يبوح بغيابي أمام مدير المدرسة). أعرف أن ما نوينا القيام به فريد من نوعه. ليكن ما يكون. ولا تهم صعوبة تحقيق ذلك، المهم التفكير بالعثور على حلّ نحقق فيه أمنيتنا بالعيش سوية، نخطب

بعضنا بعضاً، بدون تدخل من أهل أو أقارب. الحاجة أم الاختراع. ففي تلك الأيام التي راحت فيها بغداد خاصةً تعيش ما أُطلق عليه تنميتها الانفجارية، تأسست بعض الأحياء الجديدة. شقق سكنية جديدة، دفع إيجاراتها ليس بسيطاً، وهو ما كان يهم أصحاب العمارات تلك في المقام الأول. وهذا ما عرفته مباشرةً عند لقائي أحد أصحاب تلك العمارات.

الشقة التي سنسكن فيها، والتي ستصبح الملتقى الرئيسي للعشاق من أصدقائنا، حتى أننا لم نخلُ يوماً من زيارة أحد، تقع في مدينة الشعب، في حي عدن حقيقةً، في أقصى طرف تنتهي إليه بغداد شمالها، في الطريق المؤدي إلى ديالى وكركوك. اليوم يبدو الأمر غريباً، لكن تلك هي الحقيقة. حتى نهاية السبعينيات كانت بغداد تنتهي هناك. الرجل الذي لبس الملابس العراقية التقليدية، الدشداشة والغترة والعقال، لم يهمّه رؤية عقد الزواج، عندما أردت فتح الحقيبة الدبلوماسية (سَمسونايت) لكي أريه العقد. لكن كيف لا يصدقني الرجل وأنا جلست أمامه، ببدلة أنيقة خاصة بالمناسبة ووضعت ربطة عنق للمرة الأولى في حياتي، كما حملت حقيبة ديلوماسية، لكي يكون منظري مقنعاً، بأنني شاب متزوج حديثاً، عنده دخلٌ كافٍ؟ كان يهمّه الإيجارات الثلاثة التي دفعتها له مقدماً. هكذا سكنّا في شقة صغيرة، ربما لم تزد مساحتها عن ٥٠ متراً مربعاً، حوت على غرفتين صغيرتين ومطبخ وحمام، لكن على بالكون واسع، شقة صحيح أنها ليست كبيرة، لكنها أصبحت وطننا الصغير، منطقتنا المحررة. كم تبلغ مساحة العراق؟ ٤٣٨،٣١٧ كيلومتراً مربعاً؟ كم تبلغ مساحة بغداد؟ حسناً لا يعرف أحد، لأن بغداد الحقيقية، بغداد التي على الأرض، لا تملك مساحة محددة. مساحة بغداد متخيلة دائماً، مثلما هي معروفة دائماً بمد ذراعيها إلى كل الاتجاهات. لنقل على الأقل، بغداد تقع على خط العرض ٣٣,٣٣٣٣ وعلى خط الطول ٤٤,٤٣٣٣. كل ذلك لا يهم. أنا وفريدة صنعنا عاصمتنا الخاصة بنا. و ٥٠ متراً مربعاً كافية حقيقةً لكي يشعر المرء بالحرية، طالما أن الفضاء فوقنا، كلما جلسنا على البالكون.

أتذكر كيف أننا جلسنا على البالكون في مساء يوم ١٩ تموز/ يوليو ١٩٧٨، وكان صدام حسين يعقد مؤتمراً صحفياً مع العديد من الصحفيين القادمين من أنحاء العالم، لكي يبرّر الإرهاب الذي أصبح القانون اليومي في العراق، لكي يبرّر إعدام ٣١ مواطناً



عراقياً بتهمة الشيوعية، في ٣١ آذار/ مارس من ذلك العام في يوم ذكرى تأسيس الحزب الشيوعي العراقي بالذات، وليقول جملته المشهورة تلك، التي هي حتى وقت قريب الجملة الأساس التي اعتمدت عليها كل ديكتاتوريات الشرق: "حكومتنا لا تسقط بفارق صوت واحد. حكومتنا جاءت بطريقة وتذهب بنفس الطريقة"، قال مخاطباً الصحفيين، وهو يمدّ يده إلى مسدسه في الحزام. طريقة البستليرو، صاحب المسدس، الذي أراد عن طريق تلميحه ذلك إرعابنا وإرعاب العالم جميعاً. لكن بقدر تعلق الأمر بنا، لم ترعبنا كلماته في تلك الليلة، بقدر ما جعلتنا نسخر منه. هو في وطنه، ونحن في وطننا. كأننا كنا نعيش في بلاد أخرى. إنها منطقتنا المحررة في مدينة الشعب، حي عدن. هل أقول كانت تلك هي أجمل أيامي في بغداد؟ ليس بسبب بحبوبة عيشنا المشتركة، بل لأن منطقتنا المحررة، وطننا "الصغير" ذلك، أصبح ملجأً يمنح الأمان لأصدقائنا العشاق أو لأصدقائنا الهاربين من بطش السلطة، ولا يهم درجات الحرارة المرتفعة التي فاقت أحياناً الخمسين درجة في فصل الصيف بين جدرانه الكونكريتية. فمثلما حولت أنا المدرسة، التي كان يُفترض أن أقوم بحراستها كل ليلة، إلى مأوى للمطلوبين والمطاردين من السلطة، أصبح بيتنا بلاداً تمنح اللجوء للهاربين من رعب السلطة، في سنوات قبل أن يعرف أغلب الذين لجأوا إلينا بلدان لجوء أخرى. شقتنا هي التمرين الأول للجوءات قادمة. إستيتيك المقاومة الذي قرأته لاحقاً في وصفة له عند بيتر فايس، عشته في بغداد، وإن ليس لزمنٍ طويل، لمدة سنة تقريباً، لأننا سنغادر الوطن هذا. لا بدّ من تغيير العنوان، والانتقال إلى بيت آخر.

نحن الآن في الأول من آب/ أغسطس ١٩٧٨، تاريخ التحاقي بالخدمة العسكرية. وعسكري مثلي، يعيش مع امرأة شيوعية، يعني تعرضه للسجن والإعدام. لم أفكر بذلك في البداية. أول ما فكرت به هو الانتقال إلى بيت آخر، حيث لا أحد يعرفنا، المهم البقاء سوية. وعندما اشتدت الملاحقات واشتد الضغط على فريدة، قررنا إخبار الأهل والزواج علناً. فكرة عبثية، لكن لها علاقة بإستيتيك المقاومة أيضاً. بهذا الشكل لن ينظروا إلى فريدة في حالة اعتقالها بأنها "عاهرة" لأنها تعيش مع أحد دون علم أهلها. لا أعرف أحداً من زملائنا أو من أصدقائنا عاش تحت سقف واحد في وضع مثل وضعنا، بل لم أسمع بأحد فعل ذلك قبلنا، يغامر تلك المغامرة المجنونة، خاصةً بالنسبة



للمرأة التي ستوصم مباشرةً بأسوأ النعوت، لأنها أساءت بهذا الشكل لشرف القبيلة أو العشيرة، حسب التقليد الاجتماعي العام!

ألم نعقد زواجنا مع بعضنا صدفة؟ ذات يوم، ونحن نتجول في شارع النهر، مررنا بالمحكمة الشرعية هناك، قلت لها: لندخل ونتزوج. كم هو سهل الزواج في العراق، إذا كان الاثنان متفقين. كل ما احتجنا إليه هو العثور على شاهدين. الشاهد الأول كان الشاعر شاكر لعيبي الذي كان صدفةً هناك. وحسب ما روى لنا شاكر، أنه مرّ بالبناية قبل دقائق، وأن نداءً داخلياً قال له: "ادخل، ربما احتاجك أحد لكي تشهد له!". الشاهد الثاني كان أحد الذين كان عملهم التواجد في المحكمة والإدلاء بالشهادة مقابل مبلغ معين.

ما خفنا منه تحقق بالفعل. استدعوا فريدة للحضور إلى مديرية الأمن العامة في البتاوين في بغداد، تلك البناية المرعبة والضخمة التي مررنا بها مراراً ونحن نركب الباص ذي الطابقين رقم ٣ أو رقم ٤ في طريقنا إلى نادي اتحاد الأدباء. مع استدعائها قررنا ترك الغرفة التي أجرناه على سطح أحد البيوت في حي جميلة، قرب قناة الجيش. وشكراً لصديقي أحمد خلف مرةً أخرى، أو شكراً لأخت زوجته أديبة، التي عملت في مكتب كلية القانون والسياسة في بغداد، حيث درس العديد من ضباط الأمن والمخابرات وهم يسيرون على خطى صدام حسين وأخوته وأولاده وأفراد قبيلته (أليس الأمر سوريالياً؟ أن يدرس القانون بالذات أولئك الذين يضربونه بالجزمة يومياً؟!)، ولأن أخت زوجة أحمد تعرف أحد الضباط شخصياً، أخبرها هذا بأن على فريدة الحضور إلى الاستعلامات والسؤال عنه دون عرض ورقة الاستدعاء. ذهبت فريدة إلى هناك، لتكتشف أن الضابط هذا هو خطيب لصديقة لها من مدينتها، درست معها في الإعدادية. فيلم هندي بالأحرى، لما حمله من مصادفات، خاصةً بدايته، لأن نهايته ستكون نهاية عراقية بامتياز. فهذا الضابط الذي طمأنها بألاّ يحدث لها أي شيء في المستقبل، والذي أعطاها تلفونه لكي تتصل به مباشرةً في حالة تعرضها للمضايقة، أقنعها بالتعاون مع رجال الأمن، لكن ما حدث بعدها كان انقلاباً جذرياً لشخصية فريدة. لم تتركني وتذهب مع خطيب سابق لها من أيام الدراسة الثانوية الذي أصبح مسؤولاً بعثياً في مدينتها، بل دخلت الحزب الحاكم أيضاً. هذه المرة ضاقت الدائرة بالفعل. قصة حب فاشلة أراد الزواج إنجاحها، لكنها انتهت نهاية درامية امتزجت فيها السياسة بالخيانة وخيبات الظن.



هذه المرة، وعلى عكس المرات السابقات، عليّ تحمل النتائج، لأنني لم أفكر بالخطوة التالية. فلولا علاقتي بفريدة لما ذهبت للخدمة العسكرية، ولكنت خارج البلاد مبكراً، مثلي مثل الآلاف من المعارضين الذين غادروا للمنفى، وجميعهم في الطريقة ذاتها، إخراج جواز وتأشيرة خروج كموظف، في العطلة الصيفية أو الربيعية، لأن الموظف لا يحتاج، كما هي الحال عند من يزاول المهن الحرة، الذهاب إلى دائرة الأمن والحصول على موافقة بالسفر من هناك. على أساس أن كل دائرة حكومية فيها مكتب أمن، وكل موظف هو مراقب، أو هو متعاون. كان من الممكن أن أحصل على تأشيرة خروج مباشرةً بعد تخرجي في عام ١٩٧٨، لأنني عملت حارساً ليلياً، وكان يكفي أن أطلب أجازة سنوية. لكنه الحب. حبي لفريدة، الذي جعلني أغامر بالبقاء في العراق، رغم الوضع البائس الذي مررت به، ورغم خطورة لبسي العسكرية. الواحد والثلاثون الذين أعدموا ما زالت ذكرى قتلهم طازجة، ويمكنني التعرض إلى هذا المصير بسهولة. لكن فريدة ما زالت تدرس، تتخرج عام ١٩٧٩، أولاً، ولا بدّ لي من انتظارها، لكي نغادر البلاد سوية، ذلك ما جعلني أقطع القسم الأكبر من راتبي لتحتفظ به لسفرنا، المبلغ ذلك صادرته فريدة مع مكتبتي التي أودعتها عندها. الأكثر حزناً من ذلك هو اعتقالي بعد طلاقنا بفترة قريبة.

في كل تخيلاتي المبكرة واللاحقة لم أكن قد تخيلت نفسي وأنا أجلس في معتقل في بغداد، لا يعرف بي أحد، لا من الأهل ولا من الأصدقاء، معتقل لا أعرف إذا كنت سأغادره حياً أم ميتاً. والأكثر من ذلك هو أنني لم أتخيل أنني سأنتهي إلى مكان مررت به يومياً، في طريق العودة من الجامعة إلى مقهى البرلمان، دون أن أدري أنه سيكون المعتقل الذي أنتهي إليه. لا أظن أنني كنت الوحيد في ذلك، فمن ظن أن الجامع الذي تقدم بناية وزارة الدفاع في بغداد، وانحصر بين الباب الرئيسي للبناية وبين بناية قاعة الشعب، قبالة بيوت الدعارة في ساحة الميدان، أو قبالة ما ستصبح عليه بناية المكتبة الوطنية، أن الجامع التاريخي هذا، جامع الأزبك الذي بُني قبل تأسيس الدولة العراقية، سيتحول إلى بناية تمويه لسراديب تعذيب تابعة لمديرية الاستخبارات العسكرية الملاصقة له؟ الأكثر رعباً، لم أتخيل نفسي وحيداً بهذا الشكل، سجيناً بدون فريدة. أية أسرار تخبئها لك بغداد منذ الآن؟



٣٢

تحولات المدينة، العيش في الحزن والحاجة للنوم

في بعض الأوقات يتبدل لون المدينة ويصبح منظرها غريباً أمامي. الألفة تلك التي بنيتها معها طوال سنوات إقامتي تصبح ذكرى بعيدة تنتمي إلى الماضي، كأنها لا تعود لي. فجأةً تصبح المدينة غريبة عني. تضيق مساحتها وتتحول حتى شوارعها العريضة إلى جدران أصطدم بها أينما توجهت. أعرف أن شاباً مثلي، ودّع سنواته العشرين للتو، لا بدّ وأن يستحوذ عليه من حين إلى آخر هذا الشعور. أقصد شعور بالحزن يمتزج معه إحساس قوي بالفقدان، بالخسارة. ولا يهم أنني لم أكن الشاب الذي أراد الحصول على المستحيل. أعرف ذلك. كنت واقعياً، ولا أزال، أتحرك بحدود الممكن. ولا حاجة لأن يذكرني أحد بذلك، كما فعل صديقي المتوفي الشاعر كمال سبتي، في أول لقاء لنا بعد سنوات في المنفى، أثناء إقامتي المدريدية عام ١٩٩٠، "أنت تحسب الأمور من كل جوانبها قبل أن تقدم على قرار"، قال لي كمال في حينه. أعرف ذلك، ولا أزال أتذكر، كيف أنني أُعجبت بشتيفان تسفايغ مباشرةً بعد قراءتي لروايته لعبة شطرنج. تسفايغ جعل بطله يخسر لعبة الشطرنج لسبب بسيط، لأنه لم يركّز التفكير على اللعبة التي يلعبها، بل شغل نفسه بلعبة أخرى لاحقة. لا أظنني الوحيد الذي كره الخسارة. كل رفاق جيلي "الخسرانين" (حتى الآن) فعلوا ذلك. لم يغرني الفوز، و لم يجذبني مشهد النجاح السريع. كنت، ورغم سنيّ الصغيرة تلك، مثل شيخ حكيم، أرتّب أمنياتي بشكل واقعي، أكتفي بالخطوة الأولى، دون التفكير بالخطوة الثانية. أردت دراسة التمثيل في





نجم والي مع أختيه نوال وحميدة أمام تمثال بدر شاكر
السياب عند كورنيش البصرة في نوفمبر 1978



في كافتيريا كلية الآداب، جامعة بغداد،
مع بعض الزميلات والزملاء، 1977.



نجم والي في حديقة قسم اللغات الأوروبية،
كلية الآداب، جامعة بغداد، 1977.



أكاديمية الفنون الجميلة مثلاً، وعندما رُفضت، بسبب عدم انتمائي إلى حزب البعث، قدمت أوراقي إلى دراسة اختصاصات أخرى، وعندما أصبح نصيبي دراسة الأدب الألماني، قبلته وبحماس، رحت أدرس بجدية، كما لو كانت رغبتي أصلاً هي دراسة الأدب الألماني.

لكنني رغم ذلك لم أفكر أن أصبح المتفوق الأول في الفرع. الرغبة بأن أكون الأول في الصف، أو فارس الصف، كما أطلقوا علينا في المدرسة الابتدائية، انتهت عندي منذ دخولي الصف العاشر. فمع بداية تفتحي الذهني، وعييّ، اكتشفت أن المدرسة في العراق هي أسخف وأتفه ما نملك، ويكفي أنني أنجح بدرجات معقولة. النجاح في المركز الأول يجلب الحسد والمشاكل لا غير. نفس الشيء فعلته في دراسة الأدب الألماني. لكني وبسبب سرعة تعلمي للغات الأجنبية لرغبة عندي لقراءة الآداب العالمية بلغاتها الأصلية وليس في ترجماتها التي نادراً ما كانت في المستوى المطلوب، أو ربما بسبب رغبة قديمة عندي بالرحيل، وجدتني في السنة الثالثة من دراستي الجامعية، أي عام ١٩٧٧، ودون أن أدري أصبحت أحد المتفوقين العشرة الأوائل في فرع الأدب الألماني. العشرة الأوائل هؤلاء يذهبون بصورة أوتوماتيكية ببعثة دراسية في العطلة الصيفية إلى ألمانيا الديموقراطية، لتطبيق اللغة، يعملون في أحد المصانع هناك لمدة ثلاثة شهور. لكن عليهم، ولكي يذهبوا، أن يكونوا بعثيين. تفوقي جلب لي مشكلة. لحسن الحظ اكتشفته قبل بداية الامتحانات لنهاية السنة الدراسية. أصلاً لم تكن عندي رغبة بالذهاب إلى ألمانيا الديموقراطية. كان واضحاً لي أنها ديكتاتورية أخرى. لتجنب ذلك، لم يبقَ أمامي غير الرسوب، الغياب وعدم الامتحان في إحدى المواد الدراسية، أي أن أصبح ما أطلق عليه آنذاك "مُكمّلاً"، أعيد الامتحان في فصل الخريف.

أيضاً عندما عملت في إذاعة بغداد، في عام ١٩٧٥، لم أفكر بالخطوة التالية، بأنني سأصعد في وظيفتي، وأصبح في مركز مرموق. رغم أن مدير القسم الذي عملت فيه كان في مثل عمري تقريباً، ربما كبرني بثلاث أو أربع سنوات. لكنني كنت أعرف أن الشخص هذا، الذي كان هاوياً في كتابة القصة القصيرة أنذاك، لم يحصل على المركز المهم ذلك، والذي كان بداية صعود لاحق، بسبب مؤهلات دراسية أو مهنية، إنما لأسباب أخرى، أولاً: لأن خاله شاذل طاقة كان وزير خارجية العراق في تلك الفترة،



ثانياً: كان سنيّاً من أهل الموصل، ثالثاً: كان بعثياً في صف متقدم، رابعاً: كانت عنده زوجة جميلة لها أخوات جميلات أيضاً. بمعنى آخر: إنه امتلك كل تلك الصفات التي أفتقدها. لكن شكراً لأحمد خلف. أحمد كان هو وراء عملي في الإذاعة. جعلني أعمل محرراً في القسم الثقافي في إذاعة بغداد. نفس القسم الذي عمل فيه. حتى وجود النساء في القسم، واللواتي شكلن أغلبية، لم يغرني بالسعيّ بالصعود الوظيفي. فيكفي أن مذيعة جميلة وموهوبة مثل أمل حسين كانت زميلة لي في القسم يُغري بالبقاء بالعمل هناك. كنت أعرف أن أيامي بالعمل معدودة. لا مكان لغير بعثي في الإذاعة. الإذاعة كانت هي المدخل الأول لكل انقلاب عسكري. يكفي أن يدخلها عسكري، ويقرأ البيان رقم واحد، ويعلن عن تسلمه السلطة حتى تكون السلطة فعلاً بيده. كل الانقلابيين في العراق فعلوا ذلك. لذلك لم يكن الدخول لمبنى الإذاعة بالأمر السهل، خاصةً بعد انقلاب البعثيين في ١٧ تموز/ يوليو ١٩٦٨. مع صعود صدام حسين إلى أعلى هرم السلطة، تحوّلت الإذاعة إلى ما يشبه الحصن الكبير، تحرسها الدبابات والمدفعية المضادة للطائرات. أما الاستعلامات فيشرف على العمل فيها رجال الأمن، سحناتهم البدوية كانت واضحة، تشير إلى مناطق شمال غرب العراق القادمون منها: من تكريت. الدخول إلى الحصن هذا كان يشبه الأسطورة، فكيف هو العمل فيها؟ أتذكر الرعب الذي استحوذ عليّ عند دخولي إليها للمرة الأولى. الأكراد والشيعة المستقلون لا مكان لهم في المبنى "الخطير" ذلك، عليهم أن يكونوا بعثيين، وبدرجة عالية من البعثية! أعرف ذلك. فحملة التطهير التي قامت بها السلطة في إذاعة بغداد لا تزال طازجة، فصلوا أكثر من ثلثَي كل الموظفين العاملين فيها، بتهمة أنهم شيوعيون. يُمكن عمل قائمة طويلة منهم هنا. على أية حال، فضلاً عن شيوعيتهم، كان أغلبهم من غير العرب السُنّة. لم تقل السلطة ذلك، لكن سلوكها يوضح ذلك. نعم، هناك استثناءات، سمحت لبعض المثقفين الذين هم من أصل شيعي بالبقاء بالعمل في الإذاعة. لكن عددهم يظل قليل. ثم أن السلطات الأمنية في الإذاعة، والتي هي مخابرات أو جهاز خاص تابع مباشرةً لصدام، تعمّدت الإبقاء عليهم، لكي يقوموا بالدور الذي أُعدّ لهم: لكي يُقال إن الإذاعة ليست طائفية ويعمل فيها عرب سنّة فقط، والقسم الآخر لكي يقوموا بدورهم المطلوب منهم، التجسس على الآخرين.



ثلاثة شهور دام عملي في الإذاعة، وهي في الحقيقة فترة الاختبار التي وضعها مدير القسم لي، دون أدري، لأنه هو الذي أخبرني بأن الثلاثة شهور التي مرت، المدة التي كنت فيها تحت الاختبار، انتهت، وأن عليّ مغادرة الإذاعة. وشكراً لأحمد خلف مرة أخرى، الذي جعلني أعمل هذه المرة في المجلة التابعة للإذاعة والتلفزيون، التي كان رئيس تحريرها بعثياً متعصباً بميول فاشية، شيعياً من النجف، وبالذات أشخاص من نمطه، فلكي يثبتوا ولاءهم المشكوك به، لأنهم شيعة، كانوا أكثر بطشاً من السنّة البعثيين. ستة شهور على الأقل بقيت أعمل هناك، قبل أن يُرسل الشرقي بطلبي ويخبرني أنني مطرود، لأن مجلة الإذاعة والتلفزيون ليست مكان نشر للأدبيات الشيوعية. وهو يقصد الريبورتاج الذي نشرته في ذلك الأسبوع، عن "أول المصورات في العراق"، الذي أثار حفيظته لسببين: أولاً، لأنه جاء مثل جواب على تحقيق صحفي "مزيف" نشرته المجلة الحكومية الأخرى، ألف باء، تحت عنوان "أول المصورين في العراق" الذي أراد كاتبه أن يقول إن المصورين الأوائل كلهم رجال... و... بعثيون، وثانياً، أن النساء اللواتي تحدثت معهن في الريبورتاج كن صدفة شيوعيات.

بعد الطرد ذلك، عرفت أن لا مكان لي في الإعلام العراقي. تجربة العمل في القسم الثقافي في إذاعة بغداد ومجلة الإذاعة والتلفزيون، وحتى طردي من هناك، كانت - ومن غير المهم قصرها - كافية لكي أعرف ضرورة استقلال الكاتب عن السلطة في العراق، والأكثر من ذلك علمتني المبدأ البسيط: أن من يريد أن يصبح كاتباً روائياً يسير على خطى الروائيين العالميين عليه ألاّ يخضع لسلطة دولة أو حزب، عليه أن يلبّي نداء الحواس وحسب، يكتب من القلب، على هواه. كان من المستحيل تحقيق ذلك في العراق. منذ بداية العام ١٩٧٧، على وجه الخصوص، نجحت السلطة بإحكام قبضتها على كل شيء. الأيديولوجية البعثية، هذا السرطان المخيف، وزّعت أورامها في كل مجالات الحياة في العراق.

العنف والقتل والعنصرية، الكذب والجهل والغنيمة والتهميش، كل السلوكات الثقافية التي لا تزال تعصف بالحياة العامة في العراق هي خلاصة ٣٥ عاماً من حكم الأيديولوجية البعثية هذه. لكي يقي المرء نفسه من هذا المرض، أو لكي يكون إنساناً حراً وكاتباً همه الكتابة وحسب، كما هو الأمر معي، عليه أن يبحث عن مهنة حرة، أو



مهنة لا علاقة لها بالصحافة والإعلام. هكذا عملت حارساً لإحدى المدارس الابتدائية في محلة القُشَل في منطقة الشورجة.

تلك هي أمثلة بسيطة لما أردت الذهاب إليه في بداية الحديث هنا، هو أنني، وفي كل الخسارات التي عشتها، نظرت لها بصفتها خسارات مؤقتة، إذا لم أبحث فيها عما هو مفيد لي. وإلا ماذا كان سيجلب لي الذهاب إلى بلد ديكتاتوري غير ديموقراطي، مثل ألمانيا الديموقراطية، غير وجع الرأس؟ أما فصلي من إذاعة بغداد ومجلة الإذاعة والتلفزيون فكان درساً لتجنّب العمل في وسائل الإعلام الرسمية، وفرصةً للمحافظة على استقلاليتي. أما دراستي للأدب الألماني بدل التمثيل فكان هدية من السماء، وإلا لما جلست هنا، في برلين، أكتب هذه الكلمات. أو أبعد من ذلك، لما كنت في ألمانيا وأصبحت الذي أنا عليه اليوم.

ثلاث سنوات كانت مرت على دراستي في بغداد، ثلاث سنوات عشت فيها الكثير من الخيبات، لكن العثرات التي وقفت في طريقي، صعوبات النشر مثلاً، الإفلاس في السنتين الأوليتين، فشل علاقاتي الغرامية، طلاقي من المرأة التي أحببتها، كل ذلك لم يجعلني أبطل الأمل. أن أقول لنفسي إن ما سيأتي سيكون أحسن مما كان. وأن الشعور بالغربة الذي يستحوذ عليّ ويجعل منظر المدينة يصبح غريباً بالنسبة لي، ليس له علاقة بي فقط، بل أكثر له علاقة بالمحيط. ومن يعش مثلي، بجسده الخفيف، بنحافته، وفقره، لابد وأن يشعر بالحزن هذا، فهو مثل من يناطح الصخر بجسد من زجاج. لا بدّ وأن يشعر بوجع الرأس، ولا ينفعه إلا أن يقلّب أيامه وأن ينظر أمامه، أن يرمي خطوته نحو الأيام، بانتظار بعض الأفراح. ولكي أقدّم عزاءً لنفسي، أقول لها، ربما أنه فصل الخريف الذي يجعل المدينة تصبح كلها غريبة، ربما هي أجراس الشتاء التي تقرع تجلب كل هذا النحيب للروح، من يدري؟ رغم معرفتي أن الشعور ذلك صاحبني حتى في فصل الربيع، لكنني أعرف وطأة الخريف. فعندما يمتزج الفصل الكئيب هذا أصلاً مع الخيبة أو الفشل في الحب، تضيق المدينة، أية مدينة، ولا تعود تسع حدود الانفجار في النفس، فكيف هي الحال إذا كانت المدينة هذه هي بغداد؟ بغداد التي تعيش أصعب أزمانها، حيث أزمان اشتداد المطاردات والملاحقات والاعتقالات تشتد، سواء في البلاد بشكل عام، حيث اعتقلوا للتو ٣١ مواطناً، أغلبهم عسكريين، بتهمة الشيوعية،

وامتلاك تنظيم شيوعي في الجيش يعني الانتهاء إلى الحكم بالإعدام، لا محال، أو سواء في الجامعة، حيث بدأ المسؤولون البعثيون في الكليات يُرسلون في طلب الطلاب من غير البعثيين، يستجوبونهم في غرف مغلقة؟ المدينة تضيق، جمالها يتحول إلى ألم، والحزن يكبر ويكبر، وكأن الصراع بين البقاء والمغادرة هو تمرين على الفراق.

ما حصل بعد ذلك، وبالذات في السنوات الثلاث اللاحقة، هو تنويعات على يمكن أن يُطلق عليه "استيتيك المقاومة" (لكي نستعير الاصطلاح الجميل المعبّر هذا من بيتر فايس)، والمقصود هنا هو كل تلك السلوكيات التي هي تنويعات على المقاومة ضد الديكتاتورية، وإن لم تكن سلوكيات سياسية مباشرة، لكنها تتوسم البقاء على قيد الحياة على أقل تقدير. فمن يبحث عن الشلة القديمة المتمردة التي أدمنت الجلوس في مقهى البرلمان سيخيب ظنه. عليه بدل ذلك البحث عنهم في أماكن أخرى، وعليه ألا يستغرب وهو يراهم لجأوا إلى خيارات أخرى ما كانوا فكروا فيها من قبل. ألم يبدأوا في التفتيش عن السبح القديمة، والجلوس في المقاهي الشعبية كما يفعل رجال أيام زمان، السبحة في اليد والنارجيلة أمامه، وفي الأرجل تلعب الكيوات القديمة، التي واظبوا على شرائها من بائع كهل، دكانه يحاذي المدرسة المستنصرية؟ ألم يشرعوا في البحث عن مقاهٍ شعبية في أزقة بغداد القديمة، حتى أصبح من الصعب العثور عليهم في أماكنهم القديمة: مقهى البرلمان، بار شريف وحداد، بار الركن الهادئ، بار جبهة النهر، مقهى الرفاه، مقهى ياسين، مقهى المعقدين، بار سرجون، بار صفوان، بار ليالي الصفا؟ لقد دخلت مقاهٍ وبارات وشوارع وأزقة جديدة إلى قواميسهم. لقد أدمنوا هذه المرة على الانتشار في شوارع الكفاح، الشيخ عمر، الجمهورية، البتاوين، في بارات باب الشرقي، التي كانت بالنسبة إليهم كأنها تقع في قارات أخرى. ألم تتغير أحاديثهم؟ ما عادت تدور حول الخلاف بين الوجودية والماركسية، أو عن عظمة رامبو وجنون فان غوغ، بل راحت تدور هذه المرة عن أية سِبحَة أحسن الكهرب أم سِبحَة اليِسر، أو عن شريط غنائي نادر عثر عليه أحدهم، أو عن بار جديد أو عن مقهى منزوٍ. لم يتحدث أي واحد منهم عن التعهد بالامتناع عن أي عمل سياسي الذي أعطاه، وكأنه حدث حيادي يحدث في قارة أخرى ولأشخاص آخرين. ألم أمارس الطقوس ذاتها، ورحت أجمع الأغاني القديمة، أغاني حسن الإيطوبرجاوي، مسعود العمارتلي، زكية جورج،

حضيري أبو عزيز، سليمة مراد؟ بل وحتى أغاني الخشابة التي شكلت لي عزاءً في ليالي الوحدة التي قضيتها على سطح فندق في ساحة التحرير، بالضبط عند حديقة الأمة؟ وهل هناك عزاء أفضل للخلاص من إسهال أغاني السلطة والقائد التي احتلت حتى الهواء في بغداد؟

لكن ماذا عن الكتابة؟ في تلك الأيام، وفي يوم من أيام الخريف ذلك، يوم جلب معه وللغرابة لوناً فضياً استثنائياً، رغم جبال الكآبة التي حملها معه، كتبت قصة "طقوس مسائية" أو "الحاجة للنوم". استيتيك المقاومة لا بدّ وأن يتجسّد في قصة قصيرة هذه المرة، ولتكن هذه القصة الأخيرة عن بغداد في بغداد، إذا لا تكون الأخيرة لي في العراق. ففي يوم من أيام تشرين الأول/ أكتوبر، بعد مطر خفيف، وبعد عودتنا أنا ومنعم في سيارته الرينو من رحلة رومانسية فاشلة في جزيرة أم الخنازير، فكرت أنني لا بدّ وأن أكتب القصة تلك، والتي هي خليط من التجربة التي حصلت لنا في ذلك اليوم مع المسلحين من جهاز المخابرات، حيث خرجنا للتنزه هناك وقراءة الشعر على عادتنا في تلك الأيام (مع رباب، صديقة منعم وزوجته اللاحقة، وزميلة أخرى من قسم الأدب الإسباني)، بعد أن تعرضوا لنا في جلستنا، منعونا من البقاء في المكان؛ ومن تجربة أخرى روتها لي فريدة هي الحقيقة، كيف أنها ذات مساء لم تستطع النوم بسبب مجموعة مسلحة رأتها تحت شباكها تطلق النار، وكان عليها أن تنظر قليلاً لكي تعرف أن المجموعة تلك متخصصة بقتل الكلاب السائبة.

"طقوس مسائية" أو "الحاجة إلى النوم" تتحدث عن وجيهة، طالبة جامعية في سنتها الأولى، قادمة من الجنوب، تسكن القسم الداخلي وتتقاسم غرفتها مع طالبتين في قسم الأحياء مشغولتين بتحنيط الطيور. وككل الفتيات القادمات من الجنوب، كانت وجيهة مترددة في ذلك المساء بالخروج للقاء صديقها ملهم. في داخلها كانت تتوق لعلاقة حب، لكنها ولأنها لم تمر بتلك التجربة من قبل، بالخروج والتنزه بحرية مع من تحب، كان لا بدّ وأن تشعر بالتردد. فهي ما زالت حديثة العهد في بغداد. بغداد مدينة كبيرة، عليها التدرب على الوثوق بالآخرين، أو على الوثوق بنفسها، بقدرتها على التصرف بصورة صحيحة، رغم ما تحمله الحرية الجديدة من استفزاز. لكن كيف تفعل ذلك، وما يحدث حولها، في محيطها، يجلب لها كل ما يسبب الخوف؟ أمس مثلاً لم تنم، بسبب صياح المسلحين تحت نافذتها، وما أثار رعبها هو صوت طالبات القسم

الداخلي وهن يصرخن بحماس "إنهم يقتلون الكلاب السائبة"، كأن قتل الكلاب بتلك الطريقة أمر مباح؟ أحد الكلاب السائبة التصق بحديد النافذة، قبل أن يطلقوا عليه النار، كانت نظراته المتوسلة واضحة، ذكّرتها بنظرات أخيها قبل أن يموت في المستشفى متأثراً بجراحه البليغة التي أُصيب بها في حرب الشمال. الحزن يشلّها، يمنعها من الخروج، حتى عندما أقنعت نفسها أن خروجها مع ملهم لن يكون بسبب حبها له، بل أنها ستخرج بسبب حبها للتجوال في أزقة بغداد القديمة، الكرخ. كم عشقت البيوت تلك، منذ اليوم الأول الذي رأتها فيها. خوفها الملتبس ذلك، وتعليقات الطالبتين، اللتين كانتا منهمكتين بتحنيط عصفورين، على علاقتها مع "ملهم" المفلس، جعلها تحزن أكثر، تشعر بتعب ورغبة كبيرة بالنوم. وهذا ما جعل القصة تحمل عنواناً فرعياً: الحاجة إلى النوم.

لا أدري إذا كنت أنا الآخر بحاجة إلى النوم في حينه. أتذكر أنني جلست على مقعد مصنوع من جذع شجرة يوكالبتوس، وكان منعم انشغل بكتابة رسالة طويلة لأخته. فجأةً، وبعد دقائق من جلوسي، طلبت منه أوراقاً وقلماً. "كان يوماً مليلاً ذلك..." هكذا بدأت القصة التي كانت أسرع قصة كتبتها، لكن أكثرها حزناً في كل الأحوال. أتذكر أنني بكيت عندما انتهيت منها، مسحت الدمعة وقلت لمنعم، الذي لم يرني بمثل تلك الحالة من قبل، قلت له إنها آخر قصة أكتبها في بغداد. بالفعل، القصة هذه هي آخر قصة كتبتها في بغداد، ونشرتها في آذار/ مارس ١٩٧٨، بعد خمسة شهور من كتابتها، في مجلة **الأديب المعاصر** والتي كانت بالصدفة آخر عدد يصدر في حينه عن اتحاد الأدباء (لأنها توقفت سنوات طويلة قبل أن تصدر لاحقاً وبانقطاع!)، كأنني أردت أن أودّع فيها بغداد، كأنني أردت التمرن على ساعات الوداع، وذلك ما يفسّر ما حملته القصة هذه من حزن وعويل، من غضب وصراخ. ليس من الغريب إذن أن جميع أعضاء هيئة تحرير مجلة **الأديب المعاصر** في حينه (من شيوعيين وبعثيين) رفضوا نشر القصة، وكم أنا ممتن لذلك، وحتى اللحظة هذه، لروائي بغداد الأول، الجنتلمان المتوفي فؤاد التكرلي، الذي كان المستقل الوحيد في هيئة التحرير، مثلما كان الشخص الوحيد الذي أصرّ على نشر القصة. كأنه قرأ رثاءً متقدماً لمدينته بغداد، نعياً لا بد من نشره لكي يقرأه الجميع.



٣٣

وقت للحياة ووقت للموت

أريش ريمارك والخريف الألماني الساخن في بغداد

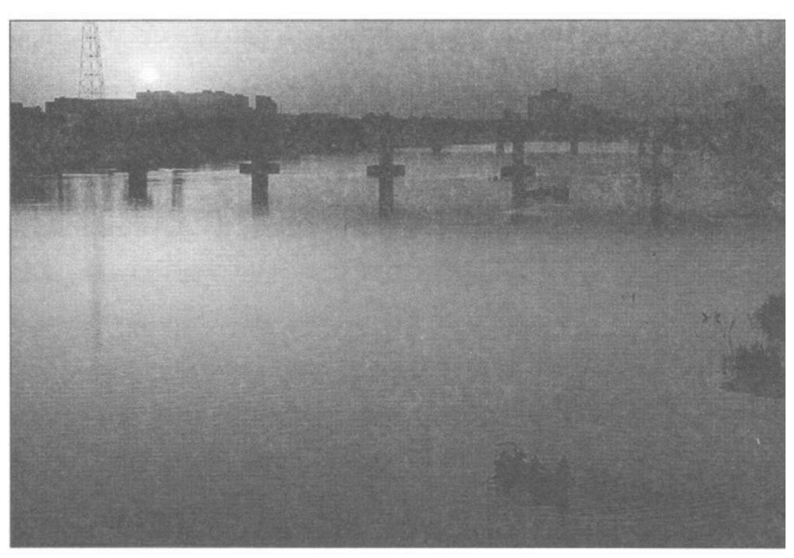
كأن ذلك الخريف، خريف عام ١٩٧٧، لم يشأ مغادرة المدينة على عجل، كأنه شاء أن يظل ملتصقاً بقمم الأشجار وعلى سطوح البيوت، في دخان التنانير والمخابز المصنوعة من الطين، أو كأنه شاء وبغفلة منا جميعاً تتويج نفسه، مستعيراً ولو لبعض الوقت خريفاً آخر بدأ مشواره أصلاً بطريقة أخرى في ألمانيا. في تلك الأيام، التي بدأت فيها الصحافة ووكالات الأنباء في العالم لم تتحدث عن "الخريف الألماني"، كان عليّ استعادة رواية **للحياة وقت وللموت وقت**، للألماني أريش ماريا ريمارك، مجدداً بأكثر قوة. كأن حياتي لا بدّ وأن تأخذ مسارها الدائم، باتجاه ألمانيا؟ بالضبط في الفاصل الزمني القصير، بين بداية علاقتي بفريدة وتأجيرنا للشقة، حيث كنا نتنقل، هي وأنا، مثل غريبين في المدينة يبحثان عن ملجأ لهما. لم تعد تكفينا ساعات النهار التي نلتقي بها، إذ غالباً، وفي ساعات الغروب، ما أن تبدأ الشمس بتوديع العالم تدريجياً، وقبل أن تختفي كرة كبيرة مشتعلة تنثر رذاذ ضوئها في الأفق البعيد، يهجم علينا شعور بالفقدان، يفوق كل ما عرفناه منه من قبل، كم كان من الصعب علينا مفارقة بعض.

في بعض تلك المساءات كنا نسير مجرجرين أقدامنا باتجاه باب المعظم والأقسام الداخلية للبنات، مذعنين لضغط الظرف وعدم الحيلة، أودّع فريدة على مضض. كان من السهل رؤية الحزن على وجهينا نحن الاثنين، لكن على وجه فريدة أكثر طبعاً، كانت



أكثر ما تمقت في أيام الخريف تلك هو العودة إلى غرفتها في القسم الداخلي، أن تجلس هناك، بانتظار مجيء الليل والنوم، تعاين الوقت وهو يمر بملل، ولكي تهرب من رتابة الساعات وهي تمر، لكي تهرب من إزعاج زميلاتها اللواتي كن يتقاسمن معها غرفة النوم، تلجأ إلى الفراش مبكراً، تدفن رأسها في المخدة أو بشرشف خفيف، كما روت لي، وهي توضح كيف أنها في تلك الساعات بالذات كانت تحتاج الجلوس معي والحديث، قبل أن نذهب سوية للنوم. أعرف أن ذلك ما جعلها تبكي بعض الأحيان، ما أن نصل الساحة الكبيرة أمام مبنى الأقسام الداخلية. وأنا؟ كان عزائي الوحيد هو الذهاب إلى مبنى اتحاد الأدباء أو إلى بار في شارع أبي نؤاس، لا أحد يعلم منا أننا سنلتقي في اليوم الآخر ببعض. فمن يدري أنني لن أعتقل وأؤخذ وأنا في طريقي أو وأنا جالس في بار؟ أو أنها هي التي ستُعتقل، سيأتون لأخذها من القسم الداخلي؟ المشكلة أن لا أحد يدري ماذا يخبأ لنا الوقت القادم. فكيف لا أتذكر الألماني أرنست غريبير وحبيبته إليزابيث؟

أرنست غريبير كان عمره ٢٣ عاماً عندما جاء في إجازة غير متوقعة من الجبهة



بغداد عند مغيب الشمس في أواخر السبعينيات.



الشرقية التي كان يقاتل عليها في الحرب العالمية الثانية وفي وحدة عسكرية تابعة للجيش السادس الألماني. الجندي الشاب الذي عاش للتو بنفسه هزيمة الجيش السادس على جبهة ستالييننغراد، ورأى الآلاف تموت هناك، لم يدرِ أن عليه أن يعيش حطاماً آخر هذه المرة، حطام مدينته برلين. قصف طائرات الحلفاء ترك أثره البالغ في المدينة. بيوت محطمة وشوارع محفورة، وعوائل تركت بيوتها خوفاً من الموت تحت الأنقاض. حتى عائلته غادرت إلى مكان مجهول. أرنست غريبير الذي سيبدأ بالدوران في المدينة مثل غريب، بحثاً عن مأوى أو عنوان لمعارف وأصدقاء، لن يشعر بالفرحة إلا عندما يلتقي إليزابيث، الفتاة التي انتهى أبوها إلى معسكر للاعتقال بسبب وشاية. الاثنان يقعان في حب بعضهما ويقرران الزواج، بل يكافحان في سبيل الزواج. قصف المدينة يستمر، القائد المجنون الذي اسمه هتلر ما زال مصراً على تنفيذ جريمته حتى النفس الأخير، الناس تهرب، ليس أمامهم غير الموت تحت الأنقاض. فقط هما الاثنان لا يريدان المغادرة. إلى أين؟ يدوران في برلين من مكان إلى آخر، وعندما يقترب المساء يبحثان عن ملجأ يلجآن

بغداد ليلاً في أواخر السبعينيات.

تدري، أو ربما تدري ولا يهمها الخراب الذي تسير إليه. "من المذنب ومن هو الشريك في الجريمة؟"، نحن الآخران لم نعرف ذلك، خاصةً إذا كان الشركاء في الجريمة من كل الأطراف، ولا يهم ما حملوه من اختلاف في الأيديولوجية أو القومية أو الدين. من يدري، ربما ما كنت تذكرت أرنست غريبير وأريش ماريا ريمارك مرة أخرى وبهذه القوة لو لم أرَ في تلك الأيام شركاء في الجريمة، لم يكونوا غير: ألمان؟

في المساءات التي كنا نغامر فيها بالبقاء مع بعض، ونحن نقول لأنفسنا "وليكن ما يكون"، أو في نهاية الأمر، "ليس هناك منقذ غير الجنون"، كنا نذهب أولاً إلى مبنى اتحاد الأدباء في ساحة الأندلس، نجلس في حديقة الاتحاد، خاصةً في الليالي التي لا تنخفض فيها درجات الحرارة، نتعشى ونشرب ما يعجبنا هناك. أعرف أن مشهد دخول امرأة إلى اتحاد الأدباء لم يكن أمراً معتاداً، وأن حتى أولئك الذين فضلوا الجلوس لوحدهم في الأيام العادية، بصفتهم أدباء "عباقرة"، يحتاجون الوحدة والابتعاد عن "الرعاع"، أو "الزعاطيط" سينادون عليّ، حالما يروننا ندخل سوية سيسألونني، والابتسامة التي لم أرها على وجوههم في الأيام الأخرى، إذا تفضلنا بالجلوس إلى مائدتهم، نفاق واضح أعرفه، وكنت أرفض طلبهم بأدب طبعاً، على عكس ما كنت أفعله مع أصدقاء آخرين، فأنا من يطلب منهم في الحالة هذه إذا كان من الممكن أن نلجأ للنوم عندهم في تلك الليلة. هؤلاء وثقت بهم، أعرف زوجاتهم أو أهلهم (كما مع الشاعر شاكر لعيبي). المشكلة هي فقط في الليالي التي لا يأتون بها. ففي العراق، ليس من المعتاد أن يتواعد اثنان، خاصةً في تلك الأيام، حيث الحصول على رقم وخط تلفون أمر يدخل في باب المعجزات، ثم إن الجميع يعرف أين يمكن العثور على الآخر. أماكن لقاءتنا كانت ثابتة، لا تتغير: المقاهي ذاتها، البارات نفسها. في بعض الليالي تلك، التي تفشل فيها مغامرتنا، لا يساعدنا غير خيالنا. في البداية نحاول أنا وفريدة تأجير غرفة "للعوائل" في فندق في شارع السعدون، مرات قليلة نجحنا فيها، لكن بشق النفس وبالاحتيال، لأن من يبحث عن غرفة زوجين عليه أن يُظهر وثيقة عقد زواج. ومن يقرر النوم في فندق فجأةً، لا يفكر قبلها بحمل الوثيقة تلك، فكيف نقنعهم أننا متزوجان، قادمان من مدينة أخرى، ونحن لا نحمل حتى حقيبة صغيرة معنا؟ هل نقول لهم إننا اضطررنا لترك بيتنا بسبب المطاردات والملاحقة؟



أتذكر أننا في إحدى الليالي التي فشلنا فيها بالعثور على فندق أخذنا تاكسي إلى منطقة دور نواب الموظفين في القطاع ٤٨ في مدينة الثورة، الحيّ المشهور ببيوته الصغيرة الواطئة، لم يبقَ أمامي غير بيت أهل الشاعر شاكر لعيبي. شاكر تخرّج من الجامعة المستنصرية قبلي، وكان يؤدّي خدمته العسكرية في معسكر بعقوبة على ما أتذكر، لكنني كنت أعرف عائلته جيداً، وكانوا يعرفون فريدة. وعندما طرقت الباب عليهم، لم يخرج لي أحد، بدل ذلك، خرج جارهم، من البيت المحاذي لهم، ليخبرني أن العائلة انتقلت للعيش في حي عدن. لم يبقَ أمامنا غير التجول في شوارع مدينة الثورة إذن، لأننا لم نملك مبلغ لأخذ تاكسي العودة. وحتى لو امتلكنا المبلغ، فإلى أين سنذهب؟ القسم الداخلي لفريدة مغلق، ولن يسمحوا لها بالدخول في ساعة متأخرة من الليل.

الرجل، الجار هذا، لم يعرف العنوان الجديد لبيت شاكر. لم يبقَ أمامنا إذن غير التجول عبر مدينة الثورة، ولأن الحاجة أم الاختراع، بحثنا عن المخابز. وفي كل مرة نصل مخبزاً، ونرى خبازين يعدون العجين لليوم الثاني، نجلس عندهم، نسألهم عن عملهم، نقول لهم: نحن صحفيان نعمل ريبورتاجاً ليلياً عن المدينة، جميعهم صدّقوا القصة، حتى أنهم راحوا يصفون لنا الطريق إلى المخبز الآخر.

لكن تظل الليلة التي أتذكرها بقوة، أكثر من ليالي تشردنا الأخرى، هي ليلة لقائي بثلاثة ألمان غربيين، لهم علاقة (أو ليس لهم، من يدري؟) مع جماعة جناح الجيش الأحمر الألماني أو ما أُطلق عليهم عندنا: جماعة بادر ماينهوف. كان من الممكن أن أتخيل لقائي بأي شخص في إحدى جولاتنا الليلية تلك، حتى إذا كان صدام حسين نفسه، إذ ربما أراد، وهو المهووس بتقليد كل شيء، تقليد هارون الرشيد الذي اشتهر بجولاته الليلية في أزقة وأسواق بغداد. نعم، كان من الممكن أن ألتقي بكل شخص، لكن أن ألتقي بشابة وشابين ألمان غربيين وفي ساعة متأخرة من الليل، بدوا لي للوهلة الأولى مثلنا ضائعين، قبل أن يدخلوا معي في حديث طويل عن خريف ألمانيا الساخن، فهذا ما لم يخطر لي على بال؟

في تلك الليلة الغريبة، والتي تبدو أقرب للخيال منها للواقع، كنا نجرجر أقدامنا، وإن بثقة قليلة، باتجاه منطقة المسبح، المنطقة الراقية التي كانت تكتظ ببنايات السفارات الأجنبية، وفي نفس الوقت، المنطقة التي أسكنت فيها الحكومة العراقية في شقق بناياتها



الحديثة والعالية بعض اللاجئين العرب والأجانب. في ذلك الوقت، كانت الحكومة قد منحت اللجوء لأديب سعودي شاب، اسمه عبد الله باخشوين، والذي التحقت به زوجته وطفلهما بعد حين. إلى شقة الصديقين أردنا اللجوء في تلك الليلة. وكان احتمال وجوده كبيراً!

صحيح أن دخول العمارات الحديثة تلك لم يكن بالأمر السهل، سياج عالٍ ببوابة ضخمة عزل البنايات بحدائقها التي تقدمتها والشارع، لكنني لم أيأس. لقد سبق وأن زرنا عبد الله وزوجته مرتين، ثم أن حارس البناية سبق وأن رآنا، يكفي أن ننادي عليه ونقول له اسم مضيفنا. لخيبتنا لم يكن الحارس هناك، وقبل أن نستدير لنبحث عن بديل آخر، رأينا ثلاثة أشخاص أصبحوا مباشرةً خلفنا، رطنوا لغةً لم أعرف في البداية أنها ألمانية، اللغة التي أدرسها في الكلية، لو لم أسمع بكلمة "بلوت"، بسبب دم العادة الذي نزل فجأةً من تحت تنورة فريدة القصيرة والذي برق لونه تحت ضوء المصابيح القوي التي ثُبتت في أعلى البوابة. أمر مزعج لفريدة حقيقةً، أخجلها، إذا لا يكون مفاجئاً لنا نحن الاثنين، وهي المرأة التي رافقت الرجلين، التي أخرجت مناديل جيب، سلمتها لفريدة، "نَمِنْ زي داس"، قالت لها. لم ندرِ ما نقول، فريدة اكتفت بالابتسام، أما أنا فشعرت بالحرج، لأنه الاختبار الأول للغتي الألمانية، و لم أدرِ أنني مثلما عثرت فيهم على هدية هبطت من السماء، تسمح لنا على الأقل بدخول المبنى، كنت لهم أيضاً مثل هدية هبطت عليهم في الليلة تلك. إنها المرة الأولى التي يلتقون فيها بعراقي من غير الجهات الرسمية يتحدثون معه باللغة الألمانية، وهذا ما جعلهم يصرّون على أن نقبل دعوتهم لشرب القهوة، أو علبة بيرة، أو ما شئنا من الشراب، حتى دون أن يسألونا إذا كنا من سكان البناية أم لا؟

الشقة التي دخلنا إليها كانت متواضعة، لا يختلف تصميمها كثيراً عن شقة السعودي عبد الله باخشوين، صالون بسيط، صوفتان وكراسي خشب بسيطة، مطبخ صغير، وغرفتان للنوم، لا أتذكر أنها حوت على مكتبة أو بالكون. طبعاً لاحقاً عرفت أن كل الشقق التي سكنها اللاجئون لم تحوِ على بالكون. شقة عبد الله أيضاً. لكن في تلك الليلة، لم يكن ذلك هو الأمر الوحيد الذي لم يلفت نظري، أيضاً سؤالهم المفاجئ عمّا يفكر به الناس في العراق، خاصةً الشباب والطلاب، فيما



يحدث في ألمانيا في ذلك "الخريف الساخن"، لم يلفت نظري، مثلما لم يلفت نظري حماسهم للسؤال، نظراتهم التي امتلأت بالفضول، بدل ذلك، سألتهم ببراءة، ماذا يقصدون، قالوا: اختطاف الطائرة مثلاً؟ كانوا يقصدون اختطاف طائرة اللوفتهانزا في ١٣ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٧م، الذي لم يكن قد مرّ عليه أكثر من أسبوعين على ما أظن، وطلب المختطفون إطلاق سراح سجناء جناح الجيش الأحمر الألماني في سجن شتامهايم في شتوتغارت، أندرياس بادر، غودرون أنسلين، يان كارل راسبة، وإرمغراد مولر، الطائرة المشهورة التي تابعنا أخبار اختطافها، منذ هبوطها في مطار أبو ظبي وإقلاعها منه، حتى اقتحام قوة خاصة من حرس حماية الحدود الألمان لها في ١٨ تشرين الأول/ أكتوبر في مطار العاصمة الصومالية مقديشو، والذي أعقبه انتحار السجناء الأربعة في الليلة ذاتها ومقتل الرهينة مارتن شلاير، الذي اختطفه الإرهابيون قبل ذلك التاريخ في ٥ أيلول/ سبتمبر ١٩٧٧، في كولن. آه، تقصدون جماعة بادر ماينهوف؟ قلت لهم متسائلاً. "كلا"، أجابوني مصححين، إن لم يكن في نبرة صوتهم بعض الانزعاج، "نقصد جناح الجيش الأحمر والأحداث الثورية التي تحدث في ألمانيا الرأسمالية".

في حقيقة الأمر لم أعرف بماذا أجيب، ليس لأن الثورية كانت تنقصني في ذلك الوقت، وليس لأنني لم أكن غاضباً لسياسة التسلح التي سارت على نهجها ألمانيا الغربية، لكنني لم أمتلك المعلومات الكافية عن "الخريف الساخن" كما أُطلق رسمياً على ما حدث في ألمانيا في تلك الأيام. كانت الفكرة التي نملكها خاصةً نحن الشباب ضبابية، ذكرتنا على أكثر تقدير بفوضويي الروسي دوستويفسكي، أولئك النهليستيين الذين امتلكوا فكرة رومانسية عن الثورة، وعندما طبّقوها على الأرض، لم يهمهم أن تتلطخ أيديهم بالدماء، من غير المهم أنها دماء الأطفال أيضاً. اليوم أعرف أن القصة في ألمانيا حملت بعض التشابه، مثلما أعرف أنها ذهبت باتجاهات أخرى، لأن الشراكة في الجريمة، أو التمييز بين مَن هو الضحية ومَن هو الجلاد، إذا استعرنا كلمات المعلم العجوز في رواية أريش ماريا ريمارك، لا يعرف أحد أين يبدآن وأين ينتهيان؟ الإرهابيون الذين انتحروا مثلاً (فقط إرمغارد مولر نجت من الموت)، أو زملاؤهم الآخرون، جاؤوا أغلبهم من عوائل مسيحية بروتستانتية مؤمنة (باستثناء أندرياس بادر الذي انحدر من

عائلة كاثوليكية من ميونيخ)، بل البعض منهم كان أبوه قساً، أمر يمكن تحميله الكثير، كأن يقول إنهم ملّوا من خطابات الوعظ التي ألقاها عليهم ذووهم، أرادوا أن يروا الوجه الآخر للعملة، أن يبينوا فشل أهلهم في تربيتهم... إلخ. على الجانب الآخر، كان القتيل رئيس اتحاد الصناعيين الألمان، مارتن شلايير، الكاثوليكي "المؤمن"، المولود في ١ أيار/ مايو ١٩١٥ في مدينة أوفينبورغ بجنوب ألمانيا، المدينة التي لم تسمح لغير الكاثوليك بالسكن فيها حتى القرن التاسع عشر، كان معروفاً بأنه صاحب ماضٍ نازي غير عادي منذ نيله الشهادة الثانوية، حتى أنه لم يكتفِ بالانتماء إلى وحدات الإس إس المعروفة ببشاعة جرائمها، بل وصل حماسه النازي أن يستقيل من منظمة الشباب النازي عام ١٩٣٥، لأنها لم تكن معادية للسامية بما فيه الكفاية. ثوريون مقابل نازيين. بروتستانت وكاثوليك!

كل ذلك عرفته لاحقاً. لم أعرفه في ذلك الوقت، مثلما لم أعرف ما جرى خلف الكواليس، والدور الذي لعبه الفلسطينيون في عملية الاختطاف (والعمليات الإرهابية الأخرى)، وأن فلسطينيين مثل المسيحي أبو هاني (وديع حداد)، من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، جماعة المسيحي الكاثوليكي، لكن الماركسي القومي أيضاً، جورج حبش، ورفاق آخرون له، بسام أبو شريف مثلاً، كان لهم علاقة بالعملية، وأن كل المفاوضات التي دارت بين الحكومة الألمانية برئاسة الاشتراكي الديموقراطي هلموت شميدت، والحكومات التي لجأ المختطفون إلى مطاراتها، وبتنسيق مع الفلسطينيين المذكورين، تركزت على قيمة الرشوة التي ستقدمها الحكومة الألمانية للوسطاء الفلسطينيين وللحكومات تلك، مقابل مساعدة قوات الكوماندو الألمانية في اقتحام الطائرة وتحرير الرهائن وتسليم المختطفين؟ كلا، لم أعرف أن الجميع اشتركوا بالوليمة، جماعة حبش، حكومة جنوب اليمن، والرئيس الصومالي سياد بري، كل البلدان التي دارت عليها طائرة اللوفتهانزا، كلهم حصلوا على مبالغ ضخمة باسم مساعدات للبلدان النامية، كما علّق بسخرية وبدم بارد ذات يوم وفي ريبورتاج تلفزيوني هلموت شميدت. كل ذلك عرفته لاحقاً في ألمانيا، سواء قرأته في الصحف أو رأيته في ريبورتاجات تلفزيونية أو في مقابلات مع إرهابيين ألمان سابقين، والأدهى من كل ذلك، لم أعرف أن الأمر بقتل هانز مارتن شلايير،



الرومي الكاثوليكي، رئيس اتحاد الصناعيين الألمان، والنازي السابق، جاء عن طريق التلفاكس من بغداد بالذات؟ "لتزته لاندونغ است فيردوربن" (الحمولة الأخيرة فسدت)، كانت الرسالة الأخيرة التي جاءت من هناك!

لا أدري إذا كان الثلاثة الذين جلسنا معهم هم من أرسل الرسالة تلك أم أحد غيرهم، من أين لي أن أعرف وأنا حتى لم أسألهم، لا عن مدة إقامتهم في بغداد ولا عن متى سيغادرون؟ كنت فرحاً بلقائي بألمان غربيين، حتى ذلك اليوم لم أعرف غير الألمان الشرقيين، وعلى شكل أساتذة يدرّسون عندنا في كلية الآداب – قسم اللغات الأوروبية – فرع اللغة الألمانية، بعضهم سكن في العمارة المقابلة للعمارة التي جلسنا في إحدى شققها، ريتا مثلاً، زوجة الأستاذ العراقي نصر. نعم، كنت فرحاً بهم، حتى أنني لم أطلب منهم تبادل العناوين، كما فعلت عادةً كلما رأيت سواحاً أجانب في بغداد، أكثر ما همّني في الليلة تلك هو كيف سنقضي، فريدة وأنا، الوقت حتى بزوغ الفجر مع هؤلاء الذين هبطوا علينا فجأةً هديةً في منطقة تزدحم بالسفارات الأجنبية والأجهزة السرية المحلية وتلك القادمة من كل حدبٍ وصوب؟ كيف أغري الثوريين المزعومين الألمان الغربيين هؤلاء بالكلام؟ أية قصص حقيقية وأخرى مخترعة عليّ أن أرويها لكي أجعلهم ينسون الوقت؟ على الأقل من أجل فريدة.

إذن لماذا لا أبدأ معهم برواية قصة أرنست غريبير وإليزابيث؟ قلت لنفسي، القصة التي منذ قرأتها وهي لا تغادر ذاكرتي، حملتها معي في القلب أينما حللت، ولا يهم أن القصف الجوي لم يصل بغداد بعد، سيصلها بعد ١٣ عاماً وثلاثة شهور وثلاثة أيام من جلستنا تلك، لكن الخراب الذي يلحق بالمدن من الديكتاتورية والاستبداد هو أكبر من ذلك بكثير. في البداية سألتهم إذا كانوا قرأوا رواية أريش ماريا ريمارك هذه، **للحب وقت وللموت وقت**، وعندما جاءني جواب أحدهم، ذلك الذي لم يجلس إلى جانب الفتاة، بأنهم لا يقرأون أدباً بورجوازياً مثل أدب ريمارك، كيف يفعلون ذلك والرجل قضى حياته يسبح في شمبانيا هوليوود، رغم ذلك، لم يهمني الجواب ذلك، لم أستسلم، كأنني شهرزاد، إذ ما أن بدأت برواية القصة لهم حتى رأيت ملامح وجوههم تتغير، كأنهم هم الآخرون رأوا أنفسهم في جندي المشاة العاشق ذلك، أو كأنهم عرفوا كم أخطأوا بعدم قراءتهم لريمارك. لا أدري ماذا فكروا به بالضبط، خاصةً المرأة والرجل

الذي جلس إلى جانبها، واللذين رأيتهما يقتربان أكثر من بعض، بل رأيت كيف أن أيديهما بدأت بالتشابك، ولو كنت عرفت ما ارتكبه الشباب أولئك من جرائم باسم الثورة والمستقبل، لسألتهم السؤال ذاته الذي شغل أرنست غريبير أينما حل و لم يجد له جواباً: "من المسؤول؟ من المشارك في الجريمة؟"، أو لسألتهم: "لما اخترتم العاصمة هذه؟ ألا يكفي القتلة الجاثمين على صدر بغداد؟"، لكنني، ودون دراية مني في تلك الليلة، وجدتني أختار الجملة الأكثر مناسبةً للوضع الذي كانوا فيه، قلت لهم: ربما عليكم أن تقرأوا منذ الآن روايات أريش ماريا ريمارك، على الأقل لكي لا تفكروا بالموت. لكي تفكروا بالحياة!



٣٤

اختراع المدينة من جديد

لا أدري إذا كان آدم وحواء عرفا أنهما بعد أكلهما التفاحة (هل كانت تفاحة فعلاً؟) سيُطردان من الجنة؟ فيما يخصني أنا، ما كنت قد عرفت أو ظننت يوماً أنك حين تكون معارضاً لسلطة، وأن تحمل أفكاراً أخرى غير تلك التي تسود، فإن ذلك يستدعي طردك من جنة طفولتك؟ صحيح أنني فكرت في مرات عديدة بالسفر إلى خارج البلاد، لكن كل ما فكرت به هو أنني لا بدّ وأن أعود من جديد للمدينة الموعودة، بغداد. في ١٤ تموز/ يوليو ١٩٧٦، مثلاً، سافرت بالخطوط الجوية العراقية من بغداد مباشرةً إلى باريس، وفي جيبي ٢٠٠ دولار، هدفي كان دراسة الإخراج السينمائي في باريس. أعرف عبث الفكرة تلك الآن، لكن في ذلك الوقت، في الزمن الذهبي ذاك، بدت لي الفكرة واقعية، أكثر قوةً من بغداد وباريس معاً. الرغبة في الدراسة في الخارج ظلت ملازمة لي، لكنها كانت دائماً مشروطة بالعودة. مشروطة؟ من الأفضل القول، كانت أمراً مسلماً به، حتى أنني لم أفكر بها. بل حتى شرطة حرس الحدود في مطار أورلي لم يسألوني: ماذا عن بطاقة العودة؟ لماذا بطاقة "وان وي" فقط؟ بل لم يسألوني عن المبلغ الذي حملته معي. ختموا جواز السفر ببساطة وتمنّوا لي طيب الإقامة، كأنهم كانوا واثقين من عودتي ذات يوم. من يتخيل ذلك اليوم؟ إنه الزمن الوجودي بالفعل، وبكل معنى الكلمة، ليس فيما يتعلق بمعاملة خفر السواحل وشرطة الحدود، بل فيما يتعلق بي، بالجو العام. فأنا الآخر بدا لي الأمر طبيعياً، دراسة الإخراج السينمائي بمئتي دولار



وحسب في الجيب، ثم العودة بعد الانتهاء من الدراسة. كانت تلك الأيام التي قرأت فيها جان بول سارتر وسيمون دو بوفوار وألبير كامو، حتى أنني أخذت كتبهم الثقيلة الوزن معي إلى باريس، وعندما عدت بوساطة الطريق البري، مرة عن طريق القطار، في الأخرى بالسيارات، أعمل الأوتوستوب، كان عليّ أن أجرجر معي الحقيبة الثقيلة طوال الطريق.

فراقي لبغداد لم يستغرق أكثر من شهرين، المبلغ انتهى بسرعة، العراقيون المقيمون في باريس الذين حملت عناوين بعضهم، مثل الرسام الكردي الشيوعي كاويان، أو الذين التقيت بهم صدفة، مثل الرسام الشيوعي هو الآخر، لكن العربي القادم من البصرة، فيصل لعيبي، لم يشجعوني على البقاء. كان زمن الجبهة بين البعثيين والشيوعيين. الجبهة الوطنية والقومية التقدمية، كما أطلقوا عليها، وكان الشيوعيون، حتى أولئك الذين أقاموا منهم في الخارج، لا يشجّعون أحداً على ترك البلاد. لم أدرس الإخراج السينمائي. عدت بخفيّ حنين، كما يقول المثل عندنا، لكنني كنت سعيداً، لأنني رجعت إلى بغداد، إلى مقهاي البرلمان، ومعي ثروة جديدة، الحكايات التي سأرويها عن زيارتي لمقهى "كافيه فلور"، عن رؤيتي لجان بول سارتر وسيمون دوبوفوار، عن طاولتهما التي جلسا عندها في زاوية المقهى، كل يوم، وهما يكتبان، عن الغليون الذي لا يغادر فم سارتر، عن استقبالهما الأصدقاء والمشجعين، أكثر الحكايات التي رويتها، اخترعتها، أو كان عليّ اختراعها لزملائي في بغداد.

أعرف حاجة الفنان أو الكاتب لمغادرة البلاد، للرحيل، لمعرفة العالم، لكن الرحلة الفاشلة تلك لباريس لقنتني الدرس الأول، هو صعوبة فراقي لبغداد. حتى في فترات اشتداد الملاحقات والاعتقالات، لم أفكر بمغادرة البلاد، بالذهاب إلى المنفى، كما فعل أغلبية أبناء جيلي من الأدباء من غير البعثيين.

أتذكر الألم الذي اعتصرني وأنا أغادر سجن مديرية الاستخبارات العسكرية في بناية وزارة الدفاع في ساحة الميدان. رغم إطلاق سراحي، إلا أن من الصعب عليّ محو تجربة السجن تلك، ونسيان التعذيب الذي تعرضت له هناك. كيف أنسى اليوم الذي اقتادنا به، نحن الجنود السبعة، "العظماء السبعة" كما أطلقنا على أنفسنا، العريف دحّام إلى السجن، وهو بكامل أناقته وهندامه، لأنه نزل معنا إلى بغداد، في ذلك اليوم



الشتائي البارد من شهر شباط/ فبراير ١٩٨٠. لم أظن أن السجن الذي سيلقون بنا فيه، وهم يركلوننا بجزماتهم العسكرية ويضربوننا مثل غنيمة وقعت في أيديهم، هو بناية مكملة لجامع الأزبك الذي أمرّ به يومياً، قادماً من كلية الآداب أو من القسم الداخلي في العيواضية. لم أعرف حتى ذلك اليوم أن الجامع الصغير الملحق ببناية وزارة الدفاع، بالضبط بمواجهة بناية المكتبة الوطنية اليوم، هو مكان للتمويه، مثله مثل عشرات الأماكن في بغداد. تمرّ ببناية، ولا تعرف أية وظيفة تؤديها. وحسن الحظ، لمن لا يتعرض بسبب مروره بها للاعتقال. أو تمر ببناية، جامع مثلاً، ولا تعرف أنه يغطي على سجن، وأي سجن؟ سجن الاستخبارات العسكرية، وأن صيحات السجناء القابعين في أقبية التعذيب تلك تغطّيها كلمات "الله أكبر" التي يطلقها المؤذن على الدوام! لكن أية مدينة هذه؟ تدخل مكاناً، من غير المهم أنه جامع، أو أنه قاعة للمسرح، للرقص، للموسيقى، كما هي حال قاعة الشعب القريبة من الجامع، تجلس فيها تسمع الفرقة الوطنية السمفونية تعزف، أو تشاهد الفرقة القومية للرقص الشعبي ترقص، ولا تعرف أن خلف الجدار، الذي يفصل المسرح عن بناية وزارة الدفاع، أحد أقبية التعذيب تلك؟ بين نداء المؤذن الله أكبر وبين دبكات ورقصات وأغاني الفرقة القومية الشعبية التي كانت تتدرب من حين إلى آخر، قضيت فترة التعذيب التي مرّت بي؟ بالفعل أية مدينة هذه، التي تصر على البقاء فيها رغم أنها، مثلها مثل البلاد كلها، تحولت على أيدي البعثيين إلى سجن كبير؟ أية مدينة هذه تصر على البقاء فيها، رغم أن جمالها تحول إلى ألم؟ لكن ماذا يفعل العاشق غير الإصرار على عشقه؟ ماذا سيكون بدون عشقه المحموم؟

أعرف أنه نوع من المازوخية، لكن الإصرار على البقاء في بغداد كان بديهية انزرعت في داخلي منذ عودتي من باريس. لست قادراً على فراق بغداد، وإنني عدت إليها مثل من يحاول قطع علاقة حب طويلة، لكنه ما أن يذهب حتى يكتشف قوة حبه، وعندما يرجع، يرجع بمشاعر أقوى من مشاعره قبل الفراق. تلك هي حالتي، لم يُبعدني عنها أو جعلني أكرهها شيء: لا الاستجوابات التي تعرضت لها في قسم اللغة الألمانية على يد المنظمة الحزبية، على يد الرئيس الجديد لقسم اللغة الألمانية الجديد، ورئيس منظمة الحزب في كلية الآداب، المدعو الدكتور عماد، ولا استدعاء المرأة التي ستكون زوجتي لدائرة الأمن، ولا المضايقات التي تعرضت لها أثناء خدمتي العسكرية الإجبارية على

مدى سنتين في كل الوحدات التي تنقلت فيها، بسبب جملة ما قلتها أو بسبب كتابتي قصصاً "جنسية" للجنود، قصصي الأولى التي قبضت عليها مكافآت، أو بسبب حمل كتب حتى وإن كان مؤلفها طه حسين: في معسكر التاجي، القاعدة البحرية في البصرة، معسكر المحاويل، معسكر سنجار، ولا المضايقات الأخرى في المدينة، كما حدث عند التجول مع صديقة درست علم الاجتماع في جامعة بغداد، أميرة، عندما اقترب منا رجال الأمن، ونحن نأكل في مطعم صغير في الباب الشرقي بعد مغادرتنا سينما غرناطة، ليقولوا لي إن عليّ الحذر منها، لأن التي معي عاهرة ناموا معها أمس، وسرقت محفظات فلوسهم. إذا لا أتحدث عن الحزن الذي لفّني، بعد تلف ثلاث قصص قصيرة لي من قبل أديب بعثي، رأس في حينها تحرير مجلة **الطليعة** الأدبية، فرغم أنه هو الذي جاء بحثاً عني في صالة اتحاد الأدباء في بغداد، يعرض عليّ عمل ملف عني في مجلة **الطليعة** الأدبية التي انطلقت للتو، راح يساومني بعدها على نشر القصص الثلاث التي أعطيتها له مع شهادة كتبتها للملف، شريطة الانتماء لحزب البعث، أو عليّ نسيان أمر الملف. الملف نسيته، لكنني لم أنسَ إتلافه القصص الثلاث تلك. للأسف لم أكن أملك نسخاً منها!

كل تلك المضايقات، بل حتى التعذيب في سجن الاستخبارات، لم يحملني على ترك المدينة، مدينتي بغداد. كنت مصراً على البقاء فيها، وكان ذلك وحده يكفي. العيش فيها، كأن الإصرار ذلك هو أحد أنواع إستيتيك المقاومة الذي تحدث عنه بيتر فايس. كنت فرحاً بقراري، على الأقل حتى ٢٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٠، يوم اندلعت الحرب ضد إيران. في ذلك اليوم الذي فاجأنا جميعاً، عندما حلقت في سماء بغداد ستون طائرة فانتوم إيرانية، عرفت، لا بدّ لي من مغادرة المدينة هذه المرة، لأنني سأغادر البلاد، كنت أعرف أن الحرب هذه ستطول وتطول، وأن مواليدي لا بدّ وأن تُستدعى إلى خدمة الاحتياط، رغم أنني تسرّحت من الخدمة العسكرية في ٦ آب/ أغسطس ١٩٨٠، قبل الحرب بخمسة أسابيع ونصف، عرفت أن الحرب هذه لا تشبه الحرب الأخرى التي دارت دائماً في شمال العراق ضد الأكراد، الحرب هذه ستكون أكثر دموية، وستطول وتطول، وسيموت فيها الآلاف (إذا ليس الملايين!) من البشر، وأنني حتى إذا بقيت ليس أمامي غير الموت، جندياً على الجبهة، أو هارباً من الخدمة (وهذا يعني تعرض بعض



أفراد عائلتي أو تعرضي عند القبض عليّ للإعدام)، ولأن الحرب هذه ليست حربي، بل ولأن الحرب، أية حرب، أمر لا يخصني على الإطلاق، فإن عليّ الهروب من المشهد، بأقل خسارات ممكنة. عليّ مغادرة البلاد. أسبوعان، وحتى استدعاء مواليدي لخدمة الاحتياط، بقيت حائراً، لا قرار لي، هل أغادر أم أقيم؟

طبعاً لم أذهب للالتحاق بالجيش بعد دعوتي لخدمة الاحتياط، كنت أعرف أن وحدتي العسكرية، كتيبة الإستمكان، البطارية الرابعة، رعيل الرادار، انتقلت في أول أيام الحرب من مكانها الأصلي، من معسكر المحاويل القريب من آثار بابل، وعلى بعد ٦٠ كيلومتراً جنوب بغداد، إلى الجبهة الجنوبية، فعندما ذهبت إلى العمارة لمراجعة دائرة التجنيد الخاصة بي على الأقل، رأيت جنود رعيل المقر الذين عرفتهم شخصياً في معسكر المحاويل يمرون وقت الغروب من أمام باب بيتنا القديم في محلة المحمودية. كانوا يجلسون في سيارة الأرزاق قادمين من سوق النجارين، في طريقهم إلى الجبهة يجرون خزان المياه أيضاً، فرحوا عندما شاهدوني، غامرت بدعوتهم للبيت، شوت لهم أمي في تنورنا الطيني سمكتين كبيرتين "گطانين"، ثم جلبت لهم أنا ثلاث زجاجات من عرق الزحلاوي، وزجاجة أخرى يدفعونها رشوة لنائب ضابط البطارية، القصير القامة "المأبون" حميد جادر (كما نعتوه وهم يضحكون)، كي لا يعاقبهم على غيابهم. ناموا ساعات قليلة في ساحة بيتنا، الذي كان آنذاك في أولى مراحل البناء، ثم رحلوا في الفجر من دون وداع، تركوني نائماً و لم يتمنوا لي الالتحاق بوحدتي السابقة، لا أعرف إذا ظلوا على قيد الحياة أم ماتوا جميعاً، لأنهم غادروا إلى الجبهة على خطوط التماس مع إيران في قاطع العمارة، ذهبوا للموت بطواعية، وأنا غادرت المدينة سراً، بعد أيام قليلة من ذهاب زملائي الجنود، من دون وداع أهلي.

جئت إلى بغداد، وعندما وقفت أمام الباص الذي سأغادر به المدينة التي لم أظن أنني سأغادرها يوماً، كنت أحمل معي: وثائق شخصية مزورة، زوّرت تلك الديباجة التي تتحدث عن تأجيل خدمتي (ليس سَوقي كما يُكتب عادةً في دفاتر الخدمة العسكرية!) نقلتها عن دفتر خدمة عسكرية أحد الجنود المؤجلين، شاعر شعبي شاب عرفته من أيام إقامتي في بغداد عاش في مدينة الثورة مع أهله، لكنه وُلد في المدينة، أغريته بالحديث معه أثناء خروجه من دائرة التجنيد في محلة السراي، وكأن كلاً



منا يعرف الآخر منذ زمن طويل، دعوته إلى الجلوس في مقهى شنون القريبة في شارع المعارف سابقاً وشارع التربية حتى ذلك اليوم. ورحت أروي له ببساطة بعض القصص، المخترعة منها أو الحقيقية، قصص يدور بعضها عن شارع المعارف بالذات وعن المدينة، عن تغير الأحوال والناس، كل تلك القصص التي واظبت على اختراعها في ساعات الوحدة، خاصةً في فترة خدمتي العسكرية التي استغرقت سنتين وتسعة أيام، كل تلك القصص التي كنت أعرف أنه يتوق لسماعها لأنه لا يحمل من مدينة العمارة، مدينة ولادته المفترضة، التي دُمغ باسمها غير دمغة "مكان الولادة" في وثائقه جميعها، كان الشاب مخدّراً بالحكايات لدرجة أنه غادر المقهى ونسي دفتر خدمته العسكرية. تلك كانت خطتي منذ جلوسنا: أن أُنسيه دفتر الخدمة، عندما طلبت منه رؤية الدفتر، قلت له أريد مقارنته بدفتر خدمتي؛ ليس ذلك وحسب، بل إن أحد أصدقاء طفولتي، والذي أصبح شرطياً في دائرة الجوازات، مجيد، غامر بحياته من أجلي، ألغى منع السفر الصادر بحقي منذ عام ١٩٧٧، وساعدني بالحصول على تأشيرة سفر إلى خارج البلاد.

كل حركة مني، كل كلمة مني، كانت تشير للخواء الذي شعرت به يحيط بي طوال تلك الأيام. كنت خائر القوى، مثل من يقدم على مغامرة يعرف أن إحدى نتائجها ستكون الموت. حتى أمي، التي حدست سفري، لأنني وقبل أن أغادر باب البيت رأيت دمعةً تطفر من عينيها، لم أرَ دمعةً مثلها تقفز بالقوة هذه من قبل، لم أستطع وداعها بشكل لائق. كل شيء يشير للخواء، فها أنا مقبل أخيراً على مغادرة المدينة التي أحب، أغادر المدينة، الأرض الموعودة لي منذ الطفولة، المدينة التي لم أظن أنني سأغادرها يوماً بعد مغامرة رحلتي الباريسية، نعم، كأنني حتى اللحظة الأخيرة لم أصدق مغادرتها، لا حقيبة معي، مثلما يفعل بقية المسافرين، فقط كيس نايلون صغير يُستخدم عادةً للتسوق، وضعت فيه كل ما بقي عندي بعد أربعة وعشرين عاماً من العيش في بلاد الخواء هذه، البلاد التي يُفترض أنها بلادي، ثلاثة كتب، كل غنيمتي من هذه السنوات، سنوات القراءة، ومن سنوات العيش في بغداد: **قوت الأرض** لأندريه جيد، **رامبو وزمن القتلة** لهنري ميلر، **مائة عام من العزلة** لغارسيا ماركيز.

أية مصادفة إذن؟ دخولي الأول إلى بغداد وأنا طفل كان من شارع الرشيد، فلماذا



لا يكون خروجي منها من المكان نفسه؟ أليس شارع الرشيد هو بغداد؟

في ليل ٢٨ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٠، عندما وطئت قدمي الباص الذي سيقلّني من منطقة الصالحية في جهة الكرخ، تذكرت أنني، وأنا طفل، جئت أيضاً لبغداد من جهة الكرخ، قادماً من الكاظمية في تلك المرة، لكن أيضاً عابراً جسرَ الأحرار. وفي المرة هذه؟ ألم أسر على نفس الطريق الذي سرت عليه من قبل؟ ألم أفعل ذلك، كأنني مثل من يختم دورة حياة كاملة كان لا بدّ لها وأن تنتهي بهذا الشكل؟ في رحلتي الأولى، جئت من الباب الشرقي، مررت بالمكان الذي كانت فيه أسطوانات جقمجي، مررت بالمكان الذي كانت فيه محلات حسو أخوان، مررت بالمكان الذي كانت فيه مكتبة مكنزي، واليوم؟ في جولتي الأخيرة قبل صعودي إلى الباص؟ ألم يحضر أمامي كل ما رأيته وأنا طفل؟ نعم، كل شيء حضر أمامي فجأةً، أو بالتدريج، كل ما كان عليه شارع الرشيد، وعندما وصلت منطقة حافظ القاضي، قادماً من الباب الشرقي، سرت إلى اليسار، بار شريف وحداد إلى يميني، وإلى يساري المكان الذي كان استوديو المصور أرشاك،

الصورة الأخيرة لي في بغداد، مساء 28 أكتوبر 1980، عندما ودعني الأصدقاء،
على يساري الكاتب أحمد خلف ثم المرحوم سامي محمد والذي يجلس قبالتي عادل عبد الله.

حيث إلى جواره انتصبت سينما سنترال، أكثر سينمات بغداد أبّهةً وفخامةً وجمالاً. هذه المرة كان بار إيوان، وإلى جانبه بار جبهة النهر، وعندما سرت على الجسر توقفت لبرهة، نظرت إلى عمق النهر، فتذكرت البطاقة البريدية (المعايدة) التي ظهر فيها الجنود الإنكليز مصطفّين، فعرفت للمرة الأولى أن المكان الذي وقفوا عنده، وبدا لي مجهولاً في حينه، امتد أمامي بالضبط، بالضبط هناك عند الشرفة/التيراس التي تعود لبار جبهة النهر والذي امتد حتى نهر دجلة، وعندما أصبحت عند نهاية الجسر تطلعت إلى يساري فرأيت الملهى الذي غنّت فيه ذات يوم أم كلثوم، أحد الملاهي الذي يعود ملكيته للمطربة العراقية والعمارتلية الأصل لميعة توفيق، فتذكرت مقابلة معها، وكيف أنها صرحت كم أحبت في طفولتها السينمات. أنا أيضاً أحببت مثل لميعة توفيق السينمات، كل شيء يبدو أمامي مثل شريط فيلم، بغداد الطفولة التي ما عادت هناك، كأنني عرفت أنني ما أن أطأ بقدميّ الباص الذي سيقلّني باتجاه الحدود الشمالية من البلاد، حيث مدينة زاخو، وبعدها إلى المدينة التركية اسطنبول، بأنني ما أن أغادر حدود المدينة، مدينتي بغداد، سأغمض عيني، ليس لأنني نعس، أو تعبان، بل لأنني أريد أن أبقى محتفظاً بالصورة تلك، صورة بغداد الطفولة التي لن يصادرها مني خفر سواحل أو حرس حدود، وأنني أينما حللت أو طفت سأحملها معي بين ذراعي، وفي القلب والعين، مثل حاج يطوف على الأرض، ستظل القبلة التي أتجه إليها إلى الأبد، البوصلة التي عليها أسير، لا يهم ما يمر من زمن، لا يهم أين سأعيش، بل لا يهم أنني سأشيخ، الصورة تلك ستظل معي، لا خوف عليها من نسيان أو ضياع، ثم كيف ستضيع مني وأنا تدربت منذ الطفولة على اختراعها كل مرة من جديد؟ إذن، سأواظب على اختراعي لها، سأنذر حياتي كلها... حتى القبر، لاختراعها هي... لـ... اختراع بغداد!

١٦ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٢ – ٤ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٣

شكر وتقدير

شكر خاص للصديقة آلن ميسين نائبة رئيس البرنامج الأدبي لدار نورتون الأميركية، لولا إلحاحها عليّ بكتابة كتاب عن بغداد لما جلست فعلاً وبدأت بالعمل على **بغداد/ سيرة مدينة**.

شكر خاص أيضاً لكل أولئك الأشخاص الذين لولا القصص التي رووها لما تحقق هذا الكتاب بالشكل الذي أردت لها الظهور فيه: الحاج رؤوف، البغدادي الأصلي ومواطن منطقة الحيدرخانة، لرواياته الشيقة في مقهى البرلمان، التي ما زلت أحتفظ بها؛ عباس بغدادي، مؤرخ بغداد الأول وما كتبه عن بغداد في العشرينيات؛ حنا بطاطو الذي لم يكتب أحد غير عراقي مثله بحب مثلما كتب هو عن بغداد.

فهرس الأعلام


مكتبة
الفكر الجديد

ز

س

ش

ص

ط

ع




مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد

فهرس الأماكن



مكتبة
الفكر الجديد

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

ه

و

ي

يُري كتاب "بغداد - سيرة مدينة" بغداد، من جانب، كمكانٍ للفنطازيا ولقصصٍ مدهشة وإسقاطاتٍ رومانسية، ويبيّن، من جانبٍ آخر، ما هو مدهش وغير قابل للمنال فيها، كما لو أنها اختراعٌ دائم عابرٌ للأزمنة والأحداث كلها، صورةٌ يرسمها من يراها.

يزخر الكتاب بحقائق تاريخية وصور ووثائق معاصرة. كما يستنطق نصوص أدباء غربيين زاروا بغداد وتركوا وراءهم انطباعاتهم. ويرسم صورة غنية الملامح لبغداد منذ تأسيسها في العام ٧٦٢، مروراً بحكم الخليفة الأسطوري هارون الرشيد، حتى خرابها على أيدي المغول. كما يروي قصصاً عديدة عن بغداد الحاضر من ذاكرة نجم والي، عن حبه الأول، عن دخوله الحياة الأدبية، مروراً بسجنه في أقبية مديرية الاستخبارات العسكرية، وحتى هروبه إلى المنفى بعد أسابيع قليلة من اندلاع الحرب العراقية الإيرانية.

الكتاب وثيقة مهمة توضع فيها النظرة الغربية لصورة بغداد بمواجهة النظرة الشرقية، لكي لا نقول إنه درس في علم النظرة يلائم بين الطوبوغرافية والذاكرة الذاتية.

نجم والي قاص وروائي وصحافي عراقي مقيم في ألمانيا. حازت روايته "بغداد مالبورو" جائزة برونو كرايسكي العالمية للكتاب لعام ٢٠١٤. صدرت له عن دار الساقي رواية "تلّ اللحم".





ISBN 978-6-14425-808-8